

حياة بطرس الأكبر

بوغانوف



بوغانوف

حياة بظرس الأكبر

ترجمة خيرى الضامن



دار التقدم

موسكو

В. И. Буганов
ПЕТР ВЕЛИКИЙ - ЛИЧНОСТЬ И ЭПОХА
На арабском языке

© الترجمة الى اللغة العربية — دار التقدم ، ١٩٩٠
طبع في الاتحاد السوفيتى

Б 0503020200-108 186-90
014(01)-90

ISBN 5-01-002150-1

نوطة

جرت العادة فى العلوم التاريخية والاجتماعية الروسية قبل ثورة أكتوبر ١٩١٧ ، ولفترة معينة بعدها ، وفى العلوم الاجنبية حتى الآن احيانا على تقسيم تاريخ روسيا الى مرحلتين : ما قبل بطرس الاكبر وما بعده . وسبب هذا التقسيم هو مدى اعجاب الناس بشخصية امبراطور روسيا الاول ومصلحتها العظيم ومدى تقديرهم لاهمية ما انجزه فى تاريخ روسيا وللمكانة التى شغلها فيه .

وحتى عندما كان بطرس الاكبر على قيد الحياة نشأ بخصوصه ما يشبه عبادة الفرد وصار الكثيرون ينظرون اليه نظرتهم الى اله دنيوى . وظل هذا الاتجاه سائدا بعد وفاته . كان أ. نارتوف الخراط الشهير آنذاك يحافظ مدى الحياة على الذكرى العطرة لهذا الرجل العظيم :

— مع ان بطرس العظيم لم يعد بين ظهرانينا ، الا ان روحه تعيش فى ارواحنا ، وسنظل نحن الذين حالفنا الحظ فى التواجد فى حاشية هذا القصر مخلصين له الدين مدى الحياة ، وسنموت ونحن على حبنا الجرم لهذا الاله الدنيوى . وكان العالم الروسى العظيم لومونوسوف يعتبر بطرس الاكبر انسانا «شبيها بالاله» . وتساءل الشاعر درجايفين :

— أَلَمْ ينزل الاله فى شخصه من علياء السموات ؟
ما أكثر الشعراء والكتاب والرسمون والنحاتون فى القرن
الثامن عشر وبعده ممن مجدوا بطرس الاكبر وكتبوا عنه وصوروا
هذا الحاكم-الشغل العظيم ، ولكن الناس بالطبع لم يكونوا
مجمعين فى رأيهم هذا بخصوصه حتى فى ذلك القرن الذى
عاش بطرس الاكبر وتوفى فيه . فقد ظهرت اصوات نشاز
فى جوقة الثناء والمديح . ومنذ ان كان على قيد الحياة لم
يكن الجميع يوافقونه على ما فعل وعلى الاساليب التى ادخل
بها مستحدثاته الشهيرة . وفيما بعد ، فى النصف الثانى من
القرن الثامن عشر اعترف البعض ، من امثال المؤرخ الامير
شيرباتوف ، بنجاحات بطرس الاكبر فى نشاطه التجديدى
ولكنهم اخذوا ينوحدون ويندبون على الاعراف والعادات القديمة
المتأصلة فى روسيا والتى عفا عليها الزمن فى عهده بسبب
نشاطه وتأثيره الكبير ، وعلى تدهور وانحسار البيوتات الارستقراطية
وتدنى الاخلاق . وكان البعض الآخر ، من امثال راديشيف ،
يعترفون بمكانة بطرس الاكبر المصلح ، لكنهم يلومونه لانه
اجتث «آخر خصائص الفطرة الطليقة الحرة لوطنه» .
واستمرت هذه المجادلات فى القرن التاسع عشر ولا تزال
مستمرة حتى الان . لقد فكر فى بطرس وتحدث عنه كثير
من مشاهير العالم . وصف فولتير فترة حكمه وقال ، فيما
قال ، ان ملك السويد كارل الثانى عشر الذى حارب ضد
بطرس الاكبر وابدى فى البداية زهوا وتعاليا عليه لا يصلح
الا كجندى من جنوده . وقال الشاعر الروس العظيم بوشكين :
«روسيا الغضة . . . تصلب عودها بعقرية بطرس» . وتغنى
بوشكين بالقيصر النجار الذى دخلت روسيا فى عهده «ابواب

اوربا كسفينة انزلت الى الماء وسط طرق القؤوس وهدير المدافع . ويشير الشاعر فى الوقت ذاته الى ان بطرس الاكبر «ألجم روسيا بلجام حديدى» . فالكثير من مراسيمه مكتوبة بالسوط ، ولم يتجرأ احد ان يعترض عليه وارتعده الجميع هلعاً امامه .

وقد وردت عن بطرس الاكبر اقوال وآراء متناقضة للغاية فى كتب التاريخ والمؤلفات التى تتناول بالدراسة روسيا فى عهده والمؤلفات المكرسة له نفسه ، وقد تجمع منها حتى الان مكتبة كاملة . وقال مؤرخ البلاط الكاتب المعروف كارامزين بأسف :

— لقد صرنا مواطنين للعالم ، لكننا لم نعد فى بعض الحالات مواطنين لروسيا ، والذنب فى ذلك ذنب بطرس . قيلت هذه الكلمات فى عصر بوشكين . وبعد نصف قرن او يزيد نعت المؤرخ الروسى المعروف سولوفييف بطرس الاكبر بالثورى الجالس على العرش : فهو الذى قاد الشعب الضعيف الفقير المجهول تقريباً الى مسرح التاريخ «من خلال الحضارة» وبذلك جمع بين نصفى اوربا الشرقى والغربى بعد ان كانا ممزقين .

تلك امثلة على وجهات النظر المتعارضة عن بطرس الاكبر عند معاصريه واشياعه . وكان الجدل حول شخصية بطرس المعقدة والمتناقضة للغاية ، والبطولية والمأساوية فى الوقت ذاته ، وحول اعماله التى اثارت اعجاب البعض وسخط البعض الاخر قد بدأ آنذاك ، فى عهده ، فى خضم نشاطه العاصف وحياته الفوارة .

ومع ذلك فان تاريخ روسيا اطلق على بطرس الاكبر

بالذات نعت المصلح بكل ما فى هذه الكلمة من معنى .
فقد واصل اعمال جده واييه واخيه وارثي بها الى مستوى
النجاحات المدهشة التى لم يكن سابقوه يحملون بها .
فى اواخر القرن الثامن عشر ارتفع فى بطرسبورغ ولا يزال
قائما فى لينينغراد حتى الان تمثال رائع لامبراطور روسيا الاول
من نحت أ . فالكونى . وعلى القاعدة كتابة تقول : «الى
بطرس الاكبر من يكاتيرينا الثانية» . كانت الامبراطورة التى
حققت روسيا فى عهدها ايضا نجاحات مرموقة فى جميع
ميادين الحياة امرأة مغرورة سليطة تعتقد بانها تواصل اعمال
بطرس الجليلة . واذا تركنا جانبا الامور الشخصية والحسابات
النفعية ، فليست هى موضوع الكلام الآن ، يمكننا ان نقول
بان صورة المصلح العظيم الذى يتحدى اعداء روسيا من
على ظهر حصانه انما تجسد بافضل شكل جوهر شخصيته
وروح عصره .

الطفولة والفتوة

لم يكن اوائل القياصرة من سلالة رومانوف ، شأن الروس عموما فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، من المعمرين . فان مؤسس هذه السلالة ميخائيل فيودوروفيتش عاش خمسين عاما ونيفا ، وعاش ابنه الكسى عمرا فى حدود عمر ابيه . وكان ذلك ايضا من نصيب احد احفاد القيصر ميخائيل ، ونعنى امبراطور روسيا الاول بطرس الاكبر . فقد منحته الاقدار اقل من خمسة عقود ونصف .

كانت عائلة القيصر الكسى ميخائيلوفيتش ، والد بطرس الاكبر ، كبيرة ، فقد رزق باطفال كثيرين ولدوا الواحد بعد الاخر . وفى الستينات بلغ عددهم ثلاثة عشر . ورغم هذا النسل الكبير لم يكن القيصر الاب موقفا جدا من هذه الناحية . بعض الاولاد انتقلوا الى جوار ربهم فى سن مبكرة ، واغلبية الباقين اناث . مات بعض الذكور رضعا ونما البعض الاخر ضعافا الامل فيهم قليل . وكان القيصر «الهادىء» ، كما نعتوه آنذاك ، حزينا كثيرا ، فعهد ابناؤه الى اطباء حكماء يسهرون عليهم . لكن ذلك لم يعد عليهم بنفع يذكر . ولم يبق الا الابتهاال الى البارى وانتظار المعجزة . وبعد وفاة القيصرة ماريا ميلوسلافسكايا تزوج الكسى

ميخائيلوفيتش للمرة الثانية . ووقع اختياره هذه المرة على ناتاليا كريمة كيريل ناريشكين وهو رجل من عامة نبلاء سمولينسك الذين لا يعتبرون من الوجهاء . وفي ٣٠ ايار (مايو) ١٦٧٢ ولدت القيصرة الشابة الموفورة الصحة ابنها بطرس ، وكانت آنذاك فى الحادية والعشرين ، بينما كان القيصر الكسى يكبرها بمثل عمرها .

وبمناسبة «الفرحة العمومية» ، كما كانوا يقولون آنذاك ، جرى احتفال مهيب بميلاد الطفل الرابع عشر للقيصر الاب . فطوال نهار الثلاثين من ايار دقت مئات النواقيس فى جميع كنائس واديرة موسكو واقبمت الصلوات فيها . وفى كاتدرائية اوسيينسكى (العذراء) اقام الصلاة الاب بيتيريم مطران نوفغورود ومطرانان آخران وثلاثة من رؤساء الاساقفة . وبعد الصلاة تقدم بالتهانى الى القيصر رجال الدين والحاشية من البويار* وكبار الموظفين . وزار القيصر مع حاشيته جميع كنائس الكرملين لاداء الصلاة . وعاد الموكب الى القصر ، وهنا ، فى صالة الطعام ، منح والد القيصرة الشابة رتبة احد كبار الاعيان . وحاز على نفس هذه الرتبة ارتامون ماتفييف ، الرجل المحنك الهمام الذى كان فى الماضى غير البعيد آمرا لاحد افواج القوات الخاصة (ستريلتسى) . وكانت القيصرة الجديدة قد تربت فى منزله . وقد جرت العادة من قديم الزمان على ان يرتقى اقرباء القيصرة والمقربون اليها سلم البلاط بسرعة ، ولذا دخل محاسب القيصر الجدد ، من جهة عقيلته ، مجلس دوما البويار ، اعلى هيئة استشارية فى البلاط ،

* الاعيان والوجهاء من كبار الارستقراطيين .

وانضموا الى صفوف ارسنقراطية العاصمة .
وفي نفس اليوم قدم القيصر في صالة الضيافة خمرة
الفودكا وانواع النبيذ الغربى مع التفاح والاجاص والكمثرى
المنقعة بالدبس . وفي دهليز المدخل قدم مدير الاسلحة
بوغدان خيتروفو الشراب لآمرى القوات النظامية الخاصة وقادة
العسكر . وبسبب قرب موعد الصوم تأجلت الوليمة الفخمة
واكتفوا بغداء متواضع فى الصالة المذهبة العائدة لعقيلة القيصر .
ومن جديد قدموا الفودكا والفطائر والتفاح والتين المنقع بالدبس
ونقيع الفواكه فى اباريق خزفية .

وفي الاول من حزيران (يونيو) ، وهو اليوم الثالث بعد
ميلاد بطرس ، كلف سيمون اوشاكوف افضل رسامى الايقونات
فى موسكو باعداد ايقونة الثالث وبطرس الرسول على لوح
من السرو بحجم ولید القيصر الذى شرع الرسام الشهير بالعمل
فى اعداد الايقونة تكريما له (وبسبب مرض اوشاكوف انجز
الايقونة رسام آخر من الحاشية هو فيودور كوزلوف) .

وبعد شهر ، فى ٢٩ حزيران جرى تعيد بطرس فى
كنيسة القديس الكسى فى دير تشودوف (المعجزة) . وفى
اليوم التالى اعدت فى صالة «غرانوفيتايا» (المضلعة) «مائدة
الوليد» وهى مأدبة احتفالية فخمة تضمنت كل ما لذ وطاب
من مأكولات وشراب . ومن ذلك اطباق الحلوى ، حيث
وضعت على المائدة فطيرة سكرية يهيئة شعار الدولة الروسية ،
وطيور مصبوبة من السكر هى نسران ابيض واحمر وبجعة
ووزة وبيغاء وحمامة ، ومنحوتة تمثل الكريملين بابرجه ومدافعه
والناس فيه وما الى ذلك ، بالاضافة الى عجائب وغرائب
اخرى . وكالعادة تقدم المدعوون من كبار رجال الدين والوجهاء ،

وبينهم امير جورجيا وامراء قاسموف وسيبيريا ، والتجار الاثرياء وقادة العساكر وممثلو الحرفيين والباعة بالهدايا الى الوليد كالكراسى البلورية والخواتم الذهبية والاقداح والصلبان .

وبعد ايام ، فى ٤ تموز (يوليو) اعدت فى نفس الصالة المضلعة «مائدة التعميد» . واقامت القيصرة مثل هاتين الوليمتين فى نفس هذين اليومين فى صالة الطعام المذهبة العائدة لها . وجرى الاحتفال بميلاد بطرس بفخامة وفخخة ومرح بالغ ، كما هى العادة فى مثل هذه الاحوال . واحاطت بالوليد «حاشية» كاملة تسهر عليه وترعاه وتتكون من كبيرة المريات الاميرة اوليانا غوليتسينا من البويار ، والمرضعة نينيل يروفيفا ، ومشرفة على البياضات والثياب ، وخمس نساء لترتيب المهد . وخصصت له غرفتان متميزتان ، جدران احداها ملبسة بجلد ونقوش فضية مجسمة ، وجدران الاخرى مكسوة بجوخ احمر صنع فى هامبورغ . واعد صناع مهرة مهد الوليد وثيابه ، واعدوا له فيما بعد ، حسب تدرجه فى العمر ، مختلف الالعاب كالكراسى والخيول الخشبية ، وبعد ذلك طبول الاطفال والآلات الموسيقية كالكلافيكورد (البيانو البدائى) والسمبال وعربة . وجاء دور «كتب التسلية» المزينة بالرسوم . الا ان الصبى ، كما اشار المحيطون به ، يحب اكثر ما يحب الالعاب ذات الصفة العسكرية — القوس والنشاب ، والسيوف والبنادق والطبول و«الناقوس المسلى» . كان الصبى الحرك النابه يلعب «لعبة الحرب» ، فعنده فوج كامل من الصبيان ، وهم اترابه من ابناء الوجهاء . وقد عودوهم جميعا على الانضباط وعلموهم ودربوهم . واهتم القيصر الاب شخصيا بذلك ، فعين لهذا الغرض احد الاجانب الذين كانوا فى خدمة البلاط ،

وهو الاسكتلندى بافل مينيزيوس ، ذلك الرجل المحنك الشاطر الذى زار فى شبابه عدة بلدان اوروبية ، ويجيد عدة لغات مختلفة ، ويتحلى بروح المغامرة . كان يخدم فى بولونيا فأُسره الروس . كان من محسوبي القيصر الكسى الذى كلفه بعدة مهمات دبلوماسية خطيرة ، حيث ارسله ، مثلاً ، فى مهمة الى بابا روما . استقر مينيزيوس فى روسيا وتزوج من ارملة اجنبى آخر هو مارسيليز صاحب مصانع التعدين فى تولا وكاشيرا . وعين مينيزيوس فى منصبه الجديد هذا بعد عودته من روما . مرت سنى الطفولة الاولى فى دعة ومرح واطمئنان . لكن الغيوم الاولى سرعان ما ظهرت الى الوجود . ففي العام الرابع من الطفولة فقد بطرس اياه الذى قضى نحبه فى ٢٩ كانون الثانى (يناير) ١٦٧٦ . واعتلى العرش فيودور الكسييفيتش قبل ان يبلغ الرابعة عشرة من العمر . وهو فتى عليل لا يكاد يقوى على تحريك قدميه . كان كما قالوا فى قديم الزمان ، «يجرجر رجله» ، وأكد الحكماء من عجائز البلاط والاطباء الاجانب انه مصاب بالاسقربوط .

كان القيصر فيودور واخوه ايفان الذى لم يتجاوز العاشرة من العمر من ابناء القيصر الراحل الكسى من زوجته الاولى ميلوسلافسكايا ، ولذا استلم السلطة اقرباؤها مع اشياهم الذين كانوا يشكلون فى البلاط ما يشبه «الكتلة» او «العصبة» . وانسحب آل ناريشكين وحلفاؤهم الى الظل . ونفى ارتامون ماتفييف مرسى عقيلة القيصر ومستشارها والوزير الاول فى الحكومة فى السنوات الاخيرة من حياة القيصر الكسى ، اما الباقون فقد نحووا من مناصبهم .

الا ان بطرس الصغير ظل يلعب نفس الالعاب فى

الكريمين دون ان يدرك طبعاً لماذا تذرف امه الدموع ولماذا يحزن اقرباؤه الآخرون . ظل المربون والمربيات يسهرون عليه كالسابق ، وحلت ماتريونا ليونتييفا وهى من البويار ايضا محل كبيرة المربيات الاميرة غوليتسينا بعد وفاتها .

وظهرت هموم ومشاكل جديدة ، فقد قال القيصر فيودور ذات مرة لزوجة ابيه القيصرة ناتاليا :

— حان الوقت يا صاحبة الجلالة لتعليم الصبى .
كان القيصر فيودور اشيننا لبطرس ولذا اهتم به حسب الاصول . وكان بطرس آنذاك فى بداية السادسة من العمر . ووافقت القيصرة على تعليم ابنها ، لكنها طلبت ان يجدوا له معلماً متواضعاً متسامحاً ملماً بالكتاب المقدس . وكلف القيصر البويار فيودور سكوفنين بالبحث عن معلم مناسب . والمعروف عن سكوفنين انه متدين من المنشقين المتمسكين بالمذهب القديم ، وكانت بنتاه فيودوسيا موروزوفا التى جسد الرسام الروسى سوريكوف صورتها فى لوحته الشهيرة «موروزوفا» ، والاميرة افدوتيا اوروسوفا قد تجرعتا الموت وصارتا من المعذبين بسبب «الايمان القديم» لتعصبهما للاب اباكوم الذى احرق فى عام ١٦٨٢ . ونصح سكوفنين باستخدام نيكيتا زوتوف ، وهو موظف صغير فى مديرية العائدات والضرائب . ومثل زوتوف امام القيصر فيودور والقيصرة المترملة ناتاليا . وترسم هذه المقابلة لوحة بليغة للاعراف الروسية القديمة فى ذلك الزمان . فقد رافق سكوفنين المعلم المتواضع الفاضل وتركه فى صالة الضيافة ودخل على القيصر ليبلغه . وبعد لحظات ظهر احد النبلاء وسأل :

— من منكم نيكيتا زوتوف ؟

فارتبك زوتوف اشد الارتباك وتجمد لا يقوى على تحريك قدميه . امسك السكرتير بمرفقه ، ولكن دون جدوى . فالمعلم الفاضل لم يتزحزح من مكانه واستعطف السكرتير ان يمهله قليلا حتى يستعيد قواه . ظل واقفا برهة ، ثم رسم شارة الصليب ودخل على القيصر وهو يردد اسم المسيح . مد له القيصر يده فقبلها المعلم . وبدأ امتحان القراءة والكتابة بحضور الكاهن البيلوروسى النحرير سيميون بولوتسكى ، الشاعر والكاتب المعروف ومربى فيودور الكسيفيتش نفسه . واستحسنوا معارف زوتوف ، ورافقه سوكونين ليقدمه الى القيصرة المتاملة ناتاليا . وحظى باعجابها :

— اعرف انك حسن السلوك متضلع فى الكتاب المقدس ، ولذا اعهد اليك بوحيدى .

ترقرقت الدموع فى عينى زوتوف وركع امام القيصرة :

— انا لا استحق هذا الشرف العظيم يا صاحبة الجلالة .

مدت القيصرة ناتاليا يدها للمعلم راضية على طاعته وتواضعه ، وامرته ان يبدأ دروسه فى صباح غد . فنفذ المعلم الامر ، وحضر القيصر والبطريك الدرس الاول . ادوا الصلاة وبارك البطريك المعلم ، وانحنى هذا الاخير احتراماً لتلميذه الجليل وجلس معه وامامهما كتاب الابجدية . وفى الحال منح البطريك يواكيم المعلم مائة روبل ، وهو مبلغ كبير فى مقاييس ذلك الزمان . كما رفع القيصر فيودور منزله فصار من النبلاء . وبعثت القيصرة ناتاليا الى زوتوف طقمين من البياضات والثياب الثمينة جدا ليكون «كامل البزة والهندام» . وما ان انصرف القيصر والبطريك حتى غير المعلم ثيابه وارتدى البدلة الجديدة . ولا احد يدري من كان أكثر سرورا ، هل

هو «الاستاذ» الراشد الذى يتحلى ببساطة الاطفال ام الصبى بطرس وهو يتابع باهتمام كبير فى اغلب الظن معلمه الذى يتودد له ويخشاه بالطبع خشيته من نار حارقة ؟

كان غريغورى كوتوشين ، وهو موظف فى مديرية العلاقات الخارجية فر فى حينه الى السويد ، قد كتب فى مؤلفه «روسيا فى عهد القيصر الكسى ميخائيلوفيتش» عن حياة وعادات البلاط فى موسكو ، وقال انهم كانوا يختارون لتعليم ابناء القيصر «معلمين هادئين لا يحبون المسكرات» . وكان زوتوف بالفعل معلما هادئا يخاف الله ، وقد لقن بطرس الطغير مبادئ العلوم المقررة آنذاك ، فاتقن الصبى الابجدية ، اى القراءة والكتابة ، وحفظ عن ظهر قلب كتاب الصلوات والمزامير والانجيل وكتاب الرسل . وفيما بعد ظل يتذكر جيدا نصوص الكتاب المقدس ويستشهد بها ويحب تلاوتها والانشاد فى خورس الكنيسة . واولع بطرس النبيه بالكتب المزينة بالصور والرسوم ، ومنها المؤلفات التاريخية ، وربما هى نصوص السجلات والتواريخ المزينة بالمنمنمات . وبأمر من القيصر المترملة اخذ رسامو البلاط العاملون فى غرفة الاسلحة فى الكرملين يعدون رسوما لبطرس تصور بالاصباغ واللون الذهبى مدنا وبنائات وسفنا ومعارك واسلحة وجنودا . وكان الصبى يتصفح «الدفاتر المسلية» هذه ، وفيها مختلف القصص والحكايات ، باهتمام بالغ وولع شديد . وعندما يتعب من ذلك يعرض عليه زوتوف الصور بنفسه ويقدم له توضيحات بخصوص احداث عهد فلاديمير الاول القديس والكسندر نيفسكى ودميتري دونسكوى وايفان الرهيب . ووصل فى احاديثه الى عهد والد بطرس ، القيصر الكسى ميخائيلوفيتش ، وقص

عليه احداثا مشهودة هامة في ذلك العهد . وهكذا تشيع ذهن الصبى النبيه بمعلومات عن ماضى الوطن وامجاد اجداده . باختصار ، بذل زوتوف كل ما فى وسعه لاجل تعليم بطرس المبادئ والاصول ولقنه بما يعرفه هو بنفسه واستخدم كل ما توفر له من وسائل تعليمية او وسائل ايضاح كما نقول الان . وفيما بعد قدر بطرس الاكبر معلمه الاول حق قدره . صحيح ان هذا المعلم لم يكن يتحلى بالصفة الثانية التى اشار اليها كوتوشين ، وهى الامتناع عن المسكرات . لكن هذه الخطيئة جاءت فيما بعد ، اثناء «مجمع السكر والعريضة والمرح» الشهير الذى اقامه بطرس الاكبر ، القيصصر المرح ومبتدع افانين اللهو والتسلية .

ظلت القيصرة المترملة ناتاليا تقيم مع ابنها فى الكريملين بفضل تعلق القيصر فيودور باخيه الاصغر ، وربما بها ايضا . اما سائر آل ميلوسلافسكى فلم يكونوا يحبون الغريمة زوجة الاب الشابة ، وتجلى نفورهم منها فور وفاة القيصر فيودور فى ٢٧ نيسان (ابريل) ١٦٨٢ . وورث عرش القيصر الراحل اخواه الاكبر ايفان ، ابن ميلوسلافسكايا ، والاصغر بطرس ، ابن ناريشكين . اولهما فى السادسة عشرة ، وهو يعانى من خلل عقلى وضعف بدنى ، والثانى فى العاشرة سليم معافى ومرح يدهش الجميع بحيويته ونباهته وكثرة الحركة . وكما هو الحال دوما فى مثل هذه الاوضاع اثارت مسألة السلطة صراعا بين الكتلتين ودوامه من الاحداث الدموية التى لم تكن متوقعة فى الكثير من جوانبها . وتركت تلك الاحداث اثرا نفسانيا عميقا فى ذهن الصبى بطرس لم يتخلص منه مدى الحياة .

وتوافق الصراع الطاحن من اجل السلطة مع انتفاضة افراد القوات الخاصة وجنود حامية موسكو وبعض الفئات الدنيا من اهالى العاصمة . وكان افراد القوات الخاصة المرابطون فى موسكو القوة الرئيسية المحركة للانتفاضة دون شك . كانت هذه القوات جزءا من الجيش الروسى (فى عام ١٦٨١ بلغ عدد افرادها فى البلاد ٥٥ الفا ، منهم فى موسكو ٢٢,٥ الف شخص . وكان الموجودون منهم فعلا فى العاصمة ربيع ١٦٨١ ١٩ فوجا ضمت ١٤١٩٨ شخصا) . وكانت تحرس الكرملين وتحافظ على النظام فى العاصمة وتجمع عند الاقتضاء القلاقل والنضالات الشعبية ضد السلطات والوجهاء . وكان افرادها يستلمون مرتبات لقاء الخدمة ، لكنها مرتبات غير منتظمة ، وقد تقلصت لحد النصف فى اواسط القرن السابع عشر . ومن اجل كسب القوت سمحت السلطات لافراد القوات الخاصة بممارسة التجارة والصنائع مما يعود بدخل معين . واعتبارا من منتصف القرن المذكور ارغموا على تسديد الضرائب بعد ان اعفتهم السلطات منها فيما سبق . ومما زاد من سخط افراد القوات الخاصة (وكذلك الجنود والمدفعيين وغيرهم من صغار المستخدمين) التعسف والابتزاز والرشاوى التى دأب عليها موظفو المديرىات والقادة .

كان افراد القوات الخاصة قد تشكوا من الآمرين فى الشتاء والربيع ، ولكن دون جدوى . اما الان فقد اتخذت القضية مجرى آخر بسبب استبداد السلطة والصراع بين تكتلات البلاط . وبناء على اقتراح من البطريك يواكيم وتأيد قسم من البويار نصب بطرس البالغ من العمر عشر سنوات قيصرا لروسيا ، وتزعمت امه بوصفها وصية على العرش عصبة ناريشكين

التي استلمت مقاليد السلطة . لكن ام بطرس لا تتحلى بأية مواهب لادارة دفة الدولة ، ولم يكن يتحلى بتلك المواهب احد من اخوانها واقربائها الاخرين . فهم لا يمتلكون خبرة سياسية ، ولذا اخذوا يستأثرون بالرتب والمناصب دون حساب . فى حين كانت الانتفاضة تختمر فى العاصمة . فقد صبر افراد القوات الخاصة بسبب تدهور احوالهم المعيشية ، فراحوا يلتقون فى اجتماعات سرية وعلمية ويناقشون مطالبهم ويسجلون اسماء الاشخاص الذين تمادوا فى التعسف ليتقموا منهم . وفى ٣٠ ايار (مايو) اندروا الحكومة بان تسلمهم ١٦ قائدا عسكريا ليتقموا منهم . ونزلت الوصية ام القيصر ومساعدوها المرتبكون العاجزون عند هذا الطلب ، فنحى القادة المذكورون من مناصبهم وتعرضوا للجلد بالسياط . وكانت السلطات تأمل بان الامور ستهدأ ، وان ماتفييف الذى اعيد من المنفى على جناح السرعة سيعمل على احلال النظام حالما يصل الى موسكو . وافادت الاشاعات ان ماتفييف هدد فعلا باخماد «قلاقل» القوات الخاصة . وابدى رجالات الحكومة فى موسكو ، الامراء من آل دولغوروكى وغيرهم استياءهم وحقدهم على افراد تلك القوات بسبب «عصيانهم» ومطالبهم . لكنهم لم يتمكنوا من اخماد لهيب الانتفاضة . ففى اواسط ايار وصل افراد القوات الخاصة والجنود وفق خطة مرسومة مسبقا الى الكرملين وشرعوا بعمليتهم التنكيلية . وقتل باطبارهم ورماحهم ماتفييف ودولغوروكى الاب والابن وعدد من آل ناريشكين ورؤساء القوات الخاصة وموظفى المديرية . وسيطر الثوار على الموقف فى العاصمة واملوا ارادتهم على الحكومة . وبناء على رغبتهم غدا ايفان الكسيفيتش القيصر الاول واخوه

بطرس القيصر الثانى ، وسرعان ما صارت اختهما صوفيا وصية على العرش .

لقد شهدت نهاية ربيع ١٦٨٢ وصيفه وبداية خريفه النفوذ السياسى الكبير الذى كان لافراد القوات الخاصة وانصارهم الثائرين . فقد اطلق على تلك القوات فى موسكو اسم «مشاة البلاط» ، وانشئت مسئلة فى الساحة الحمراء تقديرا لخدماتها فى احداث ١٥ — ١٧ ايار (مايو) ، واستلم افرادها رواتبهم المحتجزة من عدة سنين ، ومنحوا الهدايا والهبات ، واستعيدت من الأمرين السابقين ، بالعصى احيانا ، النقود المستقطعة من افراد القوات الخاصة والجنود سابقا (وفق قوائم معدة مسبقا) . وما كان بوسع الصبى بطرس السريع التأثير الا يتألم لانتقام الثوار الدموى من اشخاص عزيزين عليه . فقد حدث ذلك على مرأى منه وترك اثرا عميقا فى نفسه . ولم يفهم آنذاك ولا فيما بعد عدالة شكوى افراد القوات الخاصة من عذابهم وآلامهم . وظل سنين طويلة يحتزن الحقد عليهم بعد ان اجتاح فؤاده وهو فى العاشرة من العمر ، وفى افضل الاحوال يحتزن النفور منهم الذى كان يطفو على السطح مرارا ويتخذ احيانا اشكالا قاسية تتجاوز الحدود . وكان معاصروه ، ومنهم الاجانب ، الذين راقبوه فيما بعد يرون ان سورات الغضب واهتزاز الرأس بعصبية تعود بقدر كبير الى هزات تلك السنوات .

واتضح ان ثوار ١٦٨٢ ، رغم قوتهم الكبيرة فى الاسابيع والاشهر الاولى من حركتهم ، ضعفاء جدا من الناحية السياسية ، وكان لا بد ان يتضح ضعفهم . فهم لم يكونوا يطمحون الى السلطة مباشرة ، لانهم لا يجيدون ادارة دفة الحكم .

وكان الاميران خوفانسكى ، الاب والابن ، وهما من آل غيديمينوفيتش (احفاد الامير الليتوانى الكبير غيديمين) قد ترأسا مديرية القوات الخاصة واصبحا بمثابة الزعيمين لافرادها الثائرين . ولذا ظلت المطبوعات لأمد طويل تطلق نعت «الخوفانسكية» على الانتفاضة نفسها فى موسكو . وهذا هو ايضا اسم اوبرا موسورغسكى الرائعة . اما فى الواقع فان آل خوفانسكى لم يكونوا بالطبع زعماء للانتفاضة ، لانهم لم يتبنوا اهداف المشاركين فيها من افراد القوات الخاصة بالدرجة الاولى ، وهم من ابناء الشعب البسطاء (الفلاحين والحرفيين والاقنان) . لكن دوامة الاحداث المأساوية العاصفة اجتذبت هذين الاميرين الطامعين فى السلطة والمال والامتيازات ، ولذا شاعت الاقدار ان يكونا فى قارب واحد مع اناس غريبن عليها اجتماعيا وحاولا ان يتعكزا عليهم فى الصراع من اجل السلطة . ولم يحالفها الحظ . فقد كسبت المعركة صوفيا الوصية على العرش واشياعها الشطار من امثال الامير غوليتسين الذى نصبته مستشارا ورئيسا للحكومة ، وكذلك رجل الاعمال النابه النشيه شاكلوفيتى (وكلاهما من احباب الاميرة صوفيا ، الاول فى بداية وصايتها والثانى فى نهايتها) ، وغيرهما . وسيطر هؤلاء على الموقف مستفيدين من هبة السلطة القيصرية . وقد اتخذوا لهم مقرا فى دير ترويتسا-سرغيف (الثالوث والقديس سيرغى) وبمساعدة قوات النبلاء المتحشدة فى مختلف مدن ضواحي العاصمة ارغموا الثوار على الاستسلام فى خريف ذلك العام . وغدت السلطة الفعلية فى يد صوفيا ابنة القيصر الكسى من زوجته ميلوسلافسكايا ، وهى فتاة ذكية متغطرة . واستمر حكمها سبع سنوات . وطوال تلك الفترة ظل

بطرس وايفان رسميا قيصرين لروسيا يشاركان في مراسيم استقبال السفراء والمواكب الكنسية وغيرها . لكن بطرس وامه لم يلعبا اى دور فى الشؤون السياسية . زد على ذلك انهما صارا بمثابة منفين فى بلدة بريوبراجينسكويه التى غدت مقرا للقيصرة المترملة التى افل نجمها مع ابنها . ويقول الامير كوراكين ذو النباهة وحدة الملاحظة ، الذى غدا فيما بعد من ابرز الدبلوماسيين الروس ، انها «عاشت على ما تفضل به عليها الاميرة صوفيا» ، وكانت تتلقى مساعدات مالية سرية من البطريرك يواكيم الذى اشفق على بطرس وامه ومن مطران روستوف ومن دير الثالوث والقديس سيرغى . وما كان بوسع ناتاليا كيريلوفنا وحاشيتها ان تسكت بالطبع على ضياع السلطة والنفوذ . الا ان الغضب والتذمر فى قصر بريوبراجينسكويه الذى افل نجمه لم يعكرا صفو القيصر الاصغر بطباعه القوارة . وغالبا ما كانوا يجلبون له من مستودعات الكريملين السى بريوبراجينسكويه مسدسات وبنادق وغيرها من الاسلحة وطبولا وغيرها من المصنوعات الحربية والذخيرة (الرصاص والبارود) والرايات . ولم يكن القيصر الفتى يحب الاستقرار فى مكان واحد ، فترك بريوبراجينسكويه الى فورويوفو ومنها السى كولومينسكويه ، وراح يتردد على دير الثالوث والقديس سيرغى تارة ودير سنوروجيفسكى (القديس سافا) بضواحي زفينيغورود تارة اخرى . وتنقل معه «مستلزماته الحربية» . وابدى اهتماما بمطبوع بعنوان «كتاب البارود» ، فجلبوه له من غرفة الاسلحة فى الكريملين .

وكان يأتى احيانا الى الكريملين نفسه فيشارك ، مثلا ، فى مراسيم السفراء . ذات مرة ، اثناء حفلة استقبال السفير

السويدي صيف ١٦٨٣ اثار دهشة الاجانب فكتب سكرتير السفارة كيمفر بهذا الخصوص وصفا بليغ الدلالة :
— فى صالة الاستقبال الملبسة بالسجاجيد العثمانية جلس كلا القيصرين تحت الايقونات على عرشين فضيين وهما بكامل بزة القياصرة التى تومض احجارها الكريمة . الاخ الاكبر (ايفان) جلس دون حراك تقريبا ، وهو يحدق فى الارض دون ان ينظر الى احد وقبعته تكاد تغطى عينيه ، والاخ الاصغر (بطرس) يتطلع فى وجوه الجميع مفتح الاسارير جميلا ، ينضح فتوة كلما خاطبه احد . جماله المدهش اذهل جميع الحاضرين ، وحيرت حيويته كبار موظفى موسكو الرزينين . وعندما سلم السفير اوراق اعتماده وكان يليق بكلا القيصرين ان ينهضا فى وقت واحد ليستفسرا منه عن صحة الملك ، لم يترك بطرس وقتا للرجال المكلفين بمساعدته مع اخيه كى ينهضا ، كما تتطلب المراسيم ، بل هرع من مكانه ورفع قبعته القيصرية بنفسه وطرح السؤال المعتاد بلهجة سريعة : كيف حال شقيقنا عاهل السويد ؟ هل هو بخير ؟
الا ان بطرس فى تلك السنين ركز جل اهتمامه على الالعب العسكرية «المسلية» . وجعل تلك الالعب موضع اهتمام طائفة كبيرة من اترابه ومن الصبيان الاكبر منه سنا . وقد ترك ابوه الراحل دوائر كاملة لرعاية الخيل والصيد بواسطة الصقور ، فقد كان مولعا جدا بهذه الامور . وانتقل لخدمة بطرس مئات من ساسة الخيل والصيادين المهتمين بالقنص بواسطة الصقور والبواشق ممن ظلوا بلا عمل . الا ان بطرس لم يكن يطبق القنص بالصقور ، وهو يفضل الركض على قدميه ولا يحب الجولات المهيبة ، لكنه جمع كل هؤلاء

الصيادين وخدم البلاط وغيرهم فى كتاب «الالعاب» . والى جانب الوجهاء ادرج فى صفوفها الاقنان السابقين وغيرهم من «البسطاء» بشرط ان يكونوا شطارا مرجحين يؤدون المطلوب . ونشأ بالنتيجة حشد متنوع تشكلت منه كتيبتان به ٣٠٠ شخص تقريبا لكل منهما . ونرى بين سائر افراد كتيبتى «الالعاب» من جهة ، الامير م . غوليتسين الذى صار فيلدمارشالا فيما بعد ، لكنه آنذاك ، فى عام ١٦٨٧ ادرج ضمن «الطبالين» لصغر سنه ، وكذلك بوتورلين وهو من ابناء وجهاء موسكو ، وغيرهما ، ومن جهة اخرى نجد الكثير من الاشخاص ذوى المنحدر الوضيع ، ومنهم اكثرهم توفيقا ، الكسندر مينشيكوف بائع الفطائر الساخنة المتجول وابن سانس خيل البلاط ، «وتلك اوطأ رتبة ، اوطأ من النبيل العادى» على حد تعبير كوراكين ، لكنه حظى برعاية القيصر الذى قربته اليه ، وبدأ من رتبة مراسل حتى وصل منزلة القائد العام للجيش الروسى وحاز على لقب معالى الامير . وبالمناسبة فان هذا «المتسلط» الذى يضاهى القيصر (على حد تعبير بوشكين) غدا فيما بعد من اكبر مختلسى اموال الدولة الروسية .

وراح افراد كتيبتى الالعاب بيزاتهم الحقيقية يتدربون على كل الفنون العسكرية بعين ساهرة من جانب بطرس الذى لا يعرف الكلل . وكان عندهم بلاط خاص بهم وادارة وخزينة . وتدريب بطرس نفسه على كل درجات الفن العسكرى ابتداء من الطبال . وعلى نهر ياوزا ، فى ضواحي بريوبراجينسكويه ، انشئ «معقل» بريسبورغ الذى كان يطوق ويفرض عليه الحصار وفقا لكل قواعد الفن العسكرى . وفى ضواحي موسكو ، على مقربة من بريوبراجينسكويه ،

يقع حى العجم الذى غدا مستقرا للاجانب من مختلف الصناعات والخبراء العسكريين الذين تقاطروا على العاصمة الروسية فى عهد القيصر الراحل الكسى . فالقيصر نفسه وبعض المقربين اليه كانوا يدركون ان روسيا تخلفت كثيرا عن اوروبا الغربية فى البناء العسكرى وفى مختلف الحرف والفنون . ولذا استدعوا الخبراء الاجانب مقابل مخصصات كبيرة . وكان بين القادمين طبعاً مغامرون من الباحثين عن المال والمناصب . ولكن كان بينهم كثير من الخبراء والضباط الجادين الجيدين . وخدم بعضهم ، وهم ليسوا بالقليلين ، روسيا بدافع من الضمير وليس خوفاً من عقاب او طمعا فى ثواب ، فعادوا عليها بنفع عظيم . فالجنرال باتريك غوردون الاسكوتلندى ، مثلاً ، كرس للخدمة العسكرية حوالى اربعين عاماً فى روسيا التى غدت موطناً ثانياً له . وكان سلوك بطرس يثير احياناً الدهشة والاستياء عند الغيارى على عادات موسكو وتقاليدها وتقواة دينها ، فقد قرب الاجانب من اللوثرين والكاثوليك الذين كان البطريرك يواكيم وكثيرون غيره ينتهونهم بالزنادقة الممقوتين ، بل الابالسة . اما بطرس فقد بدأ من ذلك الحين بتحطيم التقاليد المتحجرة ، وعين الاجانب ضباطاً برتبة عقيد وميجر وكابتن فى كتتيه اللتين تحولتا فى بداية التسعينات الى فوجين . واطلق عليهما اسم فوج برىوبراجينسكى وفوج سيميونوفسكى باسم البلدتين اللتين خصصهما لهما القيصر . وفى ١٦٨٤ تدرب بطرس على رماية القذائف ، ودربه على هذا النوع الخطر والضرورى من السلاح مدرب اجنبى هو زومر . وكانت نباهة بطرس وميله الى المعرفة والمهارات والفن العسكرى قد جعلاه يبحث دوماً عن الاشخاص الذين هو

بحاجة اليهم وعن الاعمال والمستلزمات الضرورية . وفي عام ١٦٨٧ استعد الامير ياكوف دولغوروكى للرحيل الى فرنسا كسفير وتكلم مع بطرس الذى كان فى الرابعة عشرة من العمر ، و اشار الامير فى حديثه الى الاسطرلاب الذى «يقيس المسافة دون حاجة الى الوصول الى نهايتها» . فقال له القيصر :

— ارنى هذا الجهاز .

— غير موجود يا صاحب الجلالة . سرقوه .

— اشتر من فرنسا !

وافقه الامير ، وعندما عاد من فرنسا فى العام التالى قدم الى بطرس الاسطرلاب بالاضافة الى علبة ادوات هندسية مع مستلزماتها الرياضية . ولكن المشكلة لا احد من حاشية القيصر يستطيع ان يوضح له كيفية استعمال الاسطرلاب . طلبوا من احد الالمان ان يوضح لهم ، لكنه نشر يديه عاجزا . واخيرا بعثوا فى طلب الهولندى فرانس تيمبرمان ف اوضح كل ما يخص الاسطرلاب والادوات الهندسية . وشعر القيصر بارتياح بالغ ، ومن ذلك الحين قرب الهولندى المذكور واخذ يتعلم على يده الحساب والهندسة وانشاء الحصون . ولم تكن معارف فرانس فى هذه العلوم كبيرة (فقد ظلت محفوظة الدفاتر التى حل فيها المسائل الحسابية ، وهى لا تخلو من اخطاء كثيرة . . .) ، لكن توضيحاته رغم ايجازها الشديد كانت كافية لتجعل تلميذه المجد النابه يتوصل الى حقيقة الامور بنفسه . فمئذ ان انتقل مع امه من الكريملين الى بريوبراجينسكويه فقد معلمه زوتوف . وفيما بعد عندما صار رب اسرة يراقب تعليم بتيه كان يتأسف كثيرا لتردى مستواه التعليمى . وماذا بوسعه ان يقول اذا كان لم يسمع

بالعمليات الحسابية الاربعة الا عندما بلغ الخامسة عشرة من العمر ، وظل حتى آخر ايامه يعاني من صعوبة التعبير عن افكاره على الورق بشكل فصيح . فقد كان يكتب دون ان يفصل دوما بين كلمة واخرى ، وما يكتبه فيه الكثير من الاخطاء الاملائية والنحوية .

ذات مرة كان يتجول مع تيميرمان في اسماعيلوفو فدخل مستودعا في معمل الكتان . وفيه كثير من الحاجيات العتيقة المحفوظة من زمان ، وبضمنها حاجيات نيكيثا رومانوف ابن عم القيصر ميخائيل فيودوروفيتش جد بطرس . وهو رجل محب للاستطلاع وكان يعتبر في حينه من المولعين بالقمصلات والعادات والمعارف الاجنبية . ومعروف ان البطريك نفسه كان يلومه احيانا لانه يرتدى الثياب الاجنبية ويخرج الى الشارع فيثير دهشة اهالي موسكو بمظهره الغريب . ويبدو ان بطرس الشبيه بابه من حيث اهتمامه بالشؤون الاجنبية قد ورث عن والد عمه شيئا من ذلك ايضا . وعندما رأى في المستودع قاربا بين سائر الحاجيات التفت الى تيميرمان :

— ما هذا ؟

— هذا ، يا صاحب الجلالة ، قارب انجليزى ، يستخدم في السفن الكبرى ، ويميزته على القوارب الروسية انه يسير بالاشعة مع الريح وضدها .

— هل هناك من يستطيع اصلاح هذا القارب ويعرض على سيره .

— نعم يا صاحب الجلالة ، يوجد شخص يستطيع اصلاحه .

كان لا يزال يقيم في موسكو هولندى آخر اسمه كريستيان

براندت ، وهو من الذين عملوا قبل أكثر من عشرين عاما في بناء السفن بأمر من القيصر الكسى في قرية ديدينوفو على نهر اوكا . آنذاك بنوا اسطولا صغيرا مكونا من سفينة «اوريل» الكبرى وعدة سفن اخرى اصغر منها . وتم ايصالها الى الفولغا ، وقد احرقت جميعا في بداية انتفاضة ستيفان رازين (١٦٦٧) . وسرعان ما عثروا على نجار السفن براندت . فقد كان يمارس النجارة في العاصمة . واستطاع كارشتين ، هكذا حور بطرس اسمه من كريستيان ، ان يرمم القارب وينصب عليه صارية واشرعة . وجرى تجريبه في نهر ياوزا . الا ان النهر ضيق ، فكان القارب يرتطم بصفتيه . وبأمر من بطرس نقل القارب الى بركة بروسيانوى في اسماعيلوفو في بادئ الامر ، ثم الى بحيرة بيرياسلاف شمالى موسكو بعد ان اتضح ان البركة ايضا تضيق به . كانت دائرة البحيرة أكثر من ثلاثين كيلومترا ، وعمقها مناسب . وهنا ، فى مصب نهر ترويجج انشأ بطرس وبراندت حوضا لبناء السفن ، وبدأ العمل فى بناء سفن جديدة .

كان هذا القارب الذى نعته بطرس بالجدة المؤسس للاسطول الروسى قد ايقظ فى نفسه ، وهو الفتى البرى ، حبا للملاحة البحرية . ومن ذلك الحين تفهم تقاليد اسلافه وصار يحلم باسطول لم تكن تمتلك مثله روسيا ذلك البلد الشاسع الذى تغسل البحار سواحلها من الشمال . وكان ذلك بالمناسبة هو احد اسباب انقطاع الدولة عن البحار من الشمال الغربى والجنوب . وكان الاسلاف فى حينه يمتلكون منافذ الى تلك البحار . . .

ومهما يكن من امر فقد اتقن بطرس على ايدى المعلمين

الاجانب مبادئ الحساب والهندسة وعلوم المدفعية والتحصينات .
واطلع على قواعد تشييد القلاع وتمكن من حساب مسار قنبلة
المدفع والتحكم بالاسطربلاب . وكان ميله الشديد الى المعارف
التقنية والتطبيقات العملية قد تعزز ونما بتأثير الاجانب الذين
يتحلون بالجدية والشطارة . وقد افاده ذلك فيما بعد ، وظل
يجمع تلك المعارف والمهارات طول عمره القصير ولكن المليء
لحد مدهش بالدراسة والعمل المتواصلين .

والى جانب الابحار على السفن فى الطرق المائية لم
يكف بطرس عن «الالعاب المسلية» فى بربراجينسكويه
وضواحيها . وكانت الحملات على قلعة بريسبورغ الترابية
باستخدام المدافع والمناورات الحربية فى «سوح القتال» قد
ربت الجنود وضباط الصف الروس على اجادة الشؤون العسكرية
والرغبة فيها . ومما له دلالة ان بطرس قد عين اغلب ضباطه
من الاجانب بوصفهم يتحلون بالخبرة اللازمة ، لكنه اناط
منصب القائد العام لفوجى بربراجينسكى وسيميونوفسكى
بشخص روسى اسمه ارتامون غولوفين ، وهو ، على حد تعبير
كوراكين ، «رجل غبى جدا ، لكنه يجيد تمرين الجنود» .
فهذا الامير الساخر الذى يفحم الآخرين كان يعرف ما يقول ،
اذ انه خدم بنفسه فى فوج سيميونوفسكى وراقب وسمع مرارا
بالطبع كلام ذاك القائد العام .

كانت صوفيا والمقربون اليها ينظرون بعين التسامح والسخرية
الى العاب بطرس مع «المشاكسين» ، كما نعتت الاميرة
النابهة عادة افراد فوجيه . واعتبرت تلك الالعاب العسكرية
من مظاهر البلاهة والطيش عند اخيها القيصر الفتى العصبى .
ثم ان الام المثيمة بابنها بطرس كانت تعتقد هى ايضا انه

مولع بتسليية فارغة تصرفه عن شؤن ومشاكل الدولة . اما صوفيا فقد كانت مرتاحة تماما لان اخاها لا يهتم بشؤن الدولة ، بل يتخلص منها رغم مشاركته احيانا في مراسيم الكريملين السياسية والدينية وتردده مع الحاشية على الاديرة في ضواحي موسكو لاداء الصلاة . وكان أكثر ما يهتمها هو السلطة ، فراحت تحلم بتعزيز مواقعها في شؤن الحكومة وتتخذ اجراءات كثيرة لهذا الغرض .

في عهد صوفيا سارت الامور في موسكو بانتظام لا يخلل فيه . فالمديريات تعمل وتقام مراسيم استقبال السفراء ويجرى البت في القضايا اليومية في ميدان السياسة الداخلية والخارجية . كانت مديرية العلاقات الخارجية تدير السياسة الخارجية والعلاقات مع الدول الاجنبية . وترأس هذه المديرية محبوب الاميرة الحاكمة الامير فاسيلي غوليتسين . وهو رجل متعلم واسع الاطلاع يتكلم عدة لغات اوروبية . وكان يستقبل الاجانب ويتباحث معهم في داره الواقعة في اوخوتني ريد (موسكو) والمؤتة على الطريقة الالوية ، ففيها لوحات فنية ومرايا . وافاد اولئك الاجانب في اقوال غير واضحة تماما وغير موثوق بها انه كان يتطرق الى ضرورة الاصلاحات والتعليم العام ، بل وبلغ حد الكلام عن عتق الفلاحين وتخليصهم من نير القنانة . ويصعب القول بمدى مطابقة هذه الافادات للحقيقة . وعلى اية حال فان هذا الشخص ، شأن غيره من معاصريه الاكبر والاصغر سنا (مثل اودين-ناشوكين الذي كان لزمنا ما «مستشارا» للقيصر الكسي ميخائيلوفيتش ، والمقرين اليه من امثال رتشييف وغيره) يفهم ان روسيا المتخلفة لدرجة كبيرة عن البلدان المتقدمة في اوربا الغربية ، بحاجة الى

النهوض وبلوغ ابعاد جديدة واستيعاب ما هو جديد وقيم مما يتوفر فى اوريا الغربية فى الصناعة والتجارة والحرف والفنون والتعليم والعلوم .

وبذل غوليتسين ، وهو من المثقفين الروس فى اواخر القرن السابع عشر ، والساسة الاخرون كل ما فى وسعهم لتوجيه البلاد على الطريق الجديد . وفى عهدهم ، وقبلهم ، بدأت فى روسيا فى الواقع تلك التجديدات والاصلاحات التى لم تكن حازمة ومتواصلة دوما ، لكن بطرس الاكبر استمر فيها بجرأة فيما بعد على نطاق اوسع واشمل بكثير . وفى عام ١٦٨٦ عقد «الصلح الابدى» مع بولونيا ، ورفع ذلك بشكل ملحوظ منزلة الحكومة الروسية والوصية على العرش . وبعد عام من توقيع الصلح صار اسمها يذكر فى وثائق الدولة الرسمية جنب اسمى القيصرين ايفان وبطرس . وسرت فى البلاد وخارجها اقاويل بان الاميرة تحلم بان تعلن عن نفسها قيصرة . وفى ١٦٨٧ نفذت روسيا التزاماتها كعضو فى الائتلاف المناوئ للامبراطورية العثمانية فشنت حملة كبرى على امارة القرم لأول مرة خلال مائتى عام من العلاقات معها . ونزولا عند رغبة صوفيا قاد غوليتسين الانف الذكر القوات الروسية وتعدادها مائة الف رجل . وشنت تلك القوات الحملة فى ايار (مايو) ، لكن القبط الشديد الذى اجتاح سهوب اوكرانيا الجنوبية وشحة العلف للخيول وانعدام مياه الشرب وكثرة الحرائق (فقد اشعل اهالى القرم النار فى الهشيم فى مختلف اطراف السهوب) استنزفت واضعفت العساكر الروسية . ولقى الكثيرون منهم حتفهم بسبب المجاعة والعطش والامراض . وبعد عامين كرر غوليتسين الحملة ووصل الى

بيريكوب ، اى الى شبه جزيرة القرم نفسها . وكان استعراض العضلات هذه المرة أكثر تأثيرا ، فقد دحر الروس مرارا فصائل القرم فى السهوب وفى اسفل الدنيبر ، لكن ذلك لم يعد بتأثير جوهري . ومن جديد سقط عدد كبير من القتلى بين الجند الروس . وعادت القوات الى موسكو بدون نصر يذكر . ومع ذلك ينبغي القول بان الجيوش الروسية شاغلت قوات القرم الكبيرة والحقت بها عدة هزائم ، لكنها غير حاسمة ، وعرضت قدرة روسيا (ففى تلك السنوات كانت الاستانة مدعورة : «الروس قادمون») وساعدت الحلفاء . وحاولت صوفيا ان تصور كلتا الحملتين على انهما نصران مؤزران لمحجوبها ، فانهاالت عليه الاوسمة والهبات وتلقى الكثير من الاحجار الكريمة والكؤوس والفراء والثياب ، واقبعت له اختفالات تكريمية ومهرجان بالنصر . ولم يرفض الامير ضيعات جديدة وهبت له مع فلاحها الاقنان ، رغم ما يقال عن كلامه مع الاجانب بخصوص عتق الفلاحين .

... العلاقات بين بطرس وصوفيا تكاد تنفجر من زمان . فالقيصر الذى ترعرع اخذ ينظر الى افعال اخته الكبرى بتذمر سافر وانفعال صريح مع انه كان مشغولا بالتدريب والالعب المسلية . تلك هى طباعه ، فهو عنيد سليط اللسان معتمد على نفسه . زد على ذلك ان امه التى يحبها ، وكذلك المقربين اليها واليه ، ليس فقط من آل ناريشكين المغضوب عليهم ، كانوا يلفتون انتباه القيصر الى اختلال ازدواجية السلطة فى البلاد والى تسلط الوصية على العرش فى الواقع والى ما تبينه من نوايا خطيرة . وعمل الامير بويريس غوليتسين ، ابن عم محبوب صوفيا ، وهو من اكثر المقربين الى بطرس

ولاء ، وغيره من افراد حاشية القيصر على تأجيج التذمر فى نفسه واستشارة كبريائه وتوجيه تصرفاته .

وفى كانون الثانى (يناير) ١٦٨٩ زوجت والده بطرس ابنها لتقيد نزواته كما كانت تأمل . وجدوا له خطيبة حسنة اسمها يفلوكيا لوبوخينا . ووفق مفاهيم ذلك الزمان يغدو القيصر ، عندما يتزوج ، رجلا راشدا وحاكما كامل الحقوق ، ولا موجب للوصية على العرش . وفى عشية زفاف بطرس سرت فى موسكو اقاويل عن انتقال زمام السلطة اليه . وفى آذار (مارس) زار مديرية العلاقات الخارجية التى يترأسها غوليتسين وطلب ان يجلبوا له وجبة جديدة من السلاح لفوجى «العابه» . ولم يكن مدير الدبلوماسية الروسية راضيا عن هذه الزيارة . وبعد ثلاثة اشهر اقيم موكب كنائسى شارك فيه كلا القيصرين ، وحملت الايقونة المقدسة . وخرجت صوفيا مع القيصرين . فطلب منها بطرس ان تتركهما ، لان الاعراف لا تسمح للنساء بذلك . فرفضت ، واشتاط بطرس غضبا واسرع على ظهر جواده الى كولومنسكويه .

وسرعان ما عاد غوليتسين من حملة القرم الثانية . وكان يتعين على القيصرين ان يصادقا على بلاغ مكافأة المساهمين فى الحملة . لكن بطرس رفض توقيعه . واقنعوه بشق الانفس بالعدول عن قراره . وعندما وصل غوليتسين ، القائد العسكرى الفاشل ، الى بريوبراجينسكويه ليشكر بطرس على المكافآت رفض هذا الاخير استقباله . وثارث ثائرة «حاكمة عموم روسيا» صوفيا ، كما امرت بان ينعتها . واختمرت المعركة الحاسمة . «الشخصية الثالثة الشائنة» صوفيا ، كما نعتها بطرس ، تدبر فى اغلب الظن انقلابا حكوميا . وافاد بعض المعاصرين

ان مدير القوات الخاصة الجديد شاكلوفيتى ، وهو ، فضلا
عن ذلك محبوب صوفيا الجديد ، حاول ان يعتمد على
افراد تلك القوات لتنحية بطرس عن السلطة وتنصيب صوفيا
على العرش . وقد استدعى آمرى افواج القوات الخاصة الى
مقره فى الضاحية واقترح عليهم ان يكتبوا التماسا بتنصيب
الوصية قيصرة . وتردد الآمرون واعتذروا بانهم اميون ، فهم
يتذكرون ، ولا بد ، احداث ١٦٨٢ والتنكيل بافراد القوات
الخاصة بعد انتهاء «العصيان» . لكن شاكلوفيتى اصرر ووضع
امامهم التماسا اعده مسبقا باسم جميع اهالى موسكو ،
وليس افراد القوات الخاصة وحدهم :

— كتابة الالتماس ليست صعبة

— واذا رفضه بطرس ؟

— اقبضوا على ليف ناريشكين (خال بطرس) وبوريس

غوليتسين ، وعند ذاك لن يرفض .

— والبطريك ، والبويار ؟

— البطريك يمكن استبداله ، اما البويار فهم شجرة

يابسة عفنة .

لم يكن الامرون يميلون الى المؤامرة . فانصرفوا . الا

ان بعض افراد القوات الخاصة كانوا ، على العكس ، يميلون

الى الاجراءات الحازمة ، فقال احدهم :

— سأدخل على البطريك واصرخ فيه وسيرتعب اشد الرعب .

واضاف آخر :

— يجدر بنا ان نقتل الدبة ام القيصر ناتاليا .

— سيدافع عنها ابنها بطرس .

— سنلحقه بها . فما الذى يمنعنا ؟

ويقال ان احدهم اقترح القاء عبوة ناسفة على بطرس او وضعها فى زحافته ، واقترح آخر طعنه بالسكين اثناء اطفاء الحريق (فالقيصر يحب كثيرا المشاركة فى اطفاء الحرائق ، وهى كثيرة فى عاصمة كل مبانيها من الخشب) . وسعت صوفيا و«عصبتها» الى تأليب افراد القوات الخاصة على بطرس وآل ناريشكين . ويقال ان الموظف مانفى شوشين كان يرتدى قفطانا من الدمقس الابيض ليتخذ هيئة ليف ناريشكين ويرتد فى الليالى على خفراء القوات الخاصة ويضربهم دون رحمة متظاهرا بالثأر «لاقربائه» الذين قتلوا فى عام ١٦٨٢ : — قتلتم اخوانى ، وانا أثار لدمائهم منكم . وكان احد المتآمرين من مرافقى شوشين «يهده» قائلا : — يا ليف كيريلوفيتش ، لماذا تضربهم حتى الموت ؟ فهم مسيحيون على اية حال . وانتشرت فى العاصمة الاشاعات عن التنكيل الذى يمارسه «اقرباء» بطرس .

وفى ليلة ٧ على ٨ آب (اغسطس) قام فى الكريملين هرج ومرج . فقد وصلت سرا رسالة تقول ان افراد فوجى العاب بطرس قادمون الى موسكو ليقتلوا صوفيا والقيصر ابغان وكثيرين غيرهما . وفى لمح البصر اغلقت كل بوابات الكريملين وهبت احدى فصائل القوات الخاصة حاملة السلاح فى الكريملين ، واستعدت فصيلة اخرى من ٣٠٠ شخص فى حارة لوبيانكا . ولا احد يعرف لماذا . ربما من اجل الحراسة ، وربما لغرض اخر . . .

واسرع اثنان من انصار بطرس السريين فى القوات الخاصة تحت جنح الظلام من موسكو الى بريوراجينسكويه . فقد

تصورا ان زملاءهما فى موسكو يتأهبون لحملة على بطرس ولم يجتمعوا لمجرد الحراسة . واخبرا القيصر بذلك ، وكان قد نهض من النوم ومن خلال النعاس لم يفهم تماما ما حدث فارتعب اشد الرعب وفر بثيابه الداخلية الى اقرب غابة . واصاخ السمع متوقعا ان يسمع سنابك خيل افراد القوات الخاصة المعادية . ولم يسمع شيئا . لكن الخوف لم يزيله : فالى اين يهرب ؟ وما العمل ؟ وسرعان ما جلبوا له ثيابه وسرجه وحصانه . وقضى بطرس الليل فى الطريق الى ملجأه — دير الثالوث والقديس سيرغى يرافقه ثلاثة اشخاص . ووصله فى الصباح وهوى على السرير وراح يبلغ الارشمندريت ، والدموع تنهمر من عينيه ، بالخطر الرهيب الذى يتهدهده كما تصور ، وطلب منه ان يأويه ويحميه .

يبدو ان القيصر كان صادقا فى افكاره وخوفه وتصرفاته . لكن نبأ حملة القوات الخاصة على بريوبراجينسكويه كان كاذبا . . . كانت هناك بالطبع اقاويل واشاعات ، وربما لعبت فى ذلك الجو المكهرب المتوتر فى تموز (يوليو) وآب (اغسطس) دور فتيل الاشعال فاثارت رد فعل متسلسلا وادت الى الانفجار . ولعل احدا قد مهد لتلك الاحداث واستفاد من الوضع . فليس من قبيل الصدفة ان يفكر البعض آنذاك ويتكلمون عن دهاء الامير بوريس غوليتسين . وثمة مسألة اخرى تلفت الانظار . فان بطرس لم يكن يتميز بالجبن لا فى سن الفتوة ولا فى سن الرشد . فقد شارك فى المعارك وسط ازير الرصاص ودوى القنابل ، وتشمم البارود كما يقال عادة . واصيب بجراح أكثر من مرة . ولم يكن يخشى اقتحام اللهب اثناء الحرائق ودخول البحر فى العواصف لانقاذ المستغيثين . اما

فى هذه الحادثة فقد ترك امه وزوجته الحامل وجميع اقاربه وافراد فوجيه الذين كان بوسعهم ان يدافعوا عنه ، ترك الجميع وفر بجلده . فماذا يعنى ذلك ؟ ربما ادى دوره بحذافيره وفق مخطط وضعه مع مستشار فطين ؟ لكن رعبه فى غرفة النوم وفى الاجمة كان حقيقيا . فقد كان بدنه كله يرتعش وهو بالقميص وحده ، والدموع تنهمر من عينيه وهو فى حجرة الدير . . .

وفى ٨ آب (اغسطس) بدأ الخوف يزائل بطرس فى الدير ، فقابل امه وافراد فوجيه من الجنود وفوج سوخاريف من القوات الخاصة ، وكانت اخته الوصية على العرش تقوم بجولة لتؤدى الصلاة دون ان تعلم بما حدث . وكان يرافقها عدد من افراد القوات الخاصة . فهى لم تكن تنوى مهاجمة اخيها ، وقد فوجئت بخبر فرار بطرس الى الدير ، واثار هذا الخبر قلقها . كما دهش محبوبها شاكلوفيتى وقال عن بطرس :
— جن جنونه وفر هاربا .

وفى تلك الاثناء مارس بطرس نشاطا مسعورا . بعث الى موسكو امرا الى آمرى العساكر والقوات الخاصة بان يحضروا اليه فورا مع افواجهم . وزحفت تلك الافواج الى الدير وانخفضت كل محاولات صوفيا وشاكلوفيتى لايقافها . وبعثت صوفيا البطريرك يواكيم الى اخيها لاقناعه وتهديته ، الا ان البطريرك ظل فى الدير عندما وصله . وفعل الشيء ذاته الكثير من البويار والنبلاء .

وتشكت صوفيا الى قادة القوات الخاصة مدركة انها بدأت تفقد زمام الامور :

— ارسلت البطريرك الى اخى لاتفق معه ، لكنه ظل

هناك ولا يريد العودة الى موسكو .

ولم يؤيد قادة القوات الخاصة صوفيا ، فتنازلت عن كبرياتها وتوجهت الى بطرس بنفسها . وبلغ الدير نبأ قدومها ، فاستقبلها فى مدخله البويار ترويكوروف ، فالقيصر منعها من دخول الدير . واذا لم تدعن للمنع ستلقى جزاءها . ولم يبق امامها الا العودة الى العاصمة وانتظار ما يخبئه لها المصير . وسيطر بطرس على الموقف (فقد وصلته كل الافواج تقريبا ، والتزمت جانبه اغلبية النبلاء من العسكريين) . وفرض ارادته بتسليم شاكلوفيتى واشياعه بالدرجة الاولى . فقد بلغ القيصر نبأ الاجتماع السرى الذى عقد عند محبوب صوفيا وتفاصيل المؤامرة التى حيكت فيه . وتوسلت صوفيا من جديد الى افراد القوات الخاصة المتبقين فى العاصمة بان يؤيدوها ولا يسلموها ^{لهم} قائلين لكنهم لم يؤيدوها هذه المرة ايضا . فاضطرت يائسة على القبول بمطلب اخيها . وجرى فى ٧ ايلول (سبتمبر) نقل شاكلوفيتى والآخرين الى الدير ، وبعد تحقيق وتعذيب اعدوا بعد خمسة ايام . وبعث القيصر المنتصر رسالة الى اخيه ايفان فى موسكو :

— من العار ، يا صاحب الجلالة ، ان تحكم هذه الشائنة الدولة بدلا منا ونحن راشدان .

وسرعان ما وصل بطرس الى موسكو ، وخرج افراد القوات الخاصة من موسكو ووقدوا على امتداد الطريق ووضعوا رؤوسهم على قرم مسالخ غرزت فيها قووس . بهذه الطريقة طلبوا الصفح والعفو من القيصر كيلا يعذبهم ، فعفا عنهم . اما صوفيا فقد نحيت عن البلاط فى اواخر ايلول (سبتمبر) وانتقلت الى صومعة فى دير نوفوديفيتشى جنوب موسكو واتخذت لنفسها

اسم الراهبة سوزان .
وبداً حكم بطرس . وكان حسب الظاهر حكماً مشتركاً
مع اخيه الاكبر ايفان الذى وعد بطرس فى رسالته تلك بان
يحترمه احترامه لايه . الا ان ايفان المختل العقل ظل كالسابق
غير مهتم بشؤون الدولة ولا يتدخل فى شىء . وظل الحال
على هذه الصورة حتى توفى فى عام ١٦٩٦ . كان اسمه
يذكر فى كل الوثائق الرسمية ، وكان يحضر مراسيم الكريملين
ولا شىء آخر .

وعندما استلم بطرس السلطة كاملة لم يعرها اهتماماً
فقد ظل كالسابق مولعاً «بالعاب مارس» ، وانتقلت الادارة
الفعلية فى البلاد من الاخت المخلوعة الى ام القيصر ناتاليا ،
والمقرين اليها .

«العاب مارس» وحملتنا آزوف

كان بطرس يشارك فى مراسيم استقبال السفراء والمآدب فى الكرملين نزولا عند رغبة امه ، لكنه يتملص منها كلما حانت الفرصة ويتذرع بمختلف الذرائع ليذهب الى اصحابه او الى الاجانب لكي يطلع على شىء ممتع او يصنع شيئا نافعا فى الحال او فيما بعد . وكانت تثقل عليه الواجبات الرسمية المرتبطة بالمراسيم الموسكوية القديمة الرزينة وبدلات السهرات والخطب الطنانة . ويقول المؤرخ الروسى كلوتشيفسكى : لم يكن «بطرس يطبق اى اثر للتقييد والرسميات . فهذا الانسان المتسلط الذى تعود على الشعور بالسيادة فى كل مكان وزمان يرتبك ويتحير فى المواقف الاحتفالية وتتعسر انفاسه ويحتقن وجهه ويتصبب العرق منه عندما يقف امام العرش فى حلة القياصرة مضطرا الى سماع هدير رفيع اللهجة من مبعوث يقدم نفسه بحضور الحاشية» .

كان القيصر فى منتهى الحركة والعجلة والنشاط مندفعاً بحب الاستطلاع وكأنه يخشى ان يتأخر ويفوت شيئا هاما للغاية . ولذا تراه يسرع على ظهر حصانه الى الاماكن التى يخبرونه فيها بشىء جديد عليه او يصنعون له ما ينفع ويفيد .

ويبدو انه ادرك آنذاك قصور تعليمه فراح يتعلم على يد الجميع في كل مكان . واثار ذلك انتباه معاصريه . بعضهم كان ينظر بخوف وحيرة الى تصرفات القيصر ونوازه غير المفهومة . فهو بدلا من الحياة الوادعة وفقا للعادات المتبعة منذ القدم وطبقا لقواعد السلوك في بلاط موسكو ، وهى قواعد مهيبة رزينة ، تراه يترأض كالمهوس ويلتقى باناس ما انزل الله بهم من سلطان ، وخصوصا الزنادقة «اللاتيين» الاجانب ، ولا يستنكف عن الامساك بالفأس او الطبل بنفسه والمشاركة في بناء سفينة او اطلاق النفير داعيا الى القتال في ساحة العاب مارس او الانتماء الى شلة ممن لا حسب لهم ولا نسب فيحتسى معهم الخمر ويناقش الامور وسط الصخب والضجيج . والبعض الآخر ، من روس واجانب ، يقدرون الحاكم الشاب حق قدره ويحترمون قابلياته ومواهبه ويميله الى الجديد وولعه بالاسطول والصنائع ونواياه التى تتجلى فى جميع العاب التسلية التى علمت الجنود والضباط على الانضباط والفن العسكري . ولم يكن بطرس مهتما بقضاء اوقات الفراغ فقط واشباع حب الاستطلاع ، بل كان يتعلم من الآخرين ، ويعلمهم فى الوقت ذاته ، يعلم الروس بالدرجة الاولى ، ويعددهم للمآثر والافعال المجيدة المنتظرة .

عندما يبدى البعض رأيهم فى بطرس الاكبر يقعون احيانا فى خطأ مزدوج بشأن وجهة نظره فيما يخص دور مواطنيه والاجانب فى كل ما اقدم عليه من اصلاحات . فهم من جهة يقولون بانه اعتمد على الاجانب فى كل شئ ووثق بهم وحدهم فيما يخص مخططاته ونواياه . وكان يأخذ عن الغرب كل ما يحتاج اليه دون تفريق — الاسطوانات والافكار

والتصاميم . ومن جهة اخرى يقولون ان القيصر كان يستهين بكل ما هو روسي ولا يثق بالروس ويعتبر كل ما هو محلي منحجرا جامدا متخلفا . اما في الواقع فالامور اكثر تعقيدا من ذلك بكثير . فكل الدلائل تشير الى ان هذا الانسان النشيط الموهوب كان منذ نعومة اظفاره يفكر في روسيا موطنه ويسعى الى السير بها في دروب جديدة بمعونة الروس قبل غيرهم ، كان يريد ان يحرك المجتمع الروسي بارادته وطاقاته ، وبالفالقة عند الاقتضاء . كان مستاء من جوانب كثيرة في هذا المجتمع ، ويريد تصحيح الكثير وتجديده ، ولكنه ما كان ينوي تحويل روسيا الى نسخة مشوهة لبلد آخر مثل السويد او هولندا او فرنسا او بريطانيا . ثم ان ذلك شيء مستحيل لا يمكن تحقيقه لا في ذلك الزمان ولا قبله ولا بعده . وتلك حقيقة فهمها ايضا الاجانب الذين تعاون معهم بطرس بدرجات متفاوتة . فهو عندما استعان بمعارفهم وخبرتهم التي لا تخلو من الشوائب (حيث جاء الى روسيا كثير من المغامرين والكسالي والطفيليين من الغرب ، ممن نعتهم كلوتشيفسكى «بالمشردين الاعاجم») لم يكن يثق بهم جميعا دون تفریق ، بل كان يأخذ كل ما هو قيم وضروري ممن يقدرهم رفيع التقدير ، وكان يرغب ابناء جلدته على القيام بالشئ ذاته ويهتم بجعل هؤلاء الاخيرين يتقنون كل ما هو ضروري وينفعون روسيا ويعتمدون على انفسهم وليس على الاجانب . ومن بين الاجانب الكثيرين الذين عرفهم في تلك الحقبة كان يقدر اكبر التقدير ويحب ، دون شك ، فرانس ليفورت ، ذلك السويسري الحيوى المرح الطيب القلب الذى له تأثير كبير على بطرس . فقد قربه القيصر وجعله اميرالا (عندما لم يكن فى البلد اسطول !)

وانعم عليه بالهبات ، لكن ليفورت لم يخيب امل القيصر ولم يعمل ، مثلا ، على تقريب الاجانب والتضييق على الروس . بالعكس ، اوحى للقيصر الشاب انه بحاجة الى معاونين جديدين موهوبين من الروس قبل غيرهم . وكان بطرس فى الحقيقة يعمل بهذه النصيحة دوما مع اقباله الشديد على الاستفادة من معارف ومواهب الاسطوانات والخبراء والعلماء الاجانب .

وقد استولت هذه الافكار والمطامح على القيصر الشاب الذى تهيأت له اخيرا امكانية تحقيق ما يريد . لكن التحقيق الفعلى لا يزال بعيدا . وهو يتطلب عملا تمهيديا كبيرا . وكان المقيم الهولندى فون كيلر ، وهو احد الدبلوماسيين الاجانب الذين تواجدوا فى موسكو اثناء الايام العاصفة التى حدثت فيها المناوشة السياسية بين بطرس واخته ، يراقب القيصر فى اكتوبر ١٦٨٩ خلال عودته مع حاشية كبيرة من دير ترويتسا الى العاصمة . وسجل هذا الدبلوماسى النابه الشديد الملاحظة فى تقريره الى وطنه : «ان القيصر بطرس يتحلى بذكاء نادر وعين ثاقبة ويتميز فى الوقت ذاته بقدرة على كسب ود الآخرين . ويتحلى بميل شديد الى الشؤون العسكرية ، وينتظر الناس منه اعمالا بطولية ، ولذا يتصورون بانه حان الوقت لكى يحصل التتر على زعيم حقيقى لهم» (يطلق كيلر اسم التتر على جميع الروس من رعايا الدولة الموسكوية) .

هذا التقييم صائب على العموم . وليس فيه غير تسرع واحد هو ان كيلر يعتقد ان بطرس «كزعيم حقيقى» سيبدأ حالا مع رعاياه «بالاعمال البطولية» . وانطلاقا من خبرة تحليل شخصية واعمال بطرس الاكبر طوال اكثر من قرنين

يقيم المؤرخ الروسى س . سولوفييف قابليات ومواهب القيصر الشاب تقسيما اصح : «كان بطرس ، وهو فى السابعة عشرة من العمر ، غير مستعد بعد لادارة الدولة . كان يواصل التعلم والتربية بنفس الوسائل التى عثر عليها بنفسه والتى تناسب طباعه . كان القيصر الشاب لا يزال يفكر باللعب ، اما الرجل العظيم فقد ظهر فيما بعد ، وعند ذاك فقط بزغت فى العاب الفتوة بذور الاعمال الجليلة» .

غدا زمام السلطة فى يدى ناتاليا كيريلوفنا ، ام بطرس ، لكنها ، كما يقول كوراكين ، «لا تتحلى بعقل وفير ولا تجيد الحكم» ، ولذا عهدت بالامور الى اقربائها واقرباء ابنها والمقرين اليهما . وغدا شقيقها ليف ناريشكين البالغ من العمر ٢٥ عاما رئيسا لمديرية العلاقات الخارجية وللحكومة فى الواقع . وهو رجل متكبر متهور لا يتحلى بالذكاء ومدمن على المسكرات . وكان الرجل المقرب الآخر هو البويار تىخون ستريشنيف ، وهو ايضا من رجال البلاط الذين لا يتحلون بالذكاء ، بل هو شرير مراوغ من «اصحاب الدسائس» كما يقول كوراكين . وكان من اذكى الحاكمين الجدد الامير بويريس غوليتسين الذى ظل كما كان رئيسا لمديرية قصر قازان يتولى شؤون منطقة الفولغا ، وقد تدهورت الامور فيها حتى كادت تصل الى خراب مطبق . ثم ان كل هذه الشلة التى انضوى تحت لوائها كذلك آل لوبوخين ، اقرباء بطرس من جهة زوجته قد انهمكت فى اختلاس اموال الدولة والناس . وحذا حذوها سائر البويار والنبلاء وموظفى المديريات فى العاصمة والاطراف ، وبدأ «حكم غير نزيه» و«نهب فظيع واختلاس رهيب لاموال الدولة» .

وتحلفت حول بطرس «شلة» خاصة به فى بربوراجينسكويه
و«حى العجم» الذى اخذ يتردد عليه اكثر فاكثر . ففيه يقيم
الجنرالات والضباط الذين اشركهم فى «العاب التسلية» ،
بالاضافة الى مختلف الاسطوانات والصناع . وكان بطرس معجبا
بالجنرال باتريك غوردون الخبير بالشؤون العسكرية وتنظيم
الجيش الالمانية وهو رجل مطواع قليل الكلام ومخلص وامين .
وكان القيصر يتردد عليه كثيرا ويتناول طعام الغداء او العشاء
فى منزله ، ويبيت الليل فيه مع اصحابه . وكان «وزير اللوائيم
واللهو» محبوب القيصر ليفورت مستعدا دوما لاعداد مستلزمات
اللهو والتسلية ، حيث يقيم اللوائيم والحفلات الراقصة وينظم
اللقاءات مع آنا مونس ، وهى من نساء «حى العجم» ،
امراة مريحة ذكية ، نشيطة حادة اللسان ، بالاضافة الى ما
تتحلى به من جاذبية ، خلافا لسائر الحسنات الروسيات .
حتى زوجة بطرس ، اللواتى يتميزن بالتحجر والوساوس والخنوع
والممل والحقد والحماقات . وكان ولع القيصر الشديد قد ابعده
نهائيا عن زوجته يفدوكيا مع انها ولدت له ابنه الكسى .
وكان مينشيكوف اقرب الروس الى القيصر ، وهو من اصل
وضيع ، لكنه شاطر يجيد الخدمة ، ومع انه امى جاهل
(لا يجيد حتى كتابة اسمه) فانه مخلص اخلاص الكلب
لصاحبه ، وقد بدأ الخدمة من منصب بسيط ، مراسل ضابط ،
حتى وصل الى منصب القائد العام للجيش و«الحاكم الذى
يضاهى القيصر» . ويأتى بعده ابراكسين الذى صار اميرالا
فيما بعد ، وغولوفين قائد «قوات التسلية» ، وغولوفكين الذى
صار مستشارا فيما بعد . وشغل مكانة خاصة الامير فيودور
رومودانوفسكى القائد العام لفوجى الجند والملقب «بملك

بريسبورغ والقائد العام فريدريك» ، وفيما بعد لقب «الامير الحاكم» ، وكان بطرس بسميه مازحا «بالسير» ، و«الكونغ» اى الملك ويقدم له تقاريره عن سير الامور بوصفه واحدا من مرؤوسيه . ذات مرة صادف بطرس «الامير الحاكم» فى الطريق ونسى ان يخلع قبعته بحضوره ، ولذا تلقى توبيخا شديدا . استدعى رومودانوفسكى «ومظهره كالغول الرهيب وطباعه طباع الطاغية المستبد» حسب اقوال كوراكين ، القيصر وظل جالسا بحضوره وانهاى بالتوبيخ والتفريع على المدعى بطرس ميخائيلوف (هكذا كانوا يسمون بطرس فى «الشلة») :

— يا الهى ، ما هذه الكبرياء ، منذ متى صار بطرس ميخائيلوف لا يخلع القبعة بحضورى ؟

وبالاضافة الى هذه الواجبات الهزلية كان رومودانوفسكى يؤدى واجبات اخرى اكثر جدية ، فهو رئيس مديرية بروبراجينسكويه (مقر القيصر فى البداية) ومدير التحريات السياسية . كان «وزير السياط والتعذيب وغياهب السجون» هذا يثير رعب كل الذين تقع عليهم يده ، فهو يحب بنفسه ان يستجوب ويتحرى ويعاقب «العصاة» وهواة الكلام الطليق عن السياسة وشؤون البلاط وسلوك القيصر . وكتب فيبر ، سفير براونشويه فى بلاط موسكو ، عن رومودانوفسكى بانه «كان يعاقب المحكومين دون ان يأخذ رخصة من احد ، ولا جدوى من الشكوى من احكامه» . وكان بطرس يثق به بالكامل فى هذا المجال ايضا لان الامير الحاكم «لا يضاهيه احد فى اخلاصه لصاحب الجلالة» ، زد على ذلك ان نزاهته وصفاء ذمته يميزانه عن سائر الموظفين الفاسدين ومختلسى اموال الخزينة مثل مينشيكوف وغيره من الذين قريهم بطرس واحبهم .

وفي «سوح القتال» في برينبراجينسكويه كان «القائد العام فريدريك» يواجه أمر افواج القوات الخاصة بوتورلين ، وهو ايضا «قائد عام» و«ملك» لبولونيا تارة وسيميونوفسكويه تارة اخرى (فان مقر قيادته او «عاصمته» في سيميونوفسكويه) . وهو «رجل شرير سكير مرتش» . وكان مع عساكره لا يطيقون جند بريسبورغ . فان مناوراتهم ومعاركهم الاستعراضية التي تستخدم فيها ، بالمناسبة ، البنادق والمدافع والعبوات الناسفة والقنابل ، غالبا ما تتحول الى عراك فعلى . وكان كلا القائدين العامين قبيل المعركة يقفان عادة على ضفتى نهر ياوزا وينهالان على بعضهما البعض بالشتائم والسباب والاهانات «لاجل تأليب» جنودهم واستثارتهم بالشكل اللازم ، وبعد ذلك تبدأ التدريبات العسكرية — تحرك القوات واحتلال المواقع وحفر الخنادق والاخاديد والقصف المدفعى واطلاق نيران البنادق واخيرا الهجوم والاقترحام او المعركة العامة . وينتهى القتال عادة بانتصار جيش «القائد العام فريدريك» وهزيمة القوات الخاصة وتأسير ملك سيميونوفسكويه واقامة مأدبة مشتركة للغالبيين والمغلوبين .

كان بطرس من انشط افراد «الشلة» واكثرهم مرحا . وكان يعامل سائر افرادها ببساطة وود بدون ذكر المراتب والالقباب ، ويطالبهم بان يعاملوه بالمثل . كانت حاشية بطرس تتكلم خلط لغات ولهجات . فالى جانب الروسية كانوا يتكلمون ويكتبون بالالمانية والهولندية والفرنسية والانجليزية . وحتى مينشيكوف الذى لا يكاد يجيد كتابة اسمه بالروسية كان يتلفظ بعض الكلمات الاجنبية فى مخاطبة بطرس . ثم ان ليفورت الذى يجيد عدة لغات اوربية تعلم الروسية

بعض الشيء وصار يكتب الى القيصر كلمات روسية باحرف
فرنسية .

كان القيصر فى حركة دائمة ، فى جده وهزله ، يقيم
الاستعراضات وينظم الالعب العسكرية والالعب النارية التى
يعد متفجراتها بنفسه ، ويشارك فى بناء السفن والقوارب ويقوم
بتدشينها ويتجرب المدافع الجديدة ، ويتعلم على ايدى
المهندسين والمدفعيين واساتذة الرياضيات والنجارين ، ويستعير
الكتب من غوردون وغيره ويبحث فى طلبها من الخارج .
وفى القرص بين الاعمال والدروس يقيم مع شلته مآدب عند
غوردون او ليفورت ، او غوليتسين او عند خاله ناريشكين .
وامر بانشاء قصر على نهر ياوزا من اجل ليفورت المقرب اليه .
وفى هذا القصر كانت الشلة تنزوى ثلاثة ايام ، كما يقول
كوراكين المقرب الى القيصر والى الشلة المذكورة ، «لـاجل
سكر وعريضة يفوقان الوصف حتى ان البعض ماتوا بسببهما» .
ويبقى الآخرون يثنون ويتصورون لما عدة ايام ، اما بطرس
فكان فى اليوم التالى يمارس اشغاله وكأن شيئا لم يحدث .
وعندما كان بطرس يتحدث ببساطة مع اصدقائه وانصاره
المقربين اثناء الولاثم لم يكن ينسى ابدا انه قيصر ، واذا
نفوه احد افراد «الشلة» بكلمة غير لائقة فانه يشتاط غضبا
فى الحال . وعندما تستولى عليه نوبات الغضب يغدو رهيبا
بالنسبة للآخرين الذين ينتابهم الرعب فترتعد فرائصهم .
وكان يهدئه عادة ليفورت ، ثم ، فيما بعد ، مينشيكوف
ويكاترينا زوجته الثانية .

وكان بطرس مولعا اشد الولى بالعب نبتون (اله البحر)
ومارس (اله الحرب) . ولكى يغادر الكريملين ويذهب الى

اصحابه واسطوانته كان يتذرع بضرورة الرحيل الى دير ترويتسا لحضور الصلاة (وذلك عذر مشروع فى رأى امه والبطريك) او يتحجج بحجة اخرى . ذات مرة غادر البلاط وتسبب رحيله فى توتر الوضع . فقد وصل سفير بلاد فارس وكان يتعين على القيصر ان يستقبله ، فى حين لم يكن القيصر هناك . بحثوا عنه حتى وجدوه فى بحيرة بيرياسلاف ، وتوجه الى هناك كل اعضاء الحكومة تقريبا ليقتنعوه بالعودة الى العاصمة ، والا سيزعل السفير كما قالوا .

حاولت ناتاليا كيريلوفنا والبطريك يواكيم وسواهما من الغيارى على الاعراف القديمة ونقاوة الدين ان ينصحوا القيصر بالتعقل ويجعلوه يلزم الكريملين قريبا من الاسرة ويلتزم بالواجبات الرسمية ، ويقتنعوه بتقليل الاختلاط مع الاجانب . وفى عام ١٦٩٠ ، فى السنة التالية من تنحية صوفيا ولدت زوجة القيصر يفدوكيا ابنها الكسى ، وبهذه المناسبة اعد الاب الشاب فى الصالة المضلعة فى الكريملين «مأدبة المسرات» ودعا اليها كثيرا من الضيوف ، وبينهم غوردون . وطلب البطريك بلهجة حادة عدم دعوة هذا «الزندى» ، فتنازل له بطرس على مضض كيلا يغيظه ويغضب امه . لكنه اقام فى اليوم التالى وليمة جديدة فى مقره خارج المدينة ، وكانت فى الواقع خصيصا من اجل غوردون ، حيث ابدى القيصر عناية بالغة به .

وفى نفس تلك السنة توفى يواكيم فى اذار (مارس) . وتوسل يواكيم فى وصيته الى القيصرين ، باسم الاله الواحد القهار ، بألا يخالطا الاجانب الزنادقة ولا ينيطا بهما مناصب قيادية فى الجيش الروسى . «ولا يستخدما العادات الاجنبية

ولا يجريا تعديلا على الثياب وفقا للاذواق الاجنبية» . فالبطريك كان مرتعبا لان هؤلاء الزنادقة الملاعين يأكلون الحشيش «الزلطة مثل الدواب» ويتكلمون بلغات لا يفهمها الارثوذكس (وهذا ما جعل الناس من امثال يواكيم يعتبرون الاجانب الغربيين «اعاجم» لا يجيدون التكلم بلغتهم الروسية) .

ظل بطرس يتحمل هذه الامور لحين من الوقت . لكنه اخذ يتصرف على هواه بالتدريج ويطبق المستحدثات الضرورية بمزيد من السرعة . فى البداية تجلى ذلك فى تصرفاته الخارقة للعادة . كان يقدم عليها تارة ويتنازل عنها تارة اخرى متتهزا الفرصة الملائمة . فبعد شهر من وفاة يواكيم بعث فى طلب بزة اجنبية مريحة فى الحياة المنزلية ، وهى عبارة عن قمصنة المانية وجوارب وحذاء ، بالاضافة الى شعر مستعار وسيف معلق بسير مطرز بالذهب . لكنه كان يرتدى ذلك اثناء التردد على حى العجم فقط .

وسرعان ما دعت الحاجة الى انتخاب بطريك جديد فى المجمع الكنائسى . وبدأ البحث عن مرشح مناسب . واقترح بطرس ترشيح ماركيل مطران بسكوف ، وهو رجل ذكى متعلم . الا ان والده القيصر والمقربين اليها اعترضوا على ترشيحه ، وجاء اعتراضهم بروحية يواكيم ، فان ماركيل هذا يتكلم باثنتين من «لغات البرابرة» — اللاتينية والفرنسية ، وهو متعلم للغاية ، زد على ذلك ان لحيته قصيرة جدا . . . وتنازل بطرس هذه المرة ايضا ، فانتخبوا اديان مطران قازان الذى يتصف بخصال يريدها الغيارى على الاعراف القديمة .

اما فى بريوبراجينسكويه وبحيرة بيرياسلاف فقد جعل بطرس كل الامور تسير على ذوقه وهواه . وكان قد صمم على

اجتياز كل درجات الخدمة العسكرية ابتداء من ادنى الرتب .
وشارك فى معارك التسلية وهو فى تلك الرتب . وفى احدى
تلك المعارك انفجرت عبوة ناسفة قربة فاصيب وجهه بحروق
شديدة .

وفى ٤ ايلول (سبتمبر) ١٦٩٠ وقع فى معركة اخرى
عدد كبير من الجرحى . واصيب غوردون هذه المرة بحروق
فى الوجه وكدمات فى الساق ، فلزم الفراش حوالى اسبوع .
وشارك فى «معارك» ايلول افراد قوات التسلية ونبالة النبلاء
من جهة ، وفوج من القوات الخاصة من جهة اخرى . وفى
السنة التالية جرى «القتال» بين قوات اكبر ، بين جيشين احدهما
من القوات الخاصة والآخر من فوجى التسلية والجنود . ووقع
«القائد العام» بوتورلين اسيرا فى يد «القائد العام فريدريك» ،
وكان عدد الجرحى اكبر ، بل وقتل الامير ايغان دولغوروكى ،
وهو من المقربين الى القيصر .

كان غوردون الذى يقدره القيصر رفيع التقدير ، وهو انسان
واسع الاطلاع بارد الاعصاب حسن التنفيذ ، ينظر الى «العب
التسلية» بعين ساخرة ، وقد نعتها فى مذكراته بانها باليه
عسكرى . لكن المعارك الاستعراضية فى البر ومناورات الاسطول
الوليد قد فولدت كوادرا الجنود والبحارة والضباط والجنرالات
والاميرالات ، وربت المهارات والخصال القتالية .

وفى بحيرة بيرياسلافل انشأ براندت فرقطين صغيرتين
وثلاثة يخوت ، وبنى بطرس بنفسه فى نهر موسكو سفنا مجذافية
غير كبيرة . وفى نهاية صيف ١٦٩١ وضع القيصر فى بحيرة
بيرياسلافل اساس بناء اول سفينة حربية روسية . وكلف ببنائها
رومودانوفسكى الذى منحه القيصر رتبة الاميرال . ونقلت الى

هناك المواد والاعذية اللازمة . وساهم بطرس بنفسه فى بناء السفينة برغبة كبيرة . وفرغوا من انشاء السفينة وانزلوها الى الماء . الا ان سعة البحيرة لم تكن كافية للمناورات . وفى عام ١٦٩٣ سافر القيصر مع حاشية كبيرة الى ارخانجلسك التى كانت انذاك الميناء البحرى الوحيد فى روسيا . ورأى لأول مرة البحر والسفن الحقيقية الكبرى . فقد كانت فى المرفأ سفن انجليزية وهولندية والمانية جاءت بالجوخ والاصباغ والخردوات . وكانت البضائع الروسية (الاحشاب والقرء والكافيار وتيل القنب والجلود) تشحن الى سفن اخرى . وتفقد بطرس المرفأ باهتمام كبير وسأل عن كل التفاصيل وراح يفكر فى بناء الاسطول الروسى وتوسيع التجارة . وبواسطة ليفورت طلب سفينة كبيرة من الخارج وكلف مدير بلدية امستردام فيتزين بتجهيزها . وبناء على امر القيصر بدأ فى ارخانجلسك انشاء سفينتين . . وقام القيصر لأول مرة فى حياته برحلة فى البحر الابيض البارد المكفهر . وعاد الى موسكو فى الخريف . وفى كانون الثانى (يناير) من العام التالى توفيت والده القيصر التى يكن لها الحب والحنان والاحترام . وتحمل مصيبتها فى وحدة وألم وصمت . ولم يحضر مراسيم التشيع . كما لم يحضر مراسيم دفن ابنه الثانى الكسندر الذى توفى قبل ذلك ولم يتجاوز شهره السابع . ولعل القيصر لا يريد ان يكشف عن ضعفه امام الناس عندما يفقد احدا من اهله الاعزاء عليه . وفى اليوم الثالث بعد الدفن جاء الى قبر امه ويكى عليها وحيدا .

لكن الحياة تسير ، ونرى بطرس يتوجه من جديد الى ارخانجلسك فى نيسان (ابريل) . وقد ارسل الى هناك ذخيرة

وسلاحاً— أكثر من ثلاثين ألف كيلوغرام من البارود والف
بندقية . وكتب الى متصرفه فى ارخانجلسك واصدر اليه الاوامر
باسم «القائد العام» و«الاميرال» رومودانوفسكى . ورافقه ٤٠٠
شخص . واستقل السفن النهرية فى دفينا الشمالى وهو يعمل
نفسه بالامال وينعتها بالاسطول . واستحدث له علماً بثلاثة
خطوط احمر وازرق وايض . وفرح القيصر عندما وجد فى
الميناء السفينة جاهزة ، فانزلوها الى الماء فى ٢٠ ايار (مايو) .
وبعد شهر انجزوا بناء السفينة الثانية وانزلوها الى الماء ايضا
(فى ٢٨ حزيران — يونيو) . وفى ٢١ تموز (يوليو) وصلت
من هولندة السفينة التى بنيت حسب طلبه . وركب البحر
مرتين ، فى ايار وآب (اغسطس) فى البداية على يخت
«القديس بطرس» ثم على السفن . وفى كلتا الحالتين تعرض
للخطر بسبب الزوايج وسوء قيادة السفن . لكنه لم يصب
بمكروه . ورغم الخوف والمعاناة (فى المرة الاولى استعد
بطرس ومرافقوه للموت وقدموا قربان الاسرار امام الشماس
الذى رافقهم) احب بطرس البحر والاسطول مدى الحياة .
وكان انزال السفينتين الى الماء والنجاة من مخاطر البحر مدعاة
لفرحة عامة ، حيث اقيمت الولائم والافراح ، وكان القيصر
مغتبظاً سعيداً كطفل صغير .

وبعد كل الاختبارات والاحتفالات فى الاسطول الروسى
الذى كان فى طور البناء ، ظهر اميرال آخر هو ليفورت ابن
سويسرا الرائعة الخالية من البحار . . . وفى الخريف عاد بطرس
الى موسكو وغرق فى الاشغال من جديد . ففى قرية كوجوخوفو
بضواحي موسكو انشأ استحكامات مع كوى للرماية وحولها
سد ترابى بارتفاع ٣,٥ امتار وخندق . واعتصم فيها جيش

القوات الخاصة بقيادة بوتورلين . وحاصرتها واقتحمتها افواج جديدة بقيادة رومودانوفسكى (٧,٥ آلاف شخص) . وقبل بدء تلك المعركة اقام بطرس استعراضا عسكريا فريدا من نوعه . فقد اجتاز العاصمة بمسيرة احتفالية جيشا رومودانوفسكى وبوتورلين . وقرعت الطبول والنقاريات وتعالّت اصوات النايات . ومرت امام «القائد العام فريدريك» سرية بأمره بهلوان القيصر ياكوف تورغينيف وعلى رايته صورة عترة وراءها اقزام . وبين مدفعى فوج بريوبراجينسكى فى الامام يسير القيصر بطرس برتبة جندى اول مدفعية . وقد شارك فى المعركة فيما بعد بنفس هذه الرتبة .

واستخدمت كل اساليب خوض الحرب ، واعدت خططها مسبقا من قبل غوردون وغيره . وكان هناك سجل لمخططات المواقع والقوافل والقتال . فى البداية عقدوا جلسة للمجلس الحربى ناقشوا فيها العمليات الحربية المرتقبة . واستمرت تلك العمليات ثلاثة اسابيع وشارك فيها على العموم ، كما افاد كوراكين ، ٣٠ الف شخص ، ١٥ الفا من كل جهة . ويقول هذا المؤرخ ان من المستبعد ان يستطيع احد من ملوك اوربا ان يعد مناورات افضل من مناورات بطرس . واثناء تلك المناورات تفاوض الطرفان وحفر المحاربون خنادق واخاديد الغام وشنوا هجمات عديدة .

... وبعد تبادل الشتائم بين «القائدين العامين» الواقفين على ضفتى نهر موسكو ، جرى نزال بين عملاقين من الابطال . وبعد ذلك هجم جيش «فريدريك» واحتل القلعة بسرعة نسبيا . لكن الاحتلال لم يكن حسب الخطة المسبقة ، وسرعان ما سحب الجيش من القلعة ، واستمر حصارها بلا

استعجال وباقرب صورة الى ظروف المعركة الحقيقية . وكان
الجند وافراد القوات الخاصة يطلقون النار من المدافع والبنادق
ويقذفون العبوات الناسفة ويزرعون الالغام ويفجرونها . باختصار
كان الحصار والدفاع حقيقين . ويقول كيراكين «ان ٢٤ شخصا
قتلوا وجرح حوالي خمسين شخصا» اثناء المعارك . وقد ساعدت
تلك المناورات على تدريب الجنود والضباط . وفي اعقاب
المعركة اجتمع كل المشاركين فيها في وليمة في مخيم
رومودانوفسكى دفع تجار موسكو تكاليفها .

. وفي تشرين الاول (اكتوبر) ١٦٩١ طلب القيصر
ان يجلبوا له ميثاق الكنيسة . فطالع نصه وعمل بعض الوقت
في صياغة ميثاق «لشلتة» باسم «مجمع السكر والعريضة والمرح» .
وقد قلد القوانين والاعراف الكنسية بسخرية بالغة (كان بطرس
مؤمنا بالطبع لكنه يكره اشد الكره القساوسة وآباء الكنيسة
بما يتميزون به من تحجر ورياء ورجعية) . وجاء «الميثاق»
وثيقة هجاء للمراتب الكنسية والقساوسة والكهان وما اعتادوا
عليه من سكر ونهم وجشع وخشوع مفتعل وغير ذلك من العيوب .
لكن بطرس عندما اسس «مجمع السكر والعريضة» ليرص
صفوف «شلتة» من خلاله قد كرر بشكل ساخر نفس التسلسل
الهرمي الكنائسي واستخدم الشكل المطلق الطراز لتنظيم
«المجمع» ، وقام بذلك ، كما يفعل احيانا ، بخشونة وتعسف .
وعين معلمه السابق زوتوف رئيسا للمجمع . وترأس زوتوف
هذا مجلس الكرادلة المكون من ١٢ كردينالا وجرى في
الاول من كانون الثاني (يناير) ١٦٩٢ تنصيبه بمنابة الامير—
الاب الروحي — «سماحة الكبير ايانيكيتا مطران بريسبورغ وبطريك
عموم ياوذا وعموم حي العجم» . وهكذا جمعت هذه التسمية

الهزلية بين المنظمة الجديدة لاصحاب بطرس فى ياوزا وبين
اصدقائه الاجانب فى حى العجم . وعندما ينتسب عضو
جديد الى المجمع يسألونه على الطريقة الكنسية («تؤمن
بالله ؟») .

— تشرب الخمر ؟

— نعم .

وكانوا يقبلون من يتعاطى المسكرات ويعلنون من لا يتعاطاها
ويطردونه من الحانات وفقا لميثاق المجمع . وتنص الوصية
الرئيسية فى الميثاق على تعاطى المسكرات يوميا ، ويمنع
منعا باتا النوم بذهن صاح . وتنتخب كل المناصب فى المجمع
وفقا لاجراءات معينة وصارمة للغاية . فبالاضافة الى الامير
الاب الروحى والكرادلة توجد مناصب اخرى كالاسقف
والارشمندريت وغيرهما . وشغل بطرس مرتبة متواضعة فى
سلم «السكر» المعقد . فهو شماس اول المجمع . وهدف المجمع
هو تمجيد باخوس بالافراط فى الشراب المتواصل . وكان
هناك نظام صارم لتعاطى المسكرات ، «الخدمة باخوص
والحرص التزيه على الشراب المسكر» . وكانت هناك كتب
خاصة للصلوات والانشاد وثياب خاصة وكذلك قدسيات
ورئيسات اديرة للهزل والتنكيث .

وقد شاهد اهالى موسكو ، واهالى بطرسبورغ فيما بعد ،
حفلات المجون والسكر والعريضة التى اقامها المجمع . ففى
فترة الاعياد من ميلاد المسيح حتى التعميد كان مائتا عضو
من اعضاء «المجمع» يستقلون عشرات الزحافات ويجوبون
شوارع المدينة طول الليل منشدين صافرين ويترددون على
المنازل «بياركون» اهاليها الذين يطعمونهم ويسقونهم ويدفعون

لهم النقود مقابل «التبريك» . ويشربون كثيرا . وفي الصوم الكبير ، على العكس ، يقيم الامير—الاب المهرج موكب التوبة ، حيث يمتطي اعضاء «المجمع» الحمير والثيران ويركبون الزحافات التى تجرها الخنازير والماعز والدببة ، ويجوبون الشوارع والساحات فى معاطف فرائية مقلوبة على بطانتها . وكان تحقير الكنيسة بهذه الصورة لا بد وان يشر حفيظة المؤمنين ورجال الدين . وكانت تصرفات القيصر هذه قد خلقت له سمعة سيئة فى انظار الكثيرين ، ومن ذلك الحين انتشرت بين الناس شائعات تقول ان القيصر هو المسيح الدجال . واخذ بعض البويار ورجال الدين ينشرون الاقاويل عن القيصر ويستفزعون اختلاطه بالاجانب ويشجبون مستحدثاته واستهائته بالاعراف والعادات الروسية القديمة . فبعد وفاة امه شارك فى ٨ نيسان (ابريل) فى مراسيم عيد الفصح ، وبعد ذلك لم يره احد فى هذا النوع من المراسيم فى الكرملين . وكان الكثيرون يعتقدون بان «لمجمع المرح» تأثيرا فتاكا على نفسية القيصر وحاشيته ، فهو كفر وارتداد عن الدين ، شأن «مغازلته» للزنادقة من الكاثوليك واللوثريين .

عندما سخر بطرس من عيوب ونواقص رجال الكنيسة «جعل سلطته الشخصية موضوعا للسخرية» على حد تعبير كلوتشففسكى . وقد اطلق على رومودانوفسكى نعت القيصر والملك وصاحب الجلالة ، بينما نعت نفسه «بالعبد الحقير بطرس» . على هذه الصورة كان يمزح القيصر الواثق من نفسه ومن حاشيته ومن سلطته الوطيدة .

كانت تهجمات بطرس على الافكار والشخصيات التى ولى زمانها ، والعباب مارس ونبتون التى كان يمارسها انما

تخفى ، وراء حجاب من التنكيت والحدة والوقاحة الفظة ،
نواياه الجادة وافعاله البطولية المرتبة التى كتب عنها فون
كيلر . وفيما بعد تذكر بطرس نفسه آخر لعبة عسكرية ، وهى
اطول العابه واوسعها من حيث عدد المشاركين فيها فقال :
«عندما كنا آنذاك نمارس العاب مارس فى ضواحي كوجوخوفو
لم يكن فى اذهاننا شىء سوى اللهو والتسلية ، لكن تلك
الالعاب غدت مقدمة لافعال حقيقية» .

فى تلك الفترة كان القيصر فى الثالثة والعشرين . وقد
عرف وجرب الكثير حتى ذلك الحين . عرف وجرب الصالح
والطالح معا . دخل معترك الحياة وتفولد فيه سواء فى عام
١٦٨٢ اثناء الانتفاضة فى موسكو ، او بعد سبع سنوات
عندما انتهت المناوشة مع اخته واشياعها بانتصاره عليهم .
وقد استفاد من الامكانيات المرتبطة بسلطة القيصر المطلقة
(كان القيصر ايفان الذى اقتصر دوره فى الكريملين على حضور
المراسيم الرسمية بقضى سنواته الاخيرة بهدوء دون ان يتدخل
فى شىء) وانتفع منها بالقدر الكامل لصالحه ولصالح القضية
التي كرس نفسه لها دون رجعة ، الا وهى قضية تجديد
روسيا وتعزيزها ورفع منزلتها وعظمتها ، ورفع منزلته وعظمته
معه . ومما لا شك فيه ان هذا الرجل القوى المتسلط الذى
بذل جهده واجهد نفسه فى سبيل وطنه لم يكن يخلو
من الزهو والكبرياء ولا ينفر من بلوغ المجد بين معاصريه
واحفاده .

البطل الشاب الذى يلوح امامنا ، عملاقا من حيث
البدن والروح ، فى اوصاف معاصريه وصور الرسامين ، يوسع كنفه
ويشرع «بفعل حقيقى» ، لاسيما وان «بذور الافعال الجلييلة»

اخذت تنمو وتبزغ . وحان الوقت لرعاية السنايل وجنى المحصول .
 . . . في ارخانجلسك ، اثناء الاحاديث مع ليفوريت
وغيره من افراد «الشلة» ، ناقش بطرس موضوع البحر وضرورته
القصوى بالنسبة لروسيا . وقال اصحاب بطرس ان بحر الشمال
غير مناسب تماما للتجارة الواسعة والعلاقات الثقافية مع العالم
الغربي . والطريق اليه بعيد وصعب بسبب طول المسافة
والبرد الشديد . وبحر قزوين ، رغم سعته ، ما هو في الحقيقة
والواقع الا بحيرة ليس لها منفذ الى البحار الاخرى والمحيطات .
ولم يبق الا بحر البلطيق والبحر الاسود ، مع ان بحر الشمال
وقزوين لا يجوز اهمالهما . لكن بطرس في تلك الفترة ،
في اواسط تسعينات القرن السابع عشر ، قرر ان يؤجل قضية
بحر البلطيق . اما البحر الاسود فقد تصوره هو وحاشيته مكانا
مناسبا تماما للاعمال الجادة .

كان بطرس في فتوته قد قرأ «قصة الزمان» ، وهي سجل
تاريخي وضعه كاهن من كييف اسمه نسطور في بداية القرن
الثاني عشر . وقد ادهشته واعجبته اخبار حملة الامير اوليغ
على تسارغراد (الاستانة) في بداية القرن العاشر الميلادي
فهذا الحاكم بالذات قاتل قبل بطرس منذ ثمانية قرون تقريبا
في تلك الاماكن التي احتلها العثمانيون فيما بعد ، في اواسط
القرن الخامس عشر . وقد عاث هؤلاء مع تتر القرم فسادا
في الارض الروسية . وراح بطرس يفكر في «التأثر من الاتراك
والتتر على كل ما الحقوه من اضرار بروسيا» ويحلم بتكرار
مأثرة اوليغ وجنده . والاهم انه ظلت محلقة قضية العلاقات
مع امارة القرم التي استولت على الاراضي الروسية العريقة في
سواحل البحر الاسود واستمرت في غزواتها وحملاتها على الاقضية

الحدودية فى روسيا واوكرانيا . ودأبت عساكر القرم على اقتياد آلاف مؤلفة من الاسرى الروس ، وكانت موسكو ترسل الى باخشى سراى جزية بالمال والفراء . وكانت امارة القرم تعيق تطوير التجارة الروسية فى منطقة البحر الاسود الذى كان يسمى بالبحر الروسى فى قديم الزمان

. . . . كان اوار حملتى القرم قد خفت ، والقائد العام غوليتسين الذى لم يعد بالامجاد يريزح فى غياهب المنفى . اما بطرس الذى نفاه الى هناك فهو يخطط لحملة فى نفس ذلك الاتجاه الجنوبى ، ولكن ليس فى اتجاه القرم مباشرة ، من خلال السهوب المترامية الاطراف ، بل بانحراف نحو اليسار ، على نهر الدون ، الى مصبه ، حيث تقع قلعة آزوف العثمانية . وفى شتاء ١٦٩٤ — ١٦٩٥ كان القيصر ليل نهار يناقش خطة الحملة المرتقبة مع اصدقائه وانصاره . وبلاضافة الى الملابس المذكورة اعلاه كان القيصر مدفوعا بالمطالب الملحة من جانب النمسا وبولونيا شريكى روسيا فى «الحلف المقدس» المناهض للاستانة والذى تشكل فى ثمانينات القرن السابع عشر . وكان البطارقة الارثوذكس اليونانيون الذين اضطهدهم العثمانيون ينادون ايضا بمكافحة الكفرة . وكتب بطرسك اورشليم دوسيقيوس يلوم موسكو قائلا : «التتر زمرة تنباهى باستلام الجزية منكم ، ولما كان التتر من الرعايا العثمانيين ، فانتم ايضا ، والحال هذه ، من الرعايا العثمانيين» .

وترتبط بالحملة على قلعة آزوف العثمانية التى تسد منفذ الدون الى بحر آزوف والبحر الاسود مطامح بطرس الشخصية . فان انتصاره فيها يمكنه ، كما تصور ، من السفر الى بلدان اوربا الغربية مكللا بامجاد النصر الحربى المؤزر وبهالة القائد

المنتصر . وكان ليفورت يلح عليه دوما بالسفر ، فهو يريد الخير لروسيا ولقيصرها الموهوب الرائع صديقه العزيز . وقد تمكن ليفورت من اقناع القيصر بضرورة السفر الى اوربا ، فقد تحمس بطرس لهذه الفكرة لانه سيرى الكثير مما هو نافع لوطنه وله شخصيا ، كى يستخدم فيما بعد كل ما له قيمة فى الوطن . ولكن هل يجوز ان يسافر خالى الوفاض ؟ سيجد صعوبة والحال هذه فى التعامل مع ذوى الشأن فى اوربا . ثم ان الحملة يجب ان تبين بان العاب مارس فى بربوراجينسكويه وكوجوخوفو لم تكن دون جدوى ولم ينظمها هو ، قيصر روسيا ، عثا . لقد حان الوقت لكى يسطر الجيش آيات البطولة فى معارك حقيقية .

وفى ٢٠ كانون الثانى (يناير) ١٦٩٥ صدر لكل العسكريين امر بالتجمع من اجل حملة على القرم بقيادة البويار بويرس شيريميتيف . واعلن ابان هذه الحملة تكرار للطريق التقليدى الذى سلكته العساكر فى عهد صوفيا وغوليتسين . لكن هذا كان مجرد حيلة او ، كما يقال الآن عادة ، مجرد مناورة دعائية لستر الهدف الحقيقى ، وهو الحملة على سعد الاسلام ، وذلك هو الاسم العثمانى لقلعة آزوف . وكان يتعين تدمير معقل السيطرة العثمانية هذا فى مصب الدون .

تحركت عساكر شيريميتيف على امتداد الدنيبر نحو اسفله باتجاه القرم . وكانت لعملياتها اهمية ثانوية ، ومع ذلك استولى شيريميتيف الذى غدا فيلدمارشالا فيما بعد على اربع قلاع عثمانية على الدنيبر ، حيث دمر قلعتين وترك حاميتين روسيتين فى القلعتين الاخرتين .

لكن الاحداث الرئيسية جرت شرقى المنطقة ، على نهر

الدون . وقد خصص للحملة على آزوف ٣١ الف رجل من الافواج الروسية المختارة . نصفهم توجهوا من موسكو في ٣٠ نيسان (ابريل) بالطريق المائي بقيادة غولوفين وليفورت . واستقلت العساكر السفن في انهار موسكو واوكا والقولغا . ووصلت الى تساريتسين في ٨ حزيران (يونيو) . ومن هناك سارت ماشية حتى بلدة بانشين القوزاقية على الدون . وحمل الجنود وسحبوا بانفسهم المدافع والذخيرة ، لان الوقت لم يتسع لتحضير العدد الكافي من الخيل . وحدث الشيء ذاته لاحتياجات الاغذية التي تقرر ان تجمع في بلدة بانشين . فالمقاولون لم يجلبوا الاغذية في الموعد المحدد ولم يحضروا بانفسهم ، فدعت الحاجة الى البحث عنهم في مدن اخرى . ولم يكن هناك ملح طعام . واجتمعت العساكر في بانشين بعد جهد جهيد . وكان القيصر ينتظر في هذه البلدة . وانحدرت مع مجرى النهر حتى وصلت آزوف في ٢٩ حزيران (يونيو) . ووصلت كذلك عساكر غوردون بالطريق البري . وكانت قد تأخرت كثيرا ، بسبب ضرورة مد جسور على الانهار وقمع عصيان افراد القوات الخاصة .

وبدا حصار آزوف . استمر الحصار ثلاثة شهور ولم يعد على السلاح الروسى بالامجاد . فان تنظيم الحملة من البداية فيه عيوب خطيرة . كان هناك امام اسوار القلعة العثمانية ثلاثة قادة ، فلم يكن للجيش الروسى قائد واحد . وكان الثلاثة — غولوفين وغوردون وليفورت — على خلاف فيما بينهم . وانعدم التنسيق بنفس الصورة في العساكر نفسها ، وتجلى ذلك ، مثلا ، في اختلاف مواعيد عملياتهم اثناء الحصار . ونقد صبر «الجندي اول مدفعية بطرس» كما كان حاله عادة

في العاب ضواحي موسكو . لكن الجيش الروسى يواجه قلعة عثمانية ممتازة وليس قلعة العاب في بريسبورغ . فالقلعة العثمانية مطوقة بصفين من الاسوار الحجرية ويسد ترابى وخندق . وامامها ، على ضفتى الدون برجان تمتد بينهما ثلاث سلاسل حديدية تمنع الحركة فى مجرى النهر وتقف حاجزا امام السفن . ولم يكن هناك اسطول روسى بالمعنى الحرفى للكلمة اثناء حصار آزوف ، ولذا وصلت الامدادات والاغذية العثمانية عن طريق البحر دون عائق . وقد عزز العثمانيون حامية القلعة بعد ان عرفوا بالحملة مسبقا . ولم تكن ضربات المدفعية الروسية شديدة . فالقصف الذى شارك فيه جندى المدفعية الاول بطرس ميخائيلوف لم يلحق ضررا يذكر بالعثمانيين ونحسيناتهم . وزرع الروس الغاما تحت تلك التحصينات ، لكن انفجارها الحق بالروس انفسهم اضرارا اكثر مما لحق بالعدو .

صحيح ان الروس استولوا على كلا البرجين . ونظموا هجوما على القلعة فى ٥ آب (اغسطس) وفى اواخر ايلول (سبتمبر) ، لكنهم لم يحققوا نصرا . وتكبدا خسائر كبيرة . ذات مرة فر الى العثمانيين من المعسكر الروسى بحار هولندى اسمه ياكوب يانسين وحدثهم ، فيما حدثهم ، عن عادة الروس فى النوم بعد الغداء . فدبر العثمانيون اثناء ذلك هجوما على مقر لىفورث وقتلوا عدة مئات من الجنود الروس النائمين ولم ينسحبوا الا بضغط عساكر غوردون الذين وجدوا منفذا من المازق . وسقط عدد كبير من الخسائر اثناء الهجمات وحفر الاتفاق والتفجيرات . بينما كان بطرس يبعث رسائل مهددة الى موسكو . الا ان سوء التحضير للحملة والاستعجال فى

الهجمات وقلة الحذر وعدم المهارة فى بعض الحالات (فى الاسطول وزرع الالغام وادارة القوات) كل ذلك ارغم بطرس على اصدار امر بالانسحاب فى بداية تشرين الاول (أكتوبر) . واقرن الانسحاب ايضا بخسائر كبيرة بالارواح ، فقد غرق الكثيرون فى فيضان الدون ، ومات آخرون من الجوع والبرد عندما اجتازوا السهب حتى فالويكى ، اول مدينة روسية فى الجنوب . وبدأ الشتاء مبكرا ، ولم يكن الجنود يرتدون بزة الشتاء . وتبدلت لهجة القيصر فى رسائله الى موسكو ، ونعت صراحة الحملة الحربية الفاشلة «بحملة عدم فتح آزوف» . ومن ذلك الحين لم يكن من عادات بطرس ان ينساق وراء اليأس والقنوط بعد اول هزيمة . فقد تضاعفت طاقاته واتخذ اجراءات فورية ، حيث اناط قيادة القوات البرية بالقائد العام شين ، واناط قيادة الاسطول الذى كان يتعين بناؤه بالاميرال ليفورت . وفى تشرين الثانى (نوفمبر) اعلن عن تجمع المتطوعين من النبلاء ، وفى كانون الثانى (يناير) دعى جميع الراغبين ، بمن فيهم الاقنان من خدم القصور ، الى الانخراط فى الجيش للمشاركة فى الحملة الثانية على آزوف . وحصل هؤلاء الاخيرون على الانعتاق فورا . واستفاد عدد كبير منهم من مرسوم القيصر .

وبعد ذلك انشأ بطرس احواض بناء السفن فى فورونيج وضواحيها . ولم يأت اختياره لهذه الاماكن من قبيل الصدفة . فعلى ضفاف نهري الدون وفورونجا كانوا من قديم الزمان يبنون القوارب النهرية المسطحة القاع ويستخدمونها فى نقل الحبوب وغيرها من الاحتياجات الى قوزاق الدون ، ويقيمون الاتصالات معهم طوال القرن السابع عشر بكامله . ونمت حول فورونيج

اشجار صنوبر جيدة صالحة لبناء السفن ، لكن الكثير منها قد اقتطع . واستخدمت تلك الاشجار هذه المرة ايضا . وفي الشتاء توجه بطرس الى فورونيج وتابع بناء السفن عدة اشهر واستخدم الفأس بنفسه أكثر من مرة . واقتيد الى هذه المنطقة من المدن القريبة ٢٦ الف نجار . وكان من معوقات البناء صعوبة العمل والاستعجال وبرد الشتاء والحرائق . وفي ٢٩ كانون الثاني (يناير) توفي فجأة القيصر ايفان ، الاخ الاكبر ، فارتحل بطرس لحضور التشييع . لكنه عاد في الحال ، مع ان قدمه تؤلمه بشدة . واعطت الجهود والالام النتيجة المطلوبة ، ففي مطلع نيسان (ابريل) اخذوا ينزلون السفن الى الماء ، ولم يكن عددها قليلا : ٢٣ زورقا مجذا فيا وسفيتين و٤ صنادل اعتراضية و ١٣٠٠ قارب مسطح . ووصلت الى فورونيج قوات باربعين الف رجل . وفي ٣ آيار (مايو) تقدمت كوكبة طويلة من السفن هابطة مع مجرى الدون . وركب الزورق المجدا في «بريتسيوم» الكابتن بطرس ألكسييف (القيصر) الذي بناه بنفسه . وبالإضافة الى قوات بطرس كان من المقرر ان يحارب في معركة آزوف قوزاق الدون وزابوروجيه . وفي اواخر ايار (مايو) بلغ الجيش الروسى مواقع العام الفات . فجدها وبدأ قصف قلعة آزوف . وانهمك ١٢ الف شخص ليل نهار فى تشييد سد ترابى ليكون اعلى من اسوار القلعة . وحاول العثمانيون المحاصرون ان يعيقوا بناء هذا السد الذى اقترح بناءه غوردون ، لكنهم صدوا واعيدوا على اعقابهم . وتم تطويق المدينة من جميع الجهات وفي النهر قاتل الاسيطليل الروسى . فى البداية كان القوزاق فى سفن غير كبيرة يدمرون السفن العثمانية التى تفرغ حمولتها

قرب اسوار القلعة ، ثم خرجت عمارة روسية الى عرض البحر ، حيث تقف سفن عثمانية كبيرة تقل ٤ آلاف من المشاة واحتياطات الاغذية والذخيرة ، فمنعتها من دخول مصب الدون والوصول الى القلعة المحاصرة .

وكان بطرس يجول ويصول في كل مكان . فقد رأى الناس «جندى المدفعية الاول» هذا على متون السفن وجنب اسوار القلعة يقصفها بنفسه من المدافع . عرفت شقيقته ناتاليا بذلك وكتبت له عن قلقها عليه فاجابها : «اقول لك اننى شخصيا لا اقترب من القنابل والرصاص ، فهى نفسها تقترب منى ، فاطلبى منها الا تفعل ذلك . ولكن مع انها تقترب منى ، فهى حتى الان تفعل ذلك برفق وتأدب» .

واستسلمت الحامية العثمانية بعد ان يثست من الخلاص . واشترطت قيادتها الحفاظ على حياة جنودها وعوائلهم ومغادرة القلعة بسلاحهم الشخصى . لكن بطرس اصر على تسليم «الخائن ياكوب» يانسين وبعض المنشقين الفارين . وكسب المتصرون ١٣٦ مدفعا .

وبعد مأدبة فخمة وألعاب نارية بهيجة امر بطرس بترميم القلعة المدمرة التى دخلها الروس فى ١٩ حزيران (يونيو) . وسرعان ما وجلوا مرفأ صالحا للأسطول فى تاغانروغ . وكتب القيصر فرحا الى الامير رومودانوفسكى والحاشية فى موسكو عن انباء النصر . وفى رسالة الى فينيوس اعرب عن رغبته فى اقامة قوس النصر اثناء عودة القوات الى موسكو «لتكريم القائد العام شين وسائر السادة الذين بذلوا جهدا كبيرا للغاية طوال عامين» . وكان ذلك شيئا جديدا على الروس وغير معتاد بالنسبة لهم . اما القيصر فيتدخل فى كل تفاصيل الاحتفالات المرتقبة ،

حيث يقرر بناء قوس النصر ويحدد موقعه وكيفية سير المتصرين وغير ذلك .

ترك القيصر حامية في آزوف وغادرها مع قواته في آب (اغسطس) . لكنه تأخر في الطريق . فلم يكن مستعجلا ، لان قوس النصر في العاصمة لم يكتمل بناؤه بعد . كان القيصر يتوقف في ضيعات اشباعه تارة ، ويزور مصانع التعدين في تولا تارة اخرى . وفي احد تلك المصانع ، في الطريق الى فورونيج ، اخذ معه مسلما اجنيا رائعا الصنع ، لكن ترباسه مكسور ، وبحث عن نيكيثا ديميدوف الذى قيل له انه اسطى ماهر . وتعرف عليه وترك عنده المسدس المكسور . والآن في طريق العودة الى موسكو جاء بطرس من جديد الى ذاك المصنع وسلمه الاسطى المسدس الانف الذكر . تفحصه القيصر وقال بمتهى الارتياح :

— ما اروع هذا المسدس ، هل سيطول بى العمر حتى يصنع رعاياى فى روسيا مثله ؟
فاعترض ديميدوف قائلا :

— ربما نحن افضل من الاعاجم .
لم يعجب بطرس بهذا التباهى ، كما ظن ، وصفع الاسطى بشدة :

— فى البداية افهم الحقيقة يا صاحب الجلالة ثم يمكنك ان تتباهى !

— فى البداية افهم الحقيقة ، يا صاحب الجلالة ، ثم يمكنك ان تصفنى . المسدس الذى فى يد جلالتك من صنعى انا . اما المسدس الاجنبى فهذا هو—ومد يده الى بطرس بالمسدس الاجنبى المكسور .

— اعذرني يا اخي . ارى انك ماهر حقا .

ومن هذا المشهد المتميز الذي كثيرا ما نصادف مثله في العلاقات بين الحاكم الروسى المطلق ورعاياه بدأ كما تقول الروايات علو منزلة آل ديميدوف الذين غدوا فيما بعد من اصحاب المصانع في الاورال ومن اغنى الصناعيين في روسيا ، ومنحوا القاب البارونات . فبعد ذلك الحديث والصفحة امر بطرس بان يدفعوا الى الاسطى من الخزينة خمسة آلاف روبل لبناء مصنع للسلاح ، وفيما بعد برر ديميدوف الآمال التي علقها عليه القيصر ، فكان على مستوى متطلبات البلد السريع التطور .

... وفي اواخر ايلول (سبتمبر) وصل القيصر الى كولومنسكويه بضواحي موسكو ، كما وصلتها القوات المنتصرة . واخبروه بان قوس النصر جاهز ، فدخل جيش بطرس العاصمة ، ولكن ليس وسط زنين نواقيس الكنائس ، كما في الماضي . سارت الازتال عبر موسكو والكرملين ممتدة كيلومترات عديدة . ومرت تحت قوس النصر الذى يبلغ ارتفاعه عشرة امتار ، وهو مزين بمنحوتات ونصوص فى مواضيع من الادب الاغريقى (مارس وهرقل) ومن الانجيل ، ولوحات وكتابات بخصوص حصار ودخول آزوف . وتقدم الموكب الامير-الاب الروحى نيكيثا زوتوف فى عربة فخمة . وتبعه ليفورت الذى لم يحقق المآثر فى الحملة ، فقد اشتد عليه المرض ولم يترك له مجالا كبيرا للقتال . وقد وصل الى آزوف ، كما لاحظ الجميع ، فى آخر الناس ، وتركها قبل الاخرين . لكن تأييده الاخوى للقيصر ومشاركته وتفاؤله الدائم كل ذلك لا يقل اهمية عما سواه . وسار بطرس نفسه

فى بدلة المانية سوداء وقبعة بريشة بيضاء خلف ليفورت الذى يرتدى ائمن الثياب . واثار بطرس بمظهره هذا دهشة اهالى موسكو . فالروس لم يتعودوا على رؤية قيصرهم بمثل هذه الهيئة قبل اعتلاء بطرس العرش . كانوا يرون القيصر بصورة شخص مهيب يضاهى الاله يخيم عليه الصمت وتحيطه الاسرار . اما الان فالقيصر يسير ماشيا كجندى بسيط .

ثم يأتى الجنود يجرجرون ١٦ راية عثمانية استولوا عليها فى آزوف . وكانوا يقودون عربة مكشوفة عليها ياكوب يانسين بثياب عثمانية وجنبه مشنقة وفأسان مغروزان فى قرمة . وعلى رقبة الخائن انشودة ، وعلى صدره رقعة كتب عليها «مجرم» . انتهت الاحتفالات والولائم . واعد يانسين على مرأى من الناس . وكان من اللازم تثبيت الانجازات ، فاتخذت الاجراءات لاستيطان آزوف وتاغانروغ . ونزحت الى هناك عوائل بكاملها من بسطاء الناس للاقامة الدائمة ، كما توجه الجنود لتعزيز الحاميات . وعقد القيصر جلسة لمجلس دوما (البويار) فى ٢٠ تشرين الاول (أكتوبر) ، وقرر المجلس ارسال ٢٠ الف شخص لبناء تاغانروغ . واصدر المجلس قرارا موجزا وهاما للغاية «ببناء السفن البحرية» . صحيح ان الخزينة خاوية ، ولذا تقرر فى جلسة الدوما فى ٤ تشرين الثانى (نوفمبر) تشكيل شركات من ملاك الاراضى واصحاب الفلاحين ، اى من الاقطاعيين الاهلين والدينيين والتجار الاثرياء . وكان عليهم ان يؤمنوا بصورة مشتركة مستلزمات بناء ٥٢ سفينة حربية فى غضون عامين ، ولا يمكن لروسيا ان تثبت اقدامها عند البحار الا بهذا العدد من السفن .

كان بناء الاسطول المتكامل الكبير الذى يحول روسيا

الى دولة بحرية لا يزال بعيدا ، لكن الاستيلاء على آزوف كان هو البداية ، وها هم الان يواصلون السير بنفس تلك الوثائر السريعة جدا . لقد صدر القرار وبدأ تأسيس الشركات وراحوا يسجلون انتساب الاثرياء والوجهاء اليها . وبعث بطرس طلبيات الى البندقية واماكن بحرية اخرى واخذ اسطوات بناء السفن يتقاطرون منها مندفعين باغراءات الرواتب الضخمة . وبعد عامين ، فى تشرين الاول (اكتوبر) ١٦٩٨ توجه بامر من القيصر الى ايطاليا (البندقية خصوصا) وبريطانيا وهولندا ٦١ شابا روسيا ، عشرون منهم من عوائل الامراء ، لدراسة قيادة السفن «فى حالة القتال وفى الرحلات العادية» . ونصح المتفوقون فى الدراسة والراغبون فى تحقيق المزيد بان يصبحوا كذلك اسطوات فى بناء السفن . وخصص لكل من اولئك الطلبة جندى او عريف يتعين عليه ايضا ان يدرس الشؤون البحرية ويتضلع فيها على حساب الخزينة وليس على حسابه الخاص مثل سيده . وعندما املى القيصر امره تصور طبعا دموع الطلبة وخوف واعتراض الوالدين المفجوعين . ولذا املى بندا خاصا نص على رحيل هؤلاء الاشخاص من كل بد دون اية مماطلة . ويعاقب العاصى بحرمانه من الاراضى والاموال والرتب والالقاب . وتذمر الوجهاء وتذمر بسطاء الناس الذين تقع على كاهلهم بالدرجة الاولى اعباء مستجدات بطرس .

وفى عام ١٦٩٨ دشنت السفن التى نصت على بنائها قرارات الدوما واوامر القيصر . واستمر انشاء مرفأ تاغانروغ . وفكر القيصر بشق قناة تربط بين الفولغا والدون من خلال نهري ايلوفلا وكاميشينكا . لكن هذا المشروع ظل دون ان ينفذ ، فقد غطت عليه مشاريع وخطط اخرى ، وكان عددها فى

ذهن القيصر بطرس كبيرا جدا . . .

وانخرط عدد متزايد من الناس في تنفيذ افكار ومبادرات بطرس واشياعه . وبارادة القيصر عمل الآلاف من عامة الناس والكثيرون من ابناء الوجهاء في مختلف الاماكن داخل البلد الشاسع وخارجه . ولكن كان هناك متدمرون اهتم بتهدئتهم «الغول» رومودانوفسكى وازلامه ورجاله . ولم يقتصر الامر على «الغول» وازلامه ، فقد اضطر القيصر نفسه الى مواجهة هؤلاء العاصيين والمتآمرين . ففي بداية عام ١٦٩٧ حرر الراهب العجوز ابراهام ، وهو من رهبان دير اندريفسكى في ضواحي موسكو ، رسالة انتقد فيها سوء سلوك القيصر وسلمها الى القيصر نفسه . وتناولت الرسالة «العاب القيصر المعظم التى لا موجب لها» ، وعدم سماعه لنصائح امه وزوجته واقاربه والبويار . وطلب الراهب العجوز مقابلة شخصية مع القيصر ليوضح له وجهها لوجه تصرفاته الشائنة ويدله على الصراط المستقيم . وبدلا من ذلك وجد العجوز نفسه فى برائن الامير رومودانوفسكى . واعترف تحت التعذيب بانه يجتمع فى حجرته بالدير مع ما يشبه العصبة من المتدمرين الذين يتناولون بالشجب والتحليل احداث البلاط وسلوك القيصر الذى يلتقى بالاجانب ، فى حين لا يلقى بالشعب الروسى ان يفعل ذلك . ويقولون ان القيصر يحضر التعذيب ويشارك فيه شخصيا . ويشجب المتدمرون زيارات القيصر الكثيرة الى حى العجم وولعه ببناء السفن ومشاركته فى استعراض القوات . فلا يلقى ببطرس ان يفعل ذلك ، فهو قيصر على اية حال . وكانت عقوبة افراد العصبة خفيفة نسبيا ، فقد ضربوهم بالسياط ونفوهم .

وكانت هناك عصبة اخرى من المتدمرين لم يكن نصيب

افرادها عقوبة خفيفة كهذه . وافراد العصابة هذه المرة من المدنيين الذين يحتلون مناصب كبيرة نسبيا . وقد تزعمهم مقدم من القوات الخاصة اسمه تسيكلر ، وهو اجنبى متروس التزم فى احداث ١٦٨٢ جانب صوفيا وآل ميلوسلافسكى ، وبعد سبع سنوات انتقل الى صف بطرس على امل الحصول على ترقية سريعة فى الخدمة . وبالفعل حصل على رتبة عالية وصار آمرا لفوج من القوات الخاصة . ونخدم فترة فى قرية سيبرية نائية ، ثم فى آزوف وفى مشروع بناء مرفأ تاغانروغ . وكان ذلك قليلا على هذا الانسان الطموح الذى يحلم فى ترقية سريعة فى العاصمة . وكان يعتبر تعيينه فى المناصب التى خدم فيها عقوبة . زد على ذلك ان اثنين من ابنائه ارسلوا للدراسة فى الخارج مع سائر الذين ارغموا على ذلك . لكن القيصر على ما يبدو لم ينس صلاته القديمة بآل ميلوسلافسكى ، ولذا فضل ابعاده عن موسكو ، فاضمر تسيكلر غيظا تحول الى حقد على القيصر . وبمر السنين اشتد هذا الحقد فدفعه الى وضع خطة لقتل بطرس . وراح يقنع افراد القوات الخاصة :

— عندما يغادر القيصر مديرية العلاقات الخارجية يمكنكم ان تتربصوا به وتقتلوه .

وبالاضافة الى بعض آمرى القوات الخاصة وممثلى قوزاق الدون الذين يحلمون بالانتفاضة على بويار موسكو شارك فى المؤامرة سوكوفنين ، وهو من انسباء تسيكلر ، والبويار بوشكين وكذلك اقرباؤهما .

وتسرب نبأ المؤامرة الى بريوبراجينسكويه . وكان بطرس يتهيأ للسفر الى الخارج ، فأجل سفره وراح يشارك فى التحريات

وفى استجواب المذنبين الذين تعرضوا لتعذيب لا رحمة فيه على مرأى منه . ويبدو ان ذكريات انتفاضة القوات الخاصة وآل ميلوسلافسكى وآلام عهد الطفولة قد اثارت غضبه . واعدم فى بريوبراجينسكويه المتآمرون الرئيسيون تسيكلر وسوكوفين وبوشكين واثنان من آمرى القوات الخاصة واحد القوزاق . وصدر حكم مجلس الدوما بهذا الخصوص فى ٢ آذار (مارس) ، ونفذ حكم الاعدام فى اليوم التالى . وقد حدد القيصر نفسه حكم الاعدام وكيفية تنفيذه . فى البداية استخرجوا من القبر تابوت ميلوسلافسكى الذى يعتبره بطرس ، الى جانب صوفيا ، زعيما لعصيان افراد القوات الخاصة فى عام ١٦٨٢ ، كما يعتبره الان ملهما فكريا لمؤامرة تسيكلر . ووضعوا التابوت على زحافة تجرها الخنازير واوصلوه الى بريوبراجينسكويه ووضعوه تحت منصة الاعدام . وسالت دماء المتآمرين على رفات ميلوسلافسكى . وفى اليوم التالى عرضت رؤوسهم مغرورة على اعواد فى العاصمة ليراها الناس وترتعد اوصالهم .

ظل شبح عصيان القوات الخاصة ودسائس صوفيا والخصوم الآخرين يلاحق بطرس امدا طويلا . وظل هذا الرجل الذكى الفذ حتى آخر عمره دون ان يفهم ان هناك فارقا بين اخته المتسلطة واشياعها الوصوليين المتكابرين وبين سائر افراد القوات الخاصة وغيرهم ممن تعرضوا للاهانات ولم تكن لهم ، فى اوضاعهم العصبية التى لا تطاق احيانا اية صلة بسائر آل ميلوسلافسكى وخوفانسكى وغيرهم من الوجهاء . فان تدمير هؤلاء واولئك من النظام القائم ومن سير الاحداث له اسباب مختلفة مثل اختلاف مطامح ومطالب الطرفين . ان لقوانين السلطة والصراع من اجلها اشكالا خاصة تتجلى فيها وغالبا

ما لا تسر الآخرين . وهذا ما شعر به الروس بالكامل على اختلاف مراتبهم ، من وجهاء و«وضعاء» ، فى بداية عهد بطرس الذى نعتة المؤرخ الروسى المعروف م . بوكروفسكى ذات مرة بانه اقصى ابناء آل رومانوف ، كما شعروا به فى السنوات الاخيرة من حكمه .

«البعثة الكبرى»

قال بوشكين في ملحمة «بولتافا» عن بطرس الاكبر انه «فتح نافذة على اوروبا» . وكان يقصد معركة بولتافا التي حددت سير حرب الشمال ونتائجها النهائية بالنسبة لروسيا ، اى وصولها الى بحر البلطيق وتوسيع صلاتها مع اوروبا الغربية . كل ذلك صحيح . الا ان بطرس حاول ان يفتح هذه «النافذة» من قبل . ويمكن حساب البداية من العاين مارس ونبون وحملتى آزوف (فقد كان هدفها هى الاخرى «فتح النافذة» والوصول الى البحار ، الى اوروبا نفسها فى آخر المطاف) ، وكذلك «البعثة الكبرى» الشهيرة فى ١٦٩٧ — ١٦٩٨ . كان التحضير لها بشكل او بآخر قد بدأ من زمان فى الاحاديث مع الاصدقاء الروس والاجانب فى البداية . ويمكن الافتراض بان الكلام عنها دار مرارا فى حى العجم . الذى هو عبارة عن اوروبا الغربية مصغرة على ضفة ياوفا فى ضواحي موسكو . وكان ليفورت من اكثر المتحمسين لفكرة رحلات القيصير الى البلدان الاوربية الاكثر تقدما من اجل الاطلاع عليها شخصا لصالح روسيا . وكان بطرس يحب الخوض معه فى هذا الموضوع . والمهم هنا ليس فقط نوايا القيصير الشخصية ، مع انها لعبت دورا جوهريا . المهم هو الحاجات الموضوعية لروسيا . وكان

يدرك هذه الحقيقة الكثيرون من اسلاف بطرس ، مثل والده الكسى ومعاونيه رتيشيف واوردين-ناشوكين وماتفييف ، وكذلك فيودور شقيق بطرس واخته صوفيا والامير فاسيلى غوليتسين وغيره من ذوى السمعة والنفوذ . كانت براعم الجديد قبل بطرس تنبجس من خلال طبقات العادات والمعتقدات الروسية القديمة . فقد كان فى روسيا قبله اناس لا يعانون من التعصب القومى . فبين عامة الروس الذين يتهمون احيانا بشكل اعتباطى خاطئ بالنزعة الظلامية المحافظة كثير من المهتمين بالعادات والمنجزات الاجنبية .

ووفق النظام المتبع من زمان كان قد وضع فى مديرية العلاقات الخارجية توجيه الى السفراء تضمن بمنتهى التفصيل القواعد التى يتعين على الدبلوماسيين الروس ان يلتزموا بها اثناء المفاوضات مع الممثلين الاجانب ، وتلزمهم تلك القواعد بان يتذكروا متى وكيف يدخلون ، وينحنون تحية ويقفون او يجلسون ويخلعون القبعة او يرتدونها ويذكرون ألقابهم ومراتبهم وألقاب ومراتب المسؤولين الاجانب . وقد جرت العادة على اتباع تلك القواعد دوما ليس فى روسيا وحدها ، بل وفى البلدان الاخرى ايضا ، بما فيها بلدان اوربا الغربية . اما بطرس الذى حطم التقاليد والعادات المتبعة فقد وضع توجيهها خاصا به ، وهو توجيه موجز وعملى يتضمن عدد العسكريين — الضباط البحريين والبحارة — الذين ينبغى استئجارهم من اوربا الغربية ، وبعد ذلك تأتى قائمة الاسلحة والمواد المستخدمة فى صنع السلاح وغير ذلك من المستلزمات الى حد اعلام السفن البحرية .

وفى ٦ كانون الاول (ديسمبر) امر بطرس بان يترأس

البعثة الكبرى الجنرال الاميرال ليفورت بوصفه رجلا مهذبا مؤدبا مطلعاً على العادات الاوربية ، والجنرال المفوض غولوفين رئيس مديرية العلاقات الخارجية ، وهو دبلوماسى محنك رهيف يتحلى بالحكمة وحسن المعاشرة ، واخيرا عضو مجلس الدوما فوزنيتسين ، وهو ايضا من كبار المسؤولين فى مديرية العلاقات الخارجية ، ويتحلى بسعة الاطلاع والحكمة والتمرس الوظيفى . واضطلع الاول بدور الشخصية المرموقة الممثلة للبعثة ، وكان الثانى هو مدير البعثة ، والثالث معاونه الرئيسى . وكان غولوفين قد تشرف باجراء المفاوضات مع الصين وتوقيع معاهدة نرتشينسك ١٦٨٩ . وقام فوزنيتسين بعدة مهمات دبلوماسية فى الخارج (الامبراطورية العثمانية والبنديقية والنمسا وبولونيا) . وكان هؤلاء الزعماء الثلاثة يتحلون بقابليات وطباع مختلفة فيكملون بعضهم بعضا . وقال عنهم احد الدبلوماسيين البولونيين : «ان هؤلاء السفراء اذكاء للغاية ومطلعون جيدا على الاحوال فى اوربا ويتميزون بمهتهى التهذيب» .

وبمرسوم صدر فى ٢٢ كانون الاول (ديسمبر) من العام نفسه الغى بطرس لقب القيصر المستفيض الطويل وغير المفهوم تماما والمستخدم فى الوثائق الدبلوماسية . فهو يتضمن عرضا تفصيليا للمعتقدات المسيحية ومفاهيم الخالق وسلطته وجبروته . وبدلا من ذاك اللقب صاروا يستخدمون صيغة موجزة : «الحاكم باسم الله» .

وفى ٢ آذار (مارس) ١٦٩٧ غادرت موسكو المجموعة الاولى من البعثة ، وبعد اسبوع غادرتها المجموعة الاساسية ، وهى تضم الحاشية والخدم (الاطباء والقسس والطباخين والخدم والمهرجين الاقزام وغيرهم) ويتجاوز عددهم مائتين وخمسين

شخصا ، منهم ٣٥ طالبا ، وبين طلبة البعثة بطرس ميخائيلوف العريف فى فوج بريوبراجينسكى ، وهو القيصر بطرس الاكبر نفسه ، حيث قرر السفر مع البعثة خفية . وكما هو حال الطلبة الآخرين كان عليه ان يدرس شؤون بناء السفن والعلوم البحرية فى الغرب . وكان فى الواقع يدير البعثة من البداية حتى النهاية ويوجه كل اعمالها .

ولاول مرة فى التاريخ توجه قيصر روسيا الى بلدان اجنبية . والهدف الرسمى من البعثة ، كما قال الموظف فى مديرية العلاقات الخارجية اوكرائيتسيف ، هو «تأكيد الصداقة القديمة والتمسك بالقضايا المشتركة للمسيحية كلها واضعاف اعداء الصليب المقدس والسلطان العثمانى وخان القرم وجميع جمافل الكفرة» ، اى تأكيد التحالف المناوئ للاستانة والقرم التابعة لها . وفى اواخر كانون الثانى (يناير) ١٦٩٦ تمكن كوزما نيفيمونوف المبعوث الروسى الذى اجرى مباحثات طويلة صعبة فى فينا والبندقية من توقيع معاهدة التحالف الدفاعى والهجومى لمدة ثلاث سنوات بين روسيا والامبراطورية الرومانية المقدسة والبندقية ضد الباب العالى . وفى بولونيا توفى الملك يان سويسكى فى صيف العام ذاته وبدأ عهد «غياب الملك» وما يلزمه عادة من صراع بين الجماعات والتكتلات ، ومن فوضى واضطراب . ولذا لم يكن مقرر زيارة بولونيا لتوقيع معاهدة مماثلة . ولم يكن بالامكان طبعا استمالة فرنسا ، حليفة الامبراطورية العثمانية آنذاك ، الى مقاومة الباب العالى . وابتدت بريطانيا وهولندا اهتماما بالتجارة مع الاستانة . زد على ذلك ان هذه البلدان الثلاثة كانت تستعد للحرب من اجل التركة الامبانية . ذلك هو الموقف فى ميدان السياسة

الخارجية ، وهو يوضح السبب الذى يجعل الاهداف الدبلوماسية ثانوية فى نشاط بعثة بطرس الكبرى . وقال شافيروف الدبلوماسى المعروف فى «تأملاته» فى اسباب حرب الشمال (وكان بطرس قد قرأ «تأملاته» و اضاف عليها) — قال عن تلك الاهداف بوضوح لا لبس فيه : الاطلاع على الحياة السياسية فى اوربا وبناء الانظمة العسكرية والسياسية فى روسيا على النمط الاوربى وحث رعايا بطرس ، بقدوته الشخصية ، على زيارة البلدان الاجنبية لدراسة اللغات والاخلاق الطيبة ومختلف المهارات والصنائع والفن العسكرى . ويبدو ان القيصر انطلق من القاعدة المعروفة : الرؤية مرة افضل من السماع مائة مرة . وانطلقت البعثة من موسكو الى ريغا ممتدة عدة كيلومترات . الزحافات تحمل احتياطي الاطعمة والاشربة وكثيرا من النقود والفراء الثمينة ، وهذه الاخيرة هدايا «للمسؤولين» (كانت «طرق التعامل» هذه تستخدم على نطاق واسع فى الدبلوماسية العالمية آنذاك) . وكان القيصر ينام فى الزحافة وهى سائرة ، او يسبق القافلة الضخمة . كانت تحدوه الآمال والمشاريع المنشودة . وقد اخذ معه ختما من الشمع كتب عليه «انا طالب ابحث عن معلمين» . ولم يكن القيصر يخشى القول صراحة بانه شخصا والبلد الذى يتزعمه قد تخلفا كثيرا عن البلدان المتقدمة فى اوربا ويريذان ان يتعلما منها ويلحقا بها . ولاسباب تاريخية خطيرة (وبالدرجة الاولى النير المغولى الذى استمر حوالى قرنين ونصف) لم تتمكن روسيا من تحقيق منجزات كالتى حققتها اوربا الغربية فى الميادين الاقتصادى والسياسى والثقافى . كان الانتاج الرأسمالى يتطور بسرعة هناك . وقامت ثورتان برجوازيتان فى هولندة وبريطانيا . واسفر عصر

النهضة عن كوكبة من العمالقة والعباقرة في الادب والفن .
وكان يعمل العلماء الفيزيائيون والفلاسفة العظام ، وازدهر
الفكر السياسى . اما في روسيا فلم يكن فيها شيء من هذا
القبيل ، مع ان النهضة الثقافية بدأت من اواخر القرن الرابع
عشر ، من عهد معركة كوليكوفو ، واستمرت في القرن الخامس
عشر (لوحات فيوفان غريك واندري روبليف ، ولوحات ديونيسى
وغيره بعد مائة عام ، والسجلات الضخمة والقصص والحكايات
وسير القديسين والمعابد والاديرة والفكر السياسى الذى انتعش
في القرنين السادس عشر والسابع عشر وهلمجرا) . الا ان
ازدهارها كان سيأتى في القرن الثامن عشر ، وخصوصا في
القرن التاسع عشر .

وفي بداية عهد بطرس وقبله بقليل ولدت في روسيا
المانوفاتورات ، وارتسمت بعض التطورات في الميدان الثقافى
(تأسيس الاكاديمية السلافية اليونانية اللاتينية في عهد القيصر
فيودور الكسيفيتش ، والميل الى الكتب واللغات الاجنبية
في الاوساط العليا من المجتمع) لكن تلك كانت هي الخطوات
الخجولة الاولى ، والمسافة حتى اوروبا الغربية هائلة . . .
وفي اواخر آذار (مارس) اجتازت قافلة البعثة حدود الدولة ،
ودخل الروس الممتلكات السويدية في البلطيق والتي اخفق
والد بطرس القيصر الكسى ميخائيلوفيتش في تثبيت اقدام
الروس فيها . وبدأ تحرك الجليد وذوبانه في نهر دفينا الغربى ،
واضطر بطرس ومراقبوه الى الانتظار ١١ يوما ليدخلوا ريغا .
واستقبل السويديون هناك البعثة ببرود وارتياح رغم اطلاق
التحية المدفعية اثناء وصولها ومغادرتها . ومنعوا القيصر ومراقبيه
حتى من تفقد القلعة ، اذ هددتهم الخفراء بالسلاح عندما

اقتربوا من اسوارها . ودهش الروس لان تجار ريغا المتزنين المحترمين حسب الظاهر ابدوا طمعا كبيرا فى المال عندما واجه الروس صعوبات وعرضوا زخافاتهم للبيع (فقد بدأ الربيع) وطلبوا شراء عربات ، فقد خدعهم فى هذه الصفقة . ورغب بطرس فى الذهاب الى المرفأ الذى تقف فيه سفن هولندية ، لكن السويديين لم يسمحوا له بالذهاب الى هناك . وكتب القيصر الى موسكو صادقا «عشنا هنا كالعبيد ولم نشع الا من النظر . ولتجار هنا فى احسن ثياب وهم حقانيون جدا حسب الظاهر ، لكنهم عندما بعنا لهم زخافاتنا اخذوا يتشائمون مع حوذيتنا ، ويبيعون علينا باغلى الاثمان» .

ترك القيصر ريغا التى لم تستقبله بحسن ضيافة ، وقد حذر اهلها بسره . وفى ٨ نيسان (ابريل) وصل الى ميتاوا عاصمة دوقية كورلانديا ، وهى دوقية تابعة الى الدولة البولونية . واستقبلوه هنا بحفاوة وترحاب . فظل فى ضيافة الدوق فريدريك-كازيمير حتى ٢ ايار (مايو) . وتقابل الدوق المهذب المضيف مع بطرس اثناء المراسيم الرسمية واثناء اللقاءات الشخصية . وبالمناسبة فلم تجر بينهما مباحثات سياسية جدية .

وفى ٢ ايار استقل بطرس السفينة «القديس غيورغى» الى كينغسبيرغ ، ورأى لأول مرة بحر البلطيق الذى شغل باله بعد عدة سنين . وبعد خمسة ايام وصل طلبة البعثة وبضمنهم القيصر الى كينغسبيرغ . اما باقى اعضائها فقد ساروا برا ولحقوا بالقيصر بعد عشرة ايام . وبعد يومين من وصول القيصر الروسى التقاه فريدريك الثالث ، حاكم براندينبورغ وبروسيا الذى له مصلحة فى التقارب مع روسيا ، وابدى منتهى الحفاوة به . فقد توالى الولاثم المهمة والسهرات وحفلات التسلية .

لكن القيصر لم ينس امرا آخر . فقد استعان بكبير اخصائيي براندينبورغ فى المدفعية فون شتيرنفيلد فتعلم على يده ليزيد من معارفه فى هذا الميدان ، وادهشه بقبلياته وحصل منه على شهادة تفيد بان القيصر العريف مدفعى ماهر .

وجرت مباحثات فى الوقت ذاته . كان فريدريك الثالث ، وهو من سلالة الهوهنسوليرن التى حكمت براندينبورغ من عام ١٤١٥ ، يسعى ، شأن اسلافه ، من وراء الدبلوماسية الماهرة وغير المبدئية الى توسيع ممتلكاته وتعزيز دولته التى انضمت اليها بروسيا ، بعد ان كانت تابعة لبولونيا ، فى اعقاب الحرب الليفونية (١٥٥٨—١٥٨٣) التى خسرتها روسيا . وكان حاكم براندينبورغ بحاجة الى تأييد روسيا لسياسته التوسعية ، ولذا حاول ان يترك انطبعا حسنا عند بطرس من خلال «التحية المدفعية والالاعاب النارية والولائم الضخمة والمعانقة والود .

وتقبل بطرس ومبعوثوه حسن الضيافة وشكروا الحاكم على ارسال المهندسين والضباط الذين كانت روسيا بأمرس الحاجة اليهم فى الحرب ضد العثمانيين أثناء حملتى آزوف . لكن المبعوثين رفضوا تقبيل يد الحاكم ، اى رفضوا تقديم آيات الاحترام التى تقدم للملوك . وأكد الطرفان على «الصدقة القديمة» بين الدولتين وعلى هدفهما المشترك — الكفاح ضد العثمانيين (وكان فريدريك الثالث يستخدم هذا الكفاح لضعاف جازته بولونيا) .

وفى ٢٤ آيار (مايو) استلم المبعوثون الروس مسودة معاهدة التحالف . لم يعترضوا على اربع مواد منها ، وهى المواد الخاصة بتأكيد الصداقة الابدية وتسليم العصاة ووصول الروس للدراسة وحق تجار براندينبورغ فى السفر من خلال روسيا الى

بلدان الشرق لبيع الكهرمان . لكن المواد الثلاث المتبقية
قوبلت بموقف مغاير تماما . فقد تناولت المادة الثانية من
المسودة عقد تحالف دفاعي بين الدولتين وتبادل المساعدة
اثناء الاعتداء على كل منهما . وتناولت المادة الثالثة الضمانات
الروسية لسلطة حاكم براندينبورغ في بروسيا . فالموافقة على
هاتين الصيغتين تدفع روسيا الى الصدام مع بولونيا والسويد .
ونصت المادة السابعة على استقبال مبعوثي فريدريك الثالث
على مستوى مبعوثي الملوك (شأن مبعوثي النمسا وفرنسا والسويد
وغيرها) ، الامر الذي يمكن ان يثير سخط فينا عاصمة
الامبراطورية الرومانية المقدسة التي تضم براندينبورغ وبروسيا .
وكان هذا الحاكم ينافس في الواقع حليفه الاعلى — الامبراطور .
وهذا امر لا يمكن ان يحظى طبعاً بتأييد بطرس ودبلوماسيه
الذين ينطلقون من كون الامبراطورية المذكورة هي حليفة روسيا
في الحرب ضد الاستانة . ولذا رفض الروس هذه المواد
الثلاث . ومع ذلك اتفق بطرس مع حاكم براندينبورغ اثناء
المباحثات في ٩ حزيران (يونيو) على اتفاقية التحالف والتعاون
ضد الخصوم ، ولكن بشكل غير تحريري . ووثق كلا الحاكمين
هذا الاتفاق الشفوي بان تصافحا واقسما وتبادلا القبل .
وانطلق القيصر من ان الضمانة الوحيدة للالتزام بالاتفاقيات
هي ضمير الحاكمين ، ولا احد ، سوى الخالق ، يستطيع
ان يحكم على تصرفاتهما ، بما فيها توقيع المعاهدات والحث
بها او فسخها . وقد اعرب بطرس الاكبر عن رأيه هذا الى
فريدريك الثالث .

وعندما اقدم بطرس على هذه الخطوة كان يحس بالريبة
والتردد ، ومن تلك الفترة ، على ما يبدو ، مهد التربة لتغيير

وجهة السياسة الخارجية فى روسيا وتوجيه الاهتمام والجهود من الجنوب نحو الشمال الغربى . تكرم بطرس على حاكم براندينبورغ بياقوتة ضخمة وغادر فى ٢٢ حزيران (يونيو) الى ميناء ييلاو حيث يتعين عليه ان يبحر الى هولندة مشغول البال بتلك الافكار والمخططات . لكنه تأخر فى الرحيل . ففى الجارة بولونيا ، وهى ثانى دولة فى اوروبا بعد روسيا من حيث المساحة ، يجرى منذ عام كامل الصراع على عرش الملك . وتفوقت فى هذا الصراع مجموعة الاقطاعيين والمالين والموالين لفرنسا ، فان مرشحها الامير دى كونتى كان يمكن ان يغدو ملكا لبولونيا . ويعنى ذلك ان بولونيا ، الحليفة الحالية لروسيا فى الرابطة المناهضة للاستانة ، ستخرج من هذه الرابطة وتحذو حذو فرنسا حليفة الباب العالى . وقد اثار سير الاحداث هذا قلق روسيا ، وكذلك النمسا . فقد ارسل الامبراطور ليوبولد الاول ومستشاره الدوق كينسكى الى بولونيا مبعوثا مع مبلغ كبير من النقود لشراء الذمم ، ونصحها القيصر الروسى ان يفعل الشيء ذاته ويستخدم الوسيلة المجربة : «فالبولونيون يحبون فراء السمور المسكوية أكثر من النقود» . وتصرف بطرس بمزيد من الحزم وبعث الى حدود بولونيا قوات الامير رومودانوفسكى (وكان دى كونتى قد اعتمد هو الآخر على قوات بلاده) ودعم ترشيح حاكم سكسونيا فريدريك-اغسطس الاول ملكا لبولونيا . كما بعث القيصر رسالة الى مجلس السيم فى بولونيا أكد فيها ان انتخاب دى كونتى يؤدى الى الاخلال بالتزاماتها كحليف لروسيا والنمسا والبندقية : «ولذا فنحن اذ نكن لدولتكم مشاعر الصداقة الدائمة لا نرغب فى رؤية مثل هذا الملك الموالى لفرنسا والاستانة فى بولونيا ،

بل نتمنى ان تختاروا لانفسكم ملكا من اى قوم على الا يكون من الجهة المعادية ، بل يكون فى صداقة طيبة وتحالف وثيق معنا ومع الامبراطور الرومانى ضد خصوم الصليب المقدس المشتركين» . وتأزم الموقف فى بولونيا . فقد التزم كبير الكرادلة جانب دى كوتنى ، وهدد انصاره المقيم الروسى نيكييتين بالقتل ، كما هدد قادتهم بمحاربة روسيا : «حالما يأتى الامير ستقدم لاحتلال سمولينسك» . الا ان وصول رسالة بطرس الاولى والثانية ونشرهما قد اثر على امزجة الوجهاء البولونيين ، وتفوقت كتلتهم الموالية لروسيا ، وانتخب اغسطس ملكا ، فوصل الى بولونيا مع قوات سكسونية واعتنق الكاثوليكية . ووعد الملك الجديد القيصر بطرس الذى هناه بانتخابه بان ينفذ التزامات التحالف ازاء روسيا وسائر اعضاء الحلف المناهض للاستانة . وهذا روع بطرس من تسوية الوضع فى بولونيا ، فشد الرحال الى هولنده بحرا . لكنه اضطر الى قطع رحلته البحرية ، اذ ظهر قراصنة استأجرهم الفرنسيون . فنزل القيصر فى المانيا ليواصل رحلته برا . سارت البعثة بسرعة ، لكنها توقفت فى قرية كوبنبورغه فى ضواحي هانوفر ، لان صوفيا-شارلوتا عقيلة حاكم براندينبورغ وبروسيا رغبت فى رؤية قيصر موسكو ومرافقيه «الهمج» ولم تتمكن من رؤيتهم عندما كانوا فى كينيغسييرغ ، لانها كانت فى برلين . ولم يعرج بطرس على عاصمة براندينبورغ . ولذا فان هذه المرأة المتعلمة ، تلميذة لينتزر الشهير والتي اقامت عدة سنوات فى فرساي قد اسرعت الى قصر امها صوفيا عقيلة حاكم هانوفر . وفى هذا القصر ، غير بعيد عن كوبنبورغه ، التقت المرأتان الرفيعتا المنزل ببطرس اثناء العشاء . وكانوا قد صرفوا اكثر من ساعة لاقناعه بقبول

هذا اللقاء . واستمرت المأدبة والاحاديث أكثر من اربع ساعات .
ودهشت المرأتان لعدم تكلف القيصر الروسي وصراحته
ولاحاديثه عن نفسه وعن عاداته واهتماماته . وقد انهالتا عليه
بوابل من الاسئلة والاستفسارات . وقالت الابنة : «جلس
وراء الطاولة بينى وبين امى ، وكنا نتجاذب معه اطراف
الحديث . وكان يجيب بنفسه تارة ويمساعدة اثنى من
المترجمين تارة اخرى ، واؤكد لكم انه كان يتكلم فى صلب
الموضوع فى كل الامور التى تطرق اليها الحديث . وطرحت
عليه ماما بحويوة اسئلة كثيرة اجاب عليها بنفس الحويوة ،
وقد ادهشنى انه لم يتعب من الحديث لان هذه الاحاديث ،
كما يقال ، ليست من عادات اهل بلاده . اما تعابير وجهه
فكنت اتصورها اسوأ مما رأيته ، وهو لا يستطيع ان يسيطر
على بعضها . وواضح كذلك انهم لم يعودوه على تناول الطعام
بعناية (فالقيصر لم يكن يجيد استخدام فوطة الطعام —
ملاحظة المؤلف) ، لكن ما اعجبنى فيه هو صراحته وعدم
تكلفه ، فقد تصرف وكأنه فى بيته » .

وكررت الام ما قالته ابنتها وازفادت : «القيصر طويل
القامة جدا ، وجهه جميل للغاية ، وقامته معتدلة تماما .
ويتحلى بذهن ثاقب ، واحكامه ومحاججائه سريعة وصائبة ،
ولكن الى جانب الخصال الممتازة التى منحته اياه الطبيعة ،
حبذا لو كان ذوقه اقل خشونة . . . وقد شعرنا بارتياح كبير
اثناء التحدث معه . فهو انسان غير عادى اطلاقا . ومن
المستحيل وصفه بل وحتى اخذ فكرة عنه غاييا . . . واخبرنا
بانه يعمل شخصا فى بناء السفن وعرض علينا يديه الجاسئين
بسبب العمل وجعلنا نلمسهما لتأكد من ذلك » . وكتبت

فى رسالة اخرى تقول : «هذا القىصر روجل طىب للغاية وشرىر
جدا فى الوقت ذاته ، وطباعه نسخة طبق الاصل من طباع
بلاده . ولو كان قد حصل على تربية افضل لكان انسانا
رائعا لانه يتحلى بكثير من الخصال وبذكاء طبيعى لا نهاية له» .
لقد ترك بطرس فى الاوربيين المتعلمين انطباعا مزدوجا ،
لكنه على العموم انطباع جيد . وفى الطريق عبر المانيا كان
يتراسل مع موسكو . فقد كتب ، مثلا ، فى رسائله الى
أ . فينيوس الذى يتأأس مديرية سييريا بالاضافة الى مديريات
اخرى عن استئجار اخصائىي التعدين من اوريا . ففى الاورال
اكتشفوا قبل رحىل القىصر فلزات حديد جيدة ، وكان القىصر
مشغول البال ببناء الافران وصهر الفلزات وصب المدافع وغير
ذلك . وكتب بطرس الى فينيوس يقول : «حالما نصل الى
هولندة نتخذ الاجراءات لاستخدام الاخصائىين الذين نحن
بحاجة اليهم» .

كان بطرس يريد الوصول الى هولندة باسرع ما يمكن .
فامتنع عن لقاء آخر مع عقيلة وابنة حاكم هانوفر ، ولم يخجل
من الاعتراف بانه لا يحب الموسيقى والصيد ويفضل بناء
السفن . وهناك ، فى هولندة ، كانت تنتظره الاعمال فى
احواض بناء السفن واللقاءات مع الاخصائىين الذين يعرفهم
منذ ان كانوا فى موسكو . زد على ذلك ان اللغة الوحيدة التى
يعرفها بطرس على اية حال هى الهولندية .

هولندة بلد ذو صناعة متطورة ، وهى دولة بحرية واستعمارية
وتجارية عظيمة . وفيها صناعات مانوفاتورية واسطول تجارى
هائل (١٦ الف سفينة — اربعة اخماس الاسطول التجارى
العالمى) وليس فيها من السكان سوى مليونين . ولكنها كانت

اغنى بلد فى اوربا . ففى ذلك الزمان ظهرت فيها البنوك
البرجوازية الطراز وبورصات العملة وشركات التأمين . وكان
غليوم او ولهمم الثالث الاورانى حاكم هولندا فى الوقت ذاته
ملكا لبريطانيا (من عام ١٦٨٨) . وكان رئيسا لائتلافى الدول
الاوربية (رابطة اوغسبورغ وحلف فينا الكبير) المناهضين لتوسع
فرنسا ولاطماع «ملك الشمس» لويس الرابع عشر . وواجهت
هولندا الصغيرة بنجاح اقوى جيش فى اوربا هو الجيش الفرنسى
بقيادة تورين وكوندى .

فى مدينة ريسويك الهولندية ، قريبا من لاهاي ، اجتمع
دبلوماسيو هولندا وحلفاؤها فى مفاوضات الصلح مع ممثلى
فرنسا . وكان بطرس مع ١٨ طالبا من طلبة البعثة يقترب من
هولندا فى تلك الفترة عن طريق الراين وقنواته : وفى ٧
آب (اغسطس) ١٦٩٧ وصلوا الى امستردام . ولم تكن البعثة
قد وصلت بعد . فترك بطرس ١٢ شخصا فى المدينة واسرع
مع باقى الطلبة الى البحر . وفى اليوم التالى وصل الى ساردام ،
وهى بلدة صغيرة على ساحل البحر . وهنا التقى بحداد يعرفه
ممن عملوا فى روسيا ، ودهش الحداد عندما رأى القيصر
الروسى . وحذره بطرس بانه وصل خفية ، ونزل مع رفاقه
فى منزل الحداد الصغير . وفى الحال ارتدى القيصر الثياب
المحلية واشتغل اجيرا فى حوض بناء السفن . اقننى الادوات
اللازمة وحمل فأسه وبدأ يتعلم مهارات بناء السفن . وكما
هو شأن سائر الصناع ارتدى قمصلة حمراء من البازة وسروالا
قطنيا وراح يعمل بالفأس بمهارة . وكان يقود اليخت بنفس
المهارة . ويقول شاهد عيان هولندى : «كان فى كل مكان
يبدى حب استطلاع غير معتاد وغالبا ما يسأل عن امور تفوق

مستوى معارف الذين يسأل منهم . كان حاد الملاحظة يتمتع بموهبة نادرة للفهم ، كما يتمتع بنفس القدر بذاكرة فائقة . كان الكثيرون يدهشون لمهارته فى العمل ، فهو يتفوق احيانا حتى على أكثر العاملين حنكة . ويقال انه زار معملا للورق وتفقد كل ما يثير اهتمامه ثم اخذ قالباً من يد احد الاسطوانات ، كان هذا الاخير يعترف به معجون الورق ، وصب ورقة رائعة لا يستطيع احد ان يصب افضل منها» .

الا ان المشاكل بدأت . فسرعان ما عرف الجميع ان القيصر الروسى يعمل فى حوض بناء السفن ، وصارت حشود الفضوليين تضايقه . وجاء للتفرج عليه ليس اهالى ساردام فقط ، بل وكثير من الاشخاص الذين وصلوا خصيصا من مدن اخرى . ثم ان بطرس فهم رأسا ان ساردام ليست المركز الرئيسى لبناء السفن كما أكد له الهولنديون فى موسكو . فهنا تبنى فقط سفن للتجارة وقوارب صغيرة ، اما السفن الكبيرة فتبنى فى امستردام . ولذا رغب فى الرحيل اليها . وفى تلك الاثناء وصلت البعثة الكبرى الى هولندة . وفى ١٦ آب (اغسطس) استقبلت رسميا فى امستردام . وكان بين الحاشية بطرس الذى وصل من ساردام فى قفطان وقميص احمر وقبعة لبادية . واستقبلت البعثة بتحية مدفعية ، ووقفت القوات وحشود المتفرجين على طول طريقها . ونخصص لها افضل فندق فى المدينة .

وفى اليوم ذاته تعرف بطرس على نيكولاى فيتززين محافظ امستردام ، وهو احد مدراء شركة الهند الشرقية . وكان قد زار روسيا سابقا وتعلم اللغة الروسية ، وله مؤلفات عن روسيا ودراسات فى بناء السفن . وغدا هذا الادارى والعالم الكبير

بمشاركة الوصي على البعثة الكبرى . فقد هيا لبطرس وسائر الطلبة عملا في حوض بناء السفن التابع لشركة الهند الشرقية ، وقرر مدراء الشركة وضع اساس بناء سفينة جديدة «لتمكن الشخصية البارزة التي وصلت الى هنا خفية» من دراسة جميع مراحل بنائها وتجهيزها . وعرف بطرس بذلك في المأدبة التي اقيمت تكريما للبعثة . حل الظلام ، لكن الليل لم يمنع القيصر من السفر فورا الى ساردام ليحلب حاجياته وادواته وينقلها الى حوض بناء السفن في امستردام ، ولم يفلح الآخرون في اقناعه بالعدول عن ذلك . ودعت الحاجة ليلا الى طلب المفاتيح من خفر الميناء وانزال الجسر المفتوح وإيقاظ اهل المنزل الذي كان يقيم فيه القيصر . وفي ساعة مبكرة من صباح ٢٠ آب (اغسطس) عاد من ساردام في قارب شراعى صغير وتوجه في الحال الى حوض الشركة لياشر عمله . واقام هنا في منزل اسطة الحبال مع عشرة من الطلبة الروس . وفي اليوم التالي ، يوم الاحد ، اقامت السلطات استعراضا حريا بحريا تكريما للبعثة . وشاركت فيه ٤٠ سفينة حربية . وانساق بطرس وراء الاحداث اثناء القتال حتى اخذ على عاتقه قيادة بخت حربي .

ووجه جل اهتمامه لواجبات نجار السفن . وفي ٩ ايلول (سبتمبر) ارسي القيصر والطلبة اساس بناء فرقاطة لينوها بانفسهم بالكامل تحت اشراف الاسطى الهولندى بول . كان ذلك العمل صعبا جدا ، لكن بطرس لم يلتفت الى الصعوبات ، فهو متواضع في اللباس والطعام ولا يهتم بوسائل الراحة . ويمكن قول الشيء ذاته عن مينشيكوف وغولوفكين والآخرين . الا ان باقى الطلبة لم يكونوا كهؤلاء ، فالبعض منهم لم

يتحملوا توتر العمل وسرعته وحاولوا ان يعودوا الى الوطن ولاموا القيصر لانه يعمل بنفسه فى حوض بناء السفن . وبلغ بطرس هذا الخبر فأمر دون تردد بتقييدهم بالسلاسل لاعدامهم فيما بعد بقطع رقابهم . الا ان محافظ امستردام تدخل واوضح للقيصر الروسى ان اعدام المرء فى هذا البلد بدون محاكمة غير جائز ، ولذا رآف بطرس بالطلبة العاصيين ، وبدلا من الاعدام امر بنفيهم الى المستعمرات الهولندية .

ظل بطرس يعمل فى حوض بناء السفن ويوجه اعمال البعثة الكبرى فى الوقت ذاته ، ويتابع نشاط مؤتمر ريسويك والاحداث فى بولونيا ويطالب معاونيه بانباء تلك الاحداث . ويقول المقيم النمساوى بلير : «ان القيصر يوجه كل شىء على هواه» . وفى الاول من ايلول (سبتمبر) التقى مع ولهم . كان هذا السياسى الذكى القوى البعيد النظر قد اقترح منذ دخول البعثة الكبرى الى هولندا تنظيم لقاء مع قيصر روسيا دون ان يعلم بان القيصر موجود فى هولندا يعمل بالفأس فى حوض بناء السفن . تباحثا وجها لوجه دون شهود . ولا احد يعلم بمضمون الحديث الذى دار بينهما . واهم ما فى الامر ان كلا الحاكمين تعرفا على بعضهما البعض شخصيا . فقد رأى بطرس اخيرا ذلك الحاكم الذى يحترمه اشد الاحترام ، ويعتبره بطلا استنادا الى احاديث الاجانب فى حى العجم فى موسكو . اما الحاكم الهولندى المحنك والبارد الاعصاب فقد تطلع باهتمام ، فى اغلب الظن ، الى الحاكم الشاب المتحمس ، قيصر موسكو «البربرية» .

وكان بطرس ودبلوماسيوه يتلقون التقارير من نيكيتين فى بولونيا ، حيث كان الصراع لا يزال مستمرا بين انصار اغسطس

ودى كوتنى ، ویتراسلون مع ملكى الدانمرك والسويد اللذين ايدا ترشیح اغسطس ملكا على بولونيا . وفى هولندة تصدر جرائد منتظمة يشتريها الروس وقرأونها بحذافيرها .

واقترن العمل فى حوض بناء السفن والمراسلة الدبلوماسية بزيارة المتاحف والمسرح وحديقة النبات ومختبر التشريح والمانوفاتورات وهلمجرا . وتعاهد الروس مع اخصائيين فى مختلف الميادين ويعثوهم الى روسيا .

وفى ١٧ ايلول (سبتمبر) جرى الاحتفال بدخول البعثة الكبرى الى لاهای ، حيث تتواجد هيئات السلطة العليا ، بما فيها الهيئات العامة للجمهورية ونوابها المنتخبون . ولم يكن المبعوثون الروس يفهمون تماما خصائص النظام الجمهورى ووظائف النواب . وهذا واضح على الاقل من كون المبعوثين الكبار قد طالبوا ، وفقا للاصول الدبلوماسية الموسكوية ، بان يستقبلهم النواب ، اثناء المقابلة الرسمية ، وقوفا عند ابواب العربات . ووضح لهم فيتزين ان النواب ليسوا خدما للملك . . . (فهم مستقلون وهم اصحاب السلطة العليا) .

وفى ٢٥ ايلول (سبتمبر) جرت المقابلة الرسمية . والقى المبعوثون الكبار خطبا وسلموا الهدايا—فراء السمور الثمينة . ورد رئيس الهيئات العامة بكلمة جوابية ووقف بطرس بين حاشية البعثة يراقب المراسيم . وفى الايام التالية ، بعد مراسيم افتتاح الممثلة او السفارة ، زاره رسميا سفراء بريطانيا وبراندنبورغ والدانمرك والسويد وبلدان اخرى . ولم يحضر السفير الفرنسى ، وهذا مفهوم ، لان السفارة الروسية تجاهلته كممثل لبلد معاد لروسيا وصديق للعثمانيين .

وكانت نهاية ايلول (سبتمبر) ومتصف تشرين الاول (اكتوبر)

فترة اللقاءات والمباحثات بين المبعوثين الروس واللجنة الخاصة التي عينتها الهيئات العامة . وتابع بطرس باهتمام سير الاعمال وحرر التوجيهات اللازمة . وطرح الجانب الروسى مسألة المساعدة الهولندية لروسيا فى حربها ضد الاستانة بالعتاد وذخيرة السفن وبالاموال لبناء الاسطول . وعرض على الهولنديين حق المتاجرة مع بلاد فارس وبلدان الشرق الاخرى من خلال روسيا . لكن المندوبين الهولنديين رفضوا ذلك كله . فليس لهولندة مصلحة كبيرة فى المتاجرة مع روسيا ، فالتجارة معها تشكل اقل من ١ ٪ من التداول التجارى الخارجى العام للبلاد . وبعد توقيع الصلح مع فرنسا لم تعد هولندة راغبة فى تأزيم العلاقات معها بتقديم المساعدة الى بلد يحارب العثمانيين . زد على ذلك ان السلطات المحلية مهتمة بحالة التجارة فى البحر الابيض المتوسط ، ويمكن للعثمانيين ان يعيقوا تلك التجارة .

بهذه الصورة دفعت روسيا ثمن تخلفها وعدم وجود اسطول وتجارة متطورة على نطاق واسع . اما اقوال المبعوثين الروس بشأن ضرورة توحيد جهود الدول المسيحية فى مكافحة الباب العالى الاسلامى فقد بدت فى انظار الساسة المحنكين التفعيين فى اوربا الغربية ساذجة تماما . فان اختلاف المعتقدات الدينية لم يمنع نشوء مختلف الائتلافات والاتحادات والكيانات السياسية الخارجية مثل الائتلاف المعادى لفرنسا الكاثوليكية والذي دخلته الدول البروتستانتية (بريطانيا وهولندة والسويد) بل وكذلك الدول الكاثوليكية (النمسا واسبانيا وبافاريا) وتحالف فرنسا المسيحية مع تركيا الاسلامية . وبعد المقابلة التوديعية وتقديم الهدايا من الحلى الذهبية

(وكان ثمنها يطابق تماما قيمة الهدايا التي قدمها الجانب
الروسي في المقابلة الاولى) انتهت المهمة الرسمية للبعثة الكبرى
في هولندا . وانفقت الهيئات المسؤولة الهولندية على البعثة
مبلغا كبيرا هو ١٠٠ الف غولدين ، اى أكثر مما انفقته على
اية بعثة اخرى . ودعت الحاجة الى توضيح سبب هذا السخاء
للمندوبين الاجانب : ففي البعثة الروسية ثلاثة نواب عن
القيصر ، وفي الحاشية ربما كان القيصر نفسه موجودا . . .
ظل المبعوثون الروس فى امستردام يمارسون اعمالهم ويمرحون
وكأنما هم فى موسكو . ومع ان الهيئات المسؤولة لم تعد
تنفق عليهم فان المباني التي شغلوها ظلت تحت تصرفهم .
وكانوا احيانا يتصرفون بتمتهى الحرية ، لكنهم لم يقتربوا
خطايا خطيرة ، فسارت الامور على ما يرام . وفي اواخر تشرين
الاول (اكتوبر) قابل بطرس الاكبر ولهم من جديد . ففي
نهاية مكوث بطرس فى هولندا دعى لحضور «تسليه» فريدة
هى اعدام مجرمين . واعدت مدرجات خاصة بهذه المناسبة .
وفي اثناء ذلك لم يعد العمل فى حوض بناء السفن
التابع لشركة الهند الشرقية يرضى بطرس . فبعد ان اتقن المهارات
العملية فى هذا المجال صار يحلم بالتضلع فى نظرية بناء
السفن . الا ان الاسطوات الهولنديين الذين يطلب العون
منهم لا يستطيعون ان يعينوه بهذا الخصوص . وتشكى القيصر
من ذلك ذات مرة فى منزل التاجر يان تيسينغ وكان فى
ضيافته . وجرى بين صاحب البيت وضيفه حديث كالاتى :

— ما الذى يحزنك ؟

— يؤسفنى جدا انى قطعت طريقا طويلا ولم احصل
على النتيجة المنشودة .

وحضر الحديث رجل انجليزى عقب قائلا :
— فى بريطانيا هذه الامور متطورة جدا ، ويمكن تعلمها
باقصر وقت .

فانتعش بطرس واستعاد حماسه وتكلم مع ولهم الثالث
بهذا الخصوص فدعاه هذا الاخير الى بريطانيا .
وفى ٢٣ تشرين . الثانى (نوفمبر) وصلت من لندن على
عنوان ليفورت رسالة من الاميرال اللورد كارمارتن افاد فيها
ان ملك بريطانيا اهدى لقيصر روسيا يخت «ترانسپورت رويال»
الذى فرغوا من بنائه توا حسب تصميم كارمارتن نفسه .
وقدم اللورد كابتنا لقيادة اليخت . وارتاح بطرس اشد الارتياح
للهدية الثمينة واراد ان يراها بأسرع وقت . وبعث الميجر
ادام فيدى الى لندن ليبلغ الملك بانتصار روسيا على الاتراك
فى معركة تاوان على الدنيير . ولمح الملك الى ان موقفه من
بطرس لا يزال طيبا رغم فشل المباحثات فى هولندا .
وفى اواخر العام المذكور بذل افراد البعثة الكبرى قصارى
الجهود للتعاقد مع اخصائيسى الاسطول وصنع السلاح والتطبيب
والخ لارسالهم للخدمة فى روسيا . وتمكنوا من استئجار اكثر
من ٨٠٠ شخص من الهولنديين والانجليز والالمان واهالى
البندقية واليونانيين من ضباط وبحارة ومهندسين واطباء وغيرهم .
وبعثوا الى روسيا عشرات الآلاف من البنادق الجديدة وكميات
من المواد العسكرية والاجهزة البحرية . وظل بطرس ومبعوثوه
مهتمين بالوضع فى بولونيا . فلا يزال قائما هناك الصراع
بين اغسطس ودى كوتى . وكان هذا الاخير يعتمد على
قوات من ١١ الفا . وطلب السفير البولونى يوزى ، وهو سكسونى
الاصل ، من بطرس ان يقيم استعراضا عسكريا ، والح

فى الطلب حتى اثار بطرس فى آخر المطاف على رومودانوفسكى بان ينجذ ملك بولونيا ، اذا طلب النجدة ، فى الصراع ضد دى كوتنى وضد المستشار اللتوانى سايبغا وعصبة الوجهاء البولونيين الموالين لفرنسا . وطلب بطرس من الدانمرك الا تسمح للاسطول الفرنسى بالمرور الى البلطيق لنجدة دى كوتنى . وفى ٢٦ كانون الاول (ديسمبر) عاد فيدى ترافقه ، بأمر من الملك ثلاث سفن ويختان من بريطانيا لاىصال بطرس وطلبته الى لندن . وبدأت التحضيرات العاجلة للسفر—خياطة بزة جديدة واقامة مأدبة توديعية عند ليفورت . وفى ٩ كانون الثانى (يناير) ١٦٩٨ توجه بطرس مع الطلبة الى الجزر البريطانية ، بينما ظلت البعثة الكبرى فى امستردام .

استمرت الرحلة ثلاثة ايام فى بحر مضطرب بارد . وفى صباح ١١ كانون الثانى (يناير) وصل بطرس الى لندن . كان معه ٢٧ شخصا (من طلبة البعثة والخدم) . وفى الطريق صرف القيصر أكثر وقته على متن السفينة وهو فى بزة ملاح هولندى . وانهال على الاميرال ميتشيل الذى رافقه بوابل من الاسئلة بخصوص الملاحة وتصميم السفن . ذات مرة صعد الى الصارية ودعا الاميرال ليتبعه . لكن هذا الاخير اعتذر بأدب متحججا ببدانته .

وتحدث ولهمم الثالث بارتياح مع رجال بلاطه والديبلوماسيين الاجانب عن القيصر الروسى الغريب الاطوار . ويقول المقيم النمساوى هوفمان : «بالاضافة الى هذه التفاصيل عن مكوث بطرس هنا قال الملك ان هذا القيصر لا يتسلى الا بالسفن والملاحة البحرية ، وهو لا يهتم مطلقا بجمال الطبيعة وبالمباني الرائعة والحداثى المدهشة ، وهو لا يتكلم ولا يفهم بالهولندية

الا ما يتعلق بالملاحة البحرية» .
 ووصل القيصر الروسى الى مدينة من أكبر مدن العالم ،
 يبلغ سكانها ٧٠٠ الف نسمة . وهى ميناء عالمى زارته
 فى عام ١٦٩٨ ، اى فى سنة وجود بطرس هناك ، ١٣٤٤٤
 سفينة . كانت بريطانيا بلدا متقدما يسير بسرعة على طريق
 التطور البرجوازى ، وفيها انتاج صناعى وتجارة ينموان بشكل
 عاصف . وقد تركزت فيها اعظم القيم الثقافية والمؤسسات
 العلمية التى يعمل فيها علماء طبقت شهرتهم الآفاق . ويمكن
 ان نتصور مشاعر التفوق والسخرية التى احس بها الملك ولهم
 الثالث اثناء لقاءاته يحاكم روسيا الشاب . فهذا الاخير كان
 يتكلم بحماس ، على الاغلب ، عن مخططاته لبناء اسطول
 والوصول الى البحار . وكانت اوربا الغربية قد استقبلت هذه
 التصريحات بارتياح واستهانة وسخرية . وكان بطرس يحاول
 بشق الانفس ان يخفى انفعاله وحياءه فى الحديث مع الاجانب .
 ولم يرغمهم على تغيير موقفهم من روسيا وبتطرس الا الانتصارات
 التى احرزها الروس برا وبحرا بعد عشرة او خمسة عشر عاما .
 كان ملك بريطانيا يعامل بطرس ، مثلما فى هولندا ،
 بمنتهى الاهتمام واللياقة . وكلف غوتفريد كيلر ، تلميذ ومبررات
 بان يرسم صورة نصفية للقيصر ، فجلس هذا الاخير فى
 الهيئة المطلوبة ، ورسم الرسام صورة رائعة للحاكم الشاب
 بوجه يتحلى بالرجولة والالهام والانفة والاعتداد بالنفس والثقة
 بالمستقبل . وقال احد معاصريه الذى رآه فى تلك السنة :
 «كان القيصر بطرس بن الكسى فارع القامة اقرب الى النحافة ،
 شعره قصير كثيف كستنائى غامق ، عيناه واسعتان ، سوداوان
 بأهداب طويلة ، وفمه معتدل ، الا ان شفته السفلى فيها

عيب طفيف ، تعابير وجهه رائعة ، تجعل الرائي يحترمه من اول نظرة . وبسبب طول قامته خيل الى ان ساقيه رقيقتان ، ورأسه غالبا ما يهتز متشنجا نحو اليمين .

كان القيصر يصرف القسم الاكبر من الوقت الذى قضاه فى بريطانيا (اربعة اشهر) فى احواض بناء السفن وهو يدرس النظرية . ففى ديتفورد بضواحي لندن تلقى منهجا نظريا فى بناء السفن باشراف مفتش الاسطول الملوكى السير انطونى دين . كما ساعده اللورد كارمارتن الذى ربطته به علاقة صداقة . فهذا اللورد رجل مرح واسع الاطلاع ، فشعر القيصر بالارتياح من مخالطته . وتلبية لدعوة الملك وصل بطرس الى بورتسموث القاعدة الرئيسية للاسطول البريطانى : وراقب مناورات السفن الحربية التى هى اضخم السفن فى العالم آنذاك . وقد اقيمت المناورات له خصيصا ، ولذا فلم يخف اعجابه ودهشته :

— حياة الاميرال فى بريطانيا اكثر مرحا بكثير من حياة القيصر فى روسيا .

لكن اهتمام بطرس لم يقتصر على شؤون الاسطول . فقد اطلع على امور كثيرة اخرى . وقد تقابل بطرس مرارا مع الاسقف غلبرت بارنيت وتحدث معه عن شؤون الكنيسة . وكان هذا المسؤول فى الكنيسة الانجليكانية الذى بعثه اسقف كتربرى نفسه للتحديث مع بطرس يتصور على ما يبدو فى فترة ما ان بالامكان استمالة القيصر الروسى وبلاده الى اعتناق البروتستانتية بشكلها الانجليكانى . فقد وصلت الى اوربا الغربية اخبار استهانة بطرس بالكنيسة الارثوذكسية فى روسيا . وبعد عدة محادثات طويلة نسبيا مع القيصر اخذ عنه الاسقف

انطبعا جيدا : فالقيصر «يتحلى بمستوى من المعارف لم اكن اتوقعه لديه . . . فهو اما ان يهلك او ان يغدو رجلا عظيما» . لكن بارنيت سرعان ما فهم بان آماله فى استمالة بطرس والدولة الموسكوية الى جانبه لا مبرر لها . فقد اهتم القيصر بنقطين فى الكنيسة الانجليكانية ضرورتين له فى روسيا : العلاقة بينها وبين سلطة الملك الدنيوية واوضاعها المادية . وكان لا بد وان يعجب بما عرفه بهذا الخصوص : فالكنيسة الانجليكانية خاضعة بالكامل للدولة وليست لديها ممتلكات عقارية . اما فى روسيا فالكنيسة بشخص رجالها (البطاركة وغيرهم) غالبا ما تعارض السلطة الدنيوية . ويكفى ان نتذكر هنا البطريرك نيكول الذي كافحه القيصر الكسى والد بطرس ، او البطريرك يواكيم الذي عارض بشدة الاختلاط بالاجانب . والاهم ان الكنيسة الروسية تمتلك عقارات كبيرة مع الكثير من الفلاحين الاقنان ، مما يشكل اساسا اقتصاديا لادعاءاتها وطموحاتها السياسية . ولم يخف بطرس موقفه السلبي من الرهبان الروس الطفيليين .

وعندما فهم بارنيت ان الحاكم الروسى لا يميل اطلاقا الى اعتناق الى البروتستانتية غير موقفه منه بصورة جوهرية . فقد اشار الى خشونته وقساوته وغير ذلك من صفات «الموسكوى البربرى» . والحال فان بطرس ، بالاضافة الى الاطلاع على الكنيسة الانجليكانية زار باهتمام واضح ، فى ديتفورد نفسها ، مصليات الكواكر ، وفى ٣ نيسان (ابريل) ١٦٩٨ تقابل وتحدث مع وليم بان ، الشخصية المعروفة فى حركة الكواكر ومؤسس مستوطناتهم فى اميركا الشمالية . (وتدل على ذلك تسمية احدى ولايات الشمال الشرقى فى اميركا التى ظلت باقية حتى

الان) . واعجب القيصر ببعض جوانب تعاليم الكواكر—
الدعوة للوثام والاخوة الشاملة وطهارة الانسان الاخلاقية ورفض
الطقوس الكنسية . وقال بطرس بعد مرور ١٦ عاما ، في
اعقاب زيارة لمصلى الكواكر في هولشتين (شمال المانيا) :
«من يعيش وفقا لهذه التعاليم يذوق طعم السعادة» .
واهتم بطرس بالنظام البرلماني البريطاني . ففي ٢ نيسان
(ابريل) زار مبنى البرلمان ، لكنه رفض حضور جلسته .
فقد استمع من كوة السقف الى المناقشات في الجلسة المشتركة
لمجلس اللوردات ومجلس العموم . ولم يبق ذلك سرا .
فقد قال احد الدبلوماسيين «ان ذلك قدم الحجة لشخص
ما كي يقول انه رأى اندر حالة في الدنيا ، رأى ملكا على
العرش وامبراطورا على السطح» .
ويبدو ان القيصر اهتم بكون اعضاء البرلمان يعربون عن
آرائهم بحرية بحضور الملك : «من المفرج ان تسمع الرعايا
يقولون الحقيقة لملكهم صراحة . وهذا ما يتعين ان نتعلمه
من الانجليز» . وكان القيصر قد طبق هذه القاعدة في «شلت» ،
حيث كان افرادها يعربون للقيصر بجرأة احيانا عما يفكرون
فيه . فان رومودانوفسكى ، مثلا ، لاه في رسالة بعثها الى
لندن على التشويش في قضية ما . وفيما بعد ، عندما شكل
القيصر مجلس السينات (الشيوخ) والهيئات التي حلت محل
المديريات ، طبق في عملها مبادئ المناقشة العامة الصريحة
لجميع المسائل والشؤون واتخاذ القرارات بشأنها . الا ان ذلك
كله كان بعيدا جدا عن النظام البرلماني والديمقراطية بالمعنى
الاوربى الغربى للكلمة . فقد ظل بطرس طوال حياته حاكما
مطلقا مستبدا ، قاسيا لا يعرف الرحمة احيانا . ويقول

كلوتشفيسكى : «كان بطرس طيبا بالفطرة كانسان ، لكنه قاس كقيصر» .

وامضى الضيف الروسى الكبير وقتا طويلا فى المعامل ، وزار الجمعية الملكية البريطانية وجامعة اوكسفورد . وزار مرارا مرصدا غرينويتش ودار سك النقود . وربما تكلم مع اسحق نيوتن الشهير الذى كان آنذاك يدير دار سك النقود . واسفر اللقاء مع العالم الرياضى فيرغارسن عن اتفاق حول مجيئه الى روسيا . وفيما بعد لعب هذا العالم دورا هاما فى تدريس الرياضيات فى مدرسة الملاحة والاكاديمية البحرية فى روسيا . وزار القيصر ذات مرة ورشة الساعاتى الشهير كارتيه ، واولع بعمله لدرجة جعلته يشغل فى تركيب وتفكيك الساعات .

كانت البعثة الكبرى قد انفتحت كل نقودها وهى فى هولنده . فان نفقات المعيشة والتعاقد مع الاختصاصيين وارسالهم الى روسيا وشراء الكثير من الادوات والمواد الضرورية قد ابتلعت اموال البعثة بسرعة . واقترض القيصر اموالا من التجار الانجليز للصرف على البعثة ، وتكبل بالديون . وخرج من الورطة بصفقة التبيع . فاللورد المرح الماجن كارمارتن الذى اعجب به القيصر الروسى اشد الاعجاب كان رجلا عمليا للغاية . فبناء على اقتراحه منحه بطرس حق احتكار تجارة التبيع فى السوق الروسية ، وهى المادة التى اعتبرها بطريك روسيا وغيره من الملتزمين بالاعراف القديمة من «العقاقير الممقوتة من الخالق» . وكان البطريك اديان الذى حل محل يواكيم فى رئاسة الكنيسة الارثوذكسية الروسية قد اصدر قبيل رحيل بطرس الى اوربا الغربية لعنة (يخشاه الروس اكثر من الاعداء) على التجار وابنائهم واحفادهم بسبب المتاجرة بالتبيع . اما مجموعة قوانين

١٦٤٩ فقد نصت على عقوبة بسبب التدخين للمرة الاولى
هى تعذيب المذنب وجلده بالسوط ، وللمرة الثانية جدد
انفه . ولم يمض على صدور تلك القوانين سوى خمسين
عاما ، اما ابن واضح تلك القواعد الصارمة (القيصر الكسى
ميخائيلوفيتش والد بطرس) فقد تغاضى عن المدخنين بل
ودخن بنفسه . والاكثر من ذلك ان ملاحقة مستخدمى
«الحقاقير الممقوتة من الخالق» توقفت واعتبرت تجارة التبغ
احتكارا للخزينة . وحصل على هذا الحق كذلك التجار
الروس الذين عادوا على الخزينة بارياب غير قليلة . اما الآن
فقد ازدادت الارياب ثلاث مرات دفعة واحدة بتسليم احتكار
التبغ الى اللورد كارمارتن . زد على ذلك ان القيصر استلم
من اللورد سلفة قدرها ١٢ الف جنيه وسدد ديونه واقتضى
مشتريات جديدة .

وكان من اللازم ان تصاغ صفقة التبغ فى عقد . وما
كان يحق لبطرس نفسه ان يوقع العقد لانه مجرد «طالب
بعثة» . فارسل نص العقد الى المبعوثين الكبار فى هولندا
ومنعهم منعاً باتاً من فتح الظرف الا بعد ان يحسوا ثلاث
كؤوس من النبيذ . ونفذ الثلاثة امر القيصر المعظم بمنتهى
الارتياح . ثم فتحوا ظرف الرسالة وقرأوا العقد وفرحوا اشد
الفرح . فلا بد من الترحيب بهذه الصفقة الربحية الكاسبة
كما قال فوزنيتسين ، وهو رجل يخاف الله وقد تربى على
التقاليد القديمة . ولذا تناول كل من المبعوثين ثلاث كؤوس
اخرى من النبيذ حتى «ألمّ بهم السكر أكثر» كما اعترف
المبعوث الثانى غولوفين فيما بعد . كان المبعوثون الثلاثة راضين
مسروحين فلم يبدوا اى اعتراض على الوثيقة المقترحة ، وتوجه

غولوفين من امستردام الى لندن لتوقيع عقد التبغ .
وفي ١٨ نيسان (ابريل) قام بطرس وغولوفين بزيارة وداعية
الى الملك . واهدى له القيصر الروسى ماسة عظيمة فى ختام
اللقاء والحديث ، وفى ختام المكوث فى بريطانيا المضيافة .
وبعد اسبوع غادر بطرس هذا البلد .

وقد عرضوا على بطرس فى الغالب كل ما كان مهتما
به ، فامضى الوقت هنا بنفع كبير له ولروسيا . وكتب احد
معاصريه بهذا الخصوص يقول : «كان ميل القيصر الشديد
الى الامور الجدية يبعده دوما عن المسرات والتسلية المعروفة .
وكان يتحاشاها بشطارة رغم كل جهود حسناوات البلاط اللواتى
حاولن اثارة اعجابه وكن على استعداد لمنح الحب كله للقيصر
العظيم الذى وصل من بلد بعيد . وبالمناسبة ، يقال ان
احدى الحسنات استطاعت ان تبلغ هدفها» . كان شغف
القيصر بالممثلة ليتيتسيا كروس قصيرا جدا ، وقد فارقتها
ومنعها ٥٠٠ جنيه . سلمها المبلغ مينشيكوف بتكليف من
القيصر . وابلغ مينشيكوف القيصر بان المعشوقة لم تكن راضية
على هذه الهبة . فاعترض بطرس قائلا :

— تنصور يا مينشيكوف انى مبذر مثلك ؟ مقابل خمسمائة
جنيه يخدمنى شيوخ اذكى وافضل . اما هذه فقد خدمتنى
اسوأ منهم .

— الاجرة على قدر العمل (وافقه مينشيكوف) .

وفى معرض تقييم زيارة بطرس الاكبر الى بريطانيا قال
ماكولى المؤرخ الانجليزى المعروف فى القرن التاسع عشر :
«ان رحلته حقبة كاملة ليس فى تاريخ بلاده فقط ، بل
وفى تاريخنا وتاريخ البشرية جمعاء» . ويخص هذا القول

الجانب الايجابي النافع الذي عرفه ودرسه بطرس في بريطانيا ، وكذلك الجوانب السلبية التي رافقت مكوثه في الجزر البريطانية القائمة . فلم يكن جو رحلته تلك صافيا دوما . كتب السفير النمساوي في لندن اويرسبيرغ الى الامبراطور ليوبولد الاول بخصوص زيارة بطرس الوداعية الى الملك : « انحنى القيصر الملك ولهلم وعبر له برقة عن صداقته الدائمة . الا انه عرف بان سكرتير اللورد باجيت (السفير البريطاني في الاستانة — ملاحظة المؤلف) وصل حاملا بعض اقتراحات الصلح فعبّر عن استيائه لان الملك لم يخبره بذلك . ويرى القيصر ان اوان الصلح لم يحزن بعد ، وسيعارض توقيعه في الاغلب عندما يصل الى بلاط جلالكم » .

والمقصود هنا هو الحلف المقدس بين النمسا وبولونيا والبندقية وروسيا ضد الباب العالي والقرم والذي تهدده الخطر ، كما علم بطرس ومبعوثوه الكبار على حين غرة . فمن وراء ظهر روسيا اجرت النمسا بتأييد من بريطانيا والبلدين الآخرين مفاوضات مع الباب العالي بشأن الصلح . ولم يخبروا بطرس بذلك اطلاقا ، وهو مشغول بسفنه ومونوفاتوراته . وكان واضحا ان مكانة روسيا في المسرح الدبلوماسي الاوربي ليست رفيعة . . .

وكان يتعين على بطرس ان يتعلم كثيرا في هذا الميدان ايضا . عليه ان يتعلم النفعية واسرار الاحايل الدبلوماسية والحساب الدقيق . وقد عرف غدر وكذب ورياء الدبلوماسيين المحنكين . وارتسم في اوربا توزيع جديد للقوى ، وكانت حرب جديدة تقترب ، هي الحرب لاقتسام التركة الاسبانية . وانتهت الحرب بين فرنسا ورايطة اوجسبورغ التي ضمت بريطانيا

وهولندة واسبانيا والامبراطورية الرومانية المقدسة والسويد وسافوي والامارات الايطالية والالمانية الصغيرة . وسجلت معاهدة صلح ريسويك تنازل فرنسا عن جزء من الاراضى التى احتلتها فى اسبانيا والمانيا وجنوب هولندة . الا ان قرب وفاة الملك الاسبانى كارل الثانى الذى لم ينجب اطفالا قد قرب الصراع من اجل اقتسام ممتلكاته الشاسعة جدا ، وهى اضخم الممتلكات فى عالم ذلك الزمان . فبالاضافة الى اسبانيا ضمت دولته قسما كبيرا من ايطاليا وجنوب هولندة ومساحات شاسعة فى اميركا الجنوبية والوسطى وقسما من اميركا الشمالية ، وفى افريقيا وفى البحار والمحيطات (الفليبين ، جزر الكنارى ، جزر الانتيل ، جزر كارولين) .

ولم تكن فرنسا والنمسا تستنكف من قبول هذه التركة الغنية . كان لويس الرابع عشر متزوجا من ماري—تيريزا ، اخت كارل الثانى الكبرى ، اما امبراطور النمسا ليوبولد الاول فهو متزوج من اخت كارل الثانى الاخرى مارغريت—تيريزا ، ولدى كل منهما ابناء ادعوا بعرش خالهم الاسبانى . وكانت فى بلاط كارل الثانى عصبتان احدهما موالية لفرنسا والاخرى للنمسا . واقرن الصراع بين الهبزوورغ والبوربون من اجل عرش اسبانيا بمناوشات من اجل مستعمرات الدولتين البحريتين بريطانيا وهولندة . ولما كان الصراع الدبلوماسى المعقد دائرا ادرك بطرس واعوانه اثناء وجودهم فى هولندة وبريطانيا مغزى الاحداث الجارية امام انظارهم . وفى رسالة الى أ . فينيوس فى ٢٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١٦٩٧ قيم القيصر بدقة كبيرة المعاهدة التى وقعت توا فى ريسويك وما كان سيعقبها : «تم توقيع الصلح مع الفرنسيين ، وجرى الاحتفال به فى

لاهاي قبل ثلاثة ايام بألعاب نارية . الحمقى فرحون جدا ،
والاذكياء يتوجسون خيفة من ان الفرنسيين خدعوهم ويتوقعون
حربا جديدة في القريب العاجل ، وسأكتب عن ذلك بعزيد
من التفصيل» .

كان بطرس في ذلك الموقف مهتما بالقضية الرئيسية
بالنسبة لروسيا آنذاك ، وهي مواصلة الحرب ضد الاستانة
والانتصار فيها . وقبل بداية البعثة الكبرى بقليل ، في كانون
الثاني (يناير) ١٦٩٧ ، أكدت روسيا والنمسا والبندقية شروط
تحالفها . الا ان كل ذلك مهدد بالخطر الآن . فالبلدان
الاوربية ، بما فيها النمسا والبندقية حليفتا روسيا ، وكذلك
حكام بريطانيا وهولندا الذين استقبلوا بطرس بحفاوة وترحاب ،
مارسوا من خلف ظهره لعبة دبلوماسية نشيطة موجهة في الواقع
ضد روسيا ، فقد ارادوا ان يتركوها تواجه لوحدها الاستانة
لتشاغل قواتها الحربية ، حتى يستطيع جيش النمسا ان ينتقل
بالكامل لمقاتلة فرنسا من اجل الاستئثار بالتركة الاسبانية .
وهذا هو سبب «الوساطة السلمية» لبريطانيا وهولندا من اجل
وقف الحرب بين النمسا والعثمانيين . ولم تسفر مقاومة فرنسا
في الاستانة عن نتيجة .

لقد عرفت البعثة الكبرى بالاحبولة التي خصص لروسيا
فيها دور البندق لا اكثر في كانون الاول (ديسمبر) ١٦٩٧
في امستردام . فان مخبرا سريا من فينا فضح نية السلطان
العثماني في ارسال مبعوثين لمفاوضات الصلح مع الامبراطور .
واخذ بطرس يتابع تطور الاحداث ، وفهم بان اتجاه تلك
الاحداث يحكم بالفشل مسبقا على محاولاته لعرقلتها والتأثير
عليها . ولذا ظل يدرس نظرية بناء السفن وغير ذلك من

الامور الضرورية . فقيما بعد ستفعله هذه المعارف وتنفع روسيا لدرجة كبيرة فى بلوغ اهدافها ، بما فى ذلك اهداف السياسة الخارجية .

وفى ٢٥ ابريل (نيسان) غادر بريطانيا . كان البحر مضطربا ، والسفن تتقاذفها الامواج . وكانت تنتظره فى هولنده امور هامة ونافعة كثيرة . فقد تفقد القيصر مع ليفورت قصر آل اوران وجامعة ليدن ، ومختبر التشريح فيها . وعرض ليفينغوك عليه مجهرا اثار دهشة اوربا كلها . واشبع بطرس فضوله وتوقه الى المعرفة ، لكن اخبارا غير سارة ازعجته كثيرا . فقد بلغه من روسيا نبأ انتفاضة افراد القوات الخاصة ، خصومه القدامى كما كان يتصور . كانت افواج القوات الخاصة فى موسكو قد شاركت فى كلتا حملتى آزوف ، وساهمت فى الهجوم وحفر اسوار المدينة — القلعة ودخلوها . ولعبت فى جميع العمليات الحربية دورا كبيرا وتكبدت خسائر جسيمة . وبعد دخول آزوف ظل قسم من الافواج هناك فى خدمة الحامية . وكان افرادها يحلمون بالعودة الى الديار ، الى عوائلهم وتجارتهم وصنائعهم التى كانت تساعد فى اطعام زوجاتهم واطفالهم ، فالرواتب قليلة . وفى خريف ١٦٩٧ وصل امر بترك آزوف ، ولكن ليس الى موسكو ، بل الى الحدود اللتوانية . فقد ادرجت القوات الخاصة ضمن جيش رومودانوفسكى الذى تحرك صوب حدود بولونيا بسبب انتخاب الملك الجديد . وفى الطريق ، فى احوال الطرق والبرد الشديد عانت تلك القوات من بؤس فظيع ، فقد كان افرادها يموتون جوعا ويسحبون المدافع بانفسهم (فقد نفقت الخيول لانعدام العلف) . وبلغ بهم الامر الى حد الاستجداء وتوسل الصدقة فى قرى

وضواحي فيليكيه لوكي . وقد تأخرت رواتبهم فلم يستلموها
في الوقت اللازم .

وفي ربيع العام التالي جاء الى العاصمة عنوة ١٧٥ شخصا
يمثلون افواج القوات الخاصة . قدموا الشكاوى وطالبوا بانقاذهم
من الموت جوعا . وارادوا ان يلتقوا بعوائلهم . وبدأ غليان
في موسكو . فالمتدمرون بين اهاليها كثيرون . وبعد عدة
مناوشات اتخذت السلطات الاجراءات اللازمة بسرعة ، حيث
دفعت رواتب افراد القوات الخاصة واخرجتهم من المدينة .
فعادوا الى افواجهم وهدأت الامور حسب الظاهر . الا ان
اشاعات انتشرت في العاصمة وفي البلاد وزعمت بان القيصر
بطرس قتل في الخارج ولا تصل اية اخبار عنه
وكان التفسير بسيطا للغاية . فالبريد من امستردام الى
موسكو يستغرق امدا طويلا ، أكثر من شهر ونصف . وبعث
رومودانوفسكى تقريراً الى بطرس عن قلاقل القوات الخاصة
في ٨ نيسان (ابريل) ، واستلم القيصر التقرير في ٢٥ ايار
(مايو) . وكان تأخر وصول اخبار القيصر يثير البلبلة والحيرة
حتى عند الذين تركهم بطرس في العاصمة لتصريف شؤون
الدولة . واستاء القيصر اشد الاستياء من سير الامور على هذا
النحو فكتب الى الامير رومودانوفسكى يلومه في الحال :

— كفاكم تفكيراً باننا هلكنا (لتأخر وصول البريد) ،
فانتم بسبب خوفكم لا تباشرون العمل . . . ولا ادرى من اين
جاءكم هذا الخوف الذى يلزم النساء .

لقد لام بطرس دون تردد معاونيه الموسكويين واتهمهم
بالارتباك والجبن . وفي رسالة اخرى بعثها الى فينيوس ،
وهو رجل محنك ، كما يتصور بطرس ، ومطلع على العادات

الاجنبية وعلى امور البريد (فهو مدير دائرة البريد اضافة الى دوائر اخرى) قال القيصر مؤنبا :
— كنت آمل بانك ستقنع الآخرين بالعدول عن رأيهم انطلاقا من معرفتك بالامور ، بينما تقودهم انت الى الهلاك .
سنرحل غدا من هنا الى فينا .

وبعد ان بت القيصر ، باوامر تحريرية فقط ، فى قضية مؤذية هى «عصيان القوات الخاصة» انتقل الى قضية اخرى لعلها اكثر ايلاما من الاولى ، ونعنى تقوض التحالف المناهض لتركيا . ففى ١٥ آيار (مايو) ، فى المقابلة الداعية مع الممثلين الرسميين الهولنديين ، بعد تبادل المجاملات ، لم يتمالك بطرس نفسه ، كما فى لندن ، فقال ان الهولنديين الذين هناؤه بالانتصارات فى الحرب ضد العثمانيين يجهدون لشق تحالف الدول الذى يضم روسيا ايضا . واجابوه بانهم لا يعرفون شيئا عن ذلك . وكان واضحا ان هذا الجواب حيلة لا أكثر . وفى اليوم التالى توجهت البعثة عائدة . ترك بطرس رفاقه بمخرون القنوات والانهار وتقدم بسرعة فى البر . وسرعان ما وصل الى درزذن ، الى اغسطس الاول حاكم سكسونيا الذى صار ملكا لبولونيا بمساعدة بطرس . وبدأت الاحتفالات والمراسيم من جديد . وتفقد الضيف القلاع وترسانات الاسلحة ومجموعات التحف الغنية فى درزذن . واهتم خصوصا بادوات العلوم الرياضية وتجهيزات الحرف ودار الصهر . وادهش القيصر الخبراء من جديد بمعارفه فى ميدان المدفعية .

واسرع بطرس فى طريقه الى فينا مستخدما جياذ البريد . امضى القيصر النهار والليل فى الطريق . وكان حماسه ونفاد

صبره امرا مفهوما . فان مفاوضات الصلح جارية بين فينا والاستانة . وهو يفهم طبعاً انه لا امل فى تصحيح الاوضاع وتغيير الموقف . فهو عصيب للغاية ، ولا امل فيه بالنسبة لروسيا وللقيصر . الا ان طبيعة بطرس تنطوى على واحدة من الخصائص الرئيسية ، الا وهى عدم الانسياق وراء اليأس والقنوط حتى فى الحالات التى لا مخرج منها ، وحتى بعد الهزائم الماحقة . ولذا بدأ يعمل بشكل عنيد محموم وبنفاد صبر .

وفى ١١ حزيران (يونيو) اقترب من فينا . وجرى اول لقاء مع ممثلى النمسا فى شتوكراو ، وهى بلدة بضواحي فينا . ولم يتمالك بطرس نفسه بسبب المماطلة والرسميات وصغائر المراسيم الدبلوماسية ، والاكثر من ذلك بسبب الاستهانة بالمبعوثين الروس . فطلب لقاء شخصيا مع الامبراطور . ومن جديد جرت مباحثات مملة بشأن مراسيم اللقاء والترتيبات الدبلوماسية . وفى ١٩ حزيران (يونيو) تقابل ليوبولد الاول ، حاكم الامبراطورية المترامية الاطراف البالغ الثامنة والخمسين ، وهو رجل محنك حذر متباه متمهل ، مع القيصر الروسى النشط المتحمس البالغ السادسة والعشرين من العمر . بطرس يرتدى قفطانا هولنديا قاتما وربطة عنق مستهلكة . وبدأ الامبراطور ومستشاره الدوق كينسكى الذى يشبه سيده فى كل شىء حديثهما مع بطرس بتخوف وحذر .

ورغم مخاوف الامبراطور ابدى بطرس احتراماً وتأدباً فى الحديث مع «اعظم حاكم للعالم المسيحى» (هكذا نعت القيصر محدثه) . وبعد الحديث تنفس ليوبولد الاول الصعداء ، فقد سمع الكثير عن غرابة اطوار بطرس وتصرفاته غير المعتادة .

اما بطرس فقد كلفته رباطة الجأش والهدوء غالبا . وبعد
المقابلة التي استغرقت ربع ساعة ودع بطرس الامبراطور وخرج
الى المنتزه ورأى زورقا فى البركة فقفز اليه فى الحال والتقط
المجدافين واخذ يجذف نثرا وبسرعة . وهدأت اعصابه بعد
عدة دورات فى الماء . فقد وجد اخيرا منفذا للطاقة التي
قيدها طويلا حتى طفحت كأسها .

ولم يبق مسلك القيصر المتأدب اثناء الاستقبالات الرسمية
دون ان يلاحظه احد . فقد افاد مبعوث اسبانيا فى بلاط
فيينا ان بطرس «لم يبد هنا ابدا مثلما يصفونه فى البلاطات
الاخري ، بل هو اكثر تمدنا وتعقلا وتادبا وتواضعا» .

استمرت المفاوضات بين الحلفاء والاستانة ، علما بانهم
ابعدوا روسيا عنها بوقاحة واستهانوا بمصالحها . وحاول بطرس
ان يؤثر على سيرها وي طرح على بلاط فيينا مسألة الالتزام بمعاهدة
التحالف . وانطلق فى ذلك من مبادئ العدالة والعقل والحق
الاخلاقي . ولم يراع بطرس بالقدر الكافى فى خطواته الدبلوماسية
النزعة النفعية فى الدبلوماسية الاوربية . . .

وطرح بطرس فى التذكرة التى بعثها الى المستشار كينسكى
ثلاثة اسئلة :

- ما الذى ينوى الامبراطور ان يفعله : هل سيواصل
الحرب ضد العثمانيين ام يقدم على الصلح ؟
- اذا وقع الصلح فما هى شروطه بالنسبة للامبراطور ؟
- ما هى الشروط التى يطرحها السلطان العثماني على
الامبراطور والحلفاء ؟

وفى ٢٤ حزيران (يونيو) ، فى اليوم التالى بعد استلام
تذكرة بطرس ، سلمه كينسكى جوابا خطيا جاء فيه ان

الامبراطور يفضّل «السلام المشرف الوطيد» ، وان الطرفين يحتفظان بالاراضى التى تحتلها قواتهما حتى اليوم . ومع الجواب نسخة من رسالة الصدر الاعظم العثمانى والرد على الاستانة بتوقيع كينسكى وودزىنى سفير البندقية فى فينا (تاريخ الرد مزور وكأنما ارسل قبل وصول البعثة الروسية الكبرى) .

لقد فهم بطرس كل تلك الاحاييل وتحدث مع كينسكى وطالبه بمواصلة الحرب ضد الباب العالى حتى نهاية مدة التحالف (ثلاثة اعوام ، اى حتى عام ١٧٠١) ، لكى تتمكن روسيا من تأمين سلامتها بشكل افضل دون الهجمات العثمانية وهجمات عساكر القرم ، ولذا فهى بحاجة الى قلعة كيرتش فى المضيق الواقع بين بحر آزوف والبحر الاسود . وردا على ذلك اعلن الحليف عن نيته الثابتة فى توقيع الصلح «بما كيرتش «فمن الاسهل اقناع» الاستانة بالتنازل عنها لروسيا «عندما تحتلها القوات الروسية» . وبعد الانتصارات الرائعة التى حققها الامير اوجين القائد النمساوى وحاكم سافوى على العثمانيين صار بوسع بلاط فينا ان يسمح لنفسه بمثل هذه النصيحة التى هى تحرش لا أكثر . اما بطرس فقد احتاج الى عشر سنوات اخرى ليشعر بالثقة اللازمة .

وانتهت خطوات بطرس الدبلوماسية بالفشل عموما . لكنه فهم امورا كثيرة . فان الاتصالات مع البلاطات الاوروبية وقادتها المحنكين ومع الدبلوماسيين المتفهمين قد اسهمت بقسط كبير فى تعليم بطرس واشياعه .

وظلت هناك البندقية حليفة روسيا الاخرى ، وهى ايضا حليفة غير امينة تماما . ومع ذلك . . . فلربما يتمكن بطرس من القيام بشيء هناك ، او تغيير شيء . او على اية حال قد

يمكن من القيام بمحاولة . زد على ذلك ان بناء السفن
متطور في هذه الجمهورية ، وتوجد فيها ترسانات للسلاح
واسطول مجذافي كبير . ويمكن الاطلاع على ذلك والاستفادة
منه . ومن هناك يمكن الرحيل الى روما والى فرنسا . . .
. . . فى الخامس عشر من تموز (يوليو) استعد بطرس
لركوب العربة كى يسافر الى البندقية . الا ان رسالة جديدة
وصلته من الامير الحاكم رومودانوفسكى فى موسكو وشوشة
عليه خططه . فقد كتب الامير عن عصيان اربعة افواج من
القوات الخاصة فى موسكو . فى الربيع جاء السى موسكو
١٧٥ من «مشعل الفتن» اما الآن ، فى الصيف ، فان اربعة
افواج كاملة توجهت اليها «متمردة» . ودارت فى رأس بطرس
كالعاصفة ذكريات احداث ١٦٨٢ و١٦٨٩ ، فثارت ثائرتة
وانفعل اشد الانفعال . ولم يعد يطبق المماطلات الدبلوماسية
ومجادلات دبلوماسية فينا وموسكو بشأن تفاصيل مراسيم المقابلة
الوداعية التى كادت تخفق . وجرى بعدها تبادل الزيارات
بين الامبراطور وبترس ، وفى ١٩ تموز (يوليو) استقبل القيصر
ولى العهد النمساوى ، وبعد ظهر ذلك اليوم استقل مع حاشيته
خمسة عربات اسرعت بهم الى روسيا وليس الى البندقية ،
فاثار بذلك دهشة فينا كلها .

العربات تنهب الدرب ليل نهار فى اراضى بولونيا صوب
الحدود الروسية . وبعد كراكوف لحق بالقيصر رسول جاء من
فيينا واخبره بدحر القوات الخاصة المتمردة عند نهر ايسترا غربى
موسكو ، جنب دير فوسكريسينسكى (القيامة) فى نوفو اورشليم
(اورشليم الجديدة) . وخفف بطرس من سرعته . وسار موكبته دون
استعجال . وفى رافا روسكايا تقابل بطرس مع اغسطس حاكم

سكسونيا وملك بولونيا . ومكث هنا فترة طويلة . كان الحاكمان يشبهان بعضهما البعض . فهما شابان ضخمان بقامة فارعة وطاقات نشيطة ومبادرات لا تنضب . الا ان اغسطس يفضل اللهو والمجون . كان يتحلى بجاذبية كبيرة خلافا للدب الروسى الذى بوسعه طبعاً ان يتحلى بالتأدب واللياقة لو اراد ، لكنه لا يجيد اصول السلوك الاوربية الرفيعة .

واستهوى بطرس الجو الخالى من التكلف الذى يستطيع اغسطس ان يهيئه وعدم التحجر وانعدام المراسيم الخائفة . كانت حفلات اللهو والمجون تتوالى الواحدة فى اثر الاخرى . وجرى استعراض القوات ، كما اجريت مباحثات تجارية . ذات مرة عرض بطرس مهارته فى قرع الطبول «فقرع عليها مختلف الانغام التى لا يضاهيه فى قرعها احد» (افادقة: شاهد عيان) .

وفى الاحاديث الانفرادية بين الحاكمين اللذين ربطتهما عرى الصداقة صاغاً تحالفاً ضد السويد واقسماً على صيانه . الا ان تلك الصياغة جاءت شفوية فقط . ولما كان التحالف الجنوبى ضد الامبراطورية العثمانية قد تقوض ، فقد حول بطرس نظاره الى الشمال ، الى البلطيق . وظهرت بواكير حلف الشمال المرتقب . وعزز الحاكمان هذا الاتفاق باسلوب فريد . حيث تبادل الملك والقيصر قميصيهما وقبعتيهما وسيفيهما . واقتربا راضيين على بعضهما البعض .

وعاد بطرس الى موسكو فى ٢٥ آب (اغسطس) . وكانت تنتظره اعمال لا تقبل التأجيل . فمن فينا ارسل الى الامير رومودانوفسكى رسالة موجزة غاضبة : «السيد الامير ، استلمت رسالتك التى حررتها فى ١٧ حزيران (يونيو) والتى تقول فيها

سماحتك ان بذور ايفان ميلوسلافسكى تنمو ، وارجوكم ان تكونوا اقوياء ، فلا شيء عدا القوة يصلح لاطفاء هذا اللهب . ومع اننا آسفون اشد الاسف على ترك القضية النافعة الحالية ، لكننا لهذا السبب سنعود اليكم باسرع مما تتوقعون» . هذه الرسالة تجسيد لنفسية بطرس الجاد المنفعل الذى يستطيع ان يصب جام غضبه على الذين يتصورهم مذنبين . وها هو يستعد لانزال عقاب دموى لا يرحم بافراد القوات الخاصة الذين تمردوا ، والقيصر واثق من ذلك ، بنأليب من آل ميلوسلافسكى الذين يحقد عليهم اشد الحقد ، ومن اخته صوفيا ، وهذا واضح من لهجة الرسالة («بذور ميلوسلافسكى تنمو» ، اى تتصاعد وتعطى براعم اخرى بشكل مؤامرات وفتن ضده) .

انتفاضة القوات الخاصة . الاصلاحات الاولى

حالما وصل بطرس الاكبر الى العاصمة فى ٢٥ آب (اغسطس) بشكل متخف تقريبا ، بدون استقبالات واحتفالات ، اطلع على تفاصيل الاحداث التى شغلت باله فى الخارج اكثر من اى شىء آخر ، ونعنى انتفاضة القوات الخاصة (الستريلتسى) . استمع الى كل ما حدثوه وبلغوه به . وقرأ مواد التحريات والتحقيق — افادات المشاركين فى الانتفاضة والتى انتزعت منهم فور دحرها قرب اسوار دير فوسكريسينسكى . واستمر الاطلاع على مواد القضية حوالى ثلاثة اسابيع . ومارس بطرس شؤوننا اخرى الى جانبها .

ما ان عاد القيصر الى موسكو حتى قام بزيارة الى باتريك غوردون . ثم جاء الى آنا مونس ، محبوبته فى حى العجم . ويبدو انه اشتاق اليها . وبعد ذلك توجه الى بريوبراجينسكويه دون ان يعرج على زوجته ، فما كان يريد ان يراها .

انتعشت الحياة السياسية فى العاصمة بمجىء القيصر الشاب النشط ، وانتقل مركز ثقلها الى هذه القرية فى ضواحي موسكو . اخذ البويار يتقاطرون الى هنا . فما رأوه فى اللقاء الاول مع القيصر ادهشهم هم ومعاصريهم حتى ظلوا سنين طويلة يحدثون ابناءهم واحفادهم عما حدث فى ذلك اليوم المشهود . استقبل

بطرس البويار وامر بان يجلبوا له مقصا استخدمه فى الحال .
وتناثرت على الارضية اللحي التى حلقها القيصر . وتعرض لهذه
العملية أكثر الرجال نفوذا انذاك — القائد العام شين والامير الحاكم
رومودانوفسكى وغيرهما ممن صهقوا وذهلوا لهذا التصرف لكنهم
اضطروا الى الاذعان . لا سيما وان القيصر لم يكتف بذلك ،
بل ظل يواصل حلق اللحي باصرار . وبعد ايام فى مأدبة عند
شين الذى لم يعد ملتجيا ، استمر مهرج القيصر بحلق لحي
الحاضرين ممن كانت هذه الحلية الروسية القديمة تزين وجوههم .
بهذه الصورة الحازمة الاستبدادية الفظة اخذ بطرس ، على
طريقته المعتادة ، يصفى مخلفات الماضى فى الحياة المعيشية .
صحيح ان بعض الشجعان حلقوا لحاهم قبله . لكنهم تعرضوا
لوابل من السخرية من جانب الاخرين ولللعنات من جانب
القساوسة . وكان البطريك اديان يسلط اللعنات فى مواعظه على
ذوى الذقون الحليقة واعتبر فعلتهم خطيئة لا تغفر وشبههم بالقطط
والكلاب والقردة .

ولم يعبأ بطرس بتدمير البويار ورجال الدين فاعلن فى مراسيمه
ان جميع رعاياه يجب ان يحلقوا لحاهم . وفارق الوجهاء لحاهم
بسرعة وسهولة نسبيا . اما عامة الناس فقد ردوا على ذلك بتدمير
خافت ومقاومة . وعند ذاك فرضت السلطات ضريبة على
الملتحين : ١٠٠ روبل سنويا على التجار الاثرياء (وهذا مبلغ
هائل فى مقياس ذاك الزمان) و٦٠ روبلا على النبلاء والموظفين
و٣٠ روبلا على اهالى المدن ، وكويك واحد على الفلاحين كلما
دخلوا المدينة او خرجوا منها . ولم يعف من الضريبة الجديدة
سوى رجال الدين . وبالنسبة كسبت الخزينة وتضرر المصريون
على الالتحاء ، وبينهم كثير ممن قابلوا مستجدات بطرس

وتصرفاته باستنكار وغضب ونادوا بالابقاء على تقاليد وعادات الاجداد .

وفي الوقت ذاته انكب القيصر على حل مهمة اقضت مضجعه ، وكان يريد حلها قبل الرحيل الى الخارج . ونعنى طلاق زوجته . فعندما توجه الى ريفا طلب من الحكام الذين ظلوا في موسكو ان يقنعوا يفدوكيا بان تلتحق بالدير حسب قراره . لكن زوجته لم توافق على ذلك مع علمها بانه لا يحبها . واستحث الزوج عندما كان في الخارج ستريشنيف ورومودانونسكى واعرب عن استيائه من التباطؤ فى هذه المسألة وفى اليوم التالى بعد العودة من الخارج قابل بطرس زوجته . واستمر الحديث بينهما اربع ساعات ، وكان على ما يبدو صعبا على الطرفين . ولا احد يعلم بما تناوله الحديث . لكن جوهره هو ذاته — القطيعة وانزواء يفدوكيا كراهية فى الدير . وكان المرئى ان يجرى توديعها ، اذا وافقت ، من موسكو الى الدير بتكريم مهيب . وطالما رفضت جرى كل شئ ببساطة دون خفضة . بعد ثلاثة اسابيع غادرت الكريملين عربة صغيرة ، هى عربة عقيلة القيصر ، بدون حاشية . وسرعان ما استقبلت حجرات دير بوكروفسكى (الغطاء) فى سوزدال راهبة جديدة باسم يلينا .

وكان بطرس طوال هذه الايام يمارس اعماله او يحضر المآدب ، ويمعن الفكر فى ملابسات انتفاضة افراد القوات الخاصة الذين لا يعتبرهم محاررين بل مشاغبين . كان فى محاججاته السابقة والحالية على خطأ فى نقاط كثيرة . فقد عتم عليه وعكر صفو ذهنه حقه الشديدم القديم عليهم وعلى صوفيا وعلى آل ميلوسلافسكى . وقد جمعهم القيصر مجازا فى

حاضرة واحدة . فهم جميعا ، فى تصورات الخاطئة ، يشكلون معسكرا واحدا هو معسكر خصومه ومناوئى التحويلات والتجديدات التى ينوى القيام بها وبدأ بتطبيقها . ولم يكن ، مع الاسف ، يعير اهتماما لاحوال افراد القوات الخاصة الفعلية ، والآلام وحرماتهم . فى حين ان تلك الآلام والحرمات هى سبب الانتفاضة . زد على ذلك ان افراد تلك القوات اثبتوا جدارتهم الحرية مرارا منذ ان ظهروا فى قوام العساكر الروسية . بعد الاستيلاء على آزوف امر بطرس والسلطات الحاكمة باعادة تسعة افواج من القوات الخاصة الى موسكو ولكنهم تركوا لاجل تطهير المدينة وانشاء التحصينات اربعة افواج من القوات الخاصة الموسكوية فقط وستة افواج من الجنود . وقاد الافواج الاربعة المقدمون كولزاكوف وتشيرنى وتشوباروف وغوندرتمارك . واعرب افراد تلك القوات صراحة عن استيائهم من الخدمة الطويلة ومصاعب الحملات والخسائر والامراض والابتعاد الطويل عن الاهل وسوء معاملة الرؤساء .

وفى صيف ١٦٩٧ وصل امر الى الافواج الاربعة بترك آزوف والتوجه الى الشمال ، ولكن ليس الى موسكو ، والى الاهل والزوجات والاطفال ، بل الى منطقة فيليكيه لوكى . فهنا ينبغي على تلك الافواج ان تنخرط فى جيش رومودانوفسكى المكون من نبلاء نوفغورود وسمولينسك وييلسك وروسلاف ، وكذلك جنود وخيالة ثقيلة من سمولينسك . وبعد خسائر معركة آزوف كانت الافواج الاربعة تضم حوالى ٢٧٠٠ شخص من ضمنهم ٣٨ آما .

ومما اثار تدمر وحقد افراد القوات الخاصة انهم اقتيدوا الى الحدود اللتوانية بعيدا عن موسكو رغم الخسائر الكبيرة التى

تكبدوها فى حصار ودخول آزوف . وفى الطريق الى الحدود عانوا من حرمان شديد . كانوا يسحبون السفن النهرية المحملة بالسلاح والذخيرة ، وكانوا يجرون المدافع بدلا من الخيل ، والطقس لا اسوأ منه . فى البداية عانوا من احوال الخريف ، وبعدها حل الصقيع المبكر . كانوا جياعا (يتسولون فى الطريق ويتسولون الصدقة فى القرى) يعانون من البرد ويسرون الى مكان الخدمة الجديد ، على حد تعبيرهم ، «ليل نهار فى اشد درجات البؤس والفاقة ، فى احوال الخريف حتى كادت الارواح تزحف فى الاخير» .

وبعد الخدمة على الحدود ، حيث رابطوا وسط الغابات فى الزمهرير والصقيع ، نقلوا الى فيليكيه لوكى وتورويتس . واستمرت الآلام . وكان الجوع اشدها . فى تلك السنة اصابه المجاعة جماهير كبيرة فى روسيا باجمعها . وكتب جيليا بوجسكى ، احد المعاصرين ، فى مذكراته ان افراد القوات الخاصة جاءوا فى ربيع ١٦٩٨ الى موسكو يتشكون «من الجوع» . وتمكنت السلطات آنذاك من الحيلولة دون اندلاع انتفاضتهم السافرة ، فقد سددت لهم روايتهم فغادروا العاصمة بعد بعض القلاقل .

وآنذاك ، فى آذار (مارس) طرح اكثرهم نشاطا — توما وبروسكورياكوف وتشورين ونعموف وغيرهم — خطة الانتقام من «الظالمين» من بويار موسكو والاجانب المتنفذين الذين حرموهم من الرواتب وتركوهم فى بؤس وحرمان .

وعندما تأخرت اخبار بطرس سرت شائعات حول وفاته فى الخارج . وفى هذا الوضع الغامض المضطرب عاد افراد القوات الخاصة الى الكلام مجددا عن ضرورة الحاكم الجديد «الطيب القلب» الذى يخفف عليهم آلامهم ويزيح البويار «الاشرار» من

امثال رومودانوفسكى وستريشنييف وترويكوروف وغيرهم ممن يظلمون
افراد تلك القوات ويضطهدونهم .
وكتبت الاميرة مارفا فى تذكرة الى اختها صوفيا فى دير
نوفوديفيتشييه تقول :

- وصلت القوات الخاصة الى موسكو .
- واجابتها صوفيا (فى تذكرة مماثلة مخبأة «فى الطعام») :
- ماذا سيفعلون بهم ؟
- سيقطعون رقابهم .
- مساكين . اسفى عليهم .

قدم افراد القوات الخاصة عريضة الى الاميرتين اشتكوا
فيها مما يعانونه من آلام وحرمان . واعربوا عن رغبتهم فى
رؤية صوفيا على العرش . ثم جاء جواب صوفيا الذى تلاه توما
على الملأ فى حى اربات . وكانت هذه الرسالة التى
انكرتها الاميرة صوفيا فيما بعد ، عندما استجوبها بطرس ،
تدعو افراد القوات الخاصة الى التوجه الى موسكو بافواجهم
الاربعة ليخيموا امام دير نوفوديفيتشييه ويطلبوا منها ان «تسلم
زمام الدولة» . ويبدو ان افراد القوات الخاصة كانوا يؤملون
ويعتقدون بان عودة الاميرة صوفيا الى السلطة ، وهى حاكمة
«طبية» فى تصوراتهم ، ستخفف عليهم مصائبهم . ومن المحتمل
تماما ان يكون ما يسمى برسالة صوفيا وسيلة ابتدعوها ليستنهضوا
باقى افراد القوات الخاصة للانتفاضة .

فى البداية عبأت السلطات قوات كبيرة ضد الفارين
الى ١٧٥٠ وانصارهم المحتملين . فقد توزع حوالى الف جندى على
الكريملين وعلى بوابات المدينة البيضاء المحيطة به ، وارسل
٧٥٠ جنديا وفردا من القوات الخاصة الى حارات تلك القوات

التي يتواجد فيها الفارون الـ ١٧٥٥ ، وكان على اهبة الاستعداد جنود كثيرون آخرون من افواجهم .
وفي الطريق من موسكو الى فيليكيه لوكي استلم «الفارون» رسالة صوفيا» الثانية .

— انتم الآن في حال سيئة ، وستكونون فيما بعد في حال اسوأ . توجهوا الى موسكو . لماذا توقفتُم ؟ اخبار القيصر مقطوعة .
وعاد «الفارون» الى افواجهم وبدأت فوراً الاجتماعات ومناقشات خطط الحملة على موسكو . وجدت «رسالتا صوفيا» واخبار الشائعات المنتشرة في موسكو تربة صالحة . ودعا توما وبروسكوريانوف وماسلوف وزورين وغيرهم الى الافعال الحازمة .
وصاح الكثيرون في الاجتماعات ، وخصوصا الشباب :
— ما اتعس مصيرنا . نعاني من البويار ، ونسكع بسببهم للعام الثالث .

— فلنذهب الى موسكو .
— سنحصل على نقود كثيرة .
ولم يوافق قدامى افراد القوات الخاصة والقساوسة ، وقالوا ان الحملة خطيرة ولا جدوى منها . واستمرت المجادلات والخلافات في الاجتماعات زهاء شهر ونصف .
وفي اواخر آيار (مايو) نقلت الافواج الاربعة من فيليكيه لوكي الى توروييتس . وظهر امل في الحصول على اجازة للذهاب الى موسكو . ولكن في ٢ حزيران (يونيو) اعلن للقوات الخاصة ان الافواج الاربعة ستُرسل الى مدن مختلفة . وامرت السلطات بالاضافة الى تفريق افراد القوات الخاصة ، بنفى الذين جاءوا الى موسكو للشكوى في اذار (مارس) وارسالهم «للاقامة الدائمة» مع عوائلهم في مختلف مدن اوكرانيا .

وحاول ميكولين ، وهو من نبلاء موسكو ، ان يلقى القبض على «الفارين» . وتخلص بعضهم بالهراوات والعصى من الخيالة الذين حاولوا اعتقالهم بينما تمكن الخيالة من القبض على خمسين اوستين شخصيا ، واقتادهم الضباط القوزاق الى القلعة . الا ان جمهورا من افراد القوات الخاصة الآخرين اطلقوا سراحهم فى الطريق الى القلعة . ولاحقوا بالعصى الضباط القوزاق والمقدم كولزأكوف .

واجتمع افراد القوات الخاصة امام دار المقدم تشوباروف . وتليت عليهم وثيقة بعثتها السلطات الموسكوية . لكنهم لم يصدقوها .

— كتبها البويار ، اما القيصر فلا احد يعرف ابن هو الآن . ودعا أكثرهم جسارة الى الانتفاضة :

— فلنذهب الى موسكو .

— سنموت فى سبيل بعضنا البعض . سنقتل البويار ونبيد الاجانب .

— عندما نصل الى موسكو ستؤيدنا عامة الناس .

وحدث الشيء ذاته امام دوائر ادارة شؤون القوات الخاصة . وخرج القائد العام رومودانوفسكى مع افواج النبلاء الى الحقل المتاخم لطريق موسكو وطلب بان يتوجه افراد القوات الخاصة للخدمة فى المدن التى خصصت لهم وان يسلموا رفاقهم الفارين . ومضى افراد القوات الخاصة على مضض ، لكنهم لم يسمحوا باعتقال «العصاة» .

وفى ٦ حزيران (يونيو) التقت افواج القوات الخاصة عند نهر دفين الغربى . وفى الطريق الى النهر ، وعنده ، واصل توما وسائر القادة الرئيسيين الدعوة الى الحملة على موسكو .

وازداد عدد انصارهم . وتلا ارتيمى ماسلوف ، وهو من افراد فوج تشوباروف ، «رسالة صوفيا» التى زادت الطين بلة . لكنها لم تحظ بموافقة الجميع . وكان من الرافضين كارب يروفيف الذى عبر عن ارتيابه فرد عليه فاسيلى توما قائلا :

— لماذا لا تذهب معنا يا احمق ؟ عندى رسالة الاميرة صوفيا وهى تدعونا للذهاب الى موسكو .

وايدت الاغلبية الساحقة الانتفاضة . ونحى افراد القوات الخاصة آمريهم وانتخبوا لكل فوج اربعة مندوبين للقيادة وتسيير الامور . ولعب المندوبون دور المنظمين فى افواجهم . اما الزعماء الرئيسيون فى الحركة فهم من «الفارين» الـ ١٧٥ — توما وبروسكورياكوف وزورين وماسلوف وايفغناثيف واوبروسيموف وغيرهم . وكان زورين من المشاركين فى انتفاضة موسكو عام ١٦٨٢ . وقد اعلن صراحة الآن بانه مستعد لمواصلة القضية التى بدأها هو والآخرون قبل ١٦ عاما .

— وقرر افراد القوات الخاصة ان يتوجهوا الى موسكو .

وحرر زورين عريضة ، كما حرر ماسلوف الرسالة التى ينبغي ان تسلم الى السلطات . واستعرضا فيهما كل المصائب التى وقعت على كاهل افراد القوات الخاصة وطالبا بتخفيف تلك المصائب . ونظم الثوار دوريات الحراسة وناقشوا خطط التتكيل بالبويار والاجانب واستبدال السلطة . وظلت الخلافات باقية كالسابق . فالبعض لم يصدقوا بنجاح الانتفاضة ودعوا الى عدم التوجه الى موسكو «متمردين» . اما البعض الآخر فقد دعوا رفاقهم بجرأة للتوجه الى موسكو . فان فوسكوبوينيكوف من فوج تشوباروف لم يخف حقه على حكام موسكو :

— عندما نأتى نقطع ابدى بعض البويار ونسحلهم بالحبال .

وقال رجل آخر اسمه كلوكين :

— كلنا نعاني من البويار .

لكن براسولوف اعترض قائلا :

— لا داعي للذهاب الى هناك . سيعدموننا جميعا .

وكان الاختلاف يهدد الحركة من بدايتها ، وقرر المندوبون :

— من يرفض الذهاب الى موسكو نغرز رمحا في دبره .

وكان لاجراءات القادة الحازمة تأثيرها . وتحرك كل افراد

القوات الخاصة صوب موسكو (كان عددهم آنذاك ٢٢٠٠

شخص) . وكان الهدف هو قتل البويار والاجانب الممقوتين ،

وبالدرجة الاولى الضباط ، ونهب مساكن الوجهاء وتنصيب صوفيا

على العرش او شخص آخر (اذا رفضت) يعاملهم «بطيبة» من

امثال الاميرات الاخريات او الامير الكسى او الامير فاسيلي

غوليتسين (المنفى منذ عام ١٦٨٩) او الامير تشيركاسكى الذى

يتمتع بسمعة جيدة عند العامة . وتدل فكرة رفض صوفيا استسلام

السلطة وتسليمها الى اشخاص آخرين دلالة واضحة على ان

«رسالتى صوفيا» اللتين تحتويان دعوتها الى الزحف على موسكو

وتنصيبها على العرش مجرد ابتداعات دعائية من جانب الثوار ،

وعلى الاصح من جانب زعمائهم توما وبروسكورياكوف وزورين

وماسلوف .

وكان الثوار يؤملون فى تأييد عامة الناس فى موسكو .

فالمعاصرون يقولون ان بسطاء الناس مضطربون فى تلك الفترة

ومتذمرون من غلاء المعيشة وخصوصا الاطعمة . وكان الثوار

يعولون على معونة من القوات الخاصة فى مدن اخرى ومن قوزاق

الدون والجنود .

ومما له دلالة ان فكرة اختمرت بين الثوار ومفادها الانتقام

من القيصر بطرس نفسه واستبداله بشخص آخر وتغيير سلالة القياصرة . لكن ذلك ينتظر فى حالة نجاح الانتفاضة . وفى الوقت ذاته كان الذين يرفضون الانتفاضة والذين يؤمنون بها ويدعون اليها يدركون جميعا انها يمكن ان تمنى بالفشل . فان قواهم قليلة واملهم بمساعدة العامة والجنود والقوزاق والقوات الخاصة الاخرى كان مجرد امل (وقد بقى املا لا اكثر) . كانوا يتوقعون مثل هذه النهاية فيخاطبون بعضهم بعضا لشدة العزيمة :

— سنذهب الى موسكو من كل بد واذا عذبونا لن نشى بيعضنا البعض حتى الموت .

وبعد «الاجتماع الكبير» عند نهر دفيننا تحركت الافواج الاربعة صوب موسكو . ومن جديد فتت الخلافات فى عضد افراد القوات الخاصة وفرقت صفوفهم ، سواء البسطاء من المشاركين فى الحركة ام قادتها . فعندما وصلوا من الغرب ، على مسافة ٢٠ كيلومترا او يزيد عن دير فوسكريسينسكى امر الزعماء بتلاوة «رسالة صوفيا» من جديد . وقراها ماسلوف على الملأ . وفى هذه الاماكن صادف افراد القوات الخاصة الشماس قسطنطين سوخاريف . فحكى لهم انباء موسكو :

— البويار يتوقعون وصول القوات الخاصة ، وقد امروا خدمهم بخزن احتياطى لسته اسابيع والانسحاب الى داخل المدينة البيضاء . واذا بعثوا اليكم من موسكو رسولا يفرىكم بالنقود كيلا تدخلوها فلا تغريكم النقود وادخلوا موسكو . واثارت كلمات الرجل حماس الثوار وخصوصا المترددى منهم . اما سوخاريف نفسه فقد تكلم بهذه الصورة لانه ، كما اعترف فيما بعد ، كان يأمل فى انتصار افراد القوات الخاصة

وينتظر منهم «كل النعم والهبات» .

اثار نبأ تحرك افواج القوات الخاصة هرجا ومرجا بين البويار الحاكمين فى موسكو . اجتمع مجلس الدوما مرارا واتخذ قرارا بارسال عدة افواج من النبلاء والجنود وسواهم (جمعوا حتى المتقاعدین وسائسى الخيل ومن لم يبلغوا سن التجنيد) لمقاتلة القوات الخاصة . وبلغ عددهم ، كما افاد كروب ، ٨ آلاف شخص مع ٢٥ مدفعا . وقاد تلك القوات البويار شين والجنرال غوردون والجنرال الملازم الامير كولتسوف — موسالسكى . وتحرك جند القيصر بمنتهى السرعة . وفى مساء ١٧ حزيران (يونيو) بلغوا دير فوسكريسينسكى فى نوفو اورشليم . موقع الدير باسواره المتينة العالية وابراجہ ممتاز ، فهو يتصب على مرتفع يطل على نهر ايسترا . وينبسط امامه واد فسيح . ووصل افراد القوات الخاصة ايضا الى تلك المنطقة ، لكنهم لم يتمكنوا من احتلال الدير بعد . فقد جعلتهم الخلافات يتباطأون .

شغلت افواج ومدفعية الحكومة الربايا القريبة من الدير على الضفة اليمنى للنهر . ورابطت القوات الخاصة التى وصلت من جهة الغرب على الضفة اليسرى للنهر . وفى الليل اخذ الجانبان قسما من الراحة . وفى ١٨ حزيران بدأت المفاوضات بينهما . حاول غوردون وكولتسوف — موسالسكى وغيرهما ان يقنعوا الثوار بوضع السلاح ، بينما قدم اولئك العريضة والرسالة الى شين والبويار الآخرين . وطلبوا السماح لهم بدخول موسكو ليلتقوا بعائلهم ، وبعد ذلك سيلتحقون بالخدمة ، كما قالوا . وعرضوا مطالبهم وشكاواهم .

لم ينصت الثوار الى حجج الاقتناع ، واصبروا على مطالبهم .

واذا لم يسمح لهم بدخول موسكو سيشقون طريقهم بقوة السلاح .
واتخذ الطرفان مواقع القتال . وتليت الصلوات في كلا المعسكرين .
وصاح كلوكين في صف الثوار :

— اصمدوا يا اخواني ، مهما قدر لنا الله .

وسرعان ما جاء الى الثوار رجيفسكى على ظهر حصان ،
وبلغهم بمطلب شين بان يغادروا المعسكر ويضعوا السلاح
ويستعطفوا بطرس ويعترفوا بذنبهم لكي يسامحهم . وهددهم
بقصف المدافع . لكنهم واجهوه بالرفض :

— لا نخاف القصف .

— رأينا مدافع اقوى وافظع .

وانتهت المفاوضات . وتكلمت المدافع . ولم توقع الصلبة
الاولى من ٢٥ مدفعا خسائر بالقوات الخاصة ، لان الطلقات
خلب (وتفيد معلومات اخرى ان المدافع اخطأت الهدف عمدا)
ومرقت القنابل من فوق الرؤوس) . ونشر الثوار راياتهم واطلقوا
نيران المدافع والبنادق وجرحوا اربعة اشخاص . وفي اثر ذلك اخذت
مدافع المقدم غراغه تحصد صفوف الثوار بتصويب دقيق ،
فاضطربوا وارتبكوا . وحاولت خمس اوست سرايا من قواتهم ان
تختبىء في المنخفض وراء الربايا القريبة ، لكن تلك الربايا
كانت محتلة ، وقد تقدم من جهتها جنود فوجي ليفوت
وبوتيرسكى وارغموا تلك السرايا على الانسحاب . وبعد الصلبة
الثالثة هجم الثوار على الجنود ، لكن الصلبة التالية دمرتهم نهائيا
فاطلق البعض سيقانهم للريح واستسلم البعض الآخر للأسر .
وقتل في المعركة القصيرة ما بين ١٥ او ٢٠ من افراد
القوات الخاصة وجرح حوالي ٤٠ شخصا . وتم القبض على اغلبية
الباقين وزج بهم في دير فوسكريسينسكى تحت الحراسة .

وإثناء التحقيق الذى جرى بأمر من بويار موسكو طلب شين ان يفرزوا من بين جميع العصاة «المنلوبين» و«الفارين» الى موسكو (فى آذار من العام نفسه) و«غيرهم من المحرضين» اى انشط رجال الانتفاضة وزعماءها . وبلغ عدد هؤلاء ٢٥٤ شخصا . وبعد الاستجواب الذى وشوا فيه على بعضهم البعض ونسوا العهد الذى قطعوه على انفسهم امر شين بشنق ٥٦ من «انشط المحرضين» ، وبينهم الزعماء الرئيسيون توما وغيره . وجرى اعدامهم شنقا فى ٢٢ و ٢٨ حزيران (يونيو) . وبناء على قرار من بويار موسكو جرى بنفس الطريقة فى ٢ تموز (يوليو) اعدام ٧٤ من «الفارين» الى موسكو . وبلغ مجموع القتلى ١٣٠ شخصا . وتجرعوا الموت بصمت راسمين شارة الصليب . وبالإضافة الى ذلك عوقب بالجلد والنفى ١٤٠ شخصا من انشط اعضاء الحركة . وترك زورين وعدد آخر من افراد القوات الخاصة فى دير فوسكريسينسكى لمواصلة التحقيق . ونفى الباقون (١٩٦٥ شخصا) الى مختلف المدن والاديرة ، لكنهم لم يصرفوا هناك وقتا طويلا ، شهرين ونيفا لا غير .

فعندما وصل بطرس من الخارج لم يخف استيائه البالغ من تحقيقات شين فى دير فوسكريسينسكى . فقد جرى التحقيق ، فى رأيه ، باستعجال دون ان يكشف عن جذور «الفتنة» (اى «بلدور» ميلوسلافسكى التى كتب عنها الى موسكو من الخارج) ، فى حين لم تتلق اغلبية المشاركين فيها سوى عقوبات خفيفة للغاية . ويعتقد بطرس ان مدبرى الفتنة اعدوا بسرعة بالغة دون ان تستحصل منهم المعلومات الضرورية الهامة . وتجلى استياء القيصير على مرأى من الناس بأشكال وحشية منفلة . فى اثر وصول بطرس جمع ليفورت فى قصره على القوم

من وجهاء موسكو وبوبارها والجنرالات والدبلوماسيين الاجانب .
حوالى ٥٠٠ شخص . ووصل بطرس ايضا . وانفجر اول حادث عندما
جلس الضيوف الى المائدة الطويلة . فقد تجادل السفير الدانمركى
مع السفير البولونى بسبب المقعد فلم يتحمل بطرس وصاح بهما :
— حمقى !

وجلس الجميع اخيرا . وهدأ روع بطرس حسب الظاهر .
وتكلم مع الدبلوماسى البولونى الذى قرعه قبل قليل :
— سمعت فى فينا لكثرة الطعام ، اما بولونيا المسكينه
فقد اخذت منى سمتهى .

— كيف يجوز ذلك يا صاحب الجلالة ؟ انا نفسى ولدت
فى بولونيا وترعرعت وبقيت سميئا بدينا مثلما كنت .
— لقد شبت من الطعام هنا فى موسكو وليس هناك .

لم تكن كلمات القيصر هذه تخلو من الخشونة ، ناهيك
عن الاستهانة باللياقة الدبلوماسية . ومع ذلك كانت اخف من
كلمة «حمقى» . وسرعان ما انفجر بطرس ثانية ، فهو فى اشد
سورات الانفعال . بدأ حديثه مع شين وسار به الى حد الشجار .
اتهمه باستلام الرشاوى مقابل منح مراتب الضباط . ثم هرع
الى الشارع ، الى الخفراء من جنود الحراسة ، فسألهم عن عدد
الجنود الذين منحوا ترقية وصاروا ضباطا ، وما ان حصل على
الجواب حتى دخل القاعة راكضا وسيفه مشرع بيده . وانهاه
على المائدة بضربات السيف وبالصراخ على شين :

— هكذا ساقصم ظهر فوجك وانزع جلدك .
اسرع ليفورث ورومودانوفسكى وزوتوف الى القيصر ليهذئوه .
فتلقى معلمه السابق زوتوف ضربة بالسيف على رأسه ، وتلقى
الامير رومودانوفسكى ضربة على يده (فجرحت اصابعه) وتلقى

وزير التسليحة والافراح ليفورت ضربة على الظهر . واخيرا تمكن مينشيكوف من تخفيف حدة غلوائه .

ولم يكن سبب هذا المشهد الوحشي رشاي شين ، بل تسرعه فى التحقيق مع المتمردين . واعلن القيصر عن استئناف التحقيق ، واشرف عليه بنفسه . وقال مخاطبا غوردون الذى شارك هو الآخر فى التحقيق :
— سأستجوبهم بأشد منكم .

ويأمر من القيصر اعيد الى موسكو أكثر من الف تاجر من القوات الخاصة . وفى ١٧ ايلول (سبتمبر) ١٦٩٨ بدأ التحقيق الفظيع الذى ادهش المعاصرين والاحفاد وترك ايشع انطباع لدى الكثيرين من الروس من حيث قساوته المرعبة التى تجاوزت كل الحدود . وبينت اولى التحقيقات التى اجريت للنشطاء من المشاركين فى الحركة ، ومنهم زورين وزعمائها الآخرون ، انهم بدأوها بسبب مصائبهم وفقيرهم ، وارادوا ان يطلبوا من صوفيا ان تستلم السلطة فى حالة نجاح الحركة .

كانت جريمة افراد القوات الخاصة ومصيرها واضحين فى رأى بطرس «فهم يستحقون الموت لمجرد العصيان ومقاتلة الفوج الكبير» ، اى مقاتلة قوات شين . ولم يكن القيصر فى الواقع مهتما بجريرة كل منهم على افراد . فالأهم من ذلك ، فى تصوراتهم ، هو ايضاح اسباب الحركة ، والأهم هو اتصالات المشاركين فيها مع صوفيا الممقوتة واشياعها . وغدت هاتان النقطتان اللتان اتضحتا من التحقيقات الاولى اساسا للامثلة الخمسة التى وضعها بطرس نفسه ، دون ريب ، وسلمت الى المحققين فى ١٩ ايلول (سبتمبر) .

وشرعت عشر لجان تحقيقية بالعمل منذ ١٩ ايلول . وترأسها

أكثر الوجهاء نفوذاً ، من أمثال الأمير رومودانوفسكى مدير مديرية
 بريوبراجينسكويه المتفطن الرئيسى فى الجلد والتعذيب ، والبويار
 الأمراء تشيركاسكى ودولغوروكى وبروزوروفسكى وترويكوروف وبوريس
 غوليتسين وغيرهم . وتوضحت تفاصيل الانتفاضة وأهدافها
 بالتدريج . وضيف الى الأسئلة الخمسة فى ٢٢ ايلول سؤال
 سادس بشأن «رسالة صوفيا» . وفى ٣٠ ايلول (بعد التحقيق
 الاول فى ١٩ — ٢٢ منه) اعدم ٢٠١ من افراد القوات الخاصة ،
 وفى ١١ تشرين الاول (أكتوبر) اعدم ١٤٤ (بدون استجواب) .
 وفى ١٢ و ١٤ و ١٥ تشرين الاول (أكتوبر) أجرى التحقيق
 الثانى الكبير الذى عملت فيه ١٤ لجنة وليس ١٠ . وبعد يوم
 او يومين اعدم ١٧٦ شخصا . جرى الاعدام شنقا وبقطع
 الرقاب فى أماكن مختلفة — فى بريوبراجينسكويه وفى العاصمة وفى
 بواباتها وفى مقرات قيادة الافواج وفى الساحة الحمراء وقرب
 اسوار دير نوفوديفيتشييه . ونصبت مشنقة تحت نوافذ الراهبة
 سوزان (الأميرة صوفيا) يتدلى منها ثلاثة من افراد
 القوات الخاصة تمسك ايديهم المتجلدة بعرائض حول «الحكم
 القيصرى» . . .

وتجول بطرس وحاشيته فى أماكن الاعدام . وقد صور احد
 هذه المشاهد الرسام سوريكوف فى لوحته المعروفة «صباح اعدام
 الستريلتسى» . ويفيد شهود عيان ان القيصر لم يخجل من
 تلويث يديه فقطع بالفأس رقاب اولئك التعساء ، وارغم البويار
 ايضا على القيام بذلك . ويقول كورب ان بطرس
 قطع رقاب خمسة من اولئك التعساء فى بريوبراجينسكويه .
 ويورد هذا المؤلف الرواية التالية : اثناء التحقيق سأل القيصر
 من احد افراد القوات الخاصة : ماذا كنت ستفعل لو انك

قبضت على او على ليفوروت ؟ فرد الرجل على بطرس :
— لماذا تسأل عن ذلك ؟ يمكنك ان تتصوره افضل
منى بكثير . لو لم يلازمنا النحس والحظ المنكود ، ولو استولينا
على موسكو لما طرحنا مثل هذه الاسئلة ولانتقمنا من البويار
حتى يكونوا عبرة لمن يعتبر .

ذات مرة ، فى مأدبة عند غوردون «تشكى القيصر بمرارة
من عناد وتعنت المذنبين» وتحدث بغضب قائلاً ان احدهم
ابدى تشبهاً وعناداً لدرجة جعلته يخاطبه ، هو ظل الله فى الارض
بحدة وجسارة وهو يهيم بالرقاد على النطع :
— ابتعد يا صاحب الجلالة ، فانا الذى يجب ان ارقد
هنا وليس انت .

واستمرت التحقيقات والاعدامات فيما بعد ايضا ، فى
١٦٩٩—١٧٠٠ . واعدم آخر المذنبين (وبينهم ماسلوف
والاشخاص الذين وشى بهم فيما يخص «رسالة صوفيا») فى
٢٧ آيار (مايو) ١٧٠٧ . وفى شباط (فبراير) ١٦٩٩ نقلت من
موسكو جثث القتلى التى ظلت حتى ذلك الحين متروكة فى
اماكن الاعدام . وبلغ عددها ١٠٩١ جثة . ودفنت على طول
الطرق على بعد ثلاثة كيلومترات ونيف عن موسكو . وامر بطرس
ان تخرز هنا اوتاد حجرية مربعة ملبسة بالواح معدنية كتبت
عليها قائمة جرائم افراد القوات الخاصة التعساء .

وفى ايلول—تشرين الاول (سبتمبر—اكتوبر) ١٦٩٨
جرى ، بالاضافة الى افراد القوات الخاصة ، التحقيق مع
الاميرتين صوفيا ومارفا والمقربين اليهما . وقد تعرض الاخيرون
للتعذيب ، لكن القيصر حقق مع شقيقته بنفسه وخلصهما من
التعذيب . ظل بطرس يتكلم مع صوفيا ويستجوبها عدة ساعات .

فقد اصطدمت شخصيتان فذتان ، لامعتان كل منهما تكره
الآخرى . وانكرت صوفيا علاقتها بافراد القوات الخاصة . اما
الدعوة لاستلام السلطة فقد قاموا بها ، على حد تعبيرها ، لانهم
يتذكرون وصايتها في ١٦٨٢-١٦٨٩ . وجاء في بروتوكول
التحقيق قولها بالحرف الواحد :

— لم ارسل الى افواج القوات الخاصة الرسالة التي ورد
ذكرها في التحقيق . اما قول افراد تلك القوات بانهم جاءوا الى
موسكو لدعوتي من جديد الى الحكومة فانه ليس نتيجة لرسالة
منى ، بل لاننى كنت فى الحكومة من عام ١٦٨٢ .
ولهذا نظم بطرس الذى استجوب اخته فى دير نوفوديفيتشيه
مقابلة وجهها لوجه مع اثنين من افراد القوات الخاصة افادا بوجود
«الرسالة» ، وهما ماسلوف واغنايف . وهنا ايضا ابدت صوفيا
صلابة واصبرت على رأيها :

— لم اسلم الى توما تلك الرسالة بواسطة المتسولة ،
وانا لا اعرفه ولا اعرف ماسلوف واغنايف .

وانكرت مارفا الكسيفنا كل شىء ايضا . ولم تعترف الا
يايلاغ صوفيا بوصول الفارين من القوات الخاصة الى موسكو .
وكانت عقوبة الاميرة صوفيا يسيرة نسبيا ، وهى التهرب باسم
سوزان فى دير نوفوديفيتشيه نفسه حيث بقيت حتى وافاها الأجل .
اما مصير افراد القوات الخاصة فلم يكن يسيرا ، كما اسلفنا .
فان أكثر من الف شخص لقوا حتفهم على النطع وعلى اعداء
المشائق . ونفى الآخرون . وامر بطرس بحل ١٦ فوجا من القوات
الخاصة فى موسكو . ونفى افرادها مع عوائلهم الى مختلف المدن
حيث اعتبروا هناك من الحرفيين والباعة . ونعت الناس هذه
العملية بـ«خراب القوات الخاصة» . وكان القيصر ينوى حل جميع

افواجها الاخرى . لكن حرب الشمال اندلعت آنذاك ، وسرعان ما تشكلت افواج جديدة من القوات الخاصة الموسكوبية السابقة . وابتلى افرادها بلاء حسنا في معركة بولتافا ١٧٠٩ وفي العمليات الحربية الاخرى . لكنه جرى تحويلهم تدريجيا الى جنود عاديين . وانتهى وجود القوات الخاصة الموسكوبية نهائيا في عام ١٧١٣ . اما القوات الخاصة الاخرى فلم يجر حلها الا في الربع الثاني من القرن الثامن عشر ، اى بعد بطرس الاكبر . كانت سنوات «التحقيق في فتنة القوات الخاصة» مشحونة باحداث كثيرة اخرى في حياة بطرس وروسيا . ولم يقتصر الامر على مكافحة الملتحين من المتمسكين بالاعراف القديمة . فهذا الاصلاح مس في آخر المطاف كبار فئات المجتمع الروسى بالدرجة الاولى ، اما عامة الفلاحين واهالى المدن فقد تخلصوا من حلق اللحي على الطريقة الغربية بدفع الضرائب . لقد ادخلت مستحدثات القيصر هذه جوانب جديدة كبيرة الاهمية في حياة الرعايا الروس ودفعتهم الى اشكال معيشية أكثر حيوية وتمدنا . ويمكن قول الشيء ذاته عن الحفلات الساهرة وتعليم الشبان ، بل والاكثر منهم سنا في بعض الاحيان خارج البلاد ، على مختلف العلوم ومبادئ السلوك والآداب .

في الثانى عشر من شباط (فبراير) ١٦٩٩ دعا ليفورث كثيرا من وجهاء موسكو الى وليمة في قصره الجديد . وشارك بطرس مع الجميع في تبريكه بشكل يتسم بالهزل والمرح كما هى العادة في تلك السنين . وكان هناك كثير من النبيلز والمسليات . واستخدم القيصر المقص هنا ايضا . ووقعت ضحية له هذه المرة اردان القفطانات الروسية الطويلة العريضة . وكان يقول وهو يقص الاردان :

— انها تعيق الانسان ، فهو دوما يتوقع حادثا بسببها ،
فاما ان يكسر الزجاج او يغط في الحساء بسبب قلة الحذر .
ويمكنك ان تخطط من هذا جزمة — وعرض بطرس قطعة من
الردن المقصوص على الشخص المتضرر .

وكما هو الحال مع اللحى تخلص الاعيان بسرعة وسهولة
من البدلات ذات الاذيال الطويلة والاردان العريضة . وسرعان
ما صاروا يتبخثرون ، شأن القبصر نفسه ، بقفطانسات
اوروبية الطراز قصيرة ومريحة ، علما بانها من الجوخ وليس من
اقمشة الدمقس والقטיפه والحريز الغالية الثمن ، كما فى السابق .
ولم يكن هذا المستحدث جديدا تماما . ففي عهد القيصر
فيودور ، شقيق بطرس ، جرت العادة فى البلاط على ارتداء
الثياب البولونية والمجرية الطراز . اما الآن فقد غدا الزى الجديد
بمناوبة البزة الرسمية العامة . فقد صدر مرسوم فى ٤ كانون
الثانى (يناير) ١٧٠٠ ألزم جميع النبلاء فى روسيا وجميع الحرفيين
والباعة واقنان البويار فى موسكو والمدن الاخرى بارتداء القفطانسات
المجرية . وفى ٢٠ آب (اغسطس) كروا مرسوم كانون الثانى
لان التنفيذ تأخر . فقد ظهرت صعوبات كثيرة امام الخياطين
بسبب كثرة العمل وعدم الاطلاع على التفصيل الجديد .

ونظرا لان الروس ، كما يبدو ، تعودوا على عدم التنفيذ
الا بعد تذكير للمرة الثالثة ، تكرر فى عام ١٧٠١ من جديد
المرسوم الخاص بالزى الجديد . و اشار المرسوم بمزيد من التفصيل
الى ما يتعين ان يرتديه الناس : «بدلات سكسونية وفرنسية وتحتها
قمصان وسراويل ، والجزمات والاحذية والقبعات المانية الطراز» .
وفرضت غرامة على من يخرق المرسوم هى روبلان للفارس
الراكب و٤٠ كويكا للراجل .

وكما هو شأن خلق اللحى لم ينفذ مرسوم الثياب بالسرعة التى ارادها بطرس . ومع ذلك تعود المجتمع الروسى بالتدريج على حلاقة الذقن والزى الجديد . وتتسم بأهمية أكبر المستحدثات الاخرى التى طبقت فى عامى ١٦٩٩ — ١٧٠٠ . فان البدء ببناء السفن والملاحة البحرية والمدفعية وانشاء القلاع طرح بحدّة ضرورة وجود المهندسين والفنيين والاسطوانات المطلعين على الرياضيات والذين يجيدون قراءة الخرائط واستخدام الادوات والاجهزة المعقدة . واستدعت الضرورة وجود مستشفيات فى افواج الجيش ، اى وجود ذوى المهن الطبية ودراسة الطب . ودعت الحاجة الى التفكير فى الكثير من الامور الاخرى المستعجلة التى لا تقبل التأجيل . بديهى ان الروس تعاقدوا مع اخصائيين اجانب مقابل اموال كبيرة . لكن بطرس الذى رأى فى الخارج اكاديميات العلوم والجامعات والمراصد والمدارس وكثيرا غيرها قد فهم تماما ان روسيا بحاجة الى مثل هذه المؤسسات والدوائر . وعندما كان فى بريطانيا كلف ف . بروس بان يدرس نظام التعليم الانجليزى ويقدم تقريراً عنه .

وحالما وصل الى روسيا اتخذ اجراءات عملية . ففى ٤ تشرين الاول (اكتوبر) ١٦٩٩ زار البطريرك اديان ، وكان مريضاً ، وتشكى من جهل رعاة الكنائس . وقال القيصر : ينبغي ارسال زهاء عشرة اشخاص الى مدارس كييف . الاحوال سيئة فى الاكاديمية السلافية اليونانية اللاتينية التى اسسها الاخوان ليخود من اليونانيين فى عام ١٦٨٥ . فالتلاميذ (وعدهم ١٥٠) يعانون من الفقر . والمبنى مهدم ، والمعلمون لا يتحلون بمستوى ثقافى . ويجب تأسيس مدرسة جديدة ، يدرس فيها بالطبع

الانجيل بوصفه نور العيون و«تعاليم الخالق» ، هذا بالدرجة الاولى ، ولكن يجب الا يقتصر التعليم على ذلك . فالتلاميذ ينبغي ان يحصلوا على معارف فى الشؤون العسكرية والهندسة والطب . فالروس ، على حد قول القيصر ، توافقون الى ذلك : — الكثيرون يرغبون فى تعليم ابنائهم العلوم الحرة .

وكان يقصد «بالعلوم الحرة» آنذاك فى اوربا الغربية وفى روسيا علوم الكلام (قواعد اللغة والديالكتيك والخطابة) والرياضيات (الحساب والهندسة والفلك) والموسيقى . وحاول بطرس ان يفتح البطريرك ، رئيس الكنيسة الارثوذكسية الروسية ، بضرورة تلك العلوم للرعايا الروس الذين «سينعلمون كل الفضائل فى مدارسنا اذا توفر التعليم الماهر الواسع الاطلاع» . واكد القيصر على الفكرة القائلة بان الايمان بدون عمل لا جدوى منه ، كذلك العمل بدون ايمان .

كان البطريرك الضعيف الذى سرعان ما قضى نحبه من المحافظين الغيارى على الماضى فى كل شىء . وقد استمع بارتياح ، فى اغلب الظن ، الى القيصر الشاب الجسور . فالافكار التى اعرب عنها تقارب الزندقة فى مفاهيم ذلك الزمان . فاللوغارثيمات التى انتقلت من زمان الى اوربا الغربية من آسيا الوسطى (عن الخوارزمى وغيره) كانت تعتبر فى روسيا «كتابا اسود» يغوى الانسان فى التواطؤ مع الشيطان . وكانوا يقولون آنذاك «كل من يحب الهندسة مكروه عند الله» .

وكان بطرس يدرك طبعا عواقب ما اقدم عليه . وقد اقدم على هذا العمل ، شأن الاعمال الاخرى ، بجرأة وحزم . كانت روسيا بحاجة الى مدارس ذات برنامج تعليمى واسع ، وكانت بحاجة الى جامعة واكاديمية . وقد تصرف بطرس على

هواه رغم محاولته لاقتناع البطريك المريض وتمسكه بما يشبه الاصول الدبلوماسية وان بصورة شكلية تظاهرية . فقبل هذا الحديث ، عندما كان بطرس فى بريطانيا دعا للسفر الى روسيا البروفسور هنرى فاروارسن ، ووصل البروفسور المذكور مع اثنين من رفاقه الى موسكو قبيل حديث بطرس مع البطريك اديان . وفى عام ١٧٠١ بدأ هؤلاء الاساتذة بتدريس الرياضيات فى مدرسة الملاحة . وبعدها ظهرت مدارس اخرى للرياضيات .

فى عام ١٦٩٩ جلبوا الى موسكو مطبعة جديدة كان مقررا ان تطبع فيها ليس بالاحرف السلافية الكنسية ، بل بالاحرف المدنية كتب ذات مضمون علمانى فى الهندسة والمدفعية والميكانيكا وكذلك التاريخ والتقاويم . هذا ما ورد عن المطبعة المذكورة فى كتاب «تاريخ الحرب السويدية» الذى وضع فى عشرينات القرن الثامن عشر وشارك فى تأليفه بطرس الاكبر . صحيح ان اولى الكتب التى صدرت باللغة الروسية فى ١٦٩٩ — ١٧٠١ كانت قد طبعت فى امستردام . وكانت مكرسة لمواضيع علمانية فى التاريخ والحساب والفلك والملاحة وعلم اللغة والادب . وكانت تلك بداية الانعطاف من المطبوعات الكنسية الصرف الى المعرفة العلمية . وبعد ذلك بدأت الطباعة فى موسكو . وكانت الخطوة الهامة التالية هى استخدام التقويم الجديد .

فى ١٩ كانون الاول (ديسمبر) ١٦٩٩ اعلن مرسوم صادر عن بطرس الاكبر ان التقويم فى روسيا من الآن فصاعدا يبدأ ، كما فى سائر بلدان اوروبا ، ليس من «الخلقة» ، بل من ميلاد عيسى المسيح . وفى اليوم التالى صدر مرسوم آخر يبدء السنة الجديدة ليس فى ١ ايلول (سبتمبر) كما هى العادة حتى ذلك الحين ، بل من ١ كانون الثانى (يناير) . وكىلا يشعر شعب روسيا

الارثوذكسى بالريية والقلق اخبروه بان هذا النظام لحساب الزمن موجود من زمان ليس فقط فى العديد من بلدان اوربا الغربية ، بل وكذلك عند الشعوب الصقلية (السلافية) — الصرب والبلغار وكذلك الفولوخ (الرومانين) والمولدافيين والدالماتيين بل وحتى عند الاغريق (اليونانيين) التى تبنت روسيا فى حينه الديانة المسيحية على ايديهم . وارسلت وثيقة رسمية الى مختلف انحاء البلاد ، بالاضافة الى المرسوم ، سمحت باستخدام التقويمين فى الوثائق . الا ان التقويم الجديد سرى بسرعة فى تحرير الوثائق الرسمية وفى المراسلات الشخصية .

ووفقا لاوامر القيصر اقيمت فى الاول من كانون الثانى (يناير) ١٧٠٠ فى الكنائس صلوات مهية بمناسبة العام الجديد . واصطفت فى الساحة الحمراء افواج الجنود الذين اطلقوا نيران المدافع والبنادق . كما احتفل بهذه المناسبة بالالعب النارية والتزيينات بالانوار والاقواس المزركشة على ابواب منازل الوجهاء . وزينت المنازل نفسها بالخضرة . واستمرت الاحتفالات ستة ايام .

ومن ذلك الحين سمح لجميع الراغبين من الرعايا بالسفر الى الخارج لغرض الدراسة . وكانت هذه الرحلات ممنوعة فى السابق . والاكثر من ذلك ان القيصر ، كما رأينا ، بذل قصارى جهده لارسال الشبان الروس الى اوربا الغربية طلبا للعلم والمعرفة ، وارغمهم على الرحيل .

وبموجب مرسوم ١٠ آذار (مارس) ١٦٩٩ استحدث ، على غرار اوربا ، وسام القديس اندرى بيرفوزفانى . وادهش بطرس ابناء جلدته عندما اخذ منذ تلك الآونة ، خلاقا لاسلافه من القياصرة الروس ، يوقع بنفسه الوثائق ذات الطابع الدولى ،

ويصادق عليها . وصار يجرى بنفسه ، فى جلسات مغلقة ،
مباحثات مع المنلوين الاجانب فى موسكو .

وفى كانون الثانى (يناير) من عام ١٦٩٩ اعلن بطرس
مرسوم اصلاح المدن . فتشكلت هيئات الادارة الذاتية للمدن
(المجالس البلدية) ، مثل هيئة راتوشا فى موسكو ومجالس
الزيمستفو فى المدن الاخرى . وفى عهد القيصر الكسى
ميخائيلوفيتش ، والد بطرس ، حاول الدبلوماسى البارز اوردين-
ناشوكين المقرب اليه ان يجرى مثل هذا الاصلاح فى بسكوف
التي كان متصرفا فيها بعض الوقت . وكان هدف هذا الاصلاح
تأسيس دائرة تحمى التجار وتصونهم من تعسف المتصرفين .
وبدأ المتصرف بتطبيق هذا الاصلاح الذى استقبله اهالى
بسكوف بارتياح . وكان المفروض ان تنتشر هذه التجربة الاولى
فى سائر مدن روسيا . الا ان دسائس البويار الذين يمتقنون
محبوب القيصر وعدم رغبة المتصرفين انفسهم الذين اثروا فى
مدن روسيا ومخاوف السلطات من مبادرات اهالى المدن
ومشاغباتهم—كل ذلك قاد الاصلاح الى الفشل .

اما الآن ، بعد ثلاثة عقود ، فقد طبق بطرس واعوانه بحزم
الانظمة الجديدة غير المعتادة بالنسبة للحرفيين والباعة الروس .
ومن جديد اشار مرسوم بطرس ، مثلما فى عهد ابيه واوردن-
ناشوكين ، الى هدف الاصلاح ، وهو حماية التجار من الكثير
من مماطلات الدوائر ومن الافلاس . صحيح ان السلطات
عندما منحت المدن ادارة ذاتية وخلصتها من رقابة المتصرفين
طالبت الحرفيين والباعة بتسديد ضرائب مضاعفة . وكان ذلك
هو ثمن الاصلاح . الا ان الحرفيين والباعة رفضوا دفع الثمن
ولم يوافقوا على الشرط الوارد فى المرسوم . وتخلت الحكومة عن

فكرة منح الادارة الذاتية فقط للمدن التي تدفع ضرائب مضاعفة . وظلت الضرائب على حالها ، وشمل الاصلاح كل المدن . وكلفت الراتوشا ومديريات الزيمستفو بجباية الرسوم الجمركية وعائدات الحانات . ومن تلك الفترة لم يعد ذلك من وظائف المتصرفين ، بل من واجب المنتخبين من التجار . وبالإضافة الى ذلك كانت الحكومة تأمل فى الحصول على منفعة اخرى هى انعاش الحرف والصناعة والتجارة .

ومن ذلك الحين بدأت اولى التحويلات الادارية . كانت آلة الدولة التى ورثها بطرس ثقيلة خرقاء تعاني من التشوش فى وظائف الدوائر . وكان اصلاحها الجذرى ينتظر ، ففى تلك الفترة جرت التجارب الجزئية الاولى فى هذا المجال . وبالإضافة الى اصلاح المدن الذى استحدث دوائر جديدة اهتم بطرس واعوانه بمعالجة الدوائر القديمة .

كانت مجالس الزيمستفو العامة — هيئات ممثلى مراتب المجتمع التى اتسم نشاطها بطابع تشريعى — فى طى الماضى من زمان . وظل مجلس دوما البويار بمثابة الهيئة الاستشارية التشريعية والقضائية العليا . ويتكون مجلس الدوما من كبار البويار والنبلاء . وفى بداية تسعينات القرن السابع عشر كان عددهم ١٨٢ ، وفى نهاية القرن المذكور كان العدد ١١٢ شخصا . وقد توفى اعضاء الدوما الطاعنون فى السن ولم يعين آخرون تقريبا بدلا عنهم . واخذ مجلس الدوما ينقرض بصورة طبيعية . وفى الاول من كانون الثانى (يناير) ١٧٠٢ لم يبق فيه سوى ٨٦ عضوا . ففى غضون عقد واحد تقلص عدد اعضاء مجلس الدوما الى اقل من النصف . ثم انهم لم يكونوا جميعا يحضرون جلسات المجلس . فلا يحضرها عادة سوى ٣٠ — ٤٠ شخصا .

بعضهم يتجول في البلاد بمهام معينة ، وبعضهم لا يتلقى دعوة لحضور الجلسات . والاهم هو ان المجلس يبت في مسائل ثانوية (مثل تسجيل الفلاحين ضمن التجار وجباية الضرائب اثناء عقد الصفقات وما الى ذلك) . فالقضايا الهامة ينظر وبيت فيها القيصر . وتذيعها المراسيم الصادرة باسمه . وقد ظهرت في مجلس الدوما نفسه مستحدثات لم تكن موجودة قبل ذلك . فبأمر من القيصر ترأس جلسات الدوما الامير رومودانوفسكى الذى لم يكن عضوا رسميا فيه .

والدرجة الثانية في ادارة شؤون الدولة هي البريكاز (المديرية) ، وهى بمثابة وزارة القرن السابع عشر . كان نظام المديريات معقدا ومتشعبا للغاية . ففي الاول من ايلول (سبتمبر) ١٦٩٩ تجاوز عددها الاربعين : تشرف مديرية العلاقات الخارجية على الشؤون الخارجية والدبلوماسية ، وتشرف مديرية الخدمة على التعيينات وعلى متطوعة النبلاء ، كما تؤمن مديرية الضياع قطع الاراضى للبوار والنبلاء ، وتدير مديرية الستريلتسى شؤون القوات الخاصة ، وتشرف مديرية الخيالة على الخيالة وتؤمن مديرية القصر الكبير مستلزمات معيشة اسرة القيصر وهلمجرا . لكن المشكلة هى عدم تحديد وظائف تلك المديريات بشكل دقيق . فان مديرية العلاقات الخارجية مثلا لم تقتصر على معالجة قضايا السياسة الخارجية (اجراء المفاوضات وتوقيع الوثائق الدبلوماسية وسواها) ، بل كانت تشرف على المدن الحدودية من كل النواحي ، بما فيها القضائية والمالية . وكانت جباية الضرائب والعائدات المباشرة وغير المباشرة من صلاحية عدة مديريات . والى جانب المديريات العامة بالنسبة لروسيا باجمعها كانت هناك مديريات تشرف على مناطق معينة ، مثل مديرية سيبيريا ومديرية قصر قازان (منطقة الفولغا)

ومديرية روسيا الصغرى (اوكرانيا الواقعة على الضفة اليسرى لنهر الدنيبر والتي انضمت الى روسيا منذ عام ١٦٥٤) وهلمجرا. وفي عهد الكسى ميخائيلوفيتش جرت محاولات لتنظيم سير هذه الآلة الضخمة . فقد تشكلت مديرية التحريات التي تسلطت على كل المديريات الاخرى ، وكلف شخص واحد بادارة مجموعة من المديريات . وجرت تغييرات مماثلة فى عهد ابنائه .

وفى عهد بطرس ، فى اواخر القرن السابع عشر ، كانت هناك ايضا مديريات موحدة من حيث تقارب موقعها وتجانس مهماتها والخ . فان مجموعة المديريات التي تترأسها مديرية العلاقات الخارجية تضم ، مثلا ، مديرية روسيا الكبرى ومديريات روسيا الصغرى وامارات سمولينسك ونوفغورود وغاليتش وفلاديمير واوستيوخ . وكانت هناك مجموعة من المديريات لشؤون البلاط — مديرية القصر الكبير السالفة الذكر ، ومديرية دعاوى البلاط ومديرية الحجريات (البناء) ومديرية الاسطبلات (الخييل والاسطبلات والعربات والزحافات ، اى وسائط النقل الخاصة بالبلاط) . وفى اواخر القرن السابع عشر كانت مديريات القوات الاربية الطراز والخيالة الثقيلة والقوات الخاصة خاضعة لشخص واحد هو الامير اوروسوف ، ثم البويار شين . وبالإضافة الى مجموعة المديريات الخاضعة لمديرية العلاقات الخارجية كان غولوفين يدير مجموعة اخرى هى مديريات الاسلحة ومصوغات الذهب والفضة (وهى من مديريات البلاط التي تشرف على صنع السلاح والحلى الذهبية والفضية «لاستعمال القياصرة») ، ثم مديرية البريد واخيرا مديرية الشؤون البحرية الحربية التي استحدثت فى ١١ كانون الاول (ديسمبر) ١٦٩٨ لادارة شؤون انحصائى

الاسطول الاجانب القادمين من الخارج .
واغلقت مديرية الزيمستفو التى تشرف على البوليسس
فى موسكو واحيلت وظائفها الى مديرية القوات الخاصة التى
فقدت هذا القسم من صلاحياتها بعد حل افواج القوات الخاصة
الموسكوية ، واحتفظت بوظائفها الاخرى (مثل اطفاء الحريق)
واضيفت اليها المهمات البوليسية العامة . ولذا تبدل اسمها الى
مديرية شؤون الزيمستفو .

واندمجت غرفتا المصوغات الذهبية والفضية ، وكذلك مديرية
الماسورات الخاصة مع غرفة الاسلحة (مرسوم ١٩ كانون الثانى —
يناير ١٧٠٠) . وفى شباط (فبراير) من العام ذاته جرى توحيد
مديرتى الخيالة الثقيلة والقوات الاوربية الطراز ، وترأس المديرية
الجديدة الامير دولغوروكى الذى منح رتبة «المفوض الاقدم» ،
ولذا سميت فى المكاتبات «بالمفوضية» ، وفيما بعد بمديرية
الشؤون الحربية . وفى تلك الفترة اغلقت مديرية الحجريات
وظهرت بدلا منها مصلحة «المؤن العامة» باشراف يازيكوف
(وكانت تمارس جمع احتياطى الحبوب فى الدولة كلها وتوزيعها
على القوات المسلحة) . واعتبارا من عام ١٧١٧ صارت تسمى
«بمديرية المؤونة» . وفى ١٩ ايار (مايو) عهد بمديرية المدافع
الى «الجنرال المدفعى» ولى عهد دولة اميرتيا (جورجيا) الكسندر
ارتشيلوفيتش (وكان اثناء تواجده فى الخارج مع «البعثة الكبرى»
قد درس المدفعية جيدا فى لاهاي) ، ومن بداية ١٧٠١
صارت دائرته تسمى «بمديرية المدفعية» (واحيانا باسمها القديم :
مديرية المدافع) .

وفى ٢٤ آب (اغسطس) ١٧٠٠ تأسست مديرية جديدة هى
مديرية التنقيب المعدنى لتنظيم اعمال البحث عن فلزات

«الذهب والفضة وغيرها» .

واختفت تلقائيا مديريات روسيا الكبرى (التي كانت تعين متصرفي المدن في روسيا) وفلاديمير وكوستروما . وكانت كل هذه التغييرات الادارية نتيجة مباشرة لمبادرة بطرس الاكبر . فهو من جهة قد قام بما قام به اسلافه وحاول ان يركز ويعمم ويسط الادارة . ومن جهة اخرى استحدث دوائر جديدة ، للادارة العسكرية بالدرجة الاولى . وهذا شيء مفهوم . فقد اندلعت حرب الشمال من اجل الحصول على منفذ الى بحر البلطيق . وتقلص العدد الاجمالي للمديريات من ٤٤ الى ٣٤ مديرية .

ولم ينس بطرس الكنيسة . فكما هو شأن اسلافه ، ابتداء من ايفان الثالث في نهاية القرن الخامس عشر وايفان الرهيب في منتصف القرن التالي ، وكما هو شأن والد بطرس سعى القيصر الشاب الى اضعاف نفوذها وقطع دابر ادعاءاتها في الاولوية بالنسبة للسلطة الدنيوية ، وإلى زعزعة مواقعها الاقتصادية . وكان بطرس قد اعرب في الماضي ايضا عن موقفه السلبي من الطفيليين الاثرياء البدناء ، اى الرهبان الروس . وعندما كانت امه على قيد الحياة تمالك نفسه ، لكنه لم يكن يحترم رجال الدين دوما . وقد اختلط بالاجانب ومارس اعمالا لا تليق بالقيصر آنذاك (الالعب العسكرية في البر والماء ومشاركته الشخصية النشيطة فيها وعدم حضور الكثير من المراسيم الرسمية) . وبعد وفاة امه ناتاليا اكتسب سلوكه هذا في انظار رجال الدين طابعا اهوج اشد من السابق — استخدام الاجانب والسفر الى الخارج وتدخين التبغ وحلق اللحى وارتداء الثياب الاجنبية . واشتاط الكثيرون غضبا ، وخصوصا رجال الدين .

الا ان بطرس سار هنا الى ابعد من ذلك . فالحملات الحربية تتطلب نفقات جديدة متزايدة ، ولذا وجه انتظاره الثاقبة الى الكنيسة بعد دخول آزوف . واخذ يحاسبها بالواردات والنفقات ويرغمها على بناء السفن باموالها ويمنع انشاء اجنحة جديدة فى الاديرة ودفع الرواتب الى كبار القساوسة .

فى عام ١٧٠٠ توفى البطريرك ادريان . ولم يعين البطريرك الذى انتظره المؤمنون . وبدلا عنه استحدث بطرس منصبا جديدا هو سادن كرسى البطريركية الذى يؤدى فقط وظائف راعى الكنيسة ، فى حين تنتقل اموال الكنيسة الى مديرية الاديرة برئاسة موسين-بوشكين ، وهو رجل مدنى . وترد عائدات هذه المديرية الى خزينة الدولة (اكثر من مليون روبل خلال السنوات ١٧٠١ — ١٧١٠) . وقد اجرى بطرس فى الواقع انتزاع ملكية الكنيسة جزئيا ، وواصل محاولات اسلافه ومهد لانتزاع ملكيتها النهائى الذى اعلنته يكاترينا الثانية فى عام ١٧٦٤ .

وبعد استحداث مجلس الراتوشا ومديريات الزيمستفو قيد بطرس وظائف متصرفى المدن ، وقيد بالتالى (وفقا للفكرة التى استند اليها المرسوم على الاقل) تعسفهم ورشاوهم من الباعة والحرفيين فى المدن ومن فلاحى الدولة (من غير الاقنان) فى الريف .

بديهى ان التبدلات الادارية لم تلغ تداخل الوظائف وضخامة الجهاز ، لكن بطرس وحكومته قاما بخطوة جديدة الى الامام وواصلوا طورا ما تحقق من قبل وارسيا اساس التغيير الاكثر حزما لنظام ادارة الدولة المركزية والمحلية ، وهو التغيير الذى اجرياه فيما بعد ، ابان حرب الشمال .

وفى الميدان المالى كان اصلاح المدن الاجراء الاهم .

فعائدات الضرائب الاساسية صارت تتوارد على الراتوشا وليس على مديرية الخزينة الكبرى القديمة . وبلغت واردات الراتوشا فى عام ١٧٠١ ١,٢٦٨ مليون روبل وواردات المديرية ٧١٧,٧ الف روبل . وساعد اجراء ان آخرا ن على بلوغ نفس هذا الهدف ، اى زيادة واردات الخزينة ، وهما استحداث رسوم على الاوراق المدموغة (صدر مرسوم بهذا الخصوص فى عام ١٦٩٩) وتنظيم جباية رسوم الاختام التى تستحصل لقاء المصادقة على جميع الوثائق بختم جديد خاص هو «ختم النسر» (ختم عليه صورة النسر يحمله الموظف بشرط على ياقته) . وكان الختم واحدا للجميع ما عدا مديرية العلاقات الخارجية والراتوشا اللتين لهما ختمان خاصان (مرسوم ٥ كانون الاول — ديسمبر من العام ذاته) . ولا تعتبر الوثائق المكتوبة على ورق غير مدموغ وغير المصدقة بالختم سارية المفعول .

وقد استحدث بطرس الورق المدموغ بناء على توصية من الكسى كورياتوف ذلك الرجل الداهية كبير خدم قصر الوجهه شيريميتيف . فقد كان مع سيده فى الخارج ، ولاحظ ، فيما لاحظ ، هناك ان الوثائق التجارية وغيرها تكتب فى المؤسسات على ورق خاص مدموغ بدمغة معينة ويباع من قبل الخزينة فقط . وعندما عاد كورياتوف الفطين الى روسيا قدم مشروعا باستحداث مثل هذا الورق فى روسيا . ولم يذيل كورياتوف المشروع بتوقيعه تحوطا لاي طارئ . وعندما علم بان القيصر استحسن اقتراحه اعلن عن اسمه . واستحدث ورق الدمغة ، ومن ذلك الحين ارتفع نجم كبير الخدم ، فقد عينه بطرس مفتشا اداريا اقدم فى الراتوشا ومنحه ضيعة . وبهذه الصورة صار من النبلاء بعد ان هيا الامكانية لزيادة عائدات خزينة الدولة وارسى البداية لكوكبة

موظفى بطرس «المربحين» السيئى الصيت ، وهم الموظفون الذين كلفوا بابتداع ضرائب ورسوم جديدة لملأ برميل الخزينة الذى لا قعر له . وقد بذل هؤلاء الموظفون فيما بعد ، ابان حرب الشمال ، قصارى جهدهم مقتنين بالمفتش الاقدم ومندفعين بتشجيع بطرس ومتعرضين لسخط رعاياه .

واعلن مرسوم بطرس فى ١١ آذار (مارس) ١٧٠٠ عن اصلاح النقود . وبموجب هذا الاصلاح اخذوا يسكون الى جانب القطع النقدية الفضية قطعاً نحاسية من فئات صغيرة متنوعة : نصف كوبيك وربع كوبيك وثمان كوبيك . وكان التداول قبل ذلك بأمس الحاجة الى الفراطة . ولذا كان الناس يكسرون الكوبيك الفضى الى جزئين او ثلاثة ، وظهرت فى بعض الاماكن بدائل اعتباطية مثل «نصف الكوبيك» الجلدى وغيره . ونظرا لفشل الاصلاح النقدي النحاسى فى ١٦٥٤ — ١٦٦١ ، حيث غص السوق بكميات هائلة من النقود النحاسية التى انخفضت قيمتها تدريجيا ١٠ — ١٥ مرة بالمقارنة مع النقود الفضية صاروا يسكون الآن الكمية اللازمة فقط من النقود النحاسية الصغيرة الفئات والجيدة النوعية .

وقام بطرس بمحاولة فى ميدان التشريع القانونى . فى ١٩ شباط (فبراير) وقع مرسوما حول مجموعة القوانين الجديدة . فقد وضعت مجاميع القوانين فى روسيا قبله عدة مرات . فبالإضافة الى «الحقيقة الروسية» بصيغها المختلفة (من آثار القرنين الحادى عشر والثانى عشر وبداية القرن الثالث عشر) ومجاميع القوانين المحلية فى عهد التجزئة الاقطاعية فى روسيا (تشريعات محاكم بسكوف وتشريعات محاكم دفيئا وغيرها) وضعت فى الدولة الروسية المركزية اعتبارا من اواخر القرن الخامس عشر عدة مجاميع للقوانين ،

مثل قوانين المحاكمات لعام ١٤٩٧ ولعام ١٥٥٠ . وفي عام ١٦٤٩ صدرت مجموعة قوانين مجمع الزيمستفو (الذى شارك فيه مجلس الدوما وكبار رجال الدين وممثلو النبلاء والحرفيين والباعة والفلاحين الاحرار) . وكان قد مر نصف قرن على قوانين القيصر الكسى ميخائيلوفيتش . وتجمع الكثير من التشريعات الجديدة . وكانت الفوضى تسود التشريعات القانونية مثلما تسود النظام الادارى . فالكثير من مراسيم القياصرة واحكام مجلس الدوما تتعارض مع مواد مجموعة القوانين لعام ١٦٤٩ ، اما القوانين الاخرى فلم يكن الاحكام والاداريون يعرفونها بشكل مقبول . وفيما بعد ، فى النصف الاول من القرن التاسع عشر ، شكلت هذه المواد الجديدة ثلاثة مجلدات ضخمة هى «مجموعة القوانين الكاملة» . وقبل ذلك لم تكن هذه القوانين مصنفة . وكان مرسوم بطرس يستهدف تصحيح هذا الوضع وتصنيف تلك القوانين . وكان على اللجنة القانونية الخاصة التى تشكلت بموجب المرسوم ان تدرس هذه المواد الجديدة وتقارنها مع قوانين مجمع الزيمستفو لعام ١٦٤٩ وتضع القوانين الجديدة . وضمت هذه اللجنة القانونية اثنى عشر شخصا من مجلس الدوما . وكانت لبعضهم خبرة فى صياغة القوانين ، لانهم كانوا فى حينه من اعضاء لجنة العقوبات التى عملت فى مجلس الدوما فى الفترة ١٦٨١ — ١٦٩٤ . وبالإضافة الى ذلك شارك فى اعمال اللجنة موظفون من خارج الدوما وعددهم ٥٠ شخصا ، وكذلك ثلاثة من نبلاء موسكو . ومارس وظيفة الكتبة ستة من الموظفين الاقدم وعدد من الموظفين الصغار من مختلف المديریات .

وظلت اللجنة تعقد جلساتها من ٢٧ شباط (فبراير) ١٧٠٠

حتى ١٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٧٠٣ . وكانت اجتماعاتها غير كاملة النصاب . ويستمع اعضاؤها الى فهرست قوانين مجمع الزيمستفو ، ثم نصوص فصولها وموادها طبقا للفهرست ، ثم نصوص «المواد الجديدة» فى المسائل المتشابهة . وعقدت اللجنة عموما ١٩٣ جلسة . وكانت ثمرة عملها هى وضع مشروع القوانين الجديدة . لكن المشروع لم يحظ بالمصادقة ابدا لسبب مجهول . ربما لم يعجب بطرس بالعمل الذى قامت به اللجنة . وربما اعاقته حرب الشمال . فالقيصر فى تلك الفترة كان مشغول البال بامور عاجلة أكثر اهمية .

وفى بداية القرن الثامن عشر اجرى بطرس اصلاحات فى ميادين التعليم والعلوم والثقافة والحياة المعيشية . وكانت لتلك الاصلاحات اهمية بالغة حيث دشنت عهدا جديدا . وظهرت فى روسيا جرائد ومسرح ومدارس وثانويات مدنية واكاديمية فرعية (بحرية) واخرى عامة (اكاديمية العلوم التى اتخذ مجلس السينات بحضور بطرس قرارا بافتتاحها فى ٢٢ كانون الثانى (يناير) ١٧٢٤ وافر مشروع تأسيسها الذى وضع بتكليف من بطرس نفسه ، وافتتحت الاكاديمية فى آب (اغسطس) ١٧٢٥ بعد وفاته) ، وحفلات للرقص والحديث ودور جديدة وثياب عصرية . وصدر عدد كبير من الكتب ابتداء من الكتب الدراسية فى مختلف ميادين المعرفة وانتهاء بالبحوث فى التاريخ والحقوق والتحصينات والمدفعية والنتائج الادبية . وظهر فى روسيا كثير من الاختصاصيين المثقفين ليس فقط فى الشؤون العسكرية والبحرية ، بل وفى ميادين التعدين وبناء السفن والجيولوجيا وعلم المعادن والجغرافية والتاريخ وادارة الدولة والحقوق . ووسعت البعثات التى نظمها واعدتها بطرس واعوانه الى مختلف ارجاء البلد الشاسع المعارف الجغرافية

وادت الى تطور علم الخرائط . وشملت تلك البعثات مناطق
الاورال وسيبيريا والشرق الاقصى ، بما فيه كامتشاتكا ، وبحر
المخزر وبحر آرال ومنطقتي آزوف وبوموريه .

واتسمت التحويلات الاخرى بمثل هذه الاهمية البالغة .
فبمبادرة من بطرس جرى تدشين عشرات المؤسسات الصناعية
مثل مانوفاتورات صهر الحديد والزر والنجاس وغيرها . وتطورت
الصناعة فى الاورال بشكل عاصف . وحتى نهاية عهد بطرس
الاكبر كانت هناك ٢٠٠ مؤسسة (بينما كان عددها فى اواخر
القرن السابع عشر حوالى الثلاثين) . وكانت تلك طفرة فى الانتاج
الصناعى . وتلقى دافعا شديدا تطور التجارة الداخلية والخارجية
والانتاج الزراعى وحياة المدن .

واجرى بطرس تغييرا جذريا فى كيان ادارة الدولة جمعاء .
وبدلا من مجلس دوما البويار القديم جاء مجلس السينات
(الشيوخ) فى ١٧١١ ، وهو الهيئة الحكومية العليا التى عهد اليها
القبصر مراقبة وتفتيش سائر دوائر الدولة . وكان هذا المجلس
يتمتع بالسلطة القضائية والادارية ، واحيانا التشريعية . وكان
يراقب نشاط مجلس الشيوخ نفسه مفتش عام صار فيما بعد
يسمى بالمدعى العام .

وبدلا من المديرىات القديمة ، وكان عددها بضع عشرات
لا تحديد للوظائف فيما بينها ، استحدثت الهيئات التى هى
باكورة الوزارات ، وعددها ١١ ، ووظائفها محددة تماما :
هيئات الشؤون الخارجية ، والعسكرية ، والبحرية ، والعائدات ،
والنفقات ، والتفتيش (مراقبة جباية وصرف اموال الخزينة) ،
والقضاء ، والتعدين والصناعة الخفيفة ، والتجارة ، والعقارية .
واضيف اليها السيندوس ، الهيئة الدينية العليا التى حلت

محل البطريك الذى الغى بطرس رتبته ومنصبه ، والهيئة الرئيسية
لادارة المدن .

وبالاضافة الى تقسيم البلاد الى اقضية (بلغ عددها العشرات)
قسمت كذلك الى الوية (ثمانية فى البداية ثم احد عشر لواء) .
ومنح الاصلاح العسكرى (استحداث التجنيد الاجبارى
وتدريب الجنود وهلمجرا) روسيا جيشا نظاميا ممتازا . وانشأ بطرس
الاكبر فى الوقت ذاته اسطولا قويا . وافتتح المدارس العسكرية .
ونظم تعليم الجنود والضباط وتزويد الجيش والاسطول بكل ما
يحتاجانه . وعاد ذلك كله بشمار رائعة فى سنوات حرب الشمال .

التحضير لحرب الشمال

اتضح خلال «البعثة الكبرى» ان الاتجاه الجنوبي للسياسة الخارجية الروسية قد استنفد . فالحرب ضد الامبراطورية العثمانية تقترب من نهايتها . لكنها كانت مستمرة وان بحدة اقل من المطلوب عندما عاد بطرس من الخارج . وكانوا يبنون السفن في فورونيغ ، وكان الاسطول البحرى الحربى الروسى فى طور الميلاد . وبالإضافة الى الاشغال الاخرى اهتم القيصر بهذه الامور وراح يوجه المؤسسات العسكرية والدبلوماسية وبناء السفن ويشارك فيها بنفسه مشاركة نشيطة .

فى ٢٣ تشرين الاول (اكتوبر) ١٦٩٨ ، بعد «التحقيق الكبير» ، اى بعد الجولة الثانية من التحقيق فى قضية القوات الخاصة ، توجه الى فورونيغ . وكان العمل على قدم وساق فى احواض بناء السفن . ويدير كل الاعمال هنا فيودور ابراكسين المقرب الى القيصر . وقد نقل من مدينة ارخانجلسك الشمالية البعيدة الى مدينة فورونيغ الناعسة الساكنة فى اواسط روسيا ، فتحولت الى مركز صاحب لبناء السفن . آلاف الروس والكثير من الاجانب الذين وصلوا من مختلف بلدان اوربا يمارسون قطع الاشجار ونجارة الاخشاب وبناء السفن .

بعد اسبوع وصل بطرس الى فورونيغ . فى البداية فرح لكل ما

رآه . فارسى اساس بناء سفينة جديدة ، والتقط القيصـر النجار فأسه وشرع بالعمل .

الا ان فرحته سرعان ما تعكرت . فقد بلغه نبأ فرار اعداد كبيرة من الاسطوات والفلاحين تخلصا من برد الخريف وزمهرير الشتاء والمجاعة والامراض وانعدام المأوى . وامر القيصـر بتعبئة عاملين آخرين . لكن اشاعات انتشرت فى كل مكان بشأن الاعمال الشاقة التى يمارسها شغيلة بطرس فى فورونيچ وضواحيها ، ففر الكثيرون الى الغابات رافضين العمل فى احواض بناء السفن وقطع الاشجار .

وتخلف انجاز بناء السفن عن المواعيد المقررة . زد على ذلك ان الاعمال جرت باستعجال ولم تكن هناك خطة مدروسة لتخزين الاحتياطات والمعدات وبناء السفن نفسه . ولم يكن عدد الاسطوات المحنكين كافيا . وفى كانون الاول (ديسمبر) تشكى بطرس قائلا :

— الحقيقة ، لا معين لى هنا .

ولم يكن مظهر السفن المبنية يبعث على السرور . فقد بنيت من اخشاب طرية ، وبدلا من المسامير الحديدية استخدمت المسامير الخشبية . وكانت هياكل السفن ، مع الاسف ، اسوأ بكثير من تلك التى شاهدها بطرس فى بريطانيا وهولندة . فان متونها وسطوحها مرتفعة جدا او طويلة جدا ، و«ضيقة للغاية» ، مما ادى الى تدهور خاصية هامة من خصائص السفن هى الاستقرار والثبات . وامر بطرس باعادة بناء بعض السفن ، وراح يتهدد ويتوعد ويلوم المقصرين . ورغم كل الصعاب والنواقص دشنت اولى سفن الاسطول الروسى . وشكل ابراكسين طواقم تلك السفن من البحارة هذه المرة وليس من الجنود كما فى السابق .

وسيقدم هذا الاسطول خدمة شأن الموانئ والمرافئ التي بناها بطرس على البحر الاسود . فهدفه هو الملاحة الحرة في هذا البحر وعبر مضيقه الى البحر الابيض المتوسط ، ومنه الى الرحاب المائية التي تغسل سواحل اوربا من الغرب .

وبينت تجربة «البعثة الكبرى» ان من اللازم تغيير الوجهة الجنوبية للسياسة الخارجية . فالكفاح من اجل بحر البلطيق تمليه اعتبارات كثيرة . في مقدمتها ضرورة استعادة الاراضى الروسية العريقة عند الخليج الفنلندى ، بالإضافة الى الحاجات الموضوعية لتنمية اقتصاد البلاد وتطوير سوقها التي هى بأمرس الحاجة الى توسيع الصلات الخارجية . فى حين كانت القوات السويدية تعترض هذا الطريق . كان الملك غوستاف-ادولف قد اعلن فى البرلمان عام ١٦١٧ : «حرمت روسيا من منافذ البحر وسيكون من الصعب عليها ، والحمد لله ، ان تذلل كل هذه العوائق» . ثم ان انعدام منافذ البحر وعدم وجود اسطول ومرافئ يهددان بتوسع الدول البحرية الكبرى وبضياع الاستقلال الوطنى فى المستقبل . وقد ادرك بطرس ذلك واتخذ اجراءات نشيطة عاجلة — عسكرية وبحرية ودبلوماسية وادارية . فان «العاب التسلية» المبكرة فى البر والماء ورحلته الى الخارج والمراسيم الكثيرة جدا التي اصدرها فى اعقاب تلك الرحلة والتحويلات التي بدأت فى الجهاز الادارى والجيش وبناء اولى السفن والبحث عن الفلزات فى الاورال — كل ذلك كان فى الواقع يستهدف تقوية البلاد وقدرتها الاقتصادية والعسكرية ، وبالتالي حل المهمات الوطنية العاجلة : حماية سيادة روسيا فى الصراع المرتقب بين القوى العالمية وتأمين منافذ الى البحر وتوسيع الاتصالات مع اوربا وتحويل البلاد الى دولة عالمية .

وقد اشير مرارا من زمان الى ان التحويلات الاولى توالى الواحد اثر الآخر بدون نظام ظاهر ولا تعاقب او منطق . واساس كل تلك التحويلات هو ارادة القيصر واهواؤه وتعسفه . فى هذه الاقوال شىء من الحقيقة . ففى افعال بطرس نجد الاندفاع العاطفى والحماس النفسانى والطاقة المنفلتة ونفاد الصبر والتحكم المطلق لقيصر لا رقيب عليه . كل ذلك صحيح . الا ان المراسيم والافعال الاولى بمجملها نابعة من رغبة ملحة متعصبة حدث بهذا الانسان العبقري طول حياته الى تأمين منفعة روسيا ومصالح الدولة فى الحاضر والمستقبل .

عندما كان بطرس فى فينا وبلغه نبأ الانتفاضة الجديدة لافراد القوات الخاصة ، فاسرع عائدا الى روسيا اختمرت فى ذهنه فكرة حل افواج تلك القوات ، وهذا ما فعله جزئيا (للقوات الخاصة فى موسكو) فى سياق التحقيقات المرعبة فى تلك القضية . وبدلا من تلك القوات بدأ بتشكيل افواج الجيش النظامى . فقد نص مرسوم ١٩ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٦٩٩ على تشكيل ٣٠ فوجا للمشاة من المجندين عن عدد معين من العوائل ومن الفلاحين والخدم ، وكذلك من الاحرار (من غير الفلاحين الاقنان) . وكان ذلك «جيشا نظاميا مباشرا» فى رأى القيصر ، وكان تشكيله بتلك الهمة والسرعة البالغة قد ادهش البعض واثار رية البعض الآخر . فان المقيم السويدى كنير مثلا «تساءل عن تجنيد الافواج النظامية بلهجة حادة : ما الداعى لتشكيل مثل هذه الافواج النظامية المنقطعة النظير ؟ وكيف تصونون السلام مع جميع الجيران والحال هذه ؟ وودوا عليه بان الدولة بعد حل القوات الخاصة لم تبق لديها اية مشاة ولا يجوز لها ان تبقى بدون مشاة» .

كان كثير مصيبا في شعوره بالخطر الناجم عن استبدال القوات الخاصة بافواج المشاة النظامية الجديدة . فمع ان الروس قالوا له ان التجنيد سببه «المخاوف من الحرب العثمانية» (فالحرب ضد تركيا كانت قائمة رسميا) ، الا ان مثل هذه الاقوال لم تضلل احدا . فان السويد التي يمثلها هذا الرجل في روسيا تمتلك جيشا نظاميا ممتازا في مقاييس ذلك الزمان . وفي الصدام المتوقع (بدأ الكلام في اوروبا عن اختمار الحرب بين روسيا والسويد من فترة «البعثة الكبرى») يسهل على السويد ، كما قال الساسة والجنرالات السويديون بحق ، ان تواجه القوات الخاصة وليس الوحدات النظامية التي تمتهن الشؤون العسكرية وتتخصص فيها وحدها . ولم تكن في روسيا حتى ذلك الحين افواج نظامية في الواقع سوى فوجي بريوبراجينسكى وسيمينوفسكى للحرس ، وكذلك فوج ليفورت وفوج بوتيرسكى (بقيادة غوردون) المتدربين عسكريا ولديهما خدمة نظامية دائمة . اما باقى الافواج — الجنود والخيالة الخفيفة والثقيلة ، فمع انها منظمة على الطراز الاجنبى الا انها تمارس الخدمة اثناء الحملات فقط . وفي الفترات بين الحملات يطلق سراح افرادها فيعودون الى منازلهم ويمارسون الزراعة . اما جنود الافواج النظامية فيجب ان يخدموا ويتدربوا على الدوام . وكان الجند الوقتيون يتحولون الى عسكريين دائمين .

وجرى في بريوبراجينسكويه ، مقر القيصر المحجب ، جمع المجندين وتشكيل الافواج منهم . واخذ بطرس يتفقدهم ويتأكد بنفسه من صلاحهم للخدمة . كان القيصر قد كلف في عام ١٦٩٧ فيدي بدراسة تنظيم جيش الامبراطورية الرومانية المقدسة . وفي العام التالى وضع فيدي «الميثاق العسكرى» الذى عين

المناصب العسكرية في القوات الروسية وفقا لتدريبها في الجيش الامبراطوري ، كما تضمن قواعد تدريب الجنود . وفي صيف ١٦٩٩ وضع فيدي «التوصيات الى الجنود» و«لائحة العقوبات العسكرية» . وعندما كان بطرس في الجنوب درس باهتمام الموائيق ومجموعة قوانين العقوبات الجنائية العسكرية واجرى تعديلات عليها .

وخصص لجنود الجيش الجديد راتب سنوى قدره ١١ روبلا ، بالاضافة الى مؤونة من الاطعمة والنيذ بنفس المقادير المطبقة في فوج برىوبراجينسكى .

وراح بطرس واعوانه (الجنرال غولوفين والجنرال فيدى والعقيد الامير ريبينين وغيرهم) يتابعون كيفية تدريب الجنود على القتال الصحيح واستخدام البنادق والغدارات وقواعد رماية المفاز ، وكذلك رماية الصف الخلفى بانبطاح الصف الامامى . وكان التدريب معقدا جدا . فلكى يعبىء الجندى ، مثلا ، الغدارة الصوانية ويطلق النار منها يجب عليه ان يؤدى ١٦ مهمة . واستخدم القيصر في مجال التسليح مستحدثات من الجيش السويدى — كالحربة الشبيهة بالفأس . ولكنه ، خلافا للعديد من الجيوش الامورية التى كان جنودها يرتدون بزات زاهية ملونة ، استخدم في جيشه بزة بسيطة ومريحة .

وكانت هناك صعوبات فى هذه القضية التى طبقت باستعجال ، بل وبصورة غير ناجحة تماما ، كما بينت التجربة لاحقا . كانت الاغلبية الساحقة من الافواج الجديدة افواج مشاة (٢٧ فوجا) ، واثنان منها فقط للخيالة الخفيفة . وظلت الخيالة كالسابق تتكون من هجانة النبلاء القديمة التى تخلت عنها اوربا الغربية من زمان . واتضح ان العديد من الضباط

الاجانب الذين اختيروا كيفما اتفق لم يكونوا صالحين ، وجرى استبدالهم بضباط روس على جناح السرعة . وكتب غولوفين الى بطرس يقول : «الافضل ان نعلمهم هم وليس الاجانب» . وتشكلت من تلك الافواج ثلاث فرق بقيادة غولوفين وفيدى ورينين انفسهم . وكان المقدمون وصغار الضباط من الاجانب فقط ، من البولونيين والسويديين وغيرهم . وفي سياق التدريب نحى الكثيرون منهم واستبدلوا برجال البلاط وبالمقربين الى القيصر ، ممن اوفدوا معه الى الخارج ضمن «البعثة الكبرى» . وجرى تدريبهم بهمة ونشاط في ربيع وصيف ١٧٠٠ . ومن الناحية الادارية صار هذا الجيش خاضعا للمصالح الثلاث الجديدة المذكورة اعلاه — المفوضية العامة والمؤن العامة والمدفعية العامة .

وانقضت تلك الاعوام الثلاثة العاصفة في مشاغل كثيرة واستعجال بالغ وتوتر لجميع القوى . وتم تحقيق الكثير في ميدان الاستمرار بالخبرات القديمة ومبادرات الاسلاف ، وفي ميدان الجديد الهام جدا للامال المرتقبة . وكانت هناك اخطاء غير قليلة وشكوك مبعثها الاستعجال المتشنج والخوف من التأخر وتفويت الفرصة . وكان بطرس يستعجل ويستحث اعوانه ونفسه والبلد كله ، ويلاحظ الاخطاء ويصححها حيثما امكن وحيثما يتسنى له ذلك ، ويتشكى الى اصدقائه والى من يكتبهم ويراسلهم ويعاقب المقصرين ويشد آلة الدولة بمزيد من السرعة ويرتقى ذرى جديدة . كان في فورونيج بينى السفن ويصحح الاخطاء في هياكلها ويلوم الاسطوات وغيرهم من العاملين ويشتات غضبا لاختلال النظام والتسيب والسرقات (التي كان لمسؤول بناء الاسطول بروتاسيف ضلع فيها) . وقد كتب من

هناك الى فينيوس ، أكثر مستشاريه تعلما واطلاعا ، وارفعهم منزلة في نظره ، يعرض عليه تأملاته المريرة : «لا تزال سحابة الشكوك تحجب بصيرتنا . . . فليساعدنا الرب والقديس بولص» فيما سيأتي .

ولكن لا يليق بالقيصر ان يطيل الاكتئاب والتأمل الحزين . فيجب اداء الاعمال ، بل يجب اداؤها بشكل افضل واسرع . واهم ما يشغل باله القضايا الدبلوماسية والسياسة الخارجية . وطالما لم يوفق في الجنوب فيجب ان ينقل مركز الثقل الى الشمال . روسيا لا تقوى على القتال في جبهتين . ولكي تفرغ من قضايا الجنوب يجب توقيع الصلح او الهدنة ، على الاقل ، مع الباب العالي . اما الموقف في اوربا فهو معقد للغاية . ويقول كلوتشفسكى ان الصراع ضد «الدول العدوانية الثلاث» فرنسا والسويد وتركيا دفع البلدان الاخرى الى الائتلاف . وفي آخر القرن السابع عشر ارتسمت ابعاد جديدة للتحالف بين الدول . فالحرب المخمرة من اجل التركة الاسبانية (١٧٠١—١٧١٣) حملت النمسا على التصالح مع الاستانة . وبذلت بريطانيا وهولندا قصارى الجهود لبلوغ هذا الصلح . واضطرت روسيا الى الاذعان لتحول الاحداث على هذا النوع ، والاكثر من ذلك انها اضطرت الى المشاركة في مفاوضات الصلح مع الباب العالي .

كان فينيوس ، مراسل بطرس ومخبره الدائم (حيث يبلغه بالمعلومات المستقاة من الجرائد الاوربية التي يطالعها دوما) قد اخبره بالتحضير لمؤتمر في كارلوفيتسى بضواحي بلغراد . واجتمع ممثلو الامبراطورية الرومانية المقدسة والبندقية وبولونيا وروسيا هناك للتفاوض مع الباب العالي . ارسل بطرس الى هناك

فوزينيسين الذى كان من موفدى «البعثة الكبرى» واحد مندوبيها الثلاثة الى اوربا فى ١٦٩٧ — ١٦٩٨ . وعلم القيصر من فينيوس ان كارل الثانى ، ملك اسبانيا ، حى يرزق ، بينما كانت اوربا كلها تنتظر وفاته . لكن فرنسا اعدت جيشا من ١٠٠ الف شخص على اهبة الاستعداد تحوطا للطوارئ . وكانت هذه المعلومات فى منتهى الاهمية بالنسبة لبطرس ، فعليها يتوقف البدء بالحرب ضد السويد ام لا . وكتب بطرس الى فينيوس من فورونيج عن النطاق الواسع لبناء السفن وعن انتظار الاخبار الطيبة التى يتوقع ان تضع حدا للمجهول والغموض فى مسألة تركيا والسويد . ولم يقتصر «التحويل العظيم» على فورونيج وضواحيها ، بل شمل روسيا كلها ، نظامها الداخلى وسياستها الخارجية وثقافتها وحياتها المعيشية . ووافقت بداية التحويل تغير وجهة الجهود الدبلوماسية والعسكرية للدولة . وادى الى تعزيزها من جميع الوجوه . وازضافة الى الاجراءات المذكورة اعلاه يجدر بنا ان نذكر اجراءات بطرس الحازمة فى بناء الصناعة . ففي عام ١٦٩٧ بدأ بأمر منه بناء افران الصهر وورشات صب المدافع فى الاورال . وفى العام التالى ارسى فى نيقيانسك اساس اول مصنع للتعدين . وبعد ثلاثة اعوام انتج اول كمية من الحديد الزهر . ثم ظهرت مانوفاتورات اخرى للتعدين والجوخ واقمشة الاشعة والبارود والحبال والجلود وسواها . وبلغ عددها ٤٠ مؤسسة فى غضون بضع سنوات . بديهى ان الورشات الحرفية والمانوفاتورات كانت موجودة قبل بطرس . فهنا ايضا واصل اعمال اسلافه . فطوال القرن السابع عشر كانت هناك بضع عشرات من المانوفاتورات فى مختلف الميادين (كانت تظهر وتحتجب ثم تعمل من جديد) . وعملت عشرات الآلاف من الاجراء الاحرار

في المانوفاتورات والصنائع (انتاج الملح والبوتاس والاسماك وهلمجرا) وفي النقل النهري وبالعبيات (كان هناك حتى اواخر القرن المذكور اكثر من ٢٠٠ الف شغيل) . الا ان بطرس الاكبر هيا لتطور الصناعة نطاقا لا مثيل له وسار به شوطا بعيدا الى الامام . ولا تقتصر القضية هنا على ارادة القيصر الشخصية وطاقاته ورغباته هو ومستشاريه الروس والاجانب ، لا تقتصر عليها وحدها ، بل هي كذلك في سير الامور الموضوعى وحاجات البلاد .

كل جهود بطرس التي استعرضناها في هذا الفصل والفصول السابقة اعطت ثمارا هي ثمارها الاولى غير الناضجة تماما في بعض الاحيان . ودعت الحاجة فيما بعد الى تصحيح امور كثيرة واكمالها وتغييرها من قبل القيصر واعوانه من الروس والاجانب . وينبغي القول ان بطرس في هذه السنوات ، وخصوصا في السنوات التي اعقبتها لم يكن يستخدم الاجانب ويعتمد عليهم في تطبيق سياسة التحويلات اعتمادا عشوائيا دون روية وتفكير . لكننا نصادف احيانا في الدراسات الاجنبية الحديثة مزاعم تؤكد ان روسيا وبترس مدينان بكل منجزاتهما ونجاحاتهما الى الاختصاصيين الاجانب — العسكريين والاسطوانات والاداريين . وذلك تطرف صرف . وهناك تطرف آخر يتجلى في الفكرة التي يؤيدها مثلا المتعصبون الروس للترعة الصقلية في القرن التاسع عشر وبعض المتعصبين المحدثين والقائلة بان بطرس الحق الضرر بروسيا ولم ينفعها اطلاقا بمحاكاته العبودية الهوجاء لكل ما هو اجنبى . فاولئك وهؤلاء يجانبون الصواب . فان بطرس ، رغم اندفاعاته المتطرفة واخطائه ، قد تصرف بشكل صائب بل وحكيم عندما استدعى الاجانب واستفاد من خبرتهم ومعارفهم

وقدر رفيع التقدير اولئك الذين اخلصوا له ولروسيا في الخدمة والولاء . في آذار (مارس) ١٦٩٩ عندما توفي صديقه المرح فرانس ليفورت الذى ايده بفطنة وتأدب في كل مبادراته الجيدة بكى بطرس بصدق ومرارة عند جثمانه . وحزن بنفس الصورة في تشرين الثانى (نوفمبر) من العام ذاته بعد وفاة الجنرال الباسل الصارم باتريك غوردون . وقد استحقا كلاهما حب واحترام بطرس والعديد من الروس الآخرين ، وتركوا ذكرى طيبة عاطرة . ويمكن قول الشيء ذاته عن بعض الاخصائيين الاجانب الآخرين ولو بقدر اقل . فان احدا ، على ما يبدو ، لم يحظ بثقة وحب بطرس وميله الروحى بقدر ما حظى به ليفورت وغوردون مع ان القيصر ظل كالسابق يقدر الكثيرين . لكن بطرس عندما كان نصيراه المحبوبان على قيد الحياة وبعد مماتهما لم يكن يتغاضى ابدا عن النواقص الواضحة لدى الكثيرين من الاجانب لمن المغامرين والوصوليين . ولم يتوان فى تقييم اعمالهم بصراحة وتنحيتهم عن الاعمال الموكلة اليهم ومعاقتهم كما يفعل فى معاملة ابناء جلدته .

اشار الاخصائى الفرنسى المعاصر المعروف فى الشؤون الروسية البروفسور روجيه بورتال بحق ، فيما يخص النقطة موضوع البحث ، الى «ان روسيا سارت نحو التقدم ببطء وبصورة مستقلة . وكان دور الاجانب الذى لا ينفصل عن سياسة بطرس الاكبر يشكل قسما ثانويا ، قيما جدا فى بعض الاحيان ، عجل فى هذا التقدم لكنه لم يكن حاسما» .

فالعامل الحاسم هو تطور روسيا وعمل الشعب ونشاط قادته السياسيين والاداريين والعسكريين . وقد لعبت جهود القيصر الروسى دورا كبيرا فى نهاية القرن السابع عشر . فلا احد يضاهيه من

حيث تعمقه في ادراك كل جوانب حياة البلاد وسياستها الداخلية والخارجية ، وفي ادارة دفة سفينة الدولة في المجرى المطلوب . وتجلى تأثير ذلك ايجابا في كل شيء ، بما فيه الشؤون الدولية والدبلوماسية الروسية التي قدر لها ان تلعب دورا كبيرا في مصير البلاد في السنوات الاخيرة من القرن السابع عشر .

كان بطرس في تلك السنوات مشغول البال خصوصا بقضية صعبة لا تقبل التأجيل ، وهي كيف ينهى الحرب ضد الامبراطورية العثمانية في جو متغير دوما وغير ملائم لروسيا ابدا . فاللدول الغرية البارزة — النمسا وفرنسا وبريطانيا وهولندا والسويد وغيرها تستحث الاستانة على مواصلة الحرب ضد روسيا . وتسعى جميعها ، وهي تنتظر حربا من اجل اقتسام التركة الاسبانية ، الى تأمين سلامة اجنحتها الشرقية وتفرغ قواتها ومواردها لاجل تلك الحرب و«الهاء» روسيا والامبراطورية العثمانية في مقاتلة بعضهما البعض .

كان فوزنيتسين يناسب تماما الدور الذي اناطه به القيصر . فهو رجل محنك متمرس صلب العود ويبروقراطي متمزت بدأ يمارس نشاطه الدبلوماسي في عهد اوردن-ناشوكين . وكان قد اجري في حينه مفاوضات في الاستانة ، وعمل سنين عديدة مقيما دبلوماسيا في وارشو . وعندما اوفد كواحد من رؤساء «البعثة الكبرى» الثلاثة اطلع عن كتب على طباع وتصرفات القيصر الشاب وتفهم آراءه فيما يخص السياسة الخارجية . وراح ينفذ تكليفات القيصر بدقة بالغة ويطبق نهجه الدبلوماسي دون قيد او شرط .

وصل فوزنيتسين بأمر من القيصر الى كارلوفيتسي . كان في معطف طويل من فرو السمور الرمادي ، وعلى رقبته قلادة من ست او سبع لفات ، وليس من لفطة او لفتين . واصابعه مزينة

بخواتم براقه ، وقبعته مطعمة بالماس الثمين . كان بدينا
ضحما ، رزينا متكابرا ، متأنيا صامدا كالصخر . ويبدو ان
هذا الدبلوماسى الروسى ترك لدى الحاضرين انطباع الوجه الشرقى
الذى لا نهاية لثرائه . ومع ذلك كانت صلابه هذا الموظف
الروسى الكبير تقترن مع مرونة الدبلوماسى العصامى المحنك
المكتسبة . فان تواجده سنين طويلة فى البلاطات الاجنبية
واتصالاته مع الحكام والوزراء عادت عليه بنفع كبير . وكان
بروكوبى فوزنيتسين يجيد العثور على مخرج من اصعب المواقف ،
ويبدى فى مثل هذه الاحوال سماحة عشائرية ودهاء كبيرا ،
فيحزج بين التحايل الشرقى والشطارة الاوربية مع ان مظهره لا
يدل على اصله الاوروبى الا من بعيد .

وكان بلده فى عزلة فى مؤتمر كارلوفيتسى . فقد هبت
ضد روسيا الاستانة ، وهذا فى طبيعة الاشياء ، وكذلك حلفاؤها
بهذا القدر او ذاك — النمسا والبندقية وبولونيا ، والدولتان الوسيطتان
بريطانيا وهولنده . وينبغى ان نضيف اليها فرنسا التى اسندت
الامبراطورية العثمانية رغم عدم اشتراكها فى المؤتمر . ولما كانت فرنسا
والنمسا وبريطانيا وهولنده قد اتفقت بموجب اتفاقية ١٦٩٨ على تقسيم
ممتلكات اسبانيا بعد وفاة كارل الثانى فان الحرب يمكن الا
تنشب بينها . وكان على بطرس ودبلوماسيه ان يأخذوا بعين
الاعتبار هذا الاحتمال ، شأن دسائس من يسمون بحلفاء روسيا
فى الائتلاف المناهض للعثمانيين . وكان الجميع — «الاصدقاء»
والاعداء والوسطاء — يسعون الى بلوغ اهدافهم على حساب
الامبراطورية العثمانية وروسيا .

ولم تعقد فى كارلوفيتسى جلسات عامة لكل مندوبى
المؤتمر ، بل جرت مفاوضات ثنائية بين ممثلى الباب العالى

من جهة وخصومهم من الائتلاف المناهض للعثمانيين من جهة أخرى . وبغض النظر عن موقف روسيا ومصالحها وقعت النمسا والبندقية مع الأستانة اتفاقيتين سلميتين انفراديتين وحصلتا على مكاسب كبيرة ، حيث كسبت النمسا ترانسلفانيا والمجر العثمانية وسلافونيا ، وكسبت البندقية موريا في اليونان . ولم يرغب الباب العالي ابدا في التنازل لروسيا عن الاراضى التى احتلتها هذه الاخيرة فى اسفل الدون والدنيبر ومنطقتى آزوف والبحر الاسود . ولم يوفق فوزيتسين فى المرحلة الاولى ولم تنفعه معاطف السمر التى استلمها منه الدبلوماسيون العثمانيون بارتياح ولا تلميحاته الى احتمال انتصار الأستانة على النمسا اذا شنت هذه الاخيرة الحرب على فرنسا من اجل التركة الاسبانية .

كانت الامبراطورية العثمانية التى استنزفتها الحرب وتكبدت فيها الهزيمة تلو الهزيمة تتعطش الى السلام . وهذا امر يفهمه الجميع تمام الفهم ، ومنهم فوزيتسين ، ولذا راح يساوم بعناد ولامد طويل . علما بانه بدأ بمطالب واقتراحات مبالغ فيها ، بل وليست واقعية . ولم تنجح التلميحات الى حرب العثمانيين ضد النمسا ، وهذا شئ طبعى ، ولذا تحرك فوزيتسين من جديد مقترحا على العثمانيين مشروع اتفاقية سلمية فيها بنود لا يمكنهم قبولها طبعاً . فقد نص المشروع على تسليم آزوف ومدن اسفل الدنيبر (كيزيكيرمين وغيرها) الى روسيا بالاضافة الى كيرتش وحرية الملاحة للسفن الروسية فى البحر الاسود وعبر مضيقه ، والاعتراف بالحماية الروسية للصقالبة المسيحيين المقيمين فى الاراضى العثمانية وتسليم «العتبات المقدسة» فى فلسطين الى روسيا . ويمكن الافتراض بان الروس حتى قبل بطرس كانوا يفكرون فى هذه الامور ويحلمون بها . لكنها غير قابلة للتحقيق

لا آنذاك ولا الآن ، فى عهد بطرس . ولم تتحول بعض هذه القضايا الى واقع عملى الا فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر وفى القرن التاسع عشر . اما الآن ، فان فوزيتسين الذى يدرك بالطبع تمام الادراك عدم واقعية اغلبية بنود المشروع قد تخلى فى سياق المفاوضات السرية مع العثمانيين عن عدد من المطالب وا قدم على تنازلات الغرض منها كسب تنازلات اخرى من الجانب المقابل . فقد تنازل عن كيرتش ، بينما تنازل العثمانيون عن آزوف . لكن ذلك جرى ببطء وبصعوبة فى مجادلات وملاحظات . وكان الجدل من اجل آزوف التى طالب العثمانيون فى البداية باعادتها مطالبة مسعورة قد اتخذ احيانا اشكال المأساة والملهاة معا . فالعثمانيون ذكروا ان القيصر الروسى ميخائيل ، جد بطرس ، سلم الى الاستانة فى ١٦٤٢ آزوف التى احتلها قوزاق الدون قبل ذلك بخمس سنوات . ورد فوزيتسين بهدوء وطنية نفس :

— اعطونا ، اذن ، كيرتش واوتشاكوف .

وقد كتب الدبلوماسى الروسى عن ذلك كله فى احد تقاريره ، واختتم وصف هذا المشهد بسداجة وطنية ظاهرين ، ولكن بتهكم وانتصار خفيين :

— استمع المندوبون الاتراك الى ذلك ودهشوا اشد الدهشة وتغيرت ملامح وجوههم وتبادلوا النظرات حيث احتقنت تلك الوجوه الى اقصى حد .

ويبدو ان ذلك تكرر اكثر من مرة ، وفى الحالات التى حضر المفاوضات فيها الوسطاء شاهد هؤلاء صدامات من هذا النوع . ذات مرة رفض فوزيتسين تنفيذ مطلب مهين جديد تقدم به العثمانيون . فهو متمسك بمصالح روسيا تمسكا ثابتا

ومهمتهم أكبر الاهتمام بالحفاظ على كرامة قيصرها . وكان السفير البريطاني اللورد باجيت حاضرا ، وهو رجل رزين بارد الاعصاب . لكنه ، على حد تعبير فوزينتينسين ، ظل صامتا محقق الوجه تارة ، ومصفرا تارة اخرى . واخيرا فقد صبره فصاح :
— تجاوزتم كل الحدود .

وعندما رأى فوزينتينسين «وقاحته وعرقلته للقضية» طلب من السفير الهولندي ان يتدخل :
— هديء من روعه .

واسفرت المساومة العنيدة عن نجاح وان كان غير كامل . فاستطاع فوزينتينسين ان يحتفظ بأزوف دون ان يتنازل عن مدائن الدينير . ولعلمه بان بطرس يطالب مطالبة حازمة بتوقيع الصلح مع الباب العالي سار فوزينتينسين بالامور الى حد التهديد بمواصلة الحرب ، ولم يكن ذلك من قبيل الاعتداد بالنفس او النزعة المغامرة ، بل كان حسابا بعيد النظر وتصلبا هادفا . وبالنسبة لخرج مظفرا من معركة دبلوماسية عسيرة . فقد تنازل العثمانيون ووافقوا على هدنة لمدة عامين حتى بدون تسليم مدائن الدينير لهم مع ان بطرس كان مستعدا للموافقة على تسليمها .

وفي ١٤ كانون الثاني (يناير) ١٦٩٩ وقعت الهدنة اخيرا . وشعر بطرس بالارتياح عندما استلم في آخر الشهر هذا النبأ الذي انتظره طويلا . ونشط بطرس المفاوضات مع الذين يمكن ان يصبحوا حلفاء في الحرب القادمة ضد السويد — حاكم براندينبورغ ، وملك بولونيا حاكم سكسونيا ، وملك الدانمرك . وقد تصرف بحذر انطلاقا من كون الجبهة الجنوبية لم تحقق السلام بعد ، فالاتفاقية مع تركيا مجرد هدنة . وكانت مباحثات الصلح والسلام لا تزال معلقة . وكان مندوبو السويد يتابعون

سير الامور باهتمام وحذر .

وكان فى بلاط موسكو آنذاك السفراء والمقيمون : غفارينت ممثلا عن الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وهينس عن الدانمرك ، وكثير عن السويد ، وبوكى عن بولونيا ، والجنرال كارلوفيتش ممثلا عن اغسطس الثانى . وكان هناك مقيمون آخرون رسميون وسريون . وغالبا ما يترك بطرس المراسيم الموسكوية القديمة ويجرى بنفسه المباحثات معهم ، ويشرك فيها غولوفين احيانا ، ويجريها وحده احيانا اخرى . وتقابل معهم سرا (فى منازل الوجهاء ، مثلا) وفى حفلات الاستقبال الرسمية . وعندما تستدعى الضرورة يوافق على مراسيم احتفالية فخمة يجرى فيها استعراض القوات ومقابلة السفراء والاحتفاء بهم والقاء الخطب الرسمية وهلمجرا . على هذه الصورة استقبل مبعوث براندينبورغ الفون برينسين فى كانون الثانى (يناير) ١٦٩٩ . وكان بطرس فى بداية «البعثة الكبرى» قد عقد مع حاكم براندينبورغ فريدريك الثالث معاهدة صداقة واتفاقية شفهوية للتحالف ضد السويد . وكان حاكم براندينبورغ من المعجبين جدا بالحفلات الفخمة ، ولذا استجاب له القيصر الروسى ، حيث استعرضت الدورية العسكرية والخيول البيضاء وغيرها اثناء استقبال الفون برينسين . لكن بطرس رفض كالسابق ادعاءات حاكم براندينبورغ بلقب الملك .

كان بطرس منذ عدة سنين يمارس التحضير الدبلوماسى للحرب ضد السويد من اجل البلطيق . وكانت الامور تجري على ما يرام حسب الظاهر . فالهدنة مع الباب العالي وقعت . والحرب الداهمة فى سبيل التركة الاسبانية حرمت السويد من الحلفاء المرتقبين . واخذت بعض بلدان البلطيق تبحث عن سبل للتحالف مع روسيا ضد السويد . وكانت الدانمرك اول

تلك البلدان . فلديها اسباب كثيرة تجعلها تتذمر من جارتها الشمالية (السويد) . فهي التي جعلتها منذ اواسط القرن السابع عشر تفقد حقها المطلق في السيطرة على مضيق زوند ، كما ان جارتها الجنوبية دوقية شليزفيغ-هولشتين التي ادعى ملك الدانمرك بملكيتها قد تحالفت مع السويد . وفي تلك الفترة اعتلى عرش السويد الملك كارل (شارل) الثاني عشر البالغ الخامسة عشرة من العمر ، وهو فتى اهوج كثير الفضائح . وكان بلاط الملك والنبلاء الارستقراطيون في عدااء وتناحر . ومن اسباب تأزم الموقف تكرار القحط وما يرتبط به من صعوبات اقتصادية . وبدا الموقف ملائما لكونهاغن ، فبعثت في صيف ١٦٩٧ الى موسكو رسولا يمثل الملك . وكانت مهمته استمالة روسيا للتحالف مع الدانمرك . كان بطرس غائبا ، ولذا جرت مع المبعوث الدانمركي هينس مباحثات تمهيدية . وفي نهاية ذلك العام استلم القيصر في امستردام مذكرة تضمنت هذا الاقتراح . كان الموقف غامضا ، فاخبر موظفو مديرية العلاقات الخارجية هينس برغبة القيصر في ان ينتظر عودته في موسكو . وعندما عاد بطرس الى موسكو ابدى ميلا واضحا الى المبعوث الدانمركي . وذات مرة جاءه الى منزله . فقد ولد للمبعوث الدانمركي طفل ، ونزولا عند رغبة هينس غدا القيصر اشبينا له ، وحضر مراسيم التعميد ، كما حضر مأدبة الغداء التي اقامها المبعوث بهذه المناسبة . واستغرق الغداء والاحاديث وقتا طويلا ، لكن احدا لم يتطرق الى التحالف المذكور . فان بطرس لا يريد ان يعد بشيء ما لم تصل انباء سارة من كارلوفيتسى . لكنه وعد هينس بالتحدث في الموضوع في لقاء غير رسمي .

وتم هذا اللقاء في ٢٢ تشرين الاول (اكتوبر) ١٦٩٨ في

منزل المقيم الدانمركى يوتينانت فون روزينبوش الذى عاش فى موسكو امدا طويلا (وترك وصفا هاما وقيما لانتفاضة ١٦٨٢ فى موسكو) . وهو شخص يعرفه بطرس جيدا . وردا على التفاصيل التى بدأ هينس بايرادها طلب منه القيصر ان يترك التفاصيل ويحدثه بايجاز عن جوهر الامر ويقدم مسودة المعاهدة لاجراء المفاوضات لاحقا بعد دراستها . ولم يعرض بطرس خبر هذا اللقاء والحديث على معاونيه ، ومنهم خاله ناريشكين الذى ظل كالسابق من الناحية الرسمية مديرا لدائرة السياسة الخارجية ، لكنه لم يعد يلعب دورا يستحق الذكر . وطلب بطرس من هينس الا يكشف عن سر اللقاء ولا يدخل فى مفاوضات مع احد سواه .

وطلب هينس تعليمات من حكومته ، فمنحه الملك كريستيان الخامس صلاحية تقديم مشروع المعاهدة الى بطرس بحيث يستطيع ان يجرى عليها اية تعديلات بشرط ان يبقى على البند الخاص بالتعاون المتبادل بين الطرفين . وفى ٢٧ كانون الثانى (يناير) ١٦٩٩ ابلغ المبعوث القيصر باستعداده لتقديم مشروع المعاهدة . وسلمها فى ٢ شباط (فبراير) فى لقاء سرى مماثل فى منزل روزينبوش نفسه . اطلع بطرس على نص المعاهدة ، وفى ١٩ شباط (فبراير) دعا هينس الى فورونيج حيث كان القيصر يقلط السفن . وكان يريد لهذه الوثيقة ان تكون أكثر اختصارا ودقة . فهو يحب الايجاز والوضوح . وقد وافق عموما على مضمونها ، لكنه اقترح ان يدرج ضمنها بند جديد حول دخول روسيا الحرب بعد توقيع الصلح الدائم مع الاستانة وليس قبله . واتخذ بطرس اجراءات اخرى فى هذا الاتجاه وهو فى فورونيج . وفى ٢ نيسان (ابريل) وقع مرسوما بتعيين اوكرائنتسييف

الرجل المعنك الذى ترأس مديرية العلاقات الخارجية فى حينه عشر سنين سفيرا فوق العادة فى الاستانة لاجراء مفاوضات بشأن السلام الدائم مع الاستانة . وفى ختام الاعمال فى كارلوفيتسى قدم فوزنيسين الى بطرس ، فيما قدم ، نصيحتين قيمتين هما ارسال شخص ذكى من غير الوجهاء الى الاستانة لاجراء المفاوضات ، على ان يذهب الى هناك ليس برا كما هى العادة ، بل بحرا ، على سفينة حربية لتبين روسيا للعالم ان لديها اسطولا قادرا على القتال فى البحر الاسود . وتقبل القيصر كلتا التوصيتين . ووضع مع غولوفين فى فورونيج نفسها امرا تفصيليا هو عبارة عن توجيه الى اوكرائيتسيف الرجل الذكى الذى لا ينحدر من الوجهاء . وجرى اعداد سفينة له تحمل اسم «القلعة» . زد على ذلك ان الاسطول الذى بنى فى فورونيج وخصص للحرب ضد الامبراطورية العثمانية (وضعت خطة هذه الحرب من قبل بطرس عندما كان فى امستردام) كان يجب ان يرافقه باجمعه سفينة السفير حتى مدينة كيرتش . وبدلا من العمليات الحربية ينبغي للاسطول ان يبدأ استعراضا دبلوماسيا .

وبعد اسبوع ، فى ٩ نيسان (ابريل) عين بطرس سفيرا فى هولندة هو أ. أ. ماتفييف اول ممثل دبلوماسى دائم لروسيا فى الخارج . وقد خدم فى اوروبا حتى عام ١٧١٥ . وهو ابن ماتفييف الذى ترأس مديرية العلاقات الخارجية فى السنوات الاخيرة من حياة القيصر الكسى . وبفضل عناية الاب حصل ماتفييف الابن على تعليم جيد واتقن لغات اجنبية . وربما ساعد على دراسة تلك اللغات نفى الاب مع ابنه سنين طويلة (من ١٦٧٦ ، بعد وفاة القيصر الكسى حتى ايار (مايو) ١٦٨٢ حيث اعتلى الصبى بطرس العرش) . وقد كلف بطرس هذا الرجل

المتعلم ، الذى غدا فيما بعد دبلوماسيا بارزا ، بمهام مسئولة
هى حث هولندة على العمل من اجل توقيع الصلح بين روسيا
والباب العالي واستمالة هولندة الى صف روسيا فى الحرب من
اجل البلطيق او الحيلولة دون تحالفها مع السويد فى حالة اخفاق
روسيا .

وفى ٢٧ نيسان (ابريل) ابهرت من فرورونيغ الى آزوف عمارة
من ١٢ سفينة كبيرة ترافقها سفن مساعدة كثيرة . كل ربانة
السفن اجانب ، ما عدا ربانا روسيا واحدا هو بطرس ميخائيلوف ،
اى القيصر نفسه . وعلى رأس العمارة الاميرال غولوفين . وكان
القيصر فى الواقع هو الذى يدير حملة كيرتش السلمية .
واستمر بطرس ، مع غولوفين وفوزنيتسين فى تجهيز بعثة
اوكرانياتسييف . وكانت مديرية العلاقات الخارجية تطلع بطرس
من موسكو على الاخبار الدولية . وقد شغلت باله خصوصا
«القضية الفرنسية» اى احتمالات الحرب من اجل التركة الاسبانية .
وصادق على وثيقتين هما توجيهان للسفير ، احدهما خاص
بالبروتوكولات الرسمية ، والاخر سرى يستعرض بايجاز ودقة كيفية
اجراء المفاوضات مع العثمانيين . واستعرض التوجيه السرى امثلة
الجانب العثماني المحتملة واجوبة الجانب الروسى وأكد ان السفير
هناك ، فى الاستانة ، يجب ان يعتمد على نفسه ويجد مخرجا
«ويتصرف على هواه» و«يفعل ما يراه لازما بشرط ان ينفذ المهمة»
وهلمجرا .

ووصلت العمارة الى آزوف . وتوقفت هناك امدا طويلا
نسبيا ، لان منسوب مياه الدون لم يكن عاليا . وانتظروا حتى
يرتفع مستوى المياه . واخرج بطرس السفن الى البحر . وفى ٥
آب (اغسطس) توقفت العمارة فى مرفأ كيرتش . وكتب الاميرال

كرويس ، المشارك فى الحملة او على الاصح الاستعراض
الدبلوماسى عن مشاعر الدهشة والرعب التى استولت على العثمانيين
المرابطين فى كيرتش : «كان الرعب باديا على وجه الاتراك
من هذه الزيارة غير المتوقعة لعمارة مسلحة بهذا القدر . ولم يصدق
الاتراك الا بعد جهد جهيد بان هذه السفن بنيت فى روسيا وان
الروس على متونها» .

وهكذا كان ظهور الاسطول الروسى فى البحر الاسود الذى
يعتبره العثمانيون عثمانيا مفاجأة تامة غير مريحة لهم . وحاولوا
اقناع الروس بالعدول عن ارسال اوكرائيتسيف الى الاستانة بحرا ،
فالبحر مضطرب جدا ، والسفر برا اسهل . لم يوافق بطرس على
ذلك . فاذعن العثمانيون ، لكنهم اشترطوا ان ترافق سفنهم
سفينة «القلعة» الروسية . ولم يستعجلوا فى تخصيص سفن لهذا
الغرض . ظلوا يماطلون . ونفذ صبر بطرس وغولوفين فاعلنا
للاميرالاي حسان باشا قائلين :

— سنرافق سفيرنا والحال هذه بعمارتنا كلها .

واثر هذا القول فى العثمانيين . وتوجهت «القلعة» ذات
المدافع الـ ٤٦ الى الاستانة ، كما يسمى العثمانيون الاستانة
البيزنطية التى استولوا عليها فى عام ١٤٥٣ . وعاد بطرس الى
فورونيچ ومنها الى موسكو .

وكانت تنتظر القيصر فى العاصمة اعمال ومشاكل جديدة .
فمنذ شهر وصلت الى موسكو بعثة سويدية بمناسبة اعتلاء كارل
الثانى عشر العرش . وعشية الحرب من اجل التركة الاسبانية
كانت السويد راغبة جدا فى تأمين سلامة حدودها الشرقية .
ولهذا الغرض كان على البعثة ان تحصل على تأكيدات لشروط
معاهدة صلح كارديس ١٦٦١ التى استعرضت حصيلة احداث

الحرب الروسية السويدية ١٦٥٨ — ١٦٦١ الفاشلة بالنسبة لروسيا .
فقد نصت المعاهدة على بقاء ساحل البلطيق فى حوزة السويد .
ولم يكن تأكيد شروط صلح ١٦٦١ امرا مرغوبا فيه بالنسبة
لبطرس لان اهداف روسيا والسويد فى مسألة البلطيق متعارضة .
هذا من جهة ، ومن جهة اخرى يكشف رفض التأكيد عن نوايا
روسيا العدائية ، وليس ذلك من الحكمة بشئ الان . وقد عثر
بطرس على مخرج . استقبل السويديين (وعدهم ١٥٠ شخصا
تقريبا) فى حفاوة بالغة ، حيث اصطفت العساكر على امتداد
الطريق واقيمت حفلة استقبال فى صالة الطعام فى الكريملين .
صحيح ان بطرس لم يرتد ثياب قياصرة موسكو الثمينة بل اكتفى
بقفطان بسيط ، ولم يرغب فى سماع خطبة المبعوث الطويلة
فلمح الى ان الاختصار افضل . وثناء اللقاءات العملية الستة دار
الكلام عن مراسيم تأكيد المعاهدة . ورفض القيصر قسم اليمين
على الانجيل وتقبيل الصليب . واتفق الطرفان على ان يتبادلا
وثيقتى تأكيد معاهدة كارديس بشرط ان تتوجه بعثة روسية الى
استوكهولم لهذا الغرض .

وفى الوقت ذاته اجرى بطرس مباحثات مع الجنرال كارلوفيتش
الممثل الشخصى لاغسطس الثانى حاكم سكسونيا والذى وصل
سرا باسم كيندلر . ولم تكن القضية بسيطة . فالذى حصل هو
ان سكسونيا وحدها تحالفت مع روسيا ضد السويد . ومع ان
اغسطس الثانى هو فى الوقت ذاته ملك بولونيا فان هذه الاخيرة
«لم تحضر» المفاوضات مع كارلوفيتش . وكان يمثلها فى موسكو
بوكى صنيعة الارستقراطية البولونية الميالة الى فرنسا والنمسا
وتركيا . وكان بطرس يعامله ببرود سافر .

ولمح اغسطس الثانى الى ان بولونيا ستنضم الى التحالف

الروسي السكسوني بعد قيامه . الا ان ذلك كله بدا مشكوكا فيه . زد على ذلك ان بطرس واعوانه فهموا اللعبة المشينة التي يلعبها ملك لم يصبح ملكا بقدر كبير الا بفضل القيصر الروسي . وقد استعار اغسطس الثاني في حساباته السياسية ريشة يوهان باتكول ، المغامر الاوربي المعروف في ذاك الزمان . وكان هذا النبيل الليفلاندي في حينه قد عارض ما يسمى «بالمصادرة» التي طبقها كارل الحادي عشر ملك السويد التي تعود لها ليفلانديا (ليفونيا) . وكان ذاك الملك قد اثار سخطا شديدا لدى الاقطاعيين الليفونيين ، ومنهم باتكول ، عندما قرر مصادرة الاراضي الاميرية التي استولوا عليها . وكان باتكول يتميز بطاقات هائلة وقابليات تنظيمية وخطابية مدهشة . فتزعم حركة الاقطاعيين ضد المصادرة وصور هذه الحركة على انها حركة وطنية . واخيرا حكم على هذا «الوطني» بالاعدام . ففر من بلاده وراح يتنقل بين البلدان ويجرب قواه في العلوم والآداب . وقبل الاحداث المذكورة اعلاه بعدة شهور التحق بخدمة اغسطس الثاني حيث صار بارادته ضابطا برتبة مقدم وتجنس بالجنسية السكسونية . واغوى رئيسه الجديد باحتمال ضم ليفونيا الى ممتلكاته بمساعدة روسيا القوية . فان جيشها بالذات ينبغي ، في رأى باتكول ، ان يدحر السويد حتى يمكن تقديم الثمرة المنشودة — ليفونيا — على مائدة اغسطس الثاني . وقد عرض كل هذه الافكار في مذكرة قدمها الى الملك . وصاغ بعض تلك الافكار بشكل فريد وصريح جدا :

— يجب استحصال التزام من القيصر بمساعدة جلالته بالمال وبالقوات ، وخصوصا المشاة القادرين جدا على العمل في الخنادق والموت بنيران العدو ، وبذلك تحقن دماء قوات

صاحب الجلالة التى يمكن ان تستخدم لحماية ممرات التوصيل فقط .

ثم يقول بنفس اللهجة :
— ينبغي ربط يدى هذا الحليف القوى بشدة كيلا يلتهم على مرأى منا قطعة اللحم التى قليناها ، كيلا يستولى على ليفلانديا .

وباختصار : فليمت الجنود الروس فى سبيل ليفلانديا البولونية او السكسونية فيما بعد . والاكثر من ذلك ان ليفلانديا يجب ان تكون «معقلا ضد السويد وموسكو» فى المستقبل . ويستطيع بطرس بعد الانتصار على كارل الثانى عشر ان يأخذ ، حسبما تقول المذكرة ، انجرمانلانديا (وهى اراض على ساحل الخليج الفنلندى) وكاريليا . كما ان قواته ، بعد كسب ليفونيا وتسليمها الى اغسطس ، يجب ان ترابط شرقى خط نارفا — بحيرة تشودسكويه .

هذا هو مستشار الملك البولونى . وبالمناسبة ، فقد وافق شن طبقه . وقد عرض كارلوفيتش افكارهما وامانيهما المشتركة على بطرس . وافاض كارلوفيتش فى الحديث عن مشاعر «الحب الخالص والصداقة المتينة» التى يكتنها الملك للقيصر وسلمه مذكرة مشحونة بالوعود بان الملك سينحمل كل ثقل الحرب ضد السويديين . وكان يراى لذلك «ان يبعد اى خطر من جانب قوات» روسيا اذا تحالفت مع سكسونيا ، ومع بولونيا فيما بعد . وتغص بنفس هذا القدر من الاعتداد الطائش الفارغ مسودة معاهدة التحالف التى وضعها ، فى اغلب الظن ، باتكول نفسه .

وادرك بطرس نوايا اغسطس الثانى . ولكن لا حيلة فى الامر . فتلك هى القسمة والنصيب ، طالما ليس هناك حليف

آخر . لكن القيصر غير مستعجل ، خلافا للملك الذى اصر على بدء العمليات الحربية ضد السويد فى كانون الاول (ديسمبر) ١٦٩٩ . وكانت المذكرة تصر على ذلك :
— الشرط الاول فى هذه القضية هو البدء الان ، او عدم البدء اطلاقا .

ووافق القيصر على نص المعاهدة ، بل وحتى على البند الخاص بكاريليا وانجرمانلانديا (اى انتقالهما الى روسيا بعد النصر) وتسليم ثلاث مقاطعات (كورلانديا وليفلانديا وايستلانديا) الى اغسطس الثانى . لكنه اشترط نفس الشرط الذى طرحه فى المفاوضات مع الدانمرك : روسيا لن تبدأ الحرب الا بعد توقيع معاهدة الصلح مع الباب العالى . ووعده الملك بان يشرك فى الحرب بولونيا بالاضافة الى سكسونيا . ولم يكن عموما يبخل بالوعود السخية (تأمين سلامة القوات الروسية فى انجرمانلانديا وكاريليا وحماية مصالح القيصر فى البلدان الاوربية وهلم جرا) . وكان اغسطس مستعجلا جدا . فاصدر امرا بيده العمليات الحربية فورا لىغوى بطرس بتنفيذ الوعود حتى يفعل هذا الاخير الشيء ذاته . الا ان القيصر اضاف الى نص المعاهدة المادة الثالثة عشرة بشأن ضرورة الصلح مع العثمانيين بالنسبة لروسيا .

اجرى بطرس مباحثاته مع كارلوفيتش سرا فى برىوبراجينسكويه . وشارك فيها غولوفين والمترجم شافىروف ، وهو بائع من اليهود المتنصرين اعجب به القيصر ذات مرة . وهو رجل ذكى ومثقف ومطلع على اللغات الاوربية . وبناء على اقتراح من بطرس حضر المباحثات المبعوث الدانمركى هينس . وفى تلك الاثناء كانت مديرية العلاقات الخارجية فى موسكو تتباحث مع البعثة السويدية .

كانت هذه اللعبة المزدوجة غالبا ما تستخدم في الدبلوماسية الاوربية ، ولذا طبق بطرس اساليب جربت قرونا . وفي ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) وقع بطرس المعاهدة ، وكان قد وقعها اغسطس الثاني قبله ، عندما ارسل كارلوفيتش الى موسكو . وفي ٢٣ تشرين الثاني ابرمت المعاهدة الروسية الدانمركية التي وقعت بالاحرف الاولى في ٢١ نيسان (ابريل) ، اى ان الابرار جاء بعد تبادل النصين الموقعين . وكانت المعاهدتان اول وثيقتين في القانون الدولي وقعهما القيصر الروسى شخصيا . فان اسلاف بطرس لم يفعلوا ذلك مطلقا . كانوا يكتبون بابرام المعاهدات او تصديقها شفويا ، حيث يعدون على رؤوس الاشهاد بالالتزام بها ويقبلون الصليب . ويتركون للسفراء تذييلها بالتوقيع . وقد اخل بطرس بهذا التقليد السائر منذ عهد دولة كييف الروسية . ولما كان توقيع بطرس يعنى الابرار فى الوقت ذاته ، فقد حصل تبسيط فى اجراءات ابرام المعاهدة وارتفعت قيمتها .

واسفر عن كلتا المعاهدتين تشكيل الحلف الشمالى بين روسيا والدانمرك وسكسونيا فى الحرب المرتقبة ضد السويد . لكن الصلح مع الاستانة لم يتحقق بعد . وكان اوكرائيتسيف يسعى اليه .

... فى ٢٨ آب (اغسطس) التقت السفينة الروسية «القلعة» مرساتها فى مرفأ الاستانة مقابل سراى السلطان . وقد دهش السلطان نفسه ورعاياه ، فلم يصدقوا بان الروس يجيدون بناء مثل هذه السفن ويمخرون بها البحر الاسود . وتفضل سماعته بالصعود الى متن سفينة الكفرة ليتأكد بنفسه من ان هذا الحادث الخارق قد حدث بالفعل . واقتنى اثره آخرون من الوجهاء

العثمانيين والدبلوماسيين الاجانب ، وكانوا يتأوهون عجباً واستغراباً . وعندما امر ربان «القلعة» بامبورغ باطلاق المدافع ليلا اثارت طلقات التحية الرعب والهرج والمرج بين اهالى الاستانة . فقد ظنوا ان عمارة روسية كاملة وصلت بالاضافة الى سفينة السفير . لم تكن مهمة اوكرانياتسيف يسيرة بسيطة ، فهي اصعب حتى من مهمة فوزيتسين فى كارلوفيتسى . وعندما وصل الى الاستانة كان الوضع فى اوريا متأزماً . فلئن كانت بريطانيا وهولندا وفرنسا قد وقعت فى ايلول (سبتمبر) ١٦٩٨ اتفاقية اقتسام التركة الاسبانية سلمياً ، فقد اعدت نفس تلك الدول فى صيف العام التالى معاهدة جديدة حول الشىء ذاته ، لان ملك اسبانيا كارل الثانى توفى . وبدلاً من التوقعات السلمية حلت حتمية الحرب . فان اسبانيا غير راضية على المعاهدة الجديدة ، لانها لا تريد الاذعان لتقسيم ممتلكاتها . ورفضت النمسا عموما الالتزام بها . فقد كانت مع بريطانيا وهولندا تريد توريط الامبراطورية العثمانية فى الحرب . فالجميع يمدون ايديهم الى الكعكة الكبيرة اللذيذة التى تركها ملك اسبانيا الراحل . وكانت تلك الدول تريد ، شأن فرنسا ، ان تشرك فيها السويد . كل يريد لها فى معسكره . ولهذا الغرض وقع البلاط الفرنسى معاهدة مع البلاط السويدى فى صيف ١٦٩٨ . وفعلت بريطانيا وهولندا الشىء ذاته فى ايار (مايو) من العام التالى ، وفى كانون الثانى (يناير) ابرمت المعاهدة . واثارت الاشاعات التى سرت بشأن الحرب المحتملة بين السويد وروسيا قلق حكام هذه الدول ، فطلبوا من دبلوماسيهم الحيلولة دون توقيع الصلح الروسى العثمانى واندلاع الحرب الروسية السويدية . فليواصل بطرس حربه ضد العثمانيين ، وهو لا يقوى على القتال فى جبهتين .

كان القيصر يفهم جيدا ان روسيا لا تقوى على حربين . فحاول هو وسفيره ماتيفيف ان يتخذا الاجراءات اللازمة . طلبا من ملك بريطانيا وحاكم هولنده وملك الدانمرک وملك بولونيا التوسط فى توقيع الصلح مع الاستانة . ووافقت بريطانيا وهولنده على الوساطة لكنهما لم تفعلتا شيئا بالطبع . والاكثر من ذلك ان دبلوماسيهما فى الاستانة اخذوا يألبون السلطان على القيصر . وهذا ما فعله ايضا سفير بولونيا . فقد اقترح على الباب العالى ، باسم الاقطاعيين البولونيين والليتوانيين الذين لا يحترمون ملكهم ، ان يتحالف معهم ضد روسيا . وكانوا من زمان يركضون دوما وراء سراب وآمال وهمية فى استعادة كييف ومناطق اوكرانيا الواقعة على الضفة اليسرى من الدنيبر التى خسروها فى عهد بوغدان خميلنيتسكى والكسى ميخائيلوفيتش وپطرس الاكبر (فى شبابه) (ابان الحرب الروسية البولونية ١٦٥٤—١٦٦٧ وبموجب صلح اندروسوفو ١٦٦٧ ، و«السلام الدائم» ١٦٨٦) . وكان نفس هذا السفير قد اعلن للعثمانيين دون خوف او وجل ان ملكا مثل اغسطس الثانى ، صديق القيصر الروسى ، لا حاجة للاقطاعيين البولونيين به ، وانهم سيطيحون به من كل بد .

كان بطرس واعوانه قد تعودوا على مثل هذه الاحاييل الدبلوماسية . ولم يفت فى عضدهم لا رياء الدبلوماسيين الغربيين ولا دسائس السفير البولونى ولا الخطر الذى يتهدد اوكرائيتسيف دوما فى ان تطبق عليه سراديب القصر ذى الابراج السبعة بامر من السلطان الذى هو «ظل الله» فى ارض الكبائر . استمر اوكرائيتسيف فى المفاوضات سبعة شهور . وكان قد تسلى بالصبر مسبقا وتزود بالنقد وفراء السمور وغير ذلك من «الحجج الدامغة» لغواية الوجهاء والدبلوماسيين العثمانيين .

وفي ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٦٩٩ قدم سفير بطرس مذكرة الى العثمانيين ، تضمنت ١٦ مادة اهم بنودها : توقيع الصلح مع احتفاظ الطرفين المتحاربين بما يسيطران عليه حتى الان ، وحرية الملاحة للسفن الروسية في البحر الاسود وتوقف روسيا عن دفع الجزية الى خان القرم (وهي في الحقيقة بقية من تقاليد قديمة تعود جذورها الى عصر تبعية روسيا للتتر والمغول من اواسط القرن الثالث عشر حتى القرن الخامس عشر) ، وتوقف غزوات عساكر القرم على الاطراف الجنوبية لروسيا ، وتبادل الاسرى ، واعادة العتبات المقدسة في اورشليم القدس الى حوزة الكنيسة الارثوذكسية الاغريقية وتخليصها من سيطرة الكاثوليك .

وكما هي العادة وضعت المطالب الروسية «باحتياطي» يزيد على المطلوب ، نظرا لاحتمال المساومة والجدل والتنازلات من جانب الطرفين . ورفض العثمانيون رأسا البند الخاص بالعتبات المقدسة ، ولم يجادلهم اوكرائيتسيف كثيرا في هذا الموضوع . وردوا عليه بالشئ ذاته فيما يخص حرية الملاحة في البحر الاسود ، واعلنوا له باسم السلطان الكريم الحكيم : — الباب العالي العثماني يصون البحر الاسود كفتاة طاهرة عذراء لا يحق لاحد ان يمسه .

ولم يكن الروس بالطبع يرفضون ود تلك الفتاة العذراء . لكنهم تنازلوا هذه المرة ايضا . فلا بد من التنازل عن شئ . لا سيما وان الاسطول الروسي ليس كبيرا بعد ، وليس لديه في البحر الاسود لا موانئ ومرافئ ولا مداخل ومنافذ الى الموانئ . صحيح ان القوات الروسية استولت على كازيكيرمين وثلاث مدائن اخرى في اسفل الدنيبر . وبالاتماد عليها يمكن السيطرة

على مصب الدنيير وبالتالي على منفذ مرغوب فيه الى البحر الاسود . لكن العثمانيين تعنتوا ورفضوا بصورة قاطعة . وكان اهول الشرين بالنسبة لهم هو الاذعان لضياح مدينة آزوف . فان مصب الدون ضحل ، وهو يؤدي الى بحر آزوف فقط . اما الطريق الى البحر الاسود فان كيرتش مفتاحه . ولم يكن العثمانيون راغبين اطلاقا في التنازل عن مدائن الدنيير .

واتسمت الخلافات احيانا بطابع فاجع شديد ، بلغ حد القطيعة . واستخدم اوكرانيا تسيف كل ما في جعبته من دهاء وخبرة دبلوماسية . لكن الطرف الاخر اصر وعاند . وفي شباط (فبراير) ١٧٠٠ سرت اشاعات عن استعدادات عثمانية لشن العمليات الحربية ضد روسيا . ووصل بطرس الى فيرونيج من جديد لينظم شؤون الاسطول . وجرى الشيء ذاته ، بأمر منه ، في آزوف . وظهر مبعوثوه في استوكهولم ليؤكدوا للملك ان روسيا تطمح الى السلم مع السويد .

ومع ذلك سارت الامور في الاستانة صوب الفلح . تركيا لم تكن راغبة في مواصلة الحرب . فان استعراض الاسطول الروسى اثر فيها ، وهذا ما كان بطرس يأمل فيه . والاهم ان بطرس البعيد النظر امر بالتنازل عن مدائن الدنيير ، لانه لم يكن يأمل في انتصار كبير جدى في البحر الاسود . واتفق الطرفان على طمر تلك المدائن الصغيرة وبقاء المنطقة الواقعة بين سهب زابورجيه ومصب الدنيير خالية . وبذلك عرضت روسيا بوضوح انها لن تفكر في الحصول على منفذ الى البحر الاسود . ومقابل هذا التنازل احتفظت روسيا بأزوف والمدن المبنية على سواحل بحر آزوف (تاغانروغ وميوس وبافلوفسك) . ورفضت روسيا تقديم الجزية الى خان القرم ، وحصل رعاياها على حق

الحجيج الى العتبات المقدسة في فلسطين . وقعت هدنة لمدة ٣٠ عاما . ولم تكن صلحا . واهم ما حصل عليه بطرس هو اطلاق يديه للعمل في الشمال . وذلك مكسب استراتيجي اتسم بأهمية بالغة كما بين الزمن .

وفي تلك الاثناء كان بطرس ينتظر تنفيذ وعود اغسطس الثاني ومستشاريه باتكول وكارلوفيتش . وقد ابلغوا بطرس بانهم اعدوا خطة لاقتحام ريغا واحتلالها . وكما هو المتوقع اتضح ان تلك الخطة وليدة الخيال الجامح والصلف والوقاحة والنفعية التافهة والغدر وخيانة مصالح الحلفاء . وبدأ ذلك عندما ترك الجنرال فليمينغ ، القائد العام للجيش السكسوني ، جيشه وعاد الى منزله ليتزوج . وكان سيده اغسطس الثاني ، كعادته دوما ، مشغولا جدا بشؤونه الخاصة . فان مجونه خلق اساطير كثيرة تتحدث احداها عن ٣٦٥ طفلا غير شرعي تركهم الملك الفاسق . وبعد ان تزوج فليمينغ تفضل وعاد الى القوات وتحرك بها صوب ريغا . وعلى مقربة منها احتل قلعة كوبريشانتس الصغيرة جدا . وبذلك انتهت انتصارات العساكر السكسونية المظفرة وقادتها . وغضب بطرس على المكشوف ، وقال في حديث مع هينس : — هل يجوز استحسان تصرف ملك بولونيا اذا كان قد بقي في سكسونيا يتسلى مع الغواني ويفرق في الملذات بدلا من حضور عملية على هذا القدر من الاهمية ؟

وما كان بوسع السفير الدانمركي ان يفند هذه الحجة الدامغة . وعندما شجب القيصر تصرف اغسطس الثاني لم يخف قلقه : — اخشى ان يوقع الملك صلحا انفراديا ويترك حلفاءه بعد ان يورطهم في الحرب . فلا موجب لتوقيع المعاهدات واستنهاض الحلفاء دون اداء المطلوب .

ورغم ان بطرس كان يدرك الثمن الحقيقي لاقوال ونوايا اغسطس الثانى فقد ظل آسفا . وبعد قليل عرف ان السكسونيين احتلوا قلعة ديناميوندى الواقعة على دفيئا الغربى ، اسفل ريغا ، عند منفذ بحر البلطيق . كان هذا الخبر افضل من غيره . وفى اواخر حزيران (يونيو) وصل الملك اخيرا الى القوات قرب ريغا وترك غوانيه الحسان كشييات فى سكسونيا . واخفق حصار المدينة . فالقوات قليلة . ولم ترغب بولونيا فى دخول الحرب ، فهى تطمح الى استعادة كييف وليس الى القتال من اجل ريغا . ولم تلحق القنابل السكسونية اى ضرر بالمدينة . وفى ايلول (سبتمبر) غضب الملك ووعده مهيدا انه يقوى على اطلاق نيران المدافع . الا ان الدهاة من اهالى ريغا يعرفون مع من يتعاملون ، فاعطوه رشوة بـ ١,٥ مليون تالر . استلم الملك الرشوة دون تردد ، ورفع الحصار عن ريغا وسحب قواته بعيدا عنها ، رغم الوعود التى قطعها مؤخرا للقيصر بانه سيتحمل العبء الرئيسى من الحرب على كتفيه المتينتين .

وما حدث فيما بعد ادهى وأمر . فالدانمرك ، الحليفة التى كانت حسب الظاهر أكثر جدية ، تقوضت كبيت من ورق بعد اول هبة من الريح . صحيح ان قواتها احرزت بعض النجاح فى هولشتين التى فر حاكمها الى الشمال ، الى حليفها السويد . وكان الملك السويدي الشاب ، العريد المغوار ، قد انزل فى الحال فيلقا من ١٥ الف شخص واقرب من كوبنهاغن . ودعم الانزال الاسطولان البريطانى والهولندى . فاستسلمت الدانمرك . وفى ٨ آب (اغسطس) ١٧٠٠ خرجت من الحلف الشمالى بموجب صلح ترافيندال (قرب لوبيك) والتزمت باحترام استقلال حاكم هولشتين ودفع غرامة له بمبلغ ٢٦٠ الف تالر . وكانت

اتفاقية ترافيندال نهاية لعزلة السويد وثغرة في الحلف الشمالى . ولم يعد الاسطول الدانمركى ، وهو اسطول كبير نسبيا ، بقادر على دعم الحلفاء كما كان ينتظر منه بطرس . وعندما بطش كارل الثانى عشر باحد خصومه صار بوسعه ان يوجه قواته ضد الآخرين ، الى شرق البلطيق . وهذا ما اقدم عليه بالفعل .

كان مصير الدانمرك قد اعاد حاكم براندينبورغ الى رشده . وكان هذا الاخير قد اكد لبطرس مشاعر الود الخالص ونعته «بالصديق والاخ والحليف» فى ١٦٩٧ عندما تقابل مع «بطرس ميخائيلوف» الموفد ضمن طلبه «البعثة الكبرى» ، ودعاه بنفسه الى التحالف ضد السويد . اما الان ، بعد صلح ترافيندال ، فقد خف حماسه . واعلن لمبعوث بطرس الامير ترويتسكوى الذى وصل الى برلين فى صيف ١٧٠٠ ، وقال صراحة بعد تبادل المجاملات ان ما حصل للدانمرك يثير قلقه ويحيره جدا . . .

واخفق ماتفيف هو الاخر فى مهمته فى الولايات الهولندية ، حيث كان يتوخى الحصول على مساعدة من هولندا وبريطانيا او الحيلولة دون مساعدتهما لملك السويد . فقد حددا موقفهما دون لبس والتزما جانب السويد . صحيح ان السفير ماتفيف كان يبعث بانتظام اخبارا عما يجرى فى اوربا ، ومن ذلك رياء اغسطس الثانى ونشاط اوكرائيتسيف فى الاستانة . وانضح ان ملك بولونيا يفكر فى صلح انفرادى مع كارل الثانى عشر .

ومن جديد اضطر بطرس الى اتخاذ القرارات فى جو غامض للغاية تلبدت فيه الغيوم . حلف الشمال بدا وكأنه يحضر ولم يكن بطرس يعرف على وجه التحديد ماذا يجرى فى الاستانة

وهل سيتمكن اوكرانياتسيف من الحيلولة دون استئناف العمليات الحربية في الجنوب .

الا ان القيصر لا ينساق للذعر والشكوك . فالاستعدادات جارية على قدم وساق للحرب في البلطيق ، من اجل البلطيق ، لكنها لحد الان حرب برية بالنسبة لروسيا . فان روسيا لا تمتلك اسطولا هنا . ولم يكن سهلا اعداد كل مستلزمات القتال ضد الجيش السويدي الممتاز . ووفقا للخطة التي وضعها بطرس ومستشاروه ينبغي للجيش الروسى ان يتوجه صوب نارفا ونوتيبورغ (مدينة اوريشيك الروسية العريقة) ، وهما قلعتان سويديتان على نهري ناروفا ونيفا . وارسل بطرس الى القلعتين فاسيلي كورتشمين احد ضباط فوج بريوبراجينسكى . وكان كورتشمين قد حصل على التعليم الهندسى في الخارج ، وهو يفهم في شؤون التحصينات . وفي ٢ آذار (مارس) ١٧٠٠ كتب بطرس الى غولوفين بخصوص ارسال كورتشمين الى نارفا في البداية بحجة شراء مدافع سويدية للروس ثم الى نوتيبورغ :

— ليزر اوريشيك اذا وجد سببا لذلك . واذا تعذرت زيارتها فعلى مقربة منها على الاقل . ثمة مكان هام جدا : رافد من بحيرة لادوجسكويه (انظر الخريطة) . والرجل ، على ما يبدو ، ذكى يحافظ على الاسرار . والمهم الا يعرف كنيبر بالزيارة ، فهو يدري ان كورتشمين من المتعلمين .

وجرى تدريب المجندين الجدد على جناح السرعة . وولد على مرأى من الجميع جيش جديد ترك ، كما يبدو ، انطبعا لا بأس به في انظار شهود العيان ، حتى ان السفير الدانمركى هينس اعجب بدربة الجنود :

— الافواج الجديدة رائعة . وهي جيدة بنفس القدر في

التدريبات وفي الاستعراضات .

وقد نعت هذا السفير المدفعية الروسية بانها «نموذجية» ،
و«افضل مدفعية فى العالم» ، كما نعت المشاة «بخيرة القوات
الملتزمة باقصى درجات الانضباط» . ولعل بطرس قد سمع مثل
هذا التقييم مرارا . وشعر بالارتياح . وكان ينتظر بفارغ الصبر
اخبار الاستانة ويتحرق شوقا الى تحريك قواته ضد السويديين
والانضمام الى الحلفاء :

— انا رجل يمكن الاعتماد على اقواله ، ولن الجأ الى
الاطناب ، فان حلفاءى سيرون عمليا كيف انفذ التزاماتى واقوم
باكثر مما انا ملزم بالقيام به .

كان بطرس مفعما بالتوقعات والامال البهيجة . واخيرا ، فى
٨ آب (اغسطس) ١٧٠٠ وصله الخبر الذى طال انتظاره .
فقد تم توقيع الاتفاقية مع الاستانة ، ولم تعد روسيا مقيدة اليدين
فى الجنوب . وفى اليوم التالى اعلنت الحرب على السويد «بسبب
الجور السويدى الكثير» ، ومنه الاهانة البشعة التى صدرت عن
السويديين فى ١٦٩٧ . اثناء تواجد «البعثة الكبرى» فى ريغا «لجلالة
القيصر نفسه» ، مع ان القيصر الروسى لا يعتبر رسميا من موفدى
البعثة .

وكان هذا التبرير اعترافا بفضل الدبلوماسية الموسكوية القديمة
وغيظها بسبب الاهانات الفعلية والوهمية للقيصر والتطاول على
كرامته وبالتالي على كرامة روسيا . وكان دبلوماسيو البلدان الاخرى
فى ذاك الزمان يهتمون بهذه الامور اهتماما كبيرا .

وفى ٢٢ آب (اغسطس) تحرك الجيش الروسى فى حملته .
وبدأت حرب الشمال . كتب المؤرخ كلوتشفسكى الذى لا يحب
بطرس مستخفا به فيما يخص نتائج عملياته الجنوبية : «وجد

القيصر نفسه في موقف حرج» فالاسطول الذي بنى بذلك العذاب
والحرمان «ظل يتعفن في مرافئ آزوف» ، واخفق القيصر في
تثبيت قدميه في القرم ، واهملت القناة التي بدأوا بحفرها بأمر
من بطرس بين الفولغا والدون ، وتأجل كذلك كل ما يتعلق «بالمسألة
الشرقية» (تأمين السلامة من غزوات القرم وتوقعات مسيحيي
البلقان) ، وحول بطرس انظاره بسرعة من الجنوب صوب الشمال
«فالموقف العابر الجديد في أوروبا نقله ، ككرة اللعب ، من
مصب الدون الى ناروفا ونيفا حيث لم يكن لديه اى شيء
جاهز . ويعد ان صرف وقتا طويلا في الاستعداد ليكون من
بحارة البحر الاسود ، مع كل ما كسبه من معارف في الملاحة
في بيرياسلاف والبحر الابيض وبريطانيا وهولندا ، اضطر الى
خوض حرب برية سنين طويلة ليصل الى بحر جديد غريب» .
هذا المؤرخ يبالغ كثيرا بالطبع . ولا يشاطر القيصر في
اجراءاته المحمومة وبحثه التواق ، ولا يقدر تلك الاجراءات
حق قدرها . ومع ذلك فهو لا يجانب الحقيقة كثيرا . فان
بطرس نفسه سرعان ما عاد الى رشده من آماله الوردية او الوردية
الباهتة على اقل تقدير في ربيع وصيف ١٧٠٠ عندما اسرع
الى القتال متحمسا كما يفعل الشباب وهو يأمل في انتصارات
سريعة باهرة . واتضح ان نارفا ليست آزوف ولا كازيكيرمين .
لكنه آنذاك لم يكن يعرف شيئا عن النتائج المترتبة على تصرفاته .
كان مندفعاً يفكر في المخططات ليستشوق بملء رثيه هواء
البلطيق المالح . . .

بدء الحرب . نارفا : من الهزيمة الى النصر

قبيل وصول نبأ توقيع معاهدة الاستانة وعد بطرس ملك بولونيا وحاكم سكسونيا اغسطس الثانى قائلا :
— اذا استلمت نبأ الصلح اليوم ساحرك قواتى غدا ضد
السويديين .

وبالفعل اعلنت روسيا الحرب على السويد فى ٩ آب
(اغسطس) . ويقول كلوتشيفسكى : «كانت هذه الحرب قد باغتت
حتى روسيا بسوء التحضير لها وتخطيطها» . فقد بدأها فى جو
انهيار حلف الشمال ودساتس اغسطس الثانى والمغامر باتكول
وسوء تصرف الحلفاء . ولا تجانب هذه الكلمات الصواب .
فان استعجال القيصر وسوء التحضير اللذين سرعان ما بدت آثارهما
كانا نتيجة لحسابات وهفوات معينة . كان الموقف الدولى
بالنسبة لروسيا ليس سيئا حسب الظاهر—انشغال الدول الاوربية
الاساسية بالتحضير للحرب من اجل التركة الاسبانية ، وانشغال
الملك السويدى بمقاتلة الدانمرك وسكسونيا وبولونيا حلفاء روسيا ،
وتخلص هذه الاخيرة مما كان يقيدھا فى الجنوب . زد على
ذلك ان القيصر اتخذ بعض الاجراءات العاجلة لاعداد البلاد
والجيش للعمليات الحربية فى منطقة ساحل البلطيق (التجنيد
واعداد الذخيرة وتأسيس مانوفاتورات جديدة واتخاذ اجراءات

ادارية جديدة وهلمجرا) . الا ان ذلك لم يكن كافيا بالطبع .
وفيما بعد ، اعترف الامبراطور والقائد المجيد بطرس الاكبر ،
في آخر ايام حياته (وكانت الحرب المظفرة ضد السويد قد
انقضت من زمان) انه بدأ تلك الحرب كالاغمى دون ان
يعرف مدى قوة العدو وحالة قواته . الا ان احداث عام ١٧٠٠
كانت لا تزال بعيدة جدا عن هذا الاستنتاج الجريء المفعم
بالانتقاد الذاتى . وكانت لا تزال تنتظر روسيا مرارة الهزيمة
والكدمات والرضوض التى سيتضح نفعها فيما بعد .

بدأت الاخفاقات من البداية . ففي ٨ آب (اغسطس) ،
اى فى يوم وصول النبأ من اوكرانياتسيف فى الاستانة ، بلغ
بطرس خبر استسلام الدانمرك ومساعدة الانجليز لملك السويد ،
حيث نقلت سفنهم قوات الانزال السويدية عبر المضيق الى
الدانمرك . ولم يثبط ذلك من عزيمة القيصر فتحركت قواته
فى ٢٢ آب من موسكو باتجاه الشمال الغربى الى نارفا القلعة
السويدية على الحدود الشرقية لممتلكات كارل الثانى عشر فى
البلطيق . ونقلت عشرة آلاف عربية المدفعية والمؤن وسواها .
ورافق بطرس جيشه برتبة كابتن سرية المدفعية فى فوج
بريوبراجينسكى .

وفى مدينة تغير استلم القيصر نبأ مقلقا جديدا : خصمه
الملك كارل الثانى عشر ينوى المجيء الى البلطيق بجيش من
١٨ الف شخص . وقال بطرس مرتابا :

— فكرت فى ذلك مرارا ، هل الخبر صحيح ام هو خدعة ؟
واذا كان صحيحا فان ملك الدانمرك بالطبع اندحر امام القوافل
الموحدة .

لقد فهم القيصر الامر بشكل صائب . فاذا كانت الاخبار

عن مخططات السويديين صحيحة فان ملكهم وصل من بلاده عبر المضيق بمساعدة «القوافل الموحدة» ، بمساعدة بريطانيا وهولندا والسويد نفسها . لكن بطرس ظل يتقدم الى الامام دون ان يلتفت الى المعلومات الجديدة التي استلمها توا ، لا سيما وان جنوده أكثر من جنود ملك السويد .

وفي ٢٣ ايلول (سبتمبر) ، بعد شهر واحد ، بلغت افواجه اسوار نارفا . وكانت الحملة بطيئة مرهقة ، حيث عرقلت احوال الخريف سير القوات وخصوصا العربات والمدافع والذخيرة . ولم تصل القوات بكاملها الا في اواسط تشرين الاول (اكتوبر) . وقاد القيصر نفسه الحصار ، فحدد مواقع البطاريات ووجه عمليات المدفعية . الا ان البارود والقنابل لم تكف الا لاسبوعين ، فالقصف لم يلحق ضررا ملموسا بالمحاصرين . ولم تصل كميات جديدة من الذخيرة بسبب سوء الطرق .

استمر الحال على هذا المنوال أكثر من شهر الى ان وصلت بصورة مباغتة ، كما في الدانمرك ، قوات «المتهور الاسكندنافي» (على حد تعبير كلوتشفيسكي) — ملك السويد . ويبدو ان بطرس لم يعر ذلك اهتماما كبيرا . فان قواته على اية حال تفوق قوات العدو ثلاث مرات (٣٥ — ٤٠ الف روسي مقابل ٨ — ١٢ الف سويدي) . واتضح ان اعتماده على خبرة الضباط الاجانب الذين قادوا جيشه لم يكن له ما يبرره . وكان قد نصب على رأس جيشه الفيلدمارشال الكونت شارل ديكروا الذي انتقل للخدمة عند اغسطس الثاني بعد ان اخفق في الخدمة في النمسا (منى بهزيمة في ساحة القتال) . وكان اغسطس الثاني قد ارسله الى «صديقه وحليفه» بطرس ، بينما دأب ديكروا على ارسال رسائل سرية الى الملك اغسطس الثاني مكتوبة

بالشفرة كيلا يفهم الروس فحواها . وترأس اغلبية الافواج ضباط اجانب كان موقفهم من القضية ومن الجنود قد اثار شكوك وحقد هؤلاء الاخيرين . ثم ان القسم الاغلب من الجيش مكون من افواج القوات الخاصة السابقة والمتطوعين النبلاء وافراد جدد لكنهم من المجندين حديثا . ولم يبد قدرة كفاحية حقيقية فى القتال اللاحق. مع جيش يعتبر من افضل الجيوش الاوربية الا فوجا حرس بريوبراجينسكى وسيميونوفسكى وفوج ليفورتوفسكى .

ووصل السويديون الى نارفا فى ١٨ تشرين الثانى (نوفمبر) . وارتحل بطرس الى نوفغورود ليستحث الافواج التى تخلفت . وفى اليوم التالى ، ١٩ تشرين الثانى ، اقترب كارل الثانى عشر بجيشه من المواقع الروسية الممتدة على طول سبعة كيلومترات ونيف وفقا لتوزيع قوات الحصار . وثارت عاصفة ثلجية اتخذها السويديون ستارا لهجوم حازم جرىء جعل فوجى شيريميتيف وغولوفين يفران هارين فى ذعر شديد . عبر افراد فوج شيريميتيف نهر ناروفا سباحة من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية ، بينما فر افراد فوج غولوفين باضطراب على الجسر الذى هوى رأسا . وقتل وغرق آلاف الجنود . الا ان فوجى الحرس وفوج ليفورتوفسكى صمدت ببسالة وصدت هجمات السويديين المتكررة .

انتصر كارل الثانى عشر بسرعة وسهولة ، وكان مع ذلك يخشى ضربة الروس من المؤخرة ويراعى تفوقهم العددي . ولذا امر بترميم الجسر المحطم مع حلول الظلام لكى تتمكن الافواج الروسية المتبقية على الضفة الغربية من عبور النهر . فبالغالب خائف من المغلوبين . لكن هؤلاء الاخيرين ما كانوا يفكرون فى الانتقام فالذعر والارتباك وخيانة الآمرين الاجانب (ديكروا وغيره من الضباط الاجانب استسلموا للاسر من بداية المعركة) وسوء التنظيم

عموماً — كل ذلك قد فعل فعله . وادى التنظيم العسكرى القديم والارتباك ، والجبن ونخيانة قادة الجيش الاجانب والاختفاء فى اعداد الحملة الى هزيمة ماحقة .

وفى الليل بدأت المفاوضات وانتهت باستسلام الجيش الروسى . ووافق الملك على ان يغادر هذا الجيش مواقعه فى نارفا بكامل سلاحه ويترك المدفعية فقط . ولكن السويديين اخلوا بالاتفاق عندما عبر فوجا الحرس الى الضفة الشرقية على الجسر الذى اعيد بناؤه ، فقد اوقفوا الافواج الاخرى وجردوا الجنود من السلاح وأسروا الضباط .

وسرعان ما بلغ بطرس النبأ المرير ، نبأ هزيمة جيشه الماحقة المشينة . فبالإضافة الى ١٣٥ مدفعا التى غنمها العدو فقد الروس ٦ آلاف شخص بين قتيل وغريق . ووقع جميع الضباط تقريبا فى الاسر او قتلوا .

وانتشر فى اوربا كلها خبر الانتصار الباهر الذى حققه الملك الشاب وهزيمة القيصر الروسى «الهمجى» . وسك السويدون مدالية بمناسبة النصر ، على احد جانبيها صورة بطرس والمدافع الروسية وكتابة تقول : «انتهى بطرس» . وعلى الجانب الثانى بطرس وجنوده يفرون من نارفا . القيصر حاسر الرأس ، سيفه على الارض ، وهو يبكى بمرارة ويمسح دموعه بمنديل . وكتابة تقول بمزيد من التهكم : «اطلق ساقيه للريح منتحبا» .

وسرعان ما وصلت من المبعوثين الروس فى البلاطات الاوربية رسائل مستعجلة تتحدث عن الاستهانة والسخرية من جانب الحكام والوجهاء هناك فيما يخص الجيش الروسى والقيصر نفسه . وكتب ماتيفيف ، مثلا ، من لاهاي يقول :

— السفير السويدى يفرط فى الشتائم ويتجول بين الوزارات

ولا يكتفى بمسبة قوائكم بل يتعرض لشخصكم بفاحش الكلام زاعما بانكم ارتعبتن من مجيء مليكه وتركتم القوات وارتحلتم الى موسكو قبل يومين من وصول السويديين الى نارفا واندلاع القتال .

ووصلت الافواج الروسية بصعوبة الى نوفغورود تخرجرا اقدامها جائعة ممزقة بالاسمال . وبدلا من ان يطاردها كارل الثاني عشر وينقل العمليات الحربية الى اراضى روسيا ويرغمها على توقيع صلح مربح بالنسبة له ، وجه قواته وجهة اخرى — نحو الجنوب ضد بولونيا واغسطس الثانى الذى يكرهه جدا لانه هو المبادر الى تشكيل حلف الشمال . هكذا يتصور هو على الاقل . وكان يحتقر بطرس ويستصغر شأنه بعد النصر السهل فى نارفا . وتصور ملك السويد نفسه ، على ظهر الحصان الابيض ، بانه الاسكندر المقدونى الجديد . ولم يخف مشاعره ازاء ملك بولونيا فقال : — سلوكه شائن معيب يستحق عقاب الله والاحتقار من جانب جميع ذوى العقل السليم .

واخذ ملك السويد ، كما يقول كلوتشفسكى ، يساعد بطرس على قدر الامكان بملاحقة اغسطس الثانى . فاستفاد القيصر بالكامل من فترة الهدوء التى وفرها له بذلك كارل الثانى عشر . وقد فهم فى الحال اصل وجوه ما حدث فى معركة نارفا . وفيما بعد جاء فى «تاريخ الحرب السويدية» بمتهى الصواب :

— ... انتصر السويديون على قواتنا . لا جدال فى ذلك . ولكن تجدر الاشارة الى نوعية القوات التى انتصروا عليها . كان بينها فوج قديم واحد فقط هو فوج ليفورتوفسكى (الذى اطلق عليه اسم فوج شيبيليف قبيل ذلك) . اما فوجا الحرس فقد

شاركاً في حملتي آزوف فقط ولم يشاركاً في المعارك الميدانية ،
اى لم يقاتلا ضد القوات النظامية ابدا . اما سائر الافواج ، ما
عدا بعض المتقدمين ، فهي مجندة حديثا سواء ضباطها
وجنودها . . . ثم ان المجاعة الكبيرة حلت لامتد طويل ، لان
الاحوال الشديدة حالت دون ايصال المؤن . باختصار ، كل
ما حدث كان كلعبة الاطفال ، وفن القتال اوطأ من المطلوب .
فلا غرابة اذا حقق جيش قديم مدرب جيدا ومجرب كثيرا
على عساكر غير متفنتة في القتال . . . ولكن عندما وقعت تلك
المصيبة (ورب ضارة نافعة) طردت العبودية الكسل والتهاون وعودتنا
على حب العمل وفن القتال ليل نهار .

هذا هو رأى القيصر الصريح في كارثة معركة نارفا .
وبالمناسبة فان نطاق الكارثة مبالغ فيه كثيرا من قبل بطرس
نفسه ومعاصريه من الروس والاجانب ، وكذلك من قبل المؤرخين
المحدثين . الا انها اثارت دهشة الجميع لدرجة جعلتهم في
كل مكان في اوربا ، يسخرون من روسيا ومن بطرس . وبعد عام
او عامين بدأ الروس بضرب السويديين وخسر العدو في المعارك
آلاف القتلى ، خسر احيانا أكثر مما خسره الروس في واقعة
نارفا ، لكن احدا لم يبد اهتماما كبيرا بذلك . فقد ظلت
هزيمة «الموسكوبيين» في معركة نارفا امدا طويلا ، حوالى عشر
سنوات ، تشير دهشة واعجاب اوربا وخصوصا الحاقدين على
روسيا وبطرس .

فقد قالوا وكتبوا عن القيصر الروسى في اعقاب الهزيمة ولامد
طويل بعدها انه جبن وفر من ساحة المعركة قبل اندلاعها .
ولا يمكن الموافقة على هذا الرأى . فقد اوردنا اعلاه ملاحظات
واسباب رحيله من نارفا . زد على ذلك ان القيصر قبل معركة

نارفا ، اثناء حملتي آزوف مثلا ، وبعدها ، في معركة بولتافا
برا وفي معركة هانكو بحرا وفي العديد من المعارك الاخرى
ابدى بسالة منقطعة النظير وتعرض لخطر جسيمة شأن الجندي
الحقيقي . ولا احد ينكر عليه ذلك . لكنه عندما يتطلب الموقف
يعهد بقيادة الجيش والعمليات الحربية الى جنرالاته ويمارس
اعمالا اخرى ، وما اكثر تلك الاعمال في الشؤون العسكرية
وغيرها . ومع ان كلوتشفسكى لا يفوت فرصة ليغمز بالقيصر
فانه يقدره حق قدره ويقول : «كلف بطرس جنرالاته واميرالاته
بإدارة العمليات في الجبهة واخذ على عاتقه الجانب التقني من
الحرب ، اى الجانب الاقل وضوحا . كان عادة يبقى خلف
جيشه ، ينظم مؤخرته ويعبئ المجندين ويضع خطط العمليات
الحربية ويبني السفن والمصانع الحربية ويهيئ العدة والعتاد
والمؤن ، ويختزن كل الاحتياطات ويستحث الجميع ويقرعهم
ويشتمهم ويتشاجر معهم ويعدم بعضهم ويتنقل بين ارجاء
الدولة ، فكان بمثابة آمر المدفعية العام ومدير المؤونة العام
وكبير بناء السفن» .

وكان من نقاط الضعف بالنسبة لبطرس في حرب الشمال
حلفاؤه الخائرون الذين لا يكونون له الود ولا تروق لهم اعماله .
وكانوا في الواقع يسرون بالامور الى احباط مخططات بطرس
العسكرية ، مع ان اغسطس الثانى كان يعيد ويكرر ، بمناسبة
وغير مناسبة ، مودته له . وكان ذلك هو السبب في خيانة ديكروا
وعشرات من الضباط الاجانب الاخرين في موقعة نارفا وانهاء
حصار ريغا ومفاوضات السكسونيين الانفرادية مع السويديين وغير
ذلك من الدسائس . كان القيصر يرتاب في بعض الامور ، لكنه
لا يعرف الحقيقة كاملة (فهو لا يعرف ، مثلا ، بالرسائل السرية

التي بعثها ديكروا الى الملك اغسطس الثانى ، ولا يعرف بنوايا الملك نفسه ومستشاره المغامر باتكول) ، ولذا ظل يثق بالحليف المزعوم . وعندما اضطر بغثة الى مواجهة جيش نظامى حسن التدريب ، بدلا من حامية القلعة وحدها ، كانت النتائج مؤسفة جدا بالنسبة له ومفرحة بالنسبة للسويديين . فليس من قبيل الصدفة ان انتشى ملكهم وتصور نفسه اعظم من الاسكندر المقدونى . وليس من قبيل الصدفة انه نقد القائد العام الروسى الذى انتقل الى معسكره مجللا بالعار ١٥٠٠٠ روبل واجلسه لتناول الطعام على مائدة الملك .

ويتصور بعض المؤرخين المعاصرين بحق ان جيش بطرس الجديد لم يهزم فى واقعة نارفا لسبب بسيط هو ان هذا الجيش لم يكتمل بعد بشكل حقيقى وان سلك الضباط الذى تشكل على عجل مكون من مرتزقة مأجورين من حثالات الجيوش الاوربية . وكانت ثقة بطرس بهؤلاء الاشخاص الذين اتضح جبنهم وخيانتهم فى المواقف العصبية خطأ فاحشا من جانبه بالطبع .

لقد غدت الهزيمة فى نارفا امتحانا قاسيا . فكان يجب تصحيح الاخطاء على جناح السرعة . وعمل القيصر بحزم وسرعة وبلا رحمة . وانتقلت عدوى نشاطه الى الاخريسن ، فتحرك الجميع . ومن حسن الحظ ان الملك السويدى المغرور قد وفر له الوقت الذى هو بأمس الحاجة اليه لحل المهمات الصغيرة والكبيرة التى لا نهاية لها .

وتلقى الامير ريبين امرا صارما من القيصر باعادة الامور الى نصابها فى الفيالق التى تضررت فى معركة نارفا . ونفذ ريبين الامر . فان ٢٣ الف جندي تحولوا الى جيش متمكن

من القتال . وبأمر من القيصر ايضا جرى تعزيز نوفغورود وبسكوف وديريتشيرسكى (على الحدود مع استلانديا ، شمال غربى بسكوف) وتحويلها الى قلاع . فان بطرس يخشى هجوما من السويديين (وبالمناسبة فقد اتضح عاجلا ان تلك المخاوف لا موجب لها) . واشرف بطرس بنفسه على انشاء الاستحكامات فى نوفغورود وبسكوف . وبالإضافة الى الجنود والخيالة اشرك بطرس فى هذا العمل حتى الرهبان والقساوسة «كل مراتب سدنة الكنائس من رجال ونساء» ، وقد الغيت الصلوات فى كنائس الابريشيات خلال تلك الفترة .

واعلن عن تجنيد وجبة جديدة فى موسكو . وجرى تجنيد الجميع ، حتى الاقنان . وعجل بطرس فى بناء المصانع فى الاورال ، اذ كان لا بد من صنع المدافع بسرعة . واذيع على الملأ المرسوم الشهير الخاص بصهر نواقيس الكنائس وصنع المدافع منها . وصار هذا النشاط المحموم يعود بشمار سريعة . فقد ازداد عدد الافواج وتزودت باكثر من ٣٠٠ مدفع . وفى اواخر كانون الثانى (يناير) ١٧٠١ ، بعد عام ونيف من هزيمة نارفا ، كتب بليز سفير الامبراطورية فى موسكو الى عاهله بان الجيش الروسى صار اقوى من السابق ثلاث مرات .

ونجد بطرس فى كل مكان ، يتنقل من عربة الى اخرى ، وينام ويتناول الطعام وهو فى الطريق ، ويرهب قواه وقوى البلد كله ، ويؤمن مستلزمات النصر المنشود . ويراه المـرء تارة فى موسكو وفورونيچ وتارة فى نوفغورود وبسكوف وتارة فى ارخانجلسك ويرجى العائدة الى بولونيا .

ولم يكن كارل الثانى يرى شيئا من ذلك او انه لا يريد ان يراه . فقد اسكره الانتصار فى نارفا والانتصارات الاخرى

اثناء غزواته لساحل البلطيق الجنوبي ، ففارقه نهائيا التقييم الواقعي للموقف . وهو يرى ان الجيش الروسى لا يستحق اهتمام قائد عظيم مثله :

— لا اجد لذة فى محاربة الروس ، لانهم يفرون ولا يقاومون كالآخرين .

لكن الآخرين لا يشاطرونه رأيه هذا . فحتى الجنرال ستينوك ، وهو من اقرب معاونيه ، يقول عن سيده بقلق :
— الملك لا يفكر بشيء غير الحرب . ولم يعد ينصت الى نصائح الغير ، ويتظاهر بان الخالق يلهمه رأسا بما ينبغى عليه ان يفعله .

كان الكثيرون فى اوربا ينظرون الى الاحداث المرتبطة بالحرب بين روسيا والسويد بمنظار كارل الثانى . ويبدل حكام بريطانيا وهولندة وفرنسا قصارى جهدهم لكسب ود الملك والتحالف معه ويعبرون عن اعجابهم بانتصاراته وبيالغون فى تقدير مواهبه الحربية . وتتعالى فى جوقة المديح اصوات القائدين العظميين الانجليزى اللوق مالبرو والنمساوى اوجين حاكم سافوى . وصاروا يتذكرون غوستاف-ادولف والد جد الملك السويدى ، القائد المظفر الحاقد على روسيا .

كان المشرفون على الدبلوماسية السويدية ، والاوربية عموما ، يعتقدون ان روسيا المغلوبة يجب ان تركع امام الملك الغالب . وكتب ماتفييف الى بطرس من هولندة : «ان الاسياد هنا ينتظرون الصلح لان افضل قواتكم قد دحرت . . . وليس بالامكان تدريب الجيش اللازم فى القريب العاجل» . وكان بطرس يعرف بعض خصائص هذه الدبلوماسية . ف«البعثة الكبرى» فتحت عينيه على امور كثيرة عندما كان لا يزال دبلوماسيا غريبا سريع التصديق .

وقد كسب الخبرة فى تسيير الدبلوماسية التى تميزت بالحسابات المصلحية السافرة والغدر والدسائس وما الى ذلك . واستوعب بطرس بعض تلك الطرائق بوصفه نفعيا ، لكنه ظل احيانا على نفس الثقة الساذجة ، حيث التزم باسسط قواعد اللياقة وبالمبادئ الحقوقية التى اخل بها الآخرون . فعندما اندلعت الحرب ضد السويد سمح بطرس لممثليها الدبلوماسيين بالعودة الى وطنهم . بينما تصرف كارل الثانى عشر على نحو آخر ، فبأمر منه سجن السفير الروسى خيلكوف والعاملون معه ، وكذلك جميع التجار الروس . وبدأت ابرز الدول الاوربية — بريطانيا وهولندة والنمسا وفرنسا الحرب من اجل التركة الاسبانية . ففى الاول من تشرين الثانى (نوفمبر) ١٧٠٠ توفى كارل الثانى ملك اسبانيا ، وبموجب وصيته عين فيليب الخامس دوق انجوى وحفيد لويس الرابع عشر حاكما جديدا لاسبانيا . وكان لويس الرابع عشر يميل الى اعتبار اسبانيا وممتلكاتها الشاسعة جزءا من مملكته :

— لم تعد البرنيه موجودة بعد الآن .

كانت هذه الكلمات التى تناقلتها الاسطورة تجسد السياسة التوسعية «للملك-الشمس» واستمرارها فى مطلع القرن الجديد . وقد قوبلت طبعاً بالرفض من جانب الجيران والحلفاء . ففى ٧ ايلول (سبتمبر) ١٧٠١ ظهر الحلف الكبير المكون من النمسا وبريطانيا وهولندة . وفى ايار (مايو) وايلول (سبتمبر) من العام التالى اعلنت هذه الدول الثلاث الحرب على فرنسا .

وفى هذا الموقف المعقد حاول بطرس ودبلوماسيوه ان يجسوا النبض ويتأكدوا من امكانية التصالح بين روسيا والسويد ليينوا بالدرجة الاولى لاوربا ان بطرس لا يعتبر نفسه مغلوبا . وقام غوليتسين فى فينا بمحاولة من هذا النوع الا ان اللقاء مع

الامبراطور ليوبولد الاول والمفاوضات مع رئيس الوزراء كاوينتس لم تعط اية نتيجة . فالدبلوماسيون الاوروبيون لا يعيرون اهتماما لبطرس وروسيا ، ويحتقرون الدبلوماسيين الروس ويسخرون منهم في السر والعلانية . وكتب غوليتسين عن ذلك الى بطرس يقول :

— الوزير الاول كاوينتس الذي يتوقف عليه كل شيء لا يريد ان يتكلم معي . ولا يمكن التعويل على الآخرين ، فهم يسخرون منا .

وتشكى غوليتسين الى مدير العلاقات الخارجية غولوفين من عدم وجود الاموال للرشوة (اموال الخزينة في روسيا لا تكاد تكفي للتحضير للحرب ، او على الاصح للاستمرار فيها) : — انت تعرف الناس هنا . زوجات الوزراء ، وليس الوزراء انفسهم ، يأخذون الهدايا دون حياء . الجميع هنا يهدون مختلف الحاجيات ، ما عداى انا ، فليس عندي غير الخطب الموسكوية .

رفض كاوينتس طلب الوساطة . واستفسر المستشار من السفير غوليتسين :

— ما هي شروط الصلح التي تريدها روسيا ؟

— روسيا تريد الحصول على جزء من ليفونيا على امتداد نهر ناروفا مع مدن نارفا وايفانغراد وريفيل وكوبوريس وديربت ، وحرية التجارة في بحر البلطيق من خلال هذه المدن . — يستحيل ان يوافق ملك السويد على ذلك .

وعندما نقلت تلك الشروط الى كارل الثاني عشر رفضها بالطبع رفضا باتا . وفي العام ذاته ، ١٧٠١ ، اتسمت الاتصالات الدبلوماسية مع النمسا والدانمرك بالانتعاش ، لكنها

ظلت عقيمة . فالبلات النمساوى تارة ينشغل بزفاف تظاهرى لولى العهد من اميرة روسية وتارة يخوض فى مباحثات عن تربية الامير الكسى ، ابن بطرس ، فى فينا ، وتارة يوقع المبعوث الدانمركى هينس اتفاقية سرية بشأن ارسال خمسة افواج من الدانمرك لمساعدة روسيا ، وهى الاتفاقية التى ظلت حبرا على ورق ، لان الدانمرك فى الواقع دخلت الحرب الاسبانية ووجهت نصف جيشها ضد فرنسا .

وفى هذه الظروف اخذ بطرس يتودد الى اغسطس من جديد رغم معرفته بنوايا هذا المستجدى الذى هو بحاجة الى دعم من بطرس ليصبح ملكا وراثيا لبولونيا حتى يصفى الديمقراطية فيها على الطريقة الارستقراطية . الا ان الكثيرين من البولونيين كانوا يتجاهلونه ولا يعتبرونه ملكا عليهم . ولم يوافق كارل الثانى عشر على المفاوضات السلمية . فهو يكره اغسطس الثانى . اما بطرس فهو بالعكس يتشبث ، بعد واقعة نارفا ، بحليفه غير المأمون ، ويستفيد هذا الاخير من هذه الحالة .

وفى شباط (فبراير) ١٧٠١ التقى بطرس واغسطس الثانى فى موضع بيرجى فى كورليانديا . وكما كان الحال فى رافا الروسية فى حينه اخذا يلهوان ويتسليان ، وفى الفترات بين الولايم يتباحثان . ذات مرة ، بعد سكر شديد غط الملك فى نوم عميق وفوت صلاة الظهر . اما بطرس فقد نهض مبكرا كعادته . ولما كان الصديق والحليف لا يزال نائما مضى القيصر على عجل الى الكنيسة الكاثوليكية واطلع باهتمام على الطقوس الكاثوليكية . وبعد المفاوضات اكد بطرس واغسطس التزاماتهما القديمة ووقعا معاهدة جديدة . والتزم الطرفان بمواصلة الحرب ضد السويد وعدم توقيع صلح انفرادى معها . بلغ القيصر مراده ، لكنه

اضطر الى دفع الثمن ، حيث خصص لدعم اغسطس الثانى
فيلق مشاة من ١٥ — ٢٠ الفا وسدد طوال عامين معونة سنوية
قدرها ١٠٠ الف روبل . ووافق على انضمام ليفلانديا واستلانديا
الى بولونيا . وبغية استمالة بولونيا الى الحرب وعد بتخصيص
٢٠ الف روبل لاعضاء مجلس الشيوخ فيها . وتلك شروط
ليست سهلة ، وخصوصا المالية منها . فان موجودات خزينة
موسكو والقروض من الاديرة والاثرىاء ما كادت تكفى لتسديد
المبلغ الاول الى اغسطس الثانى .

وقابل بطرس فى بيرجى مجموعة من الاقطاعيين البولونيين .
وردا على اقتراحاته بشأن مشاركة الدولة البولونية فى الحرب مقابل
ليفلانديا طالب اولئك بكيف واراخى روسية اخرى . ولم يتم
اتفاق بهذا الشأن طبعاً . الا ان القيصر اعرب للوجهاء
البولونيين مع ذلك عن مشاعر الود :

— ليس صحيحا التفكير بانى اردت ان اساعد الملك ضد
حرية بولونيا ، فانا ، كجار ، لست بحاجة الى ذلك مطلقاً .
ولو كنت انوى شيئاً ضد بولونيا لانتهزت فرصة ازدواجية السلطة
العاصفة ، ولكننى حتى فى مثل هذه الحالة احتفظت بالصدقة ،
وساحاول مضاعفتها فى المستقبل .

واستقبل بطرس مبعوث فرنسا فى بولونيا ايرون الذى استفسر
عما اذا كانت روسيا تستطيع ان تقدم الى لويس الرابع عشر
مساعدة عسكرية فى الحرب الاسبانية . وردا على ذلك سمع
كلاماً عن الرغبة فى العلاقات الودية بين روسيا وفرنسا وتطوير
التجارة بينهما .

وعندما عاد بطرس الى الوطن واصل استعداداته النشيطة
للاستمرار فى العمليات الحربية . وفى نيسان (ابريل) ١٧٠١

ارسل فيلقا من ٢٠ ألف شخص بقيادة ريبنين الى ضواحي ريغا ليلتقى بالجيش السكسونى . وشعر قائد هذا الجيش الفيلدمارشال شتيناو بالارتياح واستخدم الجنود الروس فى تشييد التحصينات .

وكان كارل الثانى عشر آنذاك ينتظر وصول الامدادات فى ضواحي ديربت . وظل هناك ستة اشهر . ثم زحف على ريغا باقصى السرعة ، كعادته ، ودحر السكسونيين بشكل شنيع . ولم يشارك الروس فى القتال وسرعان ما عادوا الى بسكوف . وانسحبت الافواج السكسونية المدحورة . وانتشى «السويدي» لدرجة اكبر بعد هذا الانتصار على محاررين مجريين ماهرين ، كما بدا السكسونيون فى انظار اوروبا ، ولذا عزم على الزحف على روسيا . الا ان «الجنرالات . . . اقنعوا ملكهم بالعدول عن ذلك» كما يقول شاهد عيان هو شليسينباخ احد ابرز القادة العسكريين السويديين . وانطلق هؤلاء الجنرالات والملك نفسه من ضرورة دحر السكسونيين حتى النهاية باعتبارهم اقوى من الروس ، ومن ثم الشروع بمقاتلة هؤلاء الاخيرين . واخذ كارل الثانى عشر يحوم حول الحدود الروسية الغربية ، فى بولونيا هذه المرة ، لاسيما وان اغسطس الثانى الذى يبغضه وقع هناك ، فى بيرجى ، اتفاقية جديدة مع روسيا . وقال المؤرخ الروسى ، الشهير س . سولوفييف بدقة : «كان اغسطس حليفا ثمينا بالنسبة لبطرس ليس بقوة السلاح بل لانه جعل الملك السويدى يبغضه ويرتاب فيه لاقصى حد . لقد شاغل هذا العدو الرهيب فى ذاك الزمان وألهاه عن الحدود الروسية ووفر الفرصة للقيصر كى يعزز قواته ويدربها على قهر السويديين» .

وتورط كارل الثانى عشر فى بولونيا ، فلم يتمكن من القتال

.على جبهتين . وظل بطرس يعزز جيشه ويعبئ كل موارد البلاد .
القيصر روسيا بحاجة الى النصر ، وان كان ضيلا في البداية ،
لترتفع معنويات الروس ، والجيش خصوصا ، ولكي تغير اوريا
رأيها في «الهمج» الشرقيين .

سارت عمليات السويديين في بولونيا بنجاح كبير . وليس في
بولونيا وحدها . فقد حاولوا ان يهاجموا ارخانجلسك بحرا ليحرقوا
الميناء الوحيد الذى يربط روسيا باوريا . وتم صد هجوم السفن
السويدية وتكبدت خسائر غير قليلة . واسرع بطرس الى هناك
ليتخذ اجراءات عاجلة ويقوى تلك المدينة التى تتسم بأهمية
بالغة للدولة .

وكان القيصر فى الوقت ذاته يتردد على فورونيج كثيرا . فهنا
تبني سفن جديدة وترمم السفن القديمة التى تتلف بسرعة فى
المياه العذبة . ويتابع القيصر كل شىء بعين ساهرة . فالاسطول
ضرورى لمقاومة العثمانيين ، لان المعروف عن السلطان العثمانى
ان موقفه من المعاهدات السلمية نفى جدا ، ويمكن ان
يتخلى عنها فى الحال ويشن الحرب . وكان بطرس قلقا بسبب
ذلك . فنقل ابراكسين ، وهو من اقرب انصاره ، من ارخانجلسك
الى آزوف واخذ يبعث اليه التوجيهات بلا انقطاع :
— خذ حذرك فى آزوف واكثر من ذلك فى تاغانروغ وعزز
دفاع المنطقة .

— خذ حذرك من الجانب العثمانى .

وارسل بطرس ممثله بيوتر تولستوى الى الاستانة . صحيح ان
هذا الرجل كان مرتبطا بآل ميلوسلافسكى وصوفيا اثناء احداث
١٦٨٢ . لكن بطرس يقدر رفيع التقدير فطنته ودهاءه وشطارته .
وقال له القيصر ذات مرة ، فى لحظة من التصارع وطيبة النفس :

«يا هذا الرأس كانت رقبتك ستقطع لو لم تكن ذكيا الى هذا الحد» . ويذل هذا الرجل جهده بالخدمة الصادقة ليحظى بثقة القيصر . وقد وفق في ذلك الآن وسيوفق فيما بعد . فقد قضى في بلاط السلطان العثماني سنين طويلة ولعب دورا هاما في صيانة الهدنة التي وقعها اوكرانتسيف مع العثمانيين في عام ١٧٠٠ . وفهم بسرعة ان الدور الحاسم في ذلك تلعبه قدرة روسيا المتزايدة في البحر الاسود :

— أكثر ما يخشونه يا صاحب الجلالة هو اسطولك البحري . ومن حسن الحظ ان قلق بطرس ومخاوفه لم تكن مبررة ، فاخبر بذلك ابراكسين في آزوف قائلا بارتياح :

— لا نتوقع حربا مع الاتراك لان السلطان اكد على الصلح برغبة .

وبالمناسبة كان مزاج السلطان يتبدل بسرعة كبيرة . وتحلى بيوتر تولستوى بالصبر والشطارة ليحمله على العدول عن العمليات الحاسمة ضد روسيا . وفي تلك الاثناء كان القيصر يتابع الاسطول في فورونيج وآزوف .

وغدا الحصول على النقود شغلا شاغلا لبطرس ومشكلة مؤلمة ممضة . ذات مرة اخذ يفكر في ذلك طويلا ، ليوم كامل تقريبا ، دون ان يجد مخرجا . ودخل عليه الامير رومودانوفسكى او بروزوفسكى (اختلف الرواة بهذا الخصوص) فبادره القيصر قائلا :

— الخزينة خاوية ، وليس عندنا ما ندفعه للقوات . وليست عندنا مدفعية ، في حين سنحتاج اليها قريبا . فما العمل ؟ هل نأخذ ذهباً وفضة من كنوز الاديرة ونسك منها النقود ؟

— تلك قضية حساسة . يجب ان نفكر في مخرج آخر .

— ما هو ؟

اقتاد الرجل القيصر الى مستودع سرى فى الكريملين .
وكانت هناك اكدااس من الالجمة والآنية المفضضة والمذهبة
والنقود الفضية من فئات قليلة والقطع النقدية الهولندية .

وحكى الامير للقيصر المندھش الرواية التالية :

— عندما كان والدك ، القيصر الكسى ميخائيلوفيتش يتوجه
فى حملات فى اوقات مختلفة ، كان يسلمنى ، بسبب ثقته
بى ، النقود والكنوز النافلة لكى احتفظ بها . وفى ايامه الاخيرة
استدعانى واوصانى بالا اقدمها لاحد من ورثته الا اذا كانت
هناك حاجة ماسة الى النقود اثناء الحرب .

يصعب الجزم بان هذا هو ما حدث بالفعل وبهذه الصورة
فى مستودع الكريملين السرى فى ذلك اليوم ، كما يصعب الجزم
بان هذا الحديث جرى عموما . وعلى اية حال فان «الحاجة
الماسة» الى النقود كانت موجودة بالفعل . وان دار سك النقود
فى السنوات الاولى من الحرب زادت من انتاجيتها وقللت من
وزن القطع النقدية الفضية : فقبل الحرب كانوا يسكون منها
٢٠٠ — ٥٠٠ الف روبل فى العام ، بينما سکوا منها حوالى
مليونين فى ١٧٠٠ وأكثر من ٤,٥ ملايين روبل فى عام ١٧٠٢ .
وبهذه العملية المشبوهة (وربما استخدموا فيها كنوز المستودع
السرى الانف الذكى) تمكنوا من رتق خروق الميزانية ، ولكن لامتد
قصير . فقد اتخذت اجراءات اخرى لهذا الغرض . فان
الموظفين «المريحين» ابتكروا ضرائب جديدة . فاستحقوا غضب
الناس . وانفقت اموال طائلة على الجيش وعلى استخدام الضباط
الاجانب وعلى بناء اسطول البلطيق الذى سرعان ما بدأ آنذاك .
وبعد فترة وجيزة نسبيا من الهزيمة فى موقعة نارفا امر بطرس
جنرالاته بتنشيط العمليات الحربية . وفى ٥ كانون الاول (ديسمبر)

١٧٠٠ ، اى بعد اسبوعين ونيف ، اصدر امرا الى شيريميتيف
الذى كان حذرا جدا :

— تقدم الى ابعد للاحاق المزيد من الخسائر بالعدو . ولا
عذر لك . لا سيما وان عدد الرجال كبير . ثم ان الانهار
والمستنقعات تجمدت ولن يستولى عليها العدو . ولذا اكتب
اليك الان عن ذلك كيلا تتحجج رافضا .

وعندما دخل الجنود الروس فى اشتباك مع السويديين اخذوا
يتخلصون بالتدريج من التردد والرجل . وكان شيريميتيف المتباطئ
الذى يحسب لكل شىء حسابه قد توجه الى المعركة ولديه من
الجنود ضعف او ثلاثة امثال .

وكانت الانتصارات الاولى قد قوت المعنويات ، كما حدث ،
مثلا ، فى معركة ارخانجلسك صيف ١٧٠١ ، عندما داهمت
تحصيناتها سبع سفن سويدية تحمل العلم الانجليزى والهولندى
(للتعويه) . لكنها منيت بالهزيمة وفقدت سفينتين . وفى اواخر كانون
الاول (ديسمبر) من العام نفسه شن شيريميتيف على رأس فيلق من
١٧ الفا هجوما على فيلق من ٧ آلاف شخص بقيادة شليبينباخ قرب
قرية ايرستفير بضواحي ديربت (فى ليفونيا) . وفقد السويديون
ثلاثة آلاف شخص ، واسر الروس ٣٥٠ شخصا . واحتفلت
موسكو بالنصر باطلاق الالعاب النارية . ووزعت المكافآت على
كل المشاركين فى المعركة حتى الجنود . ومنح شيريميتيف رتبة
الفيلدمارشال-جنرال ووسام اندرى بيرفوفانى . واعلن بطرس
مبتهجا :

— ها نحن قادرون اخيرا على ضرب السويديين .
وبعد ستة أشهر ونيف احرز الروس انتصارا جديدا . ففى
١٨ تموز (يوليو) ١٧٠٢ دحر شيريميتيف من جديد شليبينباخ ،

فى معركة غوميلسغوف هذه المرة . وفقد هذا الاخير خمسة آلاف قتيل و ٣٠٠ أسير وكل مدفعيته . ويمكن مقارنة ذلك تماما بما حدث فى موقعة نارفا قبل عام ونصف .

واعتبارا من خريف العام نفسه اخذ بطرس شخصا يقود العمليات الحربية فى منطقة اينغريا (ايجورا) . واخذ الروس بالتدريب يطهرون الاراضى الواقعة على نهر نيفا من السويديين . ومن اواخر ايلول (سبتمبر) بدأ قصف نوتيبورغ القلعة المنيعة عند مصب نهر نيفا من بحيرة لادوجسكويه . وهى مطوقة بأسوار سميكة وعالية ، وفيها مدافع كثيرة . ووجه بطرس اليها ١٤ فوجا ظلت تقصفها طوال اسبوعين .

ولم تتحمل زوجات الضباط السويديين ، فارسلت زوجة القومندان طبالا الى معسكر الروس يحمل التماسا من النساء الى شيريميتيف :

— نتوسل الى السيد الفيلدمارشال ان يسمح للنساء بمغادرة القلعة لانهن قلقات جدا من النار والدخان ومن سوء الحال . ورد عليهن كابتن المدفعية بطرس ميخائيلوف ، اى القيصر نفسه ، مازحا :

— لا اتجرأ على ايصال هذا الطلب لانى متأكد من ان السيد الفيلدمارشال لن يسمح لهن بان يكتسبن لفراق ازواجهن ، واذا اردن مغادرة القلعة فليأخذن معهن ازواجهن . لم يوافقوا فى نوتيبورغ على هذا النوع من الدعوات المهذبة للاستسلام . واضطر الروس الى اتخاذ اجراءات أكثر حزما . ففي ١١ تشرين الاول (اكتوبر) بدأ الهجوم الذى استمر ١٢ ساعة ، وتم تحرير المدينة الروسية العريقة اوريشيك (نوتيبورغ) . وأشاد احد شهود العيان من الاجانب ببسالة الجنود الروس قائلا :

— انه لمدھش حقا كيف استطاع الروس ان يرتقوا مثل هذه القلعة ويستولوا عليها بواسطة سلاالم الحصار وحدها .

وقال بطرس بهذا الخصوص :

— الحقيقة كانت هذه الجزيرة متينة لكننا حطمنها والحمد لله ، وادت مدفعيتنا واجبها بأروع شكل .

واستبدل بطرس اسم قلعة نوتيبورغ فجعله شليسيلبورغ (المدينة-المفتاح) ، وكانت بالفعل تشغل موقعا حساسا بأهمية المفتاح . واستفاد القيصر من موقعها هذا . ففي آذار (مارس) من العام التالى وصل الى هنا ليتحرك من شليسيلبورغ بواسطة نهر نيفا الى مصبه فى البحر . وتوجد هنا قلعة اخرى ذات موقع حساس هي نينشانس .

وحان وقت بدء الحصار . وما كادوا يبدأونه حتى استسلمت الحامية .

وبعد اسبوع ، فى ٧ آيار (مايو) تحقق اول نصر مائى : لم يكن انتصارا كبيرا لكن بطرس فرح له اعظم الفرح . حقا ، فان مهاجمة سفيتين بحريتين بالقوارب وكسب المعركة بهذا الهجوم الجرىء الذى يتميز بشيء من المغامرة من حيث بسالته تبعث على الفرح بالطبع . وتشكل السفيتان جزءا من عمارة نوميرس التى كانت تمخر مياه الخليج الفنلندى . وفى ٥ آيار دخلت مصب نيفا ، ولم يكن السويدون قد عرفوا بعد باستسلام قلعة نينشانس . وانهز بطرس الفرصة بالكامل . وكتب بنفسه واصفا المعركة :

— وصلت الى المصب عمارة العدو بقيادة الفريق البحرى السيد نوميرس . وعندما علم سيدنا المارشال بذلك ارسلنا فى ثلاثين قاربا . وفى ٧ آيار وصلنا الى المصب وتفحصنا العدو بوضوح

وفي قتال مدبر استولينا على فرقاطتين ، احدهما ، «غيدان» ،
بعشرة مدافع ، والاخرى ، «آستريل» ، بثمانية مدافع ، واربعة
عشرة كوة . ولما كان الخصوم قد تأخروا في اعلان الاستسلام
كان من الصعب تهدئة الجنود الذين اقتحموا السفينتين وكادوا
يقتلون الجميع ، ولم يبق على قيد الحياة سوى ١٣ شخصا .
واشتركت في هذا الحادث ثمانية قوارب فقط .

كان لا بد لهذا النصر اليسير على السفن البحرية بواسطة
القوارب والبنادق والقنابل اليدوية من ان يرفع المعنويات .
«نصر منقطع النظير» — هذا ما كان يكرره بطرس فرحا بمناسبة
هذه «القضية» في مصب نهر نيفا . كيف لا يفرح وهو الذي
اعد العملية ونفذها بنفسه . ترك مجموعة من القوارب في المجرى
الاسفل للنهر لتحول دون انسحاب الفرقاطتين السويديتين الى
البحر وهجم عليهما بمجموعة اخرى من القوارب من الجهة
المقابلة ، حتى ضيق الخناق على العدو من الجانبين . وقاد
بطرس نفسه ومينشيكوف عمليات كلتا المجموعتين . واشاد
كبار القادة بشجاعتهما وحسن قيادتهما . وكتب القيصر-الكابتن
عن ذلك في احدى رسائله باعتزاز :

— ومع اننا لا نستحق الثناء الا ان السيد الفيلدمارشال
والسيد الاميرال قلدانى انا والسيد الملازم (مينشيكوف) وسام
القديس اندرى .

بهذه الصورة تسلم القيصر وسام اندرى بيرلوفزفانى الذى
استحدثه هو نفسه قبل قليل . وبمناسبة النصر امر باعداد ميدالية
كتب عليها «المستحيل يتحقق» .

وكان بطرس الذى شارك شخصيا في حصار نوتيبورغ والقتال
في مصب نيفا وتعرض لآخطار كثيرة راضيا عن نتائج العمليات

الحرية في ١٧٠١ — ١٧٠٣ . فقد سيطر الروس المنتصرون على كل الاراضى المحيطة بنهر نيفا من روافده حتى مصبه . ويعود فضل كبير فى ذلك للقيصر ، مع انه لا يبرز دوره ولا يضعه فى مرتبة الصدارة ، بل على العكس يخفيه ويقلل من شأنه ويقول «نحن» ، و«قواتنا» وما الى ذلك عندما يتحدث عن النصر . فالنصر ، فى رأيه ، نتيجة لتضافر جهود افراد الجيش من الجنود حتى الفيلدمارشال .

وقد ادرك بطرس الاهمية البالغة لاستعادة الاراضى التى دحر فيها الكسندر نيفسكى الغزاة السويديين فى حينه (معركة نيفا عام ١٢٤٠ فى اطار اراضى نوفغورود العريقة) ، حتى انه ارصى فى تلك الايام ، فى ١٦ آيار (مايو) ١٧٠٣ ، اساس قلعة سان بطرسبورغ على جزيرة لوست ايلاند (جزيرة المرج) فى مصب نيفا . وغدت تلك القلعة فيما بعد العاصمة الجديدة لروسيا . كانت لتلك القلعة الخشبية التى بناها الجنود ستة حصون وجنبها شيدوا منزلا صغيرا من جذوع الاشجار لبطرس ، لا يزال قائما حتى الان وتوهمه جموع السياح .

وعين بطرس رفيقه المحبوب مينشيكوف متصرفا فى القلعة الجديدة . وسرعان ما تلقى القيصر منه التقرير التالى :

— ادارة المدينة على ما يرام . وصل اليها عاملون كثيرون من المدن الاخرى ولا يزال عددهم فى ازدياد . سنعجل ، باذن الله ، فى انجاز المهمة (بناء بطرسبورغ فى اغلب الظن — ملاحظة المؤلف) . ومما يؤسف له ان الشمس هنا عالية جدا .

ويبدو ان المتصرف الجديد لم يكن قد رأى الليالى البيضاء مطلقا . وفيما بعد عرف مع رفاقه ما هو اسوأ من ذلك . فالامير ريبين الذى رابطت افواجه على ضفة النهر تشكى ابتداء

من شهر آب :

— يا صاحب الجلالة ، الطقس سيئ جدا من جهة البحر ، فهو يدفع المياه الى المكان الذى ترابط فيه افواجى حتى تبلغ المخيم . وامس فى منتصف الليل تبلل الكثيرون من طباحى فوج بريوبراجينسكى مع ادواتهم . ويقول الاهالى ان هذه المنطقة تغمر بالمياه دوما فى مثل هذه الاوقات .

وفيما بعد رأى بطرس من منزله مرارا مثل هذه المشاهد — فيضان النهر والقوارب «تمخر» الشوارع والناس على سطوح المنازل وعلى الاشجار . لكنه لم يأسف ، بل على العكس يشعر بالفرح لانه يعيش فى هذه «الفردوس» التى كتب عنها الى بعضهم دون اثر للشك او الفكاهة :

— نعيش هنا فى جنة حقيقية .

— لا يسعى الا ان اكتب لك من الفردوس هنا .

«الفردوس» التى وقع بطرس فى هواها يجب ان تغدو ، فى رأيه ، بوابة للبليطيق واوربا . وستصل اليها البضائع اللازمة من جميع الارحاء . لكن مؤسس بطرسبورغ لم يخصص لها دور الميناء التجارى فقط ، كما ان التاريخ نفسه لم يخصص لها هذا الدور وحده . بعد عام نعت القيصر فى رسالة الى مينشيكوف القلعة الجديدة والميناء «بالعاصمة» . وامر فى عام ١٧٠٤ بارساء اساس قلعة بحرية لحمايتها من جهة البحر . وبنيت لهذا الغرض قلعة كرونشولوت (كرونشتادت حاليا) على جزيرة كوتلين على بعد ٣٠ كيلومترا ونيف غربى بطرسبورغ . واخذ القيصر يتردد على هذه الجزيرة ويتابع انشاء التحصينات . وقال بارتياح هذه المرة ايضا :

— كرونشتادت حاليا فى وضع يجعل العدو يتهيب من

الاقتراب منها من جهة البحر . والا سندمر سفنه شذر مذر .
وسننام في بطرسبورغ مطمئنين .
وصار بناء الاسطول في البلطيق ولجل البلطيق شغله الشاغل ،
فهو واثق من استحالة حماية ما تحقق الا بهذا الاسطول :
— الحاكم الذى يمتلك قوات برية فقط له يد واحدة ،
اما الذى يمتلك اسطولا كذلك فله يدان .

وباشراف القيصر بدأ في حوض اولونيتس لبناء السفن في
١٧٠٣ انشاء ٤٣ سفينة . وابحر القيصر باعتزاز على سفينة
«شتاندارت» («الراية») ، باكورة اسطول البلطيق الروسى ، الى
بطرسبورغ عاصمته الثانية التى كانت ستغدو في القريب العاجل
العاصمة الاولى . وهنا ، في مصب نيفا ، ارسى اساسا لحوض
بناء السفن ، هو حوض «الادميرالية» الذى لعب فيما بعد دورا
كبيرا للغاية في تطوير الاسطول الروسى . وبدأت اعمال هذا
الحوض في عام ١٧٠٥ ، وفي نيسان (ابريل) من العام التالى
انزلت الى الماء هناك السفينة الاولى .

وعلى ضفاف نيفا بدأ تحويل روسيا الى دولة بحرية حقيقية .
فهنا بالذات فتح بطرس «نافذة اوربا» التى كتب عنها الشاعر
بوشكين بعد أكثر من مائة عام . كان بطرس يبنى للحاضر
وللمستقبل . وتحفظ الكتب برواية عن جوزات البلوط التى غرسها
في بطرسبورغ . فقد ابتسم احد الوجهاء بسخرية آنذاك ، فاشتاط
القيصر غضبا :

— مفهوم . تتصور ان العمر لن يطول بى حتى ارى اشجار
البلوط الياسقة . هذا صحيح . لكنك احمق . اننى اقدم
مثالا للآخرين كى يفعلوا الشيء ذاته حتى يبنى احفادنا بمر
الزمن سفنا من تلك الاشجار . اننى لا اعمل من اجل نفسى ،

بل لمنفعة الدولة في المستقبل .
ولعل بطرس كان افضل من الجميع في التطلع الى المستقبل :
— اذا اطال الله في عمري ومنحني الصحة والعافية فستكون
بطرسبورغ امستردام الثانية .

تلك هي امنية القيصر-الشغل . كان يفرح لادنى
نجاح في المراحل الاولى . وكان معاونوه يشاطرونه مشاعره .
فعندما وصلت الى مصب نيفا في خريف ١٧٠٣ سفينة اجنبية
محملة بالملح والنيذ اجزل متصرف بطرسبورغ مينشيكوف العطاء
لكل ملاحها .

وبلغت مسامع ملك السويد انتصارات بطرس في اينغريا
وتحرير وتأسيس المدن ، فلم يحزن الملك اطلاقا :
— فليواصل القيصر العمل في انشاء المدن الجديدة ،
اما نحن فلا نريد سوى الاحتفاظ بشرف احتلالها فيما بعد .
لكن بطرس كان يحرز انتصارات جديدة . وهو واثق من
نفسه ومن جنوده ومن روسيا . واثق الى ذلك روجيه بورتال ،
وهو من افضل الاختصاصيين المعاصرين بالشؤون الروسية في اوروبا :
«لا يسع المرء الا ان يعجب بتحمل بطرس ومثابرته عندما تشبث
بهذه الاماكن البائسة العليقة التي فصلها عن الغرب آنذاك
الاحتلال السويدي لبولونيا ، فقرر بطرس ، بسبب خوفه على
مصير جيوشه ، ان ينشئ فيها عاصمته . ليست الامثلة كثيرة
على هذا النوع من الثقة بالمستقبل» .

وحاول السويديون زحزحة الروس من شواطئ نيفا وسواحل
الخليج الفنلندي . وتوجهت فصيلة الجنرال كرونغويرت الى
بطرسبورغ واقتربت منها . وتحرك بطرس لمواجهةها ، نحو نهر
سيسترا ، على رأس اربعة افواج ، ففر العدو من ساحة المعركة

تحت ضربات تلك الافواج .

وفي عام ١٧٠٤ شن الفيلدمارشال شيريميتيف حملتين موفقتين على استلانديا وليفلانديا . وشنت افواجه هجوما استولت فيه على مدينتين روسيتين عريقتين هما كوبوريه ويام . وحاصرت قواته مدينة اخرى اسسها الروس القدامى ايضا هي مدينة يوريف التي كانت تسمى في تلك الحقبة «ديربت» . لكن الحصار طال واخفق . واسرع بطرس نحو ديربت من ضواحي نارفا حيث كان قد شارك في حصار المدينة . ووصل بطرس في ٣ تموز (يوليو) وتفقد القلعة من بعيد ولم يكن راضيا من الموقف . فان شيريميتيف يستعد لمهاجمتها من جانب اسوارها المنيعه العاليه ، دون ان يلاحظ ان الهجوم افضل اذا جرى من جانب الاسوار البالية الضعيفة التحصين .

وبأمر من بطرس فتحت المدفعية مساء ١٢ تموز ثلاث ثغرات في هذه الاسوار واقتحمها المشاة الروس من تلك الثغرات . واندفعوا الى التحصين الاضافي واستولوا على خمسة مدافع وجهوها الى داخل القلعة وقصفوها . ولم يلاحظوا في صخب المعركة ان الطباله السويديين يحاولون ان يوصلوا بقرع الطبول اقتراحا بالمفاوضات . فقد قتل اربعة منهم الواحد تلو الآخر . واخيرا تمكن نافخ الصور من اعطاء الاشارة فبدأت المفاوضات . كان القتال قد استغرق ليلة كاملة تقريبا .

واثناء المفاوضات طلب قومندان ديربت السويدي السماح بخروج حاميته كلها ، بجنودها وضباطها وعوائلهم ، من المدينة ، وتزويدهم بمؤونة تكفي لشهر . ولامه بطرس قائلا بان «هذه الطلبات» جاءت متأخرة ، وكان يجب ان تقدم في وقت سابق ، قبل ان يقتحم جنوده بوابة القلعة . الا ان بطرس ، خلافا

لكارل الثانى عشر ، ابدى شهامة واشاد ببسالة المدافعين عن القلعة وامر بمنح كل الذين يتركون المدينة احتياطيا من المأكولات يكفى لشهر وكذلك عربات لنقل الحاجيات . وترك للضباط سيوفهم ، وللعنود ثلث اسلحتهم .

فقد السويدون فى ديربى حوالى الفى جندى ، بينما فقد الروس ٧٠٠ شخص . وبمناسبة تحرير هذه المدينة التى اسسها الامير ياروسلاف الحكيم فى عام ١٠٣٠ اطلقت نيران المدافع والبنادق ثلاث مرات . واستقل بطرس يختا الى نارفا من خلال بحيرة تشودسكويه واخذ معه الاعلام والرايات السويدية التى استولى عليها الروس فى ديربى .

واستمر حصار نارفا بعد ان بدأ فى اواخر ايار (مايو) . وجلبوا الى هنا من بطرسبورغ وديربى مدافع لم تكن موجودة حتى ذلك الحين تحت تصرف القوات التى تحاصر القلعة . كان القومندان هورن هو آمر حامية القلعة فى عام ١٧٠٠ المنحوس بالنسبة للجيش الروسى وبطرس . ولذا فعندما تلقى الان ، بعد اربع سنوات ، اقتراحا بالاستسلام رفضه بغطرسة وازدراء ولسان حاله يقول : فليتذكر بطرس ما حدث هنا قبل اربعة اعوام . ولم يتهيب القيصر ، بل امر بان يقرأوا على جنوده رسالة هورن التى تضمنت رفض الاستسلام .

كان بطرس فى حزيران (يونيو) ، قبل تحرير ديربى ، قد لقن هذا السويدى المتغطر درساً لا ينسى . فان عدة افواج من الجنود الروس المرتدين بزات سويدية زرقاء اقتربت من نارفا حاملة الرايات السويدية البيضاء والصفراء من الجهة التى كان المحاصرون ينتظرون منها وصول شليبينباخ مع النجدة . وعند اسوار القلعة بدأ هؤلاء «السويدون» (بقيادة بطرس نفسه) «معركة»

ضد الروس . وراح هورن يتابع الاحداث بمنظار من فوق سور القلعة . وعندما كان «القتال» ، باعتقاده ، فى اوجه ارسل فصيلة من القلعة الى مؤخرة الافواج الروسية . وغادر القلعة معها من البوابة كثير من المدنيين على امل الاثراء والكسب . فقد كانوا يتذكرون جيدا ، على ما يبدو ، كيف نهب جنود كارل الثانى عشر الروس فى تشرين الثانى (نوفمبر) عام ١٧٠٠ . وهاجم الروس الفصيلة التى غادرت القلعة وكبدوها خسائر جسيمة . وعمت الافراح معسكر الروس بسبب اخفاق هذه العملية السويدية وابتهج بطرس ايضا : — سيتذكر السادة السويديون المعقرون ذلك امدا طويلا . وجاء فى رسالة الى كيكيين بخصوص هذه الحادثة ببلاغة اكبر :

— لا يسعنى الا ان اكتب عما حدث قبل قليل ، حيث خدع الحمقى الاذكياء . وعندما افكر فى ذلك اتحير فى شيئين اولهما كيف هدانى الله الى ذلك وثانيهما كيف حالت جبال الغطرس والكبرياء (بعد الانتصار فى عام ١٧٠٠ — ملاحظة المؤلف) دون السويديين ودون رؤية هذه الحيلة . لم يستغرق الهجوم على نارفا فى ٩ آب (اغسطس) سوى ٤٥ دقيقة . ولم يكن عبثا ان تلى جواب هورن على الجنود ، بامر من بطرس ، فقد انزعج الجنود من غطرسة السويديين واقتحموا القلعة بسرعة . ولم يرحموا احدا فى معمعان القتال ، واضطر بطرس مرارا ان يشهر سيفه ليحول دون التكنيل بلا موجب . واخيرا عاد هورن الى رشده وانتشل طبلا واخذ يطرق عليه بقبضتيه معلنا عن الاستسلام . واشتاط بطرس غضبا وشهر سيفه الملطخ بالدماء ولوح به فى وجه القومندان :

— انظر ، هذه دماء الروس وليس السويديين . طعنت جنودى لوقوف الهياج الذى دفعهم اليه عنادك . وتلقى هورن من القيصر صفعه شديدة .

كان تحرير نارفا ، مدينة روغوديف الروسية العريقة ، بمثابة الثأر للهزيمة فى بداية الحرب ، وبمثابة الحد الفاصل فى مرحلتها الاولى . فقد استعاد بطرس وروسيا قواهما بسرعة بعد الاخفاق الاول . وبفضل الجهود النشيطة احزرا عدة انتصارات ورسخا اقدامهما على ساحل البلطيق . وكان بالامكان التقاط النفس والركون الى الراحة . الا اننا نرى بطرس الهمام الذى لا يعرف الكلال مسرعا من نارفا الى ديربت وهو يطلع مرافقيه من الجنرالات والوزراء على التحصينات ويحدثهم عن سير الهجوم . ومن هناك توجه الى حوض بناء السفن فى اولونيتس عبر بسكوف ونوفغورود . وتأكد من سير الامور فى بناء السفن ، ثم ارتحل الى بطرسبورغ ليتأكد من انشاء المبانى فى «الفردوس» ثم عاد الى نارفا حيث استقبل السفير العثمانى قبيل عودته الى بلاده ، وكان هذا الاخير يريد رؤية القلاع المنيعه التى يقتحمها الروس ويستولون عليها . وفى الطريق الى موسكو تفقد بطرس فى منطقة فيشنى فولوتشوك ملتقى نهري «تفيرتسا» و«مستوى» وحدد مكان شق «قناة فيشنى فولوتشوك» .

وفى ١٤ كانون الاول (ديسمبر) ١٧٠٤ دخل المنتصرون موسكو باحتفال مهيب . فى الامام سار الاسرى السويديون وفى مقدمتهم الميجر جنرال هورن مع ١٥٩ ضابطا ، وبعدهم سحب ٨٠ مدفعا سويديا . وكانت الانتصارات. والمستحدثات — صدور جريدة «الوقائع» وتأسيس المسرح اللذين مجدا انتصارات السلاح الروسى — تبعث الفرح فى نفس بطرس وتجعل المراقبين الاجانب

يتأملون ويطلبون التفكير . وكتب السفير البريطاني ويتورث الى لندن يقول : «حقق بطرس بعبريته شخصيا ، وبدون مساعدة من الآخرين تقريبا ، في الفترة حتى عام ١٧٠٥ نجاحات فاقت كل التصورات ، وقريبا سيرتقى بدولته طبعا الى ذروة من الجبروت تهدد جيرانها» . وكان السفير يتحلى دون ريب بنظرة ثابتة ، فقد اثبت المستقبل القريب مدى صحة توقعاته .

من موقعة نارفا الى النصر فى معركة بولتافا

لم يترك تحرير نارفا وكذلك انتصارات الروس الاخرى فى البلطيق انطبعا ككبرا فى اوربا الغربية . ومن الغريب ان اوربا نفسها صفقت للملك السويدى كارل الثانى عشر وهلت لجيشه قبل اربعة اعوام من ذلك ، عندما منيت العساكر الروسية بالهزيمة عند اسوار نارفا . اما الان فهى تواجه الاحداث بصمت فيه الكثير من الاستهانة او بمخاوف فيها نفس القدر من الصمت . الا ان بعض الاوروبيين ، من الدبلوماسيين فى المقام الاول ، اخذوا ، بدافع من واجب الخدمة على الاكثر ، يعترفون بنجاحات روسيا وقيصرها . وكتب كلوتشيفسكى يقول : «لكن الجانب الروسى ايضا لم يتخلص بعد من رجفة نارفا فى عام ١٧٠٠» . فبعد موقعة نارفا ، على حد تعبيره ، «بدأ استنزاف متبادل متقطع استمر سبعة اعوام» : كان كارل الثانى عشر يلاحق اغسطس الثانى فى بولونيا ويساعد بالتالى بطرس الذى استفاد من «هذه الاستراحة» فدير امور جيشه المشوشة ، و«هياه لعمليات كبرى بالمشاركة فى مناوشات وغزوات وحصارات وهجمات طفيفة على القلاع الحدودية الضعيفة . ولم يبخلوا بالضحايا ولم يعبأوا باحوال الشعب . وجازفوا ولعبوا بآخر الاموال ، ووعدوا حليفهم بمعونة مالية دون ان يعرفوا من اين يدفعونها له» .

كان ذلك هو واقع الحال بالاساس ، مع ان كلوتشفسكى يستصغر ، كما هو واضح ، اهمية الانتصارات الحربية التي احرزتها القوات الروسية بعد هزيمة نارفا . والحقيقة فان هذه الانتصارات جعلت الروس يثقون بقواهم وبامكانياتهم في سوح القتال ، بل واسفرت عن تحرير عدد من المناطق من الاحتلال السويدي على الساحلين الشرقي والجنوبي للخليج الفنلندي ، ونشطت تنظيم امور الجيش وتغيير جهاز الدولة وبناء الاسطول في البلطيق . وباختصار فقد ارسيت بداية العمل الذي كان سيؤدى في المستقبل ، وهو مستقبل قريب نسبيا ، الى نجاحات كبيرة — عسكرية وسياسية واقتصادية .

وبعد هزيمة نارفا بذل بطرس ودبلوماسيوه محاولات لجعل الدول الغربية تتوسط في عقد الصلح مع السويد . الا ان تلك الدول وجدت في تلك المحاولات دليلا على ضعف روسيا ، ولم يكن هذا الرأى بعيدا عن الحقيقة . اما الان ، بعد الانتصارات التي تحققت ، ومنها الانتصار في نارفا ، طرح الروس هذه المسألة من جديد . وبذل ماتفييف بخاصة جهودا كبيرة في هذا المجال ، وكان آنذاك ممثلا دائما لروسيا في لاهاي قام برحلات الى لندن ايضا لهذا الغرض . الا ان البلدان الاوربية كانت في شغل شاغل . فهي تحارب من اجل التركة الاسبانية . اضيف الى ذلك عوامل اخرى مثل الاستهانة بروسيا «الهمجية» الضعيفة من جهة ، ومن جهة اخرى الخوف منها ومن قوتها المتزايدة ومن انتصارات الجيوش الروسية . وكانت تلك الاستهانة وذلك الخوف متشابكين متجاورين . وقد لاحظ ماتفييف امارات الخوف بادية فكتب الى بطرس يقول :

— لا امل في توسط هولندة وملكة بريطانيا لانهاء الحرب .

فهما نفسيهما تخافان منكم . فكيف تبدلان جهدا لصالحنا ومن اجل الصلح النافع وتفتحان بنفسيهما باب بحر البلطيق امامكم وهما تلتزمان الحذر بعين ساهرة وترتجفان من قوتكم العظيمة لا اقل من قوة الفرنسيين ؟ وقد علمت علم اليقين ان بريطانيا وهولندة ارسلتا توجيهات سرية الى مبعوثيهما فى بولونيا لتحقيق التصالح بين السويد وبولونيا وحدها بدونكم .

وبذلت بريطانيا وهولندة ، وحليفتهما النمسا ، وكذلك عدوتيهما المشتركة فرنسا فى الحرب من اجل التركة الاسبانية قصارى الجهود لاستمالة السويد وجيشها الى جانبها والحيولة دون تعزز روسيا التى يجب ، فى رأى هذه الدول ، الهاؤها بالقتال ضد الاستانة والقرم واضعافها واعتراض طريقها الى بحر البلطيق . ولذا لم تجد طلبات روسيا للتوسط فى عقد الصلح مع السويد اذنا صاغية فى لاهاي ولندن وفيينا . اما ملك السويد الذى يعتبر رسميا حليفا لبريطانيا وهولندة من جهة ، ولفرنسا من جهة اخرى ، فقد طلب معونة مالية من الجهتين ، وكان يتلقى تلك المعونة . ولم يتمكن ماتفييف فى لاهاي ولندن ، ولا الامير غوليبتسين فى فيينا من ان يفعل شيئا .

ونجح ب . تولستوى السفير الروسى فى الاستانة فى الحيولة دون استئناف الحرب من جانب الامبراطورية العثمانية ضد روسيا . فقد تمكن من رشوة الوجهاء من اعوان السلطان وفضح دسائس الوزراء والسفراء الغربيين . وفى بولونيا ، فى ظل الفوضى السياسية الاقطاعية وانعدام القيادة الموحدة حقق السفير الروسى الامير دولغوروكى نجاحات معينة . وواجه بطرس مشاكل كثيرة مريرة سببها له «صديقه وحليفه» اغسطس الثانى حاكم سكسونيا وملك بولونيا . وهو رجل غير امين ، وضعيف كشخصية سياسية وعسكرية .

وقد نعته المعاصرون «بالقوى» ، لكن قوته ليست في سوح القتال (كانت جيوشه تمنى بالهزائم دوما) بل في السكر والمجون والتحكم في افئدة الغواني . وكان «حليف» بطرس هذا قد حاول من وراء ظهره ان يتفاوض مع ملك السويد بشأن توقيع الصلح . وتوسطت في ذلك النمسا وفرنسا (اللذان لهما طلب الوساطة) وكذلك معشوقات اغسطس . لكن كارل الثانى عشر رفض الصلح رفضا قاطعا ، مع ان مجلس الدولة فى استوكهولم توسل اليه : — انطلاقا من مشاعر الولاء الخالص والعطف على الشعب البائس نتوسل الى جلالته ان تتخلصوا على الاقل من احد الخصمين ، والافضل ان تتخلصوا من خصومة ملك بولونيا . وكان ملك السويد فى شغل شاغل عن توسلات اعوانه وعن يؤس الشعب . فقد كان يستولى على المدن والاراضى البولونية وينوى اخضاع بولونيا كلها . الا ان الفوضى المتفشية هناك تعرقل ذلك رغم وجود انصار له بين كبار اصحاب السلطة المحلية ، مثل كبير الكرادلة رادزيفسكى وبعض النبلاء والاقطاعيين (الكونت سايبغا وغيره) . وبمساعدهتهم «جهز» كارل الثانى عشر (على حد تعبيره) ملكا جديدا للبولونيين بدلا من اغسطس الثانى . فان مجلس السيم الذى دعا الكردنال لعقده فى وارشو اطاح بالملك السكسونى ونصب ستانيسلاف ليشينسكى ملكا للبلاد ، وهو شاب لا يتمتع بنفوذ . وعارضت صنيعة السويديين كتلة اخرى من الملاك اعرب ممثلوها فى السيم فى ساندومير عن تأييدهم لاغسطس . فان الاحتلال السويدى وتعسف الغزاة جعلوا الكثيرين من البولونيين يمعنون التفكير فى الموقف . وبالنتيجة صار للبلد ملكان واسفرت الحزازات الضارية عن نفشى الاضطراب والفوضى الاقطاعية للدرجة لم يسبقها مثيل .

وكان بطرس وغولوفين رئيس مديرية العلاقات الخارجية يتابعان الاحداث فى بولونيا باهتمام . فان فقدان الحليف الوحيد شىء غير محمود اطلاقا . وراح دولغوروكى يهدئهما قائلا : — لا تفكرا كثيرا فى الارب الذى نصب ملكا جديدا فى وارشو (المقصود ليشينسكى — المؤلف) . فقد اختير الشخص الاسهل بالنسبة لنا . فهو شاب لا يتمتع بالشهرة والمال فى بولونيا ، وحتى اقرب المقرين اليه لا يقيمون له وزنا . كان بطرس يطبق سياسة حذرة بالنسبة لبولونيا . وخففت روسيا مطالبها فيما يخص حماية الارثوذكس فى الاراضى البولونية (حيث ارغموا على اعتناق الكاثوليكية) وساعدت على اخماد الانتفاضة التى قادها سيميون بالى فى مناطق اوكرانيا الواقعة على ضفة الدنيبر اليمنى ضد جور الاقطاعيين البولونيين . وكانت لهذا النهج سلياته بالطبع ، الا انه عاد بشمار معينة ، ففى اواخر صيف ١٧٠٤ ، فى اعقاب تحرير نارفا وقعت روسيا على مقربة من هذه القلعة معاهدة تحالف مع بولونيا ، حيث التزمت كلتا الدولتان بخوض الحرب ضد السويد وعدم توقيع صلح انفرادى معها . وفى مقابل ذلك وعدت روسيا بتسليم ليفلانديا الى بولونيا وارسال قوات روسية من ١٢ الف شخص لنجدها . كما قدمت روسيا معونة مالية سنوية بمبلغ ٢٠٠ الف روبل للاتفاق على الجيش البولونى المكون من ٤٨ الف شخص . وتخلى الجانب البولونى عن المطالبة باعادة النظر فى «الصلح الابدى» لعام ١٦٨٦ ، وعلى وجه التحديد تخلص عن المطالبة بكيف وبعض المناطق الاخرى .

تعتبر المعاهدة مع بولونيا (قبل ذلك وقعت معاهدات مع اغسطس الثانى فقط بوصفه حاكما لسكسونيا) وثيقة هامة

فى السىاسة الخارجىة ونجاحا لدبلماسىة بطرس الاكبر . والاهم ان قوات كارل الثانى عشر ظلت كالسابق تقاثل فى بولونيا وقد تورط الملك السويدى هناك لامد طويل . أما الجيوش الروسىة فقد كانت آنذاك تقاثل بنجاح فى اماكن اخرى وتكسب الاراضى فى اينغريا واستلانديا وليفلانديا وتستعد للمعارك المرتقبة مع «المتهور الاسكندينافى» نفسه . وارسل بطرس الى بولونيا مساعدات حربىة ، أكثر من ١٠ افواج روسىة . وفى صيف ١٧٠٤ دخل اغسطس الثانى مدينة وارشو بمساعدة تلك الافواج . ولكن كارل سرعان ما اقترب من المدينة ، فانسحب اغسطس دون ان يشتبك معه فى قتال . وتكبدت جيوشه خسائر جديدة متلاحقة تحت ضربات السويديين .

وكان بطرس يتابع على الدوام ما يجرى فى الاستانة ويهتم ببناء سفن جديدة فى فورونيج . فالاسطول الجنوبى كان لا يزال يؤمن الاستقرار فى حوض البحر الاسود . ورغم الاخفاق فى تنظيم وساطة الصلح ظلت روسيا كالسابق تشتى من اوربا الغربىة السلاح والذخيرة ، وتستأجر الاخصائيين . وكانت تصريحاتها بشأن الرغبة فى توقيع الصلح مع السويد (بشرط ان تحتفظ روسيا ببعض الاراضى التى كسبتها فى الخليج الفنلندى ، مثل بطرسبورغ وضواحيها على الاقل) قد خففت من حدة العداء للروس فى سياسة بعض القوى المتنفذة . واستفاد بطرس وحكومته بمهارة من التناقضات بين البلدان الاوربية ومن الملايسات الملائمة المرتبطة بالحرب من اجل التركة الاسبانية .

كان الموقف فى اوربا آنذاك معقدا ومشوشا لدرجة كبيرة . فى ايطاليا واسبانيا وهولندة وغرب المانيا تجرى عمليات حربىة بين فرنسا من جهة والنمسا وهولندة وبريطانيا من جهة اخرى .

وفى شرق البلطيق وبولونيا تقاتل الجيوش الروسية والبولونية والسكسونية ضد القوات السويدية . وكانت كل البلدان المتحاربة وحليفاتها تتوخى اهدافا معينة . وقد انتشرت آنذاك فى غرب اوروبا مقالة هزلية تصور وضع تلك البلدان بشكل مجازى فى شخوص لاعبي القمار (انجليزى وعثمانى وغيرهما) وكل منهم يقول :

— عندى ورفات رابحة (بريطانيا) .

— هل اربح ام اخسر (فرنسا) ؟

— لعبت حتى خسرت الكثير ، ولا اريد ان اخسر أكثر (الامبراطورية العثمانية) .

— العب واربح على طول ، لكننى لا املك ما اربحه (السويد) .

— يا اخى اغسطس ، العب بجراً ، وسادف بدلا عنك (روسيا) .

كانت اهم قضية بالنسبة لروسيا هى تورط السويديين وملكهم فى بولونيا . وقد استفاد بطرس ، سياسته الحكيمة الحذرة ومساعداته المالية والحربية ، من تلك «المدفوعات» التى تشير اليها المقالة الانفة الذكر . وكان حليفه الوحيد فى تلك السنوات قد ساعده فى الحرب رغم عدم امانته ، وذلك عندما شاغل قسما من القوات السويدية . ورغم الانتصارات السهلة استنزفت قوى جيش كارل فى بولونيا ، وكان يخسر على الدوام من الناحية الاستراتيجية . أما روسيا فقد احرزت انتصارات متلاحقة فى شرق البلطيق ، والاهم هو انها ظلت تكسب مزايا استراتيجية متزايدة مع مر الزمن ، مع ان الانتصارات الحاسمة كانت لا تزال بعيدة .

وبدأ العام الجديد ، عام ١٧٠٥ . امضى بطرس كانون

الثاني (يناير) في موسكو ، وارتحل في شباط (فبراير) الى
فورونيغ حيث امضى شهرين يعمل اسطة في بناء السفن ،
وانزل الى الماء سفينة مسلحة بـ ٨٠ مدفعا . وبأمر منه كان
سيصار الى بناء أكثر من عشرين سفينة حربية اخرى . فيجب
متابعة الاساتنة ، كما كان يتصور ، بعين ساهرة ، كيلا يحدث
ما لا تحمد عقباه . وبعد ذلك تهيأ للرحيل الى بولونيا . فهناك ،
في بولوتسك وفيتيسك ، ترابط عساكر روسية بقيادة ريئين
وشيريميتيف يبلغ تعدادها ٦٠ الف شخص . فقد خصص
بطرس لاغسطس الثاني فيلقا مساعدا بالاضافة الى القوات
السكسونية البالغ تعدادها ٤٠ الفا . اذ عليه ان يدعم كتلة
ساندومير المناهضة للسويد .

وعندما غادر القيصر مدينة فورونيغ تمرض في بداية آيار
(مايو) ومكث في موسكو بسبب مرضه زهاء شهر . وفي مطلع
الصيف وصل الى بولوتسك لكثرة الاشغال والمخططات والمشاكل .
عين بطرس على رأس القوات الروسية المراقبة في بولونيا قائدین
هما الفيلدمارشال الروسى شيريميتيف والفيلدمارشال الالمانى
العجوز اوغيلفى الذى خدم قبل ذلك فى الجيش النمساوى دون
ان يحالفه التوفيق . وكانت لقرار بطرس هذا ، غير الصائب
طبعا ، عواقب غير محمودة . كانت هناك خلافات سافرة
بين اوغيلفى من جهة وشيريميتيف والجنرالات الروس الاخرين
من جهة ثانية . وفيما بعد تباطأ هذا الالمانى فى تنفيذ اوامر
بطرس نفسه ، وكان يتراسل سرا مع اغسطس . . .

وعندما وجه القيصر افواجه الى بولونيا فى خريف ١٧٠٤ كان
مهمنا بجعلها تساعد اغسطس فى «عمليات جزئية» دون ان
تتورط فى معركة شاملة ضد السويديين ، وتتحاشى «الاعباء

الثقيلة» لان الوقت لم يحزن بعد للعمليات الحاسمة ضد كارل .
وواصل بطرس نهجه هذا عندما جاء الى بولوتسك في مطلع
صيف ١٧٠٥ . فقد اجتمع هنا وزراءه وجرالاته وحضر
الفيلدمارشالان اللذان يكرهان بعضهما البعض اشد الكره .
وقرروا في اجتماع عسكري ارسال ١١ فوجا بقيادة شيريميتيف
الى كورلانديا . وسرعان ما وصلت من هناك اخبار غير سارة .
فالجنرال ليفينهوبت دحر الروس في معركة مور-ميز في ١٥
تموز (يوليو) . وقد تألم شيريميتيف اشد الألم لهذه الهزيمة
وهو الذي احرز عدة انتصارات على السويديين . وكتب بطرس في
رسالة الى شيريميتيف عن سبب الهزيمة : «سوء تدريب الخيالة»
الذين راحوا يلاحقون السويديين بتهور وبدون تعقل فوقعوا في
شراكهم . وامر بطرس بان يوضحوا لكل الجنود والفرسان عدم
جدوى مثل هذا التصرف في سوح القتال . وراح يهدئ من روع
الفيلدمارشال شيريميتيف :

— لا تحزن على المصيبة الفاتنة (لان الانتصارات المتواصلة
اهلكت الكثيرين) ، بل انس وحاول ان ترفع المعنويات .
واسرع القيصر بافواجه الجديدة الى كورلانديا وحاول مع
شيريميتيف ان يقطع على ليفينهوبت طريق الانسحاب ويدحره .
لكنه اخفق . فالجنرال ليفينهوبت تمكن من الانسحاب الى
ريغا . الا ان القوات الروسية استولت في ٤ ايلول (سبتمبر) على
ميتافا عاصمة كورلانديا ، ثم استولت على قلعة باوسك . وكسبت
غنائم كثيرة بينها حوالي ٢٠٠ مدفع . وقبل تلك الاحداث
بوقت قصير نجح مينشيكوف في صد هجوم شنته القوات
السويدية على بطرسبورغ .

واقرب الشتاء ، وكان يجب اختيار اماكن دافئة لمراقبة

الجيش وبناء على اقتراح من مينشيكوف اختاروا مدينة غرودنو لهذا الغرض . ورفضوا اقتراح اوغيلفى بشأن موضع ميريتش لمراقبة الجيش فى الشتاء . وانشغل القيصر طول الخريف فى تدبير اقامة الجيش ، وصار يتنقل بين تيكتوين وجرودنو . وكتب فى احدى رسائله متشكياً :

— لم اركب الخيل طول حياتى مثلما فى هذا العام ، ولم اتحمل متاعب بهذا القدر .

ووردت فى ختام رسالة اخرى عبارة ذات دلالة :

— كتبته انا على ظهر الحصان فى الطريق الى تيكتوين . وفى اواخر تشرين الاول (اكتوبر) وصل اغسطس الى غرودنو سرا من سكسونيا عن طريق المعجر باسم مستعار . ورافقه فى رحلته تلك ثلاثة اشخاص فقط . وقلد الكثيرين من الجنرالات الروس وسام النسر الابيض الذى استحدثه توا . وترك بطرس جيشه فى عهدة الملك اغسطس واوغيلفى وارتحل الى موسكو فى كانون الاول (ديسمبر) .

وفى كانون الثانى (يناير) من العام التالى تلقى بطرس نبأ أثار قلقه بشدة . فبعد ان نصب كارل الثانى عشر صنيعته ليشينسكى ملكا فى وارشو زحف فجأة على غرودنو بجيش من ٢٠ ألف رجل . اقترب منها دون ان يتجرأ على اقتحام القلعة التى ترابط فيها عساكر روسية من ٤٠ ألف رجل . وسحب الملك السويدى قواته على مسافة أكثر من ٧٠ كيلومترا عن غرودنو ، لكنه حاصر العدو . وهددت الروس المجاعة والهلاك بسببها . وطلب القيصر سحب قواته من غرودنو :

— يتبغى المراقبة الدقيقة لعمليات العدو كيلا تنقطع قواتنا عن حدودنا . فالانسحاب السليم افضل من الانتظار المجهول .

وفي تلك الاثناء اندلعت انتفاضة شعبية في استراخان (١٧٠٥ — ١٧٠٦) اقلقت القيصر اشد القلق . فارسل الى هناك قوات ترأسها الفيلدمارشال شيريميتيف نفسه . وراح يتابع كل ما يجرى هناك . الا ان الخطر الذي تهدد الجيش في غرودنو جعله يوجه جل اهتمامه اليه وينقل جهوده من الجنوب الشرقى (استراخان) الى الشمال الغربى (غرودنو) . وفي زمهرير الشتاء وصقيعه القظيع اسرع متوجها الى غرودنو لكنه لم يصلها ، فقد سبقه كارل اليها . واقام القيصر في اورشا ثم في دوبوفكا ، وبعث الرسل مرارا الى اوغيلفى يطالبه بسحب الجيش . وكتب يقول :

— ما اشد حزننا لغيابنا عن العساكر (من رسالة الى غولوفين فى موسكو فى ٣١ كانون الثانى — يناير) .
— ما اشد حزننا لعدم تمكننا من الوصول اليكم . الله وحده يعلم بمكنون النفوس (من رسالة الى ريينين فى غرودنو بتاريخ ٦ شباط — فبراير) .

آنذاك ، فى شباط ، تألم القيصر لاندحار القوات السكسونية من جديد . فى معركة فراويرشتادت فر ٣٠ الف جندى من قوات اغسطس حالما ظهر ٨ الاف سويدي بقيادة الجنرال رينشيلد . ولم يبق فى ساحة القتال الا الافواج الروسية من الفيلق المساعد ، حيث ظلت تصد هجمات السويديين اربع ساعات ، لكنها منيت بالهزيمة لعدم تناسب القوى . واجهز السويديون على الجرحى والاسرى الروس دون رحمة . اما قافلة العربات الروسية فقد نهبها الحلفاء السكسونيون أثناء الانسحاب . واشتاط بطرس غضبا بسبب «المعركة الخيانية» لهؤلاء السكسونيين «الطفيليين» الذين «تركوا رجالنا لوحدهم» فى ساحة القتال ، ولم

تكن تخامره اوهام بشأن حليفه :

— هذه الحرب ستقوم على اكتافنا وحدنا .

ومع ذلك هدا بطرس من روع اغسطس «صديقه واخيه وجاره» ونصححه باستبدال المحاربين السكسونيين البلهاء بالمرتزقة الدانمركيين . وادرك بطرس ان الهزيمة فى فراويرشتادت قد عقدت امور الجيش الروسى فى غرودنو . زد على ذلك ان اوغيلفى تجاهل اوامر القيصر ، وهو ينوى ان ينتظر مع جيشه فصل الصيف حيث يترك كارل هذه الاماكن ، كما يتصور ، او يصل اليها اغسطس وعساكره . وبعث القيصر اوامر الى ريبنين متخطيا الفيلدمارشال الاجنبى الذى لا يثق به . واشتبه ريبنين ايضا فى نوايا اوغيلفى فطلب من القيصر اصدار امر سرى فى حالة قيام اوغيلفى باعمال غير مرغوب فيها :

— ماذا يتعين علينا ان نفعل اذا رأينا تصرفا يتعارض مع

مصالح الدولة ؟

كان بطرس لا يزال مضطرا الى استخدام الاجانب وتعيينهم فى مختلف المناصب ، بما فيها مناصب ذات مسؤولية كبيرة . وغالبا ما كان شرهم أكثر من خيرهم . والمثال على ذلك هو باتكول الذى استخدمه بطرس فى السلك الدبلوماسى بتزكية من اغسطس بعد ان حقق عليه هذا الاخير بسبب نزعته المغامرة وتخلص منه بترحيله الى «صديقه واخيه» الروسى . لقد الحق باتكول ضرا كبيرا بالدبلوماسية الروسية وازعج الدبلوماسيين الروس فى فينا ووارشو وغيرهما .

وبخصوص اوغيلفى الذى وثق به القيصر على اية حال ، رغم علمه بانه يعامل الجنرالات والجنود الروس باستهانة وازدراء ، اتخذ بطرس اخيرا اجراء اشد حزما ، حيث ارسل الى غرودنو

صديقه الحميم مينشيكوف مع امر صارم الى جميع الجنرالات :
— فلتكن ثقتكم به كثفتكم بى .

ظل اوغيلفى يعارض انسحاب الجيش معتقدا بان ذلك
يلحق ضررا بكرامة القيصر وامجاده . وكتب اليه يقول :
— من المؤسف ان يضيق صاحب الجلالة امجاد سلاحه
الذى كان يجلبل دوما من قبل بانسحاب مفاجيء مشين ،
وبذلك يجلب على نفسه الهزء والسخرية .

اما مينشيكوف فكان من رأى اخر :

— اتوسل الى جلالتم خصوصا بالا تصدق كثيرا رسائل
الفيلدمارشال فى الحقيقة عداؤه لنا أكثر من وده . وعندما
وصل مينشيكوف الى غرودنو وجد ان الجيش قد غادرها (فى ٢٤
آذار—مارس ١٧٠٦) . فقد نفذ اوغيلفى الامر على مضض
وطبق خطة بطرس الذى كان فى تلك الشهور «يعانى من حزن
جهنمى» على حد تعبيره .

كان اهم ما يريده بطرس هو صيانة الجيش ، لان ضياعه
يضاهى الهزيمة فى حملة هذا العام وفى الحرب كلها . وهذا
بالذات هو سبب العدة والحزم فى التوجيهات التى بعثها الى
غرودنو :

— يجب التحرك من غرودنو بمنتهى السرية والخفاء على
النحو التالى : تعين خفارة قوية جدا حتى لا يتمكن احد من
السكان ان يخرج من المدينة ولو زاحفا ، وفى تلك الاثناء
يجب الاستعداد للخروج باكبر قدر ممكن من السرعة والسرية .
— رغم الحاجة الماسة الى المدفعية لا تبخل بشيء ،
وحافظ على الرجال قدر الامكان (من توجيه الى ريبنين) .
ولم يتمكن كارل الثانى عشر من اللحاق بالجيش الروسى ،

فوصل هذا الاخير من غرودنو الى بريست فى اقل من اسبوعين ، وبعد استراحة ليوم واحد ، تحرك الجيش صوب كييف . وتنفس بطرس الصعداء . فقد تلقى نبأ انسحاب وصيانة الجيش ، وهو فى بطرسبورغ ، «بفرحة تفوق الوصف» على حد تعبيره . واسرع الى كييف حيث بدأ بأمر منه تعزيز قلعة بيتشورا على جناح السرعة . كما جرى تعزيز مدينة سمولينسك وتشيد خط دفاعى على الحدود الغربية . وفى ايلول (سبتمبر) ١٧٠٦ فصل من الخدمة اوغيلفى الذى كان مستمرا فى شكواه من الجنرالات الروس ، بل ومن مينشيكوف نفسه . وتمت تنحيته بتأدب . وكتب شافىروف ، معاون مدير العلاقات الخارجية ، الى مينشيكوف بهذا الخصوص :

— رغم كل التصرفات الشائنة ينبغى اعفاء اوغيلفى من الخدمة برأفة ورقة ، بل وحتى بهدية تقدم اليه كيلا يلزم القيصر وسماحتكم . وهو يحب الهدايا ومستعد ان يبيع دينه من اجلها . وجرت نسوية الخلاف بلياقة ، على غير ما حصل فى تنحية باتكول . كان هذا الاخير دبلوماسيا وجنرالا فى خدمة الروس يقود الفيلق الروسى المساعد الذى الحق بالقوات السكسونية ، وكاد يدفعه الى حافة الموت جوعا ، وتشاجر مع كل الضباط الروس واراد ان يستبدلهم بضباط اجانب (كما اراد قبل ذلك ان يستبدل الدبلوماسيين الروس فى الخارج بالاجانب) . وفى آخر المطاف احوال الافواج الروسية الى خدمة النمسا مؤقتا . ويتوجه من بطرس بدأ يتفاوض مع ملك بروسيا فريدريك الاول بشأن التحالف ضد السويد . ويقال ان الملك وافق على التحالف لكنه طالب بتنحية بعض الوزراء السكسونيين الذين لا يروقون له . اما فى الواقع فان فريدريك الاول كان يحلم بالتحالف مع

السويد ، وان التحالف مع روسيا خطوة احتياطية بالنسبة له .
زد على ذلك انه طرح هذا المطلب الاستفزازي ووقع باتكول
المغامر في شراكه . ولم يغفر له الوجهاء السكسونيون ذلك ،
فخرج به في السجن في كانون الاول (ديسمبر) بقرار من المجلس
السكسوني السري . ومع انه كان ممثلا كامل الصلاحيات لبطرس
في سكسونيا فان المسؤولين فيها كانوا محقين في اعتقادهم بان
القيصر لن يقدم ، من اجل باتكول هذا ، على فسخ التحالف
الذي هو بحاجة اليه . وظلت احتجاجات ومطالب بطرس
بهذا الخصوص دون جواب . واعتذر اغسطس مدعيا الجهل
بما يفعله مستشاروه في درزدن ولاييزيج ، واستحسن في الوقت
ذاته قرار مجلسه السري (ورد هذا الاستحسان في رسائل سرية) .
وتعتبر هذه الحادثة في الواقع احد مظاهر خيانة اغسطس في
التعامل مع حليفه ، وتحوله في السياسة الخارجية صوب السويد والاشاحة
عن روسيا . زد على ذلك ان كارل الثاني عشر اقتحم بجيشه
سكسونيا في آب (أغسطس) ١٧٠٦ واستولى عليها ، وفرت
العائلة المالكة طلبا للنجاة ولم يبد الجيش السكسوني اية مقاومة .
وبعث اغسطس من بولونيا ، دون علم بطرس ، مندوبين
الى الملك السويدي طلبا للصلح . واعرب عن استعدادة لاقتسام
بولونيا مع ليشينسكى . فرفض كارل هذا الاقتراح واملى شروطه .
واستسلم اغسطس ، وقعت في ٢٤ ايلول (سبتمبر) في
التراشادات ، مقر كارل قرب لاييزيج معاهدة صار ليشينسكى
بموجبها الملك الشرعى الوحيد لبولونيا ، وفسخ اغسطس
الاحلاف المناهضة للسويد وسلم الاسرى والنازحين السويديين
وكذلك الفيلق الروسى المساعد وتكفل بنفقات الجيش السويدي
في سكسونيا . وبناء على طلب اغسطس ظل توقيع هذه المعاهدة

الخيانية الشائنة فى طى الكتمان . وقبل اقل من اسبوع من ذلك سلم السكسونيون باتكول الى السويديين ففتن هؤلاء الاخيريون فى اعدامه .

وانهالت التهانى من الدول الغربية على كارل بالنصر الجديد ، وراحت تلك الدول تدفعه الى شن الحرب على روسيا واعلنت عن اعترافها بتنصيب ليشينسكى على عرش بولونيا . اما اغسطس ففى اعقاب توقيع نص معاهدة الترانشتادت فى ٦ تشرين الاول (اكتوبر) التقي ، وكأن شيئا لم يكن ، مع مينشيكوف فى مدينة لوبلين البولونية وطلب منه نقودا . وكتب مينشيكوف الى بطرس يقول :

— صاحب الجلالة يحن كثيرا الى النقود وطلبها منى ، متباكيا ، وادعى بان الاملاق احاق به حتى لم يبق لديه ما يقتات به . ولما رأيت شحته وعوزه اعطيته من نقودى ١٠٠٠٠ تالر .

كان مينشيكوف قد سمع بالمعاهدة السويدية السكسونية التى تجرى الاستعدادات لتوقيعها ، لكنه اعتبر تلك الاخبار كاذبة ، وصدق باغسطس . والاكثر من ذلك انه كان يستعد معه ومع قواته البولونية السكسونية للهجوم على جيش الجنرال السويدى مارديفيلد . وفى ١٨ ايلول (سبتمبر) دحر هذا الجيش بالكامل فى معركة كاليش . وسقط نصف افراده فى ساحة القتال ووقع الجنرال مارديفيلد فى الاسر . وارتعدت فرائص اغسطس الذى اضطر الى المشاركة فى المعركة المظفرة من الثأر الذى كان سيأخذ به كارل ، فراح يتملص ويكذب . وطلب من مينشيكوف ان يسلمه الاسرى السويديين ليبادلهم بالاسرى الروس الموجودين عند الجانب السويدى . ولعب الملك السكسونى

لعبة مزدوجة ، حيث منح الضياع في بولونيا وليتوانيا الى مينشيكوف ، وبأمر منه اقيمت صلاة النصر في وارشو تكريما للانتصار في كاليش ، لكنه في الوقت ذاته يعتذر من كارل ويعده بدفع تعويضات نقدية .

وفي ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) اتضحت الامور اخيرا للسفير الروسى في وارشو . وردا على سؤاله تقدم اغسطس بسلسلة فريدة من التبريرات التى نعتها الباحث المعاصر البروفسور مولتشانوف «بالنكتة البائخة» :

— لا يجوز لى ان اترك سكسونيا تواجه الخراب التام ، ولا ارى وسيلة لتخليصها من ذلك الا بتوقيع الصلح مع السويديين حسب الظاهر والتخلى عن بولونيا حتى يغادر كارل سكسونيا . فبعد مغادرته لها ساستجمع قوى واشن الحرب من جديد بالتعاون مع صاحب الجلالة القيصر . ولن احث بالتحالف مع صاحب الجلالة القيصر ولن اقوم بما يتعارض مع مصالحنا المشتركة . وعرفوا في موسكو ايضا بخيانة اغسطس . وكان من المؤسف طبعا ضياع الحليف الوحيد مع انه غير ذى بال ، الا انهم لم يحزنوا كثيرا بهذا الخصوص .

واضطرت الدبلوماسية الروسية ، والحال هذه ، الى العمل على انفراد بدون حلفاء . وفي تلك الاثناء توفى مدير العلاقات الخارجية غولوفين . حدث ذلك فى صيف ١٧٠٦ بمدينة غلخوف الاوكرانية ، فى الطريق الى كييف التى توجه اليها بامر من بطرس وزيره الاول والاميرال غولوفين ، معاونه الهمام الموهوب ورجل الدولة البارز . وقد اسف القيصر اشد الاسف ، وحزن من صميم القلب بسبب هذه الخسارة القادحة (فى رسالة الى ابراكسين) :

— ما كان بوى ان اكتب اليكم عن ذلك ايدا ، الا ان

مشيئة العلى القدير دفعتنى الى ذلك ، لان يد المنون فى غلوحوف
اختطفت ، هذا الاسبوع ، صديقنا السيد الاميرال . ولذا
تفضلوا بتجميد المديرىات التى كان يديرها (ما عدا مديرية
العلاقات الخارجية) مع اموالها وسائر حاجياتها حتى صدور مرسومنا
الخاص . هذا ما يكتبه اليكم بطرس الحزين .

وعين بطرس فى منصب مدير العلاقات الخارجية السيد
غولوفكين المقرب اليه ، وهو من ابناء اخواله ، حاد الطبع صعب
المعشر ، وثرى للغاية وفى منتهى البخل ، لكنه ملتزم ومنفذ
دقيق . وكان القيصر يقدر رفيع التقدير صفة الالتزام والتنفيذ عند
معاونيه ، الى جانب روح المبادرة والجرأة فى النوايا والافعال .
امضى بطرس نهاية ١٧٠٦ وبداية ١٧٠٧ فى جولكفا على
مقربة من مدينة لفوف فى اوكرانيا الغربية . وكانت قد وصلت
الى هنا القوات الاساسية للجيش الروسى . وبالإضافة الى القيصر
جاء اقرب اعوانه من الوزراء والجنرالات . وعقد بطرس
اجتماعا عسكريا طرح فيه على بساط البحث خطة العمليات
اللاحقة ضد كارل الذى فرغ من القتال على جبهتي—
وصار ، كما هو المتوقع ، ينشط حربه ضد روسيا . ورابط
جيشه فى سكسونيا واخذ قسما من الراحة وتناول ما شاء من
الطعام ونهب الاهالى دون رحمة .

لم يكن كارل وجنده السويديون قلقين بخصوص المستقبل
والحرب ضد روسيا . فهم يرون الامور بمنظار بهيج ويتصورونها
سهلة يسيرة :

— الفئران تعيش طليقة فى غياب القط . وحالما يعود
السويديون يفر الموسكويون هارين كما حصل فى نارفا ويختبئون
فى جحور الفئران .

كان بطرس مهتما دوما بصيانة الجيش كيلا يداهمه العدو على حين غرة ولا يفرض عليه معركة شاملة في ظروف غير ملائمة للروس . وكان يكرر ذلك دوما في مراسيمه ورسائله واوامره . وغدت افكاره تلك اساسا لخطة جولكفا الاستراتيجية التي اقرت في اجتماعات انصاره ومعاونيه . وكانت تلك خطة المعركة الشاملة التي ينبغي الاستعداد لها بدقة وشنها عندما تتوفر فرص اكدية للفوز . وقد عبرت «المجلة او يوميات بطرس الاكبر» عن جوهر هذه الخطة بدقة :

— عقدت في جولكفا جلسة عامة للتشاور : هل نقاتل العدو في بولونيا ام داخل حدودنا ؟ . . . وتقرر عدم القتال في بولونيا ، لا سيما وان الانسحاب سيكون صعبا فيما لو وقعت مصيبة . ولذا اجمعوا على مقاتلة العدو في اراضيها اذا اقتضى الموقف . أما في بولونيا فيجب التضييق على العدو جزءا جزءا في كل المكان وعلى المعابر خصوصا وكذلك بالتجويد مؤونة وعلفا ، وهذا امر يوافق عليه الكثيرون من الوجهاء البولونيين .

ونصت الخطة على ان تعترض طريق زحف السويديين على روسيا من خلال بيلوروسيا او اوكرانيا قلاع محصنة وحواجز دفاعية وغارات من الخيالة الخفيفة ومقاومة من السكان المحليين (اخفاء الاطعمة واتلاف احتياطياتها وهلمجرا) . ويجب ان يتكامل استنزاف العدو واضعافه بمعركة شاملة تشن في اراضي روسيا في الوقت المناسب بعد توفر القوات المسلحة اللازمة . ونوقشت الخطة طويلا واقرت نهائيا في نيسان (ابريل) ١٧٠٧ وبدأ تنفيذها . وعقد في لفوف في الوقت ذاته المجلس الكبير لزعماء كتلة ساندومير من انصار تحالف بولونيا مع روسيا . واجرى بطرس

مفاوضات معهم . واكد المجلس على شروط معاهدة نارفا ١٧٠٤
وقرر ان القيصر الروسى هو ضامن حرية بولونيا . واطاح المجلس
بالملك ليشينسكى ونظر فى المرشحين لاعتلاء العرش البولونى ،
وهم ثلاثة من ابناء يان سويسكى حاكم بولونيا الشهير فى اواخر
القرن السابق : الفيلدمارشال النمساوى اوجين امير سافوى وزعيم
الحركة التحررية فى المجر فيرينتس راكوتسى والحاكم (الجتمان)
البولونى سينيافسكى . وسرت بهذا الخصوص اشاعات حول الامير
الكسى بن بطرس وكذلك مينشيكوف . أما بطرس نفسه فكان
يرى ان من الضرورى اختيار ملك لا تسند عرشه المساعدات
الاجنبية . وصرف النظر عن كل المرشحين لمختلف الاسباب ،
ولم يبق غير اغسطس نفسه الذى لمح الى انه لا يرفض اعتلاء
العرش البولونى من جديد .

كان كارل الثانى عشر ، وهو فى اوج امجاده ، يتلقى من
كل الانحاء آيات التبجيل فى مقره فى التراشتادت التى كادت
تتحول فى تلك السنوات الى العاصمة الدبلوماسية لاروبا . وراحت
بريطانيا وهولندة وفرنسا تتسابق فى دعوته لدخول الحرب الى
جانبها . وكانت النمسا ترتعد خوفا منه لان الجيش السويدى
يرابط فى سكسونيا على مقربة منها ، فى حين تقاتل جيوشها
فى الراين وفى ايطاليا وتحارب ضد راكوتسى فى المجر . وكان
احتمال اقحام السويديين للنمسا يثير فزع بريطانيا وفرج بطرس
و«الملك الشمس» لويس الرابع عشر . واستخدم القيصر الروسى
من جديد المجلس الدبلوماسى فى العواصم الغربية ، فقد طلب
ممثليه ان تتوسط فى توقيع الصلح مع كارل . ورفض الملك
طبعاً ، وظل كالسابق يستخف بهؤلاء الروس الضعفاء ، لكن
ذلك عاد بالنفع عليهم ، فقد جعله لا يفكر فى التحضير

الجدى للحملة على روسيا .
وتقدم بطرس بطلب الى فريدريك الاول ملك بروسيا ،
وارتحل السفير الروسى ماتفييف من هولنده الى بريطانيا ، واجرى
دبلوماسى آخر مفاوضات فى باريس . الا ان ملك بروسيا لاذ
بالصمت ، لان القوات السويدية المرابطة فى سكسونيا يمكن
ان تضرب ممتلكاته ايضا . ورفض المندوب الفرنسى المريكز
دى مورسى حجج زميله الروسى عندما اعرب هذا الاخير عن
دهشته قائلا :

— يدهشنى ان فرنسا تقابل شروط القيصر الروسى ببرود
رغم وجود جيش من ٨٠ الف شخص لديه .
ورد الدبلوماسى الفرنسى قائلا :

— فى هذا الجيش ٨٠ الف جبان يدحرم ٨ الاف
سويدى .

بديهى ان جذور هذا الموقف لا تكمن فقط فى «جبن»
الروس . فان فرنسا ، شأن الدول الاخرى ، تخشى من أن
السويد ستهاجمها وتلتزم جانب اعدائها بعد توقيع الصلح مع
روسيا . وواجه ماتفييف رد فعل مماثلا فى بريطانيا . ففى
المفاوضات مع جون شرشل ، دوق مالبرو ، وعده نيابة عن
القيصر الروسى «بهدايا» ثمينة مغرية : ٢٠٠ الف تالر ولقب
امير روسى وعائدات احدى «الامارات» (كليف او فلاديمير او
سيبيريا) ووسام اندرى بيرفوزفانى وياقوتة ضخمة ، وفى مقابل
ذلك كان على دوق مالبرو ان يسعى الى المساعدة فى توقيع
«الصلح المشرف» بين روسيا والسويد . لكن المهمة فى لندن
اخذت هى الاخرى . فالانجليز ايضا يخشون افعال الملك كارل
المفاجئة .

وقد جاء مالبرو الى كارل فى الترانشتادت واجزل المديح له وفهم بانه لا موجب للخوف من احتمال تأييده لفرنسا ضد النمسا . فعلى طاولة الملك خريطة الدولة الموسكوية . ومع ذلك لمح للملك المتهور بانه اذا هب ضد الحلف الكبير فسيواجه حربا على جبهتين . فان روسيا تطمح الى الانضمام الى هذا الحلف (كان بطرس قد وافق فعلا على الانضمام الى الحلف مقابل التوسط فى توقيع الصلح مع السويد ، حيث يدعمه بـ ١٢ — ١٥ الف جندي فى البداية ، ثم بـ ٣٠ الف بعد توقيع الصلح) . وفى آخر المطاف اعترفت بريطانيا بليشينسكى ملكا لبولونيا وغدت ضامنة لمعاهدة الترانشتادت . وكتب ماتيفيف عن حصيلة مهمته الفاشلة :

— الوزارة هنا اكثر حذقا من الفرنسيين فى دقائق الامور وخوافيها ، ولا نجنى من الكلمات المعسولة العقيمة سوى تضييع الوقت .

وحدث الشئ ذاته فى فينا وروما مع البابا . كان بطرس فى مساومته المفترضة من اجل الصلح مستعدا لاعادة ديربت الى السويديين ، وحتى نارفا «عند الاقتضاء» . لكنه منع الجميع حتى من مجرد التفكير فى تسليم بطرسبورغ ومصب نيفا (منفذ البحر) :

— لا يجوز حتى التفكير فى تسليم هذا . وكان كارل مصرا على رأيه . فقد تلقى السفير الفرنسى فى استوكهولم الجواب التالى باسم الملك عن سؤاله بصدد شروط الصلح المتوقعة مع روسيا :

— لن يتصلح الملك مع روسيا الا بعد ان يصل الى موسكو ويطيح بالقصر من عرشه ويقسم دولته الى امارات صغيرة ويجمع

الاعيان ويوزع عليهم اراضي الدولة ليصبحوا متصرفين فيها .
هذا ما يريده ملك السويد لا اقل ولا اكثر . وكان قد
وزع المناصب مسبقا على جنرالاته في الدولة الموسكوية ، وكان
ينوى تعيين الجنرال شبار متصرفا لعاصمتها . وفي آخر الامر وقع
ملك السويد في الشراك التي حاكها ونشرها بنفسه . وقد سعى
بطرس بافعاله العسكرية والدبلوماسية ليوقعه في تلك الشراك .
واخذ بعض معاصريه يفهمون خطته آنذاك . فالبارون هنري
هويسين الذي كان سفيرا لروسيا في فينا آنذاك ، وقد خدم روسيا
بنزاهة والحق يقال ، كتب الى موسكو في ايلول (سبتمبر) ١٧٠٧ :
— سيتوجه السويديون الى روسيا على مضض ، ويقولون
انهم نسوا القتال كليا بعد الهدوء الطويل الامد والعيش الهانئ
في سكسونيا . ولذا يتوقع البعض ان ينتصر بطرس اذا دخل
في معركة ضد كارل .

وتوصل السفير الفرنسي بازينفال الى استنتاج اوضح :
— ستكون الحملة على روسيا صعبة وخطيرة ، لان السويديين
علموا الموسكويين على فن القتال حتى غدوا خصما رهيبا . زد
على ذلك ان من المستحيل تقويض مثل هذا البلد الشاسع الجبار .
واستعد بطرس للقتال الحاسم . وكان يتابع انشاء التحصينات
في موسكو تحوطا لمجيء كارل وجيشه ، ويراقب تبدل الوزراء
والامزجة في الاستانة حيث يواصل سفيره تولستوى صراعا سريا
مع السفير الفرنسي شارل دى فيريول الذي نعته العثمانيون بـ«نائب
السلطان» . وكان جل اهتمام هذا الاخير منصبا على دفع
الامبراطورية العثمانية للصدام مع روسيا بأسرع ما يمكن ، حتى
تنهى السويد الحرب في الشرق وتبدأ مع فرنسا بالحرب في
الغرب . وبواسطة المال والهدايا تمكن تولستوى من

احباط دسائس «نائب السلطان» . ومع ذلك كانت الميول المعادية لروسيا هي السائدة في اواخر عام ١٧٠٨ . فقد اوعز السلطان بالبدء بالتحضير للحرب . وجرت التحضيرات في الامبراطورية نفسها وفي القرم . فان خان القرم الجديد ، دولت جيري الذي عينته الاساتنة مؤخرًا من ألد اعداء روسيا .

وتوقع بطرس ان الاحداث الحاسمة في الحرب مع كارل ستجري ذلك العام بالذات (١٧٠٨) . وقد هنا القيصر صديقه مينشيكوف بالعام الجديد وعبر عن امله بالنجاح :

— اتوسل الى البارى ان يوفقنا في مساعينا هذا العام .
كان الهجوم السويدى متوقعا . وتلاحق بطرس هموم ومشاكل لا آخر لها ولا حد ، فلا يتحمل احيانا وينفجر فيصعب جام غضبه على معاونيه . وعندما اخبروه بان التحصينات والاستحكامات فى الكريملين والاسوار القريبة منه ترمم وتصلح وتبنى استحکامات جديدة شعر بالارتياح ، لكن سلطات موسكو لم تطرد من العاصمة ، كما اوعز بطرس فى حينه ، المقيم السويدى كنيبيركون الذى كان يراقب الاعمال الجارية فيها ويبلغ ملكه بها .
واتضح ايضا ان آراء البويار الذين بحثوا هذه المسألة فى جلستهم لم تسجل فى المحضر ولم يتخذ قرار بهذا الخصوص ، فانها لم تقبل بتقرير شديد على موسين-بوشكين المسئول عن ترميم وانشاء الاستحكامات ، واصدر امرا الى الامير الحاكم رومودانوفسكى :

— تفضل واعلن لجميع الوزراء بان يسجلوا تحريرا الاعمال الجلية التى يتشاورون بشأنها ، ويجب ان يذيل كل وزير القرار المتخذ بتوقيعه . وهذا شئ فى منتهى الضرورة ، فلا تقبل قضية بدون ذلك ، لان الحماقة بهذا الخصوص يمكن ان

تداهم ايا كان .

وعندما كان بطرس يتأمل فى الآتى ما كان يستبعد احتمال مقتله . وبهذا الخصوص امر بان يسلموا (بعد وفاته) ثلاثة آلاف روبل الى يكاترينا فاسيليفسكايا زوجته الثانية (التي غدت فيما بعد اميرة روسيا يكاترينا الاولى) . وبعد اصدار التوجيهات غادر العاصمة فى ليلة ٥ على ٦ كانون الثانى (يناير) ١٧٠٨ ووصل الى دزيتسيولى ، بعد ان مر بمديتنى سمولينسك ومينسك . وكان الجيش الروسى بقيادة مينشيكوف يربط فى دزيتسيولى لقضاء فصل الشتاء . وهنا بلغته انباء تحرك القوات السويدية صوب غرودنو ودزيتسيولى . ولم تكن خطط كارل اللاحقة معروفة . والمفروض انه يمكن يتوجه اما الى الشمال ، صوب بطرسبورغ ، واما الى الشرق ، صوب موسكو . لم يكن بطرس يعرف ذلك على وجه التحديد ، ولم يكن يعرفه كارل نفسه ، فهو لم يقرر بعد الى اين يتوجه .

كان تحت تصرف ملك السويد ٦٣ الف جندى ، اما القيصر الروسى فلديه ١٠٠ الف مقاتل . الاول يتمتع بالخبرة القتالية والمبادرة الهجومية ، والثانى يتعين عليه ان يحسب الحساب لكل مناورات العدو المحتملة التى لم تتحدد مخططاتها بعد . وفى ٢٢ كانون الثانى (يناير) وصل بطرس الى غرودنو وبعث منها فى اليوم ذاته انباء واوامر الى جنرالاته :

— استلمنا الان اربعة اسرى سويديين اجمعوا على ان السويديين عبروا امس نهرا على بعد اثنى عشر ميلا من هنا ، وغدا ننتظرهم هنا .

— العدو موجود على بعد ستة اميال من هنا .

واوعز بطرس الى قوات شيريميتيف ان تنسحب من مينسك

الى بوريوسف ، وامر قوات ريبنين ان تنسحب الى فيلنو وبولوتسك ، وتتلطف اثناء الطريق احتياطات الاطعمة والعلف . وبعد يوم من ذلك تلقى انباء تفيد بان كارل «عاد ادراجه» (ولا احد يعرف الى اين) ، فبعث رسلا يحملون اوامر جديدة : الى شيريميتيف :

— توقف فوراً حسب امرنا حيثما يصلك الامر .

الى ريبنين :

— توقف حيثما تصلك هذه الرسالة ، ولا تأمر بحرق واتلاف شيء حتى يصلك ايعاز بذلك .

الى تشامبيرس :

— حالما تستلم هذه الرسالة توقف في مكان مناسب ولا تتحرك الا بعد ان يصلك امر بذلك .

وفي اليوم التالي ، الخامس والعشرين من كانون الثاني (يناير) وصل نبأ جديد : السويديون يتوجهون الى غروذنو من جديد ، وهم على بعد اربعة اميال عن القلعة . وبدل القيصر اوامره : — اعمل بهذا ، اعمل ، لن اكتب لك أكثر . اعمل والا ساقطع رقبتك . . . (الى شيريميتيف) .

— تفضل بالانسحاب الى الاماكن المقررة واعمل بما جاء في الامر بخصوص المؤونة والعلف .

وفي ٢٦ كانون الثاني غادر بطرس مع قواته غروذنو . وبعد ساعتين دخل العدو المدينة ، ولكن ليس بنصف قوات كارل كما هو المتوقع ، بل بفصيلة من ٨٠٠ جندي فقط عبرت دون عائق جسر نيمان الذي امر بطرس بتفجيره ، الا ان الجنرال ميولينفيلس لم ينفذ الامر . فأحاله القيصر الى المحاكمة ، لكنه فر الى السويديين (في معركة بولنافا وقع في الاسر بايدي الروس

واعدم رميا بالرصاص بتهمة الخيانة) .

وفي ٢٨ تموز (يوليو) وصل بطرس الى فيلنو . وكان يتصور ان كارل سيتوجه الى بطرسبورغ ، الا ان هذا الاخير استدار نحو الشرق . ونفذ الجيش الروسى المنسحب الخطة التى اقترت فى جولكفا . فلم يجد السويديون فى طريقهم لا قمحا ولا ماشية ولا علفا للحياد . وبسبب ذلك تباطأ زحفهم لدرجة كبيرة ، فكتب بطرس بارتياح فى بداية شباط (فبراير) :

— العدو يغادر غرودنو ، وحيالنا السائرة امامه بثلاثة طرق تتلف كل المؤن والعلف وتثير قلقه بغاراتها ، ولذا فهو ، كما يقول الاسرى ، يتكبد خسائر جسيمة بالارواح والخيول ، وتحلال ثلاثة اسابيع لم يبتعد عن غرودنو أكثر من عشرة اميال . واستمر الحال عند السويديين على هذا المنوال . فقد اضطروا الى التوقف عدة اسابيع او شهور فى سمورغون تارة ، وفى رادوشكوفيتش تارة ثانية ، وفى اماكن اخرى . وبعد ذلك بدأ الفيضان . وشلت عمليات العدو فى الواقع شتاء وريعا . ولذا امضى بطرس الربيع فى بطرسبورغ ، ثم انشغل باخماد الحرب الفلاحية التى تزعمها كوندراتى بولافين فى منطقة الدون . واراد ان يذهب الى هناك بنفسه ولم يتمكن .

وفي ٢٥ حزيران (يونيو) ارتحل القيصر الى الجيش . وبعث رسائل الى شيريميتيف :

— سأصلكم قريبا .

— ارجو ، ان امكن ، الا تبدأوا المعركة الرئيسية قبل وصولى .

وفى الطريق عرج القيصر على نارفا حيث احتفل بعيد القديس الذى يرعاه ، وبهذه المناسبة اطلقت الالعاب النارية

على الماء . ثم توجه الى فيليكيه لوكي ، وهنا بلغه في ٥ تموز (يوليو) نبأ معركة غولوفتشينو التي نشبت قبل يومين من ذلك . فقد استؤنفت العمليات الحربية وجرى حادث مفاجئ لا يسر الروس .

استأنف كارل الثاني عشر زحفه نحو الشرق قاصدا موسكو . وظل كالسابق ، متأثرا بمركب العظمة ، يخطط لاسقاط بطرس الذي يجب ان يحل محله ، في رأيه ، ياكوف سويسكي . وحسب خطته هذه ينتقل شمال وشمال غربى روسيا ، بما فيهما نوفغورود ويسكوف الى السويد ، وتنتقل اوكرانيا وسمولينسك الى ليشينسكى ويحكم كيف الولى التابع له «الامير الكبير» مازيبا ، وتنتقل الاراضى الروسية الجنوبية الى العثمانيين وخان القرم وغيرهم من انصار السويد . وقال كارل يخاطب ليشينسكى : ستلغى في روسيا كل الاصلاحات ، ويحل الجيش الجديد وتعود الانظمة القديمة . وهو مصر على ذلك :

— يجب تدمير قوة موسكو التي ازدادت كثيرا بفضل تطبيق الانضباط العسكرى الاجنبى .

وكان الملك يحلم بان روسيا ستعود الى الوراء ، وسيقتاسمها الغالبون جزءا جزءا ويزيحونها عن البلطيق (ويجب ان تسمح بطرسبورغ من على سطح الارض) ، وانه سيفقدو المحكم الاعلى فى كل ما يجرى من البا حتى أمور . وهذا يتطلب هجوما حازما ومعركة شاملة . زج كارل بجيش من ٣٥ الف جندى من العسكرين المحنكين المتفولذين الذين اطبقت شهرتهم الانحاء . وفى اعقاب هذا الجيش تحركت قوات ليفينهاوبت وعددها ١٦ الفا مع قافلة ضخمة من العربات . وهكذا وضع على كفة الميزان وجود روسيا كدولة . وكان

بطرس وقادته العسكريون وافراد قواته يعملون بحذر وينجاح على العموم رغم الاخفاقات التي صادفتهم . وها هي قوات كارل تهاجم فيلق ريبنين في غولوفتشينو (بيلوروسيا) في الثالث من تموز (يوليو) ١٧٠٨ . وسقط في ساحة المعركة كثير من الجنود الروس البالغ عددهم ٨ الاف . اما السويديون فكانت عملياتهم اكثر نجاحا وخسائرهم اقل . وانسحب ريبنين دون ان يتكبد هزيمة ماحقة . وسرعان ما عرف بطرس ان عدة افواج روسية انسحبت باضطراب اثناء المعركة وتركت مدافعها للسويديين . وابدت افواج اخرى مقاومة للعدو لكنها خاضت القتال على طريقة القوزاق وليس الجنود . وخلافا لما حدث لشيريميتيف لم يبد القيصر هذه المرة تسامحا . فالدعوى جاء الى روسيا بقواته الرئيسية ، وكل تهاون او خطل يمكن ان يكلف روسيا غالبا . وامر القيصر باحالة ريبنين وتشامبيرس الى المحكمة العسكرية ، وهما الجنرالان المقاتلان اللذان كان حتى الان يكن لهما وافر الاحترام ويأخذ برأيهما . ولم ينقذ ريبنين من الاعدام الا البسالة التي ابداهما اثناء القتال . وبناء على حكم المحكمة العسكرية خفضت رتبة الجنرال الى جندي بسيط (وسرعان ما ابدى من جديد شجاعة بالغة في معركة ليسنايا فاعيدت له رتبته ومنصبه) . اما تشامبيرس فقد نحي من منصبه ، لكنهم لم يجرده من رتبة الجنرال لكبر سنه .

لم تكن معركة غولوفتشينو تمثل انتصارا كبيرا للسويديين ، فقد تكبدوا هم ايضا خسائر جسيمة . لكنها اعمت بصيرة الملك لدرجة اكبر . أما بالنسبة للجيش الروسى فقد كانت درسا نافعا استفاد منه بطرس على قدر الامكان . اجرى محاكمة استعراضية للجنرالين ، ثم وضع «قواعد القتال» التي تناولت

التعاون بين مختلف اصناف القوات اثناء القتال وكذلك الصمود والتعاضد بين الجنود :

— من يترك موقعه او يشى بغيره او يفر مجللا بالعار يعدم ولا تبقى له كرامة .

لم يحصل جيش كارل الثانى عشر على المؤن والعلف فى الاماكن المحروقة التى دمرها الروس بعد ان غادروها . وتباطأ زحفه وصار يتوقف طويلا فى موضع واحد (فقد توقف فى موغيليف مثلا طوال شهر كامل) . وكان الملك ينتظر وصول ليفينهاوبت مع قافلة العربات ، وفيها الكثير من الاغذية . ثم ١٦ الف جندى لتكون عوناً كبيراً . فى البداية قوبل السويديون فى موغيليف «بهدوء» على حد تعبير بطرس ، لانهم «يعانون من مجاعة شديدة» . وابط جيش روسى من ٢٥ الفا فى غوركي شمال شرقى موغيليف .

ولم يتحمل الملك اللجوج . فقد صبره فخرج من موغيليف ، ولكن ليس صوب الشمال للقاء ليفينهاوبت ، بل صوب الجنوب الى بروبويسك ، ومنها انعطف نحو الشمال الشرقى ، الى سمولينسك . وكان بطرس يتابع بكل اهتمام تحركات الملك المفاجئة التى يصعب التكهن بها ، ويجرى تعديلات فى مناورات قواته لتطابق تلك التحركات . وينفذ بنود خطة جولكفا . فالافواج الروسية تنسحب لاستدراج العدو واستنزاف قواه . وفى اغسطس ظل القيصر يصدر اوامره وهو يتابع كل تحركات العدو :

— راقبوا تحركات العدو واسبقوه اذا توجه الى سمولينسك او الى اوكرانيا .

— ابتعد العدو عن موغيليف زهاء خمسة اميال ، وتحركنا

نحن ايضا بالمقابل . فنحن نسير فى مقدمة العدو على مسافة
ثلاثة اميال . والله وحده يعلم بوجهته ونواياه ، والاحتمال الاكبر
هو اوكرانيا .

وقد دأب كارل على الا يخبر بنواياه حتى اقرب معاونيه . ومع
ذلك حدى بطرس وقادته العسكريون بتحركات الجيش السويدى
بوجهته العامة بشكل صائب . وظل الجيش الروسى يتحرك
امام الجيش السويدى ويدمر كل ما يصادفه فى الطريق . وفى ٩ آب
(اغسطس) اصدر القيصر مرسوما كثر فيه بصرامة وشدة :
— فى كل مكان احرقوا المؤونة والعلف وكذلك سنابل
القمح فى الحقول وفى البيادر وفى مستودعات القرى ، ولا توفرنا
حتى المباني .

وامر بطرس بتدمير الجسور والمطاحن فى كل مكان . وانتقل
الاهالى الى الغابات ومعهم ماشيتهم . وعادت تلك الاجراءات
الصارمة والضرورية بشمارها . وبلغوا بطرس قائلين :
— احاط الجنود بالملك طالين الرغيف ، لانهم يكادون
يموتون جوعا .

١٠ — تورم الرجال من الجوع والامراض ولم يعودوا قادرين
على السير الا بالكاد .

كان الجنود السويديون الجياع يرتدون الاسمال ويجولون فى
القرى بحثا عما يؤكل ويفرون من الجيش . وعلى مقربة من
جيش الملك كانت افواج الخيالة الخفيفة والفرسان الروس غير
النظاميين تنهال عليه بهجمات ومناوشات متواصلة وفق مرسوم
القيصر :

— يجب استنزاف القوات الرئيسية بالحرق والتدمير .
وفى ٣٠ آب (اغسطس) نشب عند قرية دوبرويه صدام

أكبر . فان خمسة افواج من «السويديين الاصليين» منيت بهزيمة ماحقة على يد فصيلة روسية هاجمتها بقيادة الامير غوليتسين . وفقد السويديون ثلاثة الاف قتيل ، بينما فقد الروس ٣٧٥ شخصا . وانسحب الروس بعد ان كسبوا المعركة وادوا مهمتهم بالكامل . الا ان كارل الذي راقب سير القتال ونهايته الفاجعة بالنسبة للسويديين لم يتورع عن تصوير المعركة بصورها نصرا جديدا له . اما بطرس فقد فرح من صميم القلب :
— رقصنا هذه الرقصة باروع شكل على مرأى من كارلوس ابي الرأس الحار .

— لم اشهد طوال خدمتي مثل هذه النيران والعمليات الجيدة من جنودنا ولم اسمع عنها (فليوفقنا الله في المستقبل مثلما وفقنا الآن) . ولم ير الملك السويدي نفسه في هذه الحرب مثل ما رآه الان .

ورغم كبرياء الملك كارل راح يقتلع شعره مهتاجا ويضرب خديه بقبضتيه . بهذه الصورة تعكر مزاج القائد «المظفر» . كيف لا والهزيمة ماحقة ، ولم ينقذ قواته من الهلاك التام الا المستنقعات . واخذ كارل يفكر في نتيجة الحملة على روسيا ويتشاور مع جنرالاته . وفي بداية ايلول (سبتمبر) استدعاهم وسألهم عن وجهة الجيش لاحقا . وقال هيلينكروك ، مدير عملياته ، بحق : لكي يستطيع الجنرالات ان يجيبوا على هذا السؤال ينبغي لهم ان يعرفوا ما ينوي الملك القيام به . وجاء رد الملك بشكل لا بد وان يحير اعوانه ومستشاريه :
— ليست عندى اية نوايا .

لم يتعب الملك نفسه في وضع خطة للحرب ومناقشتها مع الجنرالات . فقد كان حتى الان واثقا من ان الحملة على

روسيا ودحر قواتها عملية بسيطة سهلة كما حدث ، مثلا ، في سكسونيا . الا ان العثرات والصعوبات بدأت ، ففضل كارل اخيرا على الجنرالات الذين كانوا ينفذون اوامره دوما بصورة عمياء فسألهم عن آرائهم . وبعد جدل طويل قرر العسكريون المشاركون في الاجتماع التوجه الى اوكرانيا وليس الى موسكو . ووضح ماتيفيف من لاهاي جيدا مغزى هذا القرار الذي يعنى انعطافا شديدا في تحركات الجيش السويدي ، فقد استطاع هناك ان يكشف «السري» السويدي :

— اخبرني اصدقاء عن سر من اسرار الوزير السويدي هنا ان الملك السويدي عندما رأى حذر قوات القيصر واستحالة الوصول الى سمولينسك وشحة المؤن والعلف قرر ان يتوجه الى اوكرانيا لان هذا البلد مكتظ بالسكان وكثير الخيرات وليس فيه اية قلاع كبيرة دائمة ذات حاميات قوية . هذا اولا ، وثانيا— يأمل في جمع رجال كثيرين من الشعب القوزاقي الطليق يقودهم بطريق مباشر مأمون الى موسكو ، ثالثا— يسهل هناك الاتصال بخان القرم ودعوته الى التحالف كذلك مع البولونيين الذين يلتزمون جانب ليشينسكي ، رابعا واخيرا— توجد امكانية لارسال القوزاق الى موسكو لاثارة سخط الشعب .

وهكذا نرى لدى كارل حسابات ومخططات كثيرة ، لكنها جميعا خيالية لا تستند الى الواقع ، فهو كالسابق لا يرى ولا يفهم شيئا ، في حين تتدهور حالة قواته ، وكل تصرفاته تؤدي الى تدهورها .

في ١٠ ايلول (سبتمبر) هاجم فوج من الفرسان السويديين الخيالة الخفيفة الروسية عند قرية رايفكي . وكان الفوج بقيادة الملك . وقد منى بهزيمة كبيرة جديدة . قتل حصان الملك

وهو على ظهره ، وكاد كارل يقع في الاسر . وحدث ذلك كله على مرأى من بطرس الذى شارك في المعركة . وبعد الاخفاق الجديد قرر الملك الا ينتظر وصول ليفينهاوبت المسرع اليه من ريغا ، وعجل في التوجه الى الجنوب . وساعدت هذه الخطوة الخاطلة الحمقاء الروس في احراز نصر آخر ، وهو هذه المرة اكبر وخطر بكثير ، حتى ان بطرس نعته بانه «اساس» الانتصار في معركة بولتافا .

عندما تلقى القيصر نبأ نية كارل ومسيره ليفينهاوبت عقد اجتماعا لرجاله . ووفقا لقرار الاجتماع يتعين على القوات الرئيسية للجيش الروسى بقيادة شيريميتيف ان تتوجه الى اوكرانيا «لمرافقة» كارل . فى حين توجهت مجموعة خاطفة من ١١,٥ الف شخص بقيادة بطرس للقاء ليفينهاوبت الذى يقود قوات من ١٦ الف جندى مع قافلة من الاغذية والعلف . وفى صباح ٢٨ ايلول (سبتمبر) داهمه بطرس عند قرية ليسنايا . وكان ظهور المجموعة الخاطفة مفاجأة تامة للسويديين . فالمنطقة كلها غابات كثيفة ومستنقعات وعرة . واستمرت المعركة عدة ساعات . وألم التعب بجنود الطرفين حتى هوى على الارض (السويديون جنب عرباتهم والروس فى مواقع القتال) واستراحوا امدا طويلا على بعد نصف اطلاق مدفع عن بعضهم البعض . ثم استؤنف القتال . وفى آخره وصلت الخيالة الروسية بقيادة بور وحسمت الموقف لصالح الروس . ومنى السويديون بهزيمة ماحقة ، ولم ينقذ فلولهم التى فرت فى الظلام الا العاصفة الشديدة وذلك الليل البهيم . وترك ليفينهاوبت فى ساحة المعركة ثمانية الاف قتيل وكل المدفعية تقريبا وكل العربات التى كانت حمولتها ضرورية جدا لجيش كارل الجائع . وعرف الملك بالهزيمة الماحقة لاحد افضل

جنرالاته فى الاول من تشرين الاول (اكتوبر) ، وفى ١٢ منه
جاءه هذا الجنرال بـ٦,٧ آلاف من الجنود الجياع الذين يرتدون
الاسمال . وهذا كل ما تبقى من افراد قواته الـ١٦ الفا .
عندما سمع الملك بهذا الخبر لأول مرة لم ينم الليل ، واعتراه
الحزن والصمت . اما الان ، بعد حديث الجنرال المغلوب ،
فقد بعث الى استوكهولم تقريراً عن انتصار سويدي جديد وواصل
زحفه على اوكرانيا . صحيح انه اخذ من ذلك الوقت يشكك
فى انتصاره النهائي ، لكنه اخفى مشاعره بكل عناية واحتجب
عن الجميع وراء ستارة من الصمت والرياء والتقارير بشأن
الانتصارات المزعومة .

لقد عزز النصر فى معركة ليسنايا الثقة بالجيش الروسى ،
وقد تحدث عن ذلك بطرس الذى كسب المعركة :
— يمكن ان ينعت هذا النصر بالنصر الاول ، لانه
لم يحدث من قبل نصر مثله على قوات نظامية . زد على
ذلك اننا واجهنا العدو بعدد من الرجال اقل مما لديه . تلك
فى الحقيقة نتيجة مجهود روسيا الموفق ، لا سيما وان تلك
هى التجربة الاولى للجنود ، ولذا رفعت معنويات الرجال طبعاً .
وهذا النصر هو اساس معركة بولتافا من حيث رفع معنويات
الرجال ومن حيث تجربة الجنود الاولى . ففي الشهر التاسع
ولدت السعادة .

وترك خبر الانتصار المؤزر انطبعا جيداً فى روسيا وخارجها .
وشعر بطرس بالارتياح . فقد تحقق نصر بعدد اقل من الرجال
على قوات السويديين المتمرسه . وغدا جيش كارل الرئيسى
منقطعاً عن قواعد المؤخرة التموينية ، فوقع فى تطويق استراتيجى .
وفى معركة ليسنايا تجلت مواهب بطرس كقائد عسكري مجد

فد . فقد نظم المجموعة الخاطفة من جنود مشاة ركبوا ظهور الجياد ، واختار مكانا متقاطعا محجوبا وليس حقلا مكشوبا ليكون ساحة للمعركة ، وصف عساكره ليس في نسق واحد ، كما هي العادة ، بل في نسقين .

وفي اعقاب معركة ليسنايا ، في تشرين الاول (اكتوبر) ، منى السويديون بهزيمة اخرى . فان فيلق لوييكير المكون من ١٣ الف شخص اقترب من بطرسبورغ من جهة فنلندا . فهزمه الاميرال ابراكسين والحامية ، وفقد الفيلق ثلث افراده وستة الاف جواد . وبعد هذه الهزيمة لم يحاول العدو ولا مرة ان يقترب من «فردوس» بطرس . وتكريما للنصر سكت بأمر من القيصر مدالية على احد جانبيها صورة المنتصر وكتابة : «الاميرال ابراكسين من اتباع صاحب الجلالة» ، وعلى الجانب الثاني سفن اصطفيت في صف واحد وتحيط بها الكلمات التالية : «وهو يحافظ عليها ولا ينام . الموت افضل من الخيانة ، ١٧٠٨» .

وعندما كان بطرس في سمولينسك ، حيث استقبلوه باطلاق المدافع والبنادق وهو في هالة من الانتصارات والامجاد ، تلقى ضربة شديدة ، اذ اخبروه بخيانة حاكم (جتمان) اوكرانيا مازيبا . كان هذا الاخير يحكم في اوكرانيا عشرين عاما ويحظى بثقة القيصر التامة . ولم تلتفت موسكو الى تقارير خصومه السياسيين وحاسديه والمتدمرين منه . وهذا ما حدث هذه المرة ايضا . فقد افاد كبير قضاة اوكرانيا الشيخ كوتشوبى الذى اختطف مازيبا ابنته واغتصبها :

— الحاكم ايفان مازيبا يريد ان يخون القيصر العظيم وينضم الى البولونيين ويلحق ضررا جسيما بقيصر موسكو ويستولى على اوكرانيا ومدن القيصر .

وافاد بالشىء ذاته المقدم المتقاعد ايسكرا من مدينة بولتافا .
الا ان الرجلين اعتقلا وسلموا الى مازيبا ، وفى ١٤ تموز (يوليو)
١٧٠٨ قطعت رقبتهما . أما الحاكم مازيبا فكان من ثمانينات
القرن السابع عشر يحلم بفصل اوكرانيا عن روسيا واعادتها الى السلطات
البولونية ، وقد تصور الآن ان الملك السويدى وصنيعته ليشينسكى
سيساعدانه فى تنفيذ خطته القديمة . فوعد الملك بتوفير مواقع
شتوية للقوات السويدية مع الاغذية والعلف ، ووعد ليشينسكى
بتسليمه مناطق اوكرانيا على الضفة اليسرى من الدينير . وفى
عام ١٧٠٧ وقع معهما معاهدة بهذه الشروط . لكنه كتم سر
المعاهدة وتحايل وناور . لكن الخيانة افترشت ، فصعق لها
بطرس كالرعد فى وضوح النهار . واتخذ اجراءات عاجلة .
فقد اسرع مينشيكوف بقواته الى باتورين مقر الحاكم مازيبا الذى
انتقل الى صف السويديين ، ومن جهة اخرى تحرك مازيبا مع
الافواج السويدية . وكانت للاستعجال اسبابه الواضحة . ففى
عاصمة مازيبا احتباطات هائلة من الاغذية والبارود وذخيرة
المدفعية . وسبق مينشيكوف العدو ونقل من باتورين كل ما امكن
نقله . واحرق الباقي وهدم القلعة .

وكانت تلك ضربة قاسية بالنسبة للحاكم مازيبا ، ولكنها
ليست الضربة الوحيدة ولا الرئيسية . فقد اعقبتها ضربات .
وكانت البداية من رفض القوزاق الاوكرانيين الالتحاق به . فقد
جاء الى معسكر كارل وليس معه عدد كبير من المحاربين القوزاق
كما وعد وكما كان الملك يأمل فيه . كل ما كان معه القنا
او ثلاثة الاف رجل لا يؤبه بهم . وحتى هؤلاء ما كانوا يعرفون
اهدافه الحقيقية ، فقد ظنوا انهم وصلوا الى جيش شيريميتيف .
وعندما اتضحت الامور اخذوا يغادرون المعسكر السويدى سرا .

ثم ان اوكرانيا علمت من مراسيم بطرس ان مازيا يريد ان يعيد الوطن الام الى الاقطاعيين البولونيين ، فاندلعت الحرب الشعبية ضد انصار مازيا والسويديين .

وفي ٦ تشرين الثاني (نوفمبر) انتخب ممثلو اوكرانيا — سكروروبادسكى حاكما جديدا لهم بدلا من مازيا الذى اطلخوا به . وجرى هنا اعدام رمزى للخائن ، فقد «شنت» الجلاذ صورته وحطم شعاره وسحقه بقدميه . وفعلوا الشيء ذاته بشهادة وسام اندرى بيرفوزفانى الذى تسلمه مازيا فى حينه .

ولم يكتف بطرس بذلك ، بل كتب الى ستيفان يافورسكى سادن الكرسي البطريركى فى موسكو :

— سماحة ايينا المحترم . ارجو ان تصدر لعنة على ذاك (مازيا — ملاحظة المؤلف) بسبب تصرفه هذا وتعلنها على الملأ فى الكائدرائية .

وفي ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر) اعلن يافورسكى فى كائدرائية اوسيينسكى فى كريملين موسكو امام جميع البويرا وكبار رجال الدين اللعنة على الخائن ثلاث مرات :

— لعنة الله على الخائن مازيا لجريمته بحق المسيح وخيائته للقيصر العظيم !

واشاحت اوكرانيا بوجهها عن حاكمها السابق الذى لعنته الكنيسة واعدم غيايا . ولم تكن ترغب فى رؤية سيده الجديد — الملك السويدي فى اراضيها .

وظل كارل يعيش فى جو من الاوهام وخداع النفس ، ويوحى الى جنرالاته قائلا :

— يجب ان نتقحم طالما الحظ يتسم لنا .
لقد تصرف على هذا النحو قبل وبعد معركة ليسنايا . ويقول

تارلى المؤرخ السوفيتى الموهب ، مؤلف الدراسات عن نابليون وفرنسا وروسيا ورجالاتها البارزين وقضاياها الهامة ، «صار كارل من ذلك الحين يعيش حياة مزدوجة لانه يستأسد امام الآخرين ويتشدد باحتلال موسكو...» واخذ يبحث الى استوكهولم اوامر بتجنيد وجبات جديدة ، وراحوا هناك يبحثون الجميع حتى الشيوخ الطاعنين فى السن والصبية الذين لا يستطيعون رفع البندقية من الارض .

وبعد معركة ليسنايا اخذ الخوف فى اوروبا من السويد وملكها المهوروس يزول ويحل محله الخوف من قدرة روسيا المتعاضمة بقيادة قيصر نشيط وشجاع وحكيم كما بدأوا يعتبرونه هناك . وتجلى تغير الموقف ، فيما تجلى ، فى عدم رغبة بطرس فى انضمام روسيا الى الحلف الكبير بعد ان كان راغبا فيه . ففى خريف ١٧٠٨ اعلن عن ذلك على رؤوس الاشهاد ماتفييف سفيره فى هولنده . وفى مطلع الشتاء ابلغ ماتفييف القيصر بان ملك الدانمرك فريدريك الرابع ينوى التفاوض مع حاكم سكسونيا اغسطس الثانى بصدد استئناف العمليات الحربية ضد السويد . وقد بدأت المفاوضات بالفعل . وفيما بعد اشترك فيها ملك بروسيا . وبذلك اشتدت عزلة السويد فى ميدان السياسة الخارجية ، وسارت الامور صوب بحث حلف الشمال . ذلك هو تأثير ما حصل فى معركة ليسنايا .

ظل كارل الثانى عشر يجوب اوكرانيا ، ويلاحقه ، هو وجيشه الذى يذوب ويتضاءل على رأى من الجميع ، كابوس الصقيع القارس والمجاعة المتفشية بين الجنود وشحة العلف للخيول وقلة الذخيرة وعداء الاهالى وانعدام الحلفاء المخلصين . وفى بولونيا التى كان يعمل على مساعدتها لا يعير الكثيرون سلطة الملك

ليشينسكى اهتماما . فان نصف بولونيا ، كما يقول البولونيون انفسهم ، لا يعترف به ، والنصف الثانى لا يخضع له . وفى شمال البلاد فقط تسيطر افواج ليشينسكى والقوات السويدية بقيادة كراساو على قسم غير كبير من الاراضى . وفى سائر اراضى البلاد يعود الامر والنهى الى جيش سينافسكى الحاكم باسم الملك وجيش الحاكم الليتوانى اوغينسكى اللذين دحرا قوات صنيعة السويد ، وحظيا بمساعدة الافواج الروسية . وكانت جيوش غوليتسين تحمى كييف ومناطق اوكرانيا الواقعة على الضفة اليمنى من الدنيبر .

وراح كارل يستدعى الى اوكرانيا باستمرار كراساو وليشينسكى ويحدث جنرالاته عن حملة القوات الكبرى من بولونيا . ويكتب الى هناك عن احواله الممتازة :

— انا وجيشى كله فى احسن حال . دحرننا العدو وازحناه وجعلناه يطلق ساقبه للريح فى كل المناوشات التى حدثت له معنا .

كان جميع المحيطين بالملك وهو نفسه يتظاهرون بانهم يصدقون ما يقولونه لبعضهم البعض عن الاحوال الجيدة ، فى حين يتدهور الوضع من سبى الى اسوأ . صحيح ان بارقة من الامل لاحت ذات مرة . فان غورديينكو قائد قوزاق زابوروجيه حذا حذو مازيبا واخذ يهاجم فصائل الروس المقاتلة . وجاء جواب بطرس حازما شديدا . فى ربيع ١٧٠٩ اقتحمت قواته منطقة زابوروجيه ودمرتها عن آخرها . والتحق قوزاق غورديينكو بالملك كارل ، الا ان هذا «المكسب» لم يكن ذا شأن . وفهم هذه الحقيقة مازيبا الذى راح يبحث محموما عن مخرج من الورطة ، فتارة يقترح على كارل القيام بحملة على الشرق ،

مثل الاسكندر المقدوني ، الى آسيا (اي الى اعماق روسيا) وتارة يقترح عليه ان يتحالف مع بولافين (فى تلك الاثناء كانت الحرب الفلاحية قائمة فى جنوب روسيا ، فى منطقة الدون) ، وتارة يبعث صديقيه المقدمين ابوستول وغالاغان الى بطرس يقترح عليه ان يسلمه الملك السويدى وكبار قاداته العسكريين .

وكان كارل الحائر هو الاخر يجوب اوكرانيا المعادية له بحثا عن الطعام والمأوى لجنوده ، وليس اوكرانيا وحدها ، بل وعواصم الدول الحليفة طلبا للمساعدة (بالمال ان لم يكن بالرجال) ، ويحاول ان يقيم علاقات مع الاستانة والقرم ، الا ان اولئك فضلوا الانتظار ، فهم خائفون . كانت المدائن والقلاع الاوكرانية التى يصادفها السويديون فى طريقهم تقاوم ببطولة وتلحق بهم خسائر ليست قليلة . فالاهالى الاوكرانيون والفصائل المقاتلة الروسية حرمهم ليس فقط من الاغذية ، بل ومن الراحة والمأوى . ذات مرة (فى شباط — فبراير ١٧٠٩) كان الملك وقواته فى كولوماك ، فى حدود اوكرانيا الداخلة ضمن الدولة الروسية . وكان مازيا يسير على ظهر حصان جنبه ويتزلف اليه ويتحدث عن انتصارات السويديين الحرية الوهمية . ثم اضاف باللاتينية ان صاحب الجلالة موجود على بعد ثمانية اميال لا غير عن آسيا . وفى الحال طلب الملك السويدى ، المرشح لدور الاسكندر المقدوني ، من دى هيلينكروك نفسه ان يستسفر عن الطرق المؤدية الى آسيا . واجابه ذاك ان آسيا لا تزال بعيدة . فلم يوافقه كارل :

— لكن مازيا قال لى ان الحدود ليست بعيدة من هنا .
يجب ان نذهب الى هناك لنقول اننا كنا فى آسيا ايضا .
— يبدو انكم تمزحون يا صاحب الجلالة . فاتم بالطبع

لا تفكرون فى هذه الامور بجد .
— انا لا امزح اطلاقا . امض فى الحال واستفسر عن الطرق .
ومضى هيلينكروك ولكن ليس الى آسيا ، بل الى مازيا ،
ولامه قائلا :

— يمكنك يا صاحب المعالى ان ترى من هنا خطر
التنكيت مع ملكنا على هذا النحو . فهو يحب الشهرة اكثر من
اى شىء فى الوجود ، ويسهل استدراجه للسير ابعد من اللزوم .
واستمرت الفصائل الروسية والانصار الاوكرانيون فى مهاجمة
الجيش السويدى . وظلت الاغذية شحيحة كالسابق . وتضاءلت
صفوف السويديين بسبب ذلك كله وبسبب الامراض . الا ان
الشتاء انتهى اخيرا ، وبدأت فيوض الربيع . ومع الربيع تنتعش
الامال ، كما هو معروف .

فى الاول من نيسان (ابريل) وصل كارل مع جيشه الى
بولتافا وعزم على اقتحامها . واوحى له مازيا من جديد ان
احتلال بولتافا يجعل اوكرانيا تحت سلطته . ومن بولتافا تمتد
الطرق الى الجنوب ، الى القرم ، فى حين كان الملك يجرى
مفاوضات مع خان القرم والسلطان العثمانى بصدد العمليات
المشتركة ضد روسيا .

وظل بطرس يتابع تصرفات الاستانة حيث كان السفير
تولستوى يبذل المستحيل كالسابق ليحول دون تطور الاحداث
غير المرغوب فيه بالنسبة لروسيا . ولم ينس القيصر بناء الاسطول
فى فورونيج . فقد استمر بناؤه هناك دون قيد او شرط . امضى
بطرس كانون الثانى (يناير) ونصف شباط (فبراير) ١٧٠٩ فى
سومى (اوكرانيا) ، وبالإضافة الى الاشغال المرتبطة بطباعة
الكتب واجراء الاصلاح الادارى فى الالوية واخماد الانتفاضات

الشعبية فى عدد من مناطق البلاد كان مهتما بالحيلولة دون وصول جيش كارل الى ما وراء الدنيبر ، حيث يمكنه ان يلتقى بقوات كراساو وليشينسكى . وبعد ذلك ، فى شباط ، ارتحل الى فورونيج . واشرف على بناء السفن طوال شهرين وعلم الاسطوات على جلفطتها وعلى صنع الاصماغ الجيدة . وعندما عرف بشحة الاحتياطات توجه الى مصنع ايفانوفو وامضى اسبوعين مع الاسطوات فى صنع المراسى والبراغى والقنابل والعبوات ومدافع الموزتر وغيرها . وبعد العمل فى حوض بناء السفن ابهر بطرس على رأس اسطول كبير (٢٤١ سفينة ، منها ٢٩ سفينة حربية كبيرة) فى الدون الى آزوف . وسرعان ما وصل الى البلاط العثمانى نبأ مجيء هذا الاسطول ، فذابت نوايا السلطان فى شن الحرب على روسيا كزبد البحر . . .

فى تلك الاثناء كان الكونت بيير ، الوزير الاول للملك كارل الذى رافقه فى حملته ، يتحدث ، فى اليوم التالى لوصول الجيش السويدى الى بولتافا ، مع ضابط سويدي من الذين وقعوا فى الاسر بايدى الروس . كان الضابط قد جلب رسالة من غولوفكين تضمنت اقتراحا بتبادل الاسرى والشروع بمفاوضات الصلح . ورد الكونت بان السويد مستعدة للنظر فى توقيع صلح مريح . وفى رسالة ثانية اقترح غولوفكين تعيين ممثلين لاجل التفاوض . وتتلخص شروط روسيا فى استلام جزء من كاريليا واينغريا مع بطرسبورغ ودفع تعويضات نقدية الى السويد . كان اقتراح بطرس السلمى يوفر فرصة جيدة للملك كى يتخلص من الورطة وينقذ جيشه ، لكن هذا الاخير رفض الاقتراح . وتسلم القيصر ردا مفعما بالغطرسة الهوجاء :

— صاحب الجلالة ملك السويد لا يرفض الصلح المريح

والتعويضات العادلة عن الاضرار التي تكبدها جلالته . الا ان
اى شخص غير متحيز يدرك بسهولة ان الشروط المطروحة الان
يمكن فى الاغلب ان تؤجج لهيب الحرب أكثر مما تساعد على
اطفائه .

كانت هذه الاتصالات غير المفيدة قد عادت بالفائدة
على روسيا ، لانها كشفت عن نواياها السلمية واثرت على موقف
الاستانة التى تخلت عن مخططاتها الحرية عندما سمعت بها ،
ثم انها شلت نشاط بلدان اوروبا الغربية التى كانت على العموم
تلتزم بمواقف العداء للروس ، فرأت الان فى محاولات بطرس
لانهاء الحرب بالصلح دليلا على ضعف روسيا . اما كارل فقد
ظل كالسابق يركض وراء سراب النصر النهائى . وعندما حاول
الجنرالات اقناعه بترك بولتافا والانسحاب الى بولونيا رد عليهم
قائلا :

— ساظل هنا حتى لو بعث الخالق ملاكه من السماء
يأمرنى بالانسحاب من بولتافا .

كان الملك يقود الجيش الى الكارثة بتعنت وعناد كالسائر
فى الاحلام . وفى حديث مع هيلينكروك اصر على حصار
بولتافا :

- جهاز كل شىء للهجوم على بولتافا .
- هل تنوون جلالتكم محاصرة المدينة ؟
- نعم . ستشرف انت على الحصار وتخبرنا باليوم الذى
نستولى فيه على القلعة .
- لكن الجيش لا يمتلك كل مستلزمات الحصار .
- لدينا مادة كافية للاستيلاء على قلعة تافهة مثل بولتافا .
- القلعة ليست متينة ، لكن الحامية تضم ٤ الاف

شخص ما عدا القوزاق .

— عندما يرى الروس اننا جادون فى الهجوم يستسلمون من اول طلقة تصوب الى المدينة .

الغشاوة التى اعمت بصيرة الملك منعتة هذه المرة ايضا من الانصات الى صوت العقل . لقد حاول هيلينكروك ان يثبت له بان الروس داخل القلعة سيدافعون عنها بشجاعة حتى الرمق الاخير ، اما السويديون الذين تعززهم المدافع والدخيرة فسيتكبدون خسائر جسيمة . لكن الملك كان يجيب :

— ولذلك بالذات يجب ان نحقق ما هو خارق للعادة .
فهذا يشرفنا ويمنحنا الشهرة والامجاد .

حاصر السويديون بولتافا ذات الاستحكامات الركيكة طوال ثلاثة شهور . وكان كيلين يعمل بموجب التوجيه الذى بعثه بطرس الى قومندانات كل القلاع فى اوكرانيا بشأن المقاومة «حتى الرمق الاخير» . وصد حماة بولتافا كل الهجمات وقاموا هم ايضا بهجمات خاطفة فالحقوا ضررا بمحاصريهم . وتكبدوا هم انفسهم خسائر ايضا . وادرك بطرس رأسا الاهمية الاستراتيجية لقلعة بولتافا التى يسعى كارل الى السيطرة عليها بمثل هذه المثابرة والعناد . وفى رسالة الى مينشيكوف الذى رابط مع قواته على مسافة غير بعيدة امر بطرس بنجدة حماة القلعة المحاصرة . وفى ٧ ايار (مايو) شن مينشيكوف هجوما مباغتاً على اوبوشنيا التى يربط فيها السويديون ودمرهم . فاسرع كارل الى هناك ، الا ان الروس انسحبوا بهدوء وانتظام الى الضفة الثانية من نهر فورسكلا . وفى ليلة ١٤ على ١٥ ايار وصلت الى بولتافا عبر المستنقعات فصيلة من ٩٠٠ جندي مزودة بكميات من البارود والرصاص .

وفي ٤ حزيران (يونيو) وصل بطرس الى بولتافا ، وكان الجيش السويدي كله مرابطا حولها . وبعد ثلاثة ايام بلغ ابراكسين بقراره بعد ان قيم الموقف وتناسب القوى (فقد وصلت القوات الروسية الى هناك ايضا) :

— اقتربنا كثيرا من جيراننا وفي هذا الشهر ستكون لنا باذن الله القضية الرئيسية معهم .

في معركة بولتافا وجد الجيش السويدي نفسه في طوق استراتيجي ، وقد استنزفته كثيرا الهزائم والحصارات والمسيرات والمجاعة . اما الجيش الروسى فعلى العكس ، حيث غدا اقوى بكثير واقدر على القتال . وفي ٢٠ ايار (مايو) عبر الجيش نهر فورسكلا وبدأ في الحال انشاء الاستحكامات الميدانية في المواقع التي اختيرت للمعركة الشاملة المرتقبة . وكما هو الحال في موقعة ليسنايا رابطت القوات الروسية في اماكن محجوبة واستند جناحها الى الغابات ، وفي الخلف الضفة العالية ، وقد مدت جسور على النهر . وفي المقدمة ينبسط سهل مكشوف ينتظر ان يهجم السويديون من جهته . واعدت هناك ستة خنادق قبع فيها الرماة .

وفي ٢٥ حزيران (يونيو) عقد بطرس اجتماعا للعسكريين وضع خطة المعركة . وتفقد العساكر . ووزع الجنرالات على الفرق ، وعهد بالفرسان الى مينشيكوف ، كما عهد بالمدفعية الى بروس . وجاء في «تاريخ الحرب السويدية» : «ان القيلدمارشال والجنرالات توسلوا الى جلالة القيصر الا يشترك في القتال فتفضل قائلا بالا يحدثوه في هذا الموضوع بعد الآن» . وهكذا فان مشاركة بطرس شخصيا في القتال امر مفروغ منه بالنسبة له .

وفي اليوم التالي ابلغوه بان ضابط صف فر الى السويديين من

فوج سيميونوفسكى . وابلغ الخائن العدو فى اغلب الظن بنقاط الضعف فى مواقع الروس ، ومنها احد الافواج المكون من المجندين الجدد الذين لم يكتسبوا بعد خبرة فى القتال . وامر بطرس فى الحال بان يخلعوا بزاتهم ليرتديها جنود فوج نوفغورود المحاربون الشجعان المحنكون . وزار مرارا وتكرارا مواقع الافواج واتخذ آخر الاجراءات وشجع المحاربين . وسمع ضباط افواج الحرس دعوته التالية :

— تعرفون ان ملكهم المتعطرس الثاقب الذهن وزع المنازل فى موسكو غيايا على قواته ، وعين جنراله شبار متصرفا لموسكو وقرر تقسيم وطننا الحبيب الى امارات صغيرة وابادته نهائيا بادخال الزندقة اليه . فهل نترك هذه الالهانات وهذا الاحتقار دون ان نأخذ بالثأر ؟

ونياة عن الجميع اجاب اليفتيتانت — جنرال الامير غوليتسين مستشهدا بمعركة ليسنايا :

— لقد رأيت عملنا واخلاصنا عندما صمدنا فى النار يوما كاملا ولم تضطرب صفوفنا ولم تتنازل للعدو عن شبر من اراضينا ، واطلقنا النيران اربع مرات ، وملأنا اكياسنا وجيوبنا بالرصاص اربع مرات . اما الان فالقوات نفس القوات . ونحن عبيدك مثلما كنا عليه . ونأمل ان نحقق الان نفس المأثرة التى حققناها آنذاك .

وتلقى كارل قبل عدة ايام من المعركة انباء تفيد بان الاستانة لا تنوى شن الحرب على روسيا ، وان قوات كراساو وليشبنسكى لا تستطيع ان تأتى لنجدته ، لان خيالة الجنرال غوليتسين تقلقها باستمرار . زد على ذلك ان خيالة غير نظامية من ٤٠ الف فارس قادمة لنجدة القيصر الروسى كما افاد الضابط الهارب .

ومع ذلك قرر الملك بدء المعركة الشاملة في ٢٦ حزيران (يونيو) . وقبل ذلك بيضعة ايام ، أثناء استطلاع الموقف في مواضع الخيالة ، ارتطم الملك بعدد من القوزاق الروس حول موقد . قفز كارل من حصانه بخفة واطلق النار على احد القوزاق ، لكنه اصيب برصاصة في ساقه . انتشل طبيب المعسكر الرصاصة ، لكن كارل عجز عن المشي .

وفي نفس اليوم المذكور ، السادس والعشرين من حزيران ، حملوا كارل على النقالة في وضعية اقرب الى الرقاد ، وراح يتفقد صفوف جيشه . والقي خطبة في الجنود والضباط دعا فيها الى فتح روسيا والاستيلاء على ثرواتها . كما دعا الضباط لتناول طعام الغداء في خيمة القيصر الروسي :

— فقد اعد لنا مأكولات كثارا . اذهبوا غدا الى هناك تحلوكم الامجاد .

وقبيل ذلك اتفق الفيلدمارشالان شيريميتيف وريتشيلد بكلمة شرف على بدء المعركة في ٢٩ حزيران (يونيو) «وحتى ذلك الحين لن تجرى اية جولات وغارات مفاجئة من كلا الجيشين» . الا ان الملك داس على هذا الاتفاق . فهو في عجلة كما اعلن ، لان نبأ الخيالة من ٤٠ الف فارس اثاره . والاهم كما يتصور دون شك ، ان شمس النصر والمجد التليد ستشرق كلما عجل في بدء القتال .

وخلافا للملك السويدي تناول بطرس في خطبته امام الجنود امرا آخر هو الدفاع عن الوطن وحماية «شعب عموم روسيا» :

— ايها المحاربون . حانت الساعة التي يتقرر فيها مصير الوطن . فلا تفكروا بانكم تحاربون من اجل بطرس ، انكم تحاربون من اجل الدولة التي عهد بها الى بطرس ، من اجل

شعبكم ووطنكم . . . ولا ترتبكوا لزعم العدو بانه قوى لا يقهر ،
فقد فضحتكم أكاذيبه مرارا بانتصاراتكم . اثناء القتال ضيعوا
الحقيقة نصب اعينكم . واعلموا ان حياة بطرس ليست عزيزة
عليه ، المهم ان تعيش روسيا فى نعيم وتحقق الامجاد فى
سبيل رفاهم .

وفى الساعة الثالثة من فجر ٢٧ حزيران (يونيو) وكان الظلام
لا يزال مخيما دوى هدير ثقيل فى معسكر الروس . فقد اهتزت
الارض لالاف من اقدام الجنود وسنابك الخيل المتجهة صوب
مواقع العدو . وهرع المشاة السويديون الى الخنادق واستقبلت
خيالة مينشيكوف خيالتهم بهجوم مضاد . زحزح السويديون
الروس قليلا فوقعوا تحت وابل نيران المدفعية ثم انسحبوا . زج
رينشيلد الذى قاد الجيش السويدى بسبب جراح الملك خياله
فى الجناح الايسر لثلتف على الجناح الايمن الروسى . الا ان
مينشيكوف وروس جعلها تنسحب . وكان تفوق المدفعية
الروسية فى ساحة المعركة كبيرا للغاية — مائة ومدفعان مقابل ٣٩
مدفعا سويديا .

وباعاز من بطرس سحب مينشيكوف خياله . وتصور السويديون
هذه المناورة تراجعاً فهرعوا يلاحقونها ، لكنهم وقعوا من جديد
تحت وابل نيران المدفعية والبنادق . وحاولوا ان يتخلصوا منها
فى الغابة ، لكن الموت كان ينتظرهم هنا على ايدى الافواج
الروسية .

كان بطرس لا يزال يحتفظ بقواته الاساسية فى المعسكر .
وفى حوالى الثامنة صباحا اخرجها منه . وسحب من الخط الامامى
افواج الخيالة الخفيفة الستة بقيادة شيريميتيف وتركها جانبا مع
قوزاق سكوروبادسكى وامرهم بانتظار التعليمات للانخراط فى

المعركة . وحاول شيريميتيف وريبين ان يقنعا القيصر بالعدول
عن سحب وحداتهما :
— القتال يتفوق في عدد القوات مضمون أكثر من القتال
بعدد متعادل .

— العقل والفن ينتصران أكثر من كثرة العدد .
كان بطرس على حق طبعا . صف الجيش في مخطط
القتال : المشاة في الوسط ، والمدفعية بين افواجهم ، والخيالة
على الجناحين . سدد السويديون ضربتهم الى وسط المخطط
الروسي ، حيث يتواجد فوج نوفغورود . واخذت كتيبته الاولى
تنسحب لانها لم تصمد لضغط العدو الشديد . وتقدمت الكتيبة
الثانية وعلى رأسها بطرس في هجوم زحزح السويديين . وفي
تلك الاثناء ضيقت الخيالة الروسية الخناق على الخيالة السويدية
في الهجوم . ولفظت المدافع الروسية نيرانها وقنابل كريات
الرصاص ، وكبدت السويديين خسائر جسيمة . ويقول احد
المعاصرين :

— اطلقت بامر جلاله القيصر الصلية الاولى بشدة حتى خيل
لقوات العدو بسبب الصوت الهادر لتساقط الجثث على الارض
والبنادق من ايدي القتلى ان بنايات ضخمة هوت على الارض .
وبإشارة من بطرس شنت الافواج الروسية هجوما عاما .
وفر السويديون مذعورين . ولم ينصتوا الى نداءات الملك الذي
رفعه حمالوه على الايدي فراح يصبح دون جدوى ليقنع قواته
المدحورة بضرورة الصمود .

وكان النصر تاما كاملا . واسرع بطرس الذي لا يعرف الكلل
كل هذه الايام فكتب الى موسكو عن «النصر العظيم غير
المتوقع» . وجاءوا بالجنرالات والوزراء السويديين الاسرى الى

خيمته . وسألهم القيصر :

— هل يعقل انى لن ارى اليوم اخى وشقيقى كارل ؟
لم يجدوا الملك حيا ولا ميتا . كان قد فر بجلده آنذاك
مع فلول جيشه الى الغرب ، الى الدنيير . وراحت خيالة بطرس
تلاحقه ، الا ان الخيول المتعبة للغاية سرعان ما توقفت . وفى
مساء ذلك اليوم ارسل القيصر افواج الحرس والخيالة الخفيفة
لملاحقة العدو . وقبل ذلك ، بعد الظهر ، اقام بطرس فى
خيامه مأدبة للمتصرين . ودعى اليها كذلك الجنرالات والوزراء
الاسرى . وتلك حادثة لها دلالة كبيرة . فان بطرس ، كروسي
قح ، لا يعرف الرحمة فى معاملة العدو أثناء القتال ، لكنه
يبدى ازاء المغلوبين سماحة الفرسان . واثنى على شجاعة
الفيلدمارشال رينشيلد ووجهه سيفه . وسمع الحاضرون خطبة القيصر
والقائد الروسى الرائعة :

— يوم امس دعاكم اخى الملك كارل ان تتناولوا طعام
الغداء فى خيمتى ، وها انتم فى خيمتى تفون بالوعد ، لكن
اخى كارل لم يتفضل بالمجىء معكم الى خيمتى ، ولم يف
بوعده . كنت انتظره على احر من الجمر ، انتظرته من صميم
القلب ليتناول الطعام فى خيمتى . ولكن طالما امتنع جلالته
من تناول الطعام عندى فانا ادعوكم انتم لتناول الطعام .
ورفع بطرس اثناء المأدبة نخبه الشهير :

— نخب صحة معلمينا ، صحة السويديين !

ورد عليه يبير فى الحال :

— لقد شكرتم معلميكم جيدا يا صاحب الجلالة .

واثناء الحديث مع الاسرى سمع بطرس من يبير نفسه ومن
رينشيلد انهما حاولا من زمان اقناع الملك بقبول الصلح مع

روسيا ، واعلن :

— الصلح بالنسبة لى احلى من كل الانتصارات .
وفى سياق المعركة فقد السويدون أكثر من ٨ الاف قتيل
و٣ الاف اسير ، وفقد الروس ١٣٤٥ قتيل . واستولى الغالبون
على كل العربات وكسبوا غنائم كثيرة . وبعد ثلاثة ايام ، فى
الثلاثين من حزيران (يونيو) عبر كارل ومازيا وعدد غير كبير من
انصارهما نهر الدنيبر فى موضع بيريفولوتشنا وفروا صوب الممتلكات
العثمانية . وفى اواخر تموز (يوليو) اسرع الاثنان الى بنديرى ،
وسرعان ما توفى الخائن مازيا هناك ، وربما مات ميتة طبيعية
او تجرع السم . اما الجيش الذى تركه الملك — بقى منه أكثر
من ١٦ الف جندى جبايع محطى المعنويات عهد كارل
بقيادتهم الى ليفينهاوبت — فقد سلم نفسه الى فيلق مينشيكوف
البالغ عدده تسعة الاف رجل . وبهذه المناسبة امر بطرس
صديقه الفيلدمارشال قائلا :

— ارسل لنا دون تعطيل ٥٠٠ حصان مع عربات لنوصل
بها الى القافلة اسلحة العدو ومعدات جنوده .
ولم تعد عساكر كارل الثانى عشر «على قيد الحياة» . وتعززت
مواقع روسيا حالا وبصورة ملحوظة ، وقد فهم بطرس ذلك
تماما . فراح يستعجل جنرالاته ويطالبهم بان يطردوا السويديين
من مدن وقلاع البلطيق . وكتب الى اغسطس الثانى بانه سيصل
مع جيشه الى بولونيا . وناقش مع ابراكسين خطة «الصيد» فى
فيبورغ وتحرير ريفيل (تالين) . وافرح الامير الحاكم بقوله :
— لا شك ان رغبة معاليكم فى اتخاذ بطرسبورغ مقرا
لكم قد تحققت بنتيجة سقوط العدو نهائيا .
وتقديرا للنصر فى معركة بولتافا كوفى جميع المشاركين فيها

بمداياات فضية (للجنود) وذهبية (للضباط) ، وتسلم جميع الجنود منحة بمرتبة شهر او شهر ونصف . وتلقى الجنرالات والضباط ترقية واوسمة وازاى . وغدا مينشيكوف فيلدمارشالا ، وغدا غولوفكين مستشارا ، كما حصل شافيروف على منصب معاون المستشار وهلمجرا . وبعد خمسة اشهر ، بناء على اقتراح كورباتوف كبير جباة الضرائب ، صدر مرسوم بطرس باعفاء الفلاحين من الضرائب المترتبة عليهم طوال كل السنين السابقة ، ما عدا السنتين الاخيرتين .

واخيرا قدم بطرس طلبا الى شيريميتيف ليشيد بخدماته ، وهى بالمناسبة خدمات كثيرة :

— السيد الفيلدمارشال ارجو ان توصى معالى حاكمينا الاثنين بتقدير خدمتي ، كى احصل لقاءها على منصب لواء بحرى ، ورتبة ليفتينانت جنرال اقدم فى القوات هنا . وحالما يصلك اول اشعار من موسكو ارجو ان ترسل مرسوم صاحبى الجلالة الى الاميرال حول منصبى .

ان الصيغة الهزلية لهذا الطلب وذكر «معالى حاكمينا الاثنين» و«صاحبى الجلالة» (المقصود الامير الحاكم رومودانوفسكى ومدير شؤون الزيمستفو بوتورلين) تلمح الى تصورات بطرس عن خدماته للوطن ومجهوده الجليل فى سوح الوغى . وابلغه رومودانوفسكى بترقيته فى المنصب لقاء «المآثر الفروسية الباسلة والفن الجرىء فى الشؤون الحربية» . وقد ابدى القيصر فعلا اثناء معركة بولنافا مهارة رفيعة كقائد عسكرى وتعرض للخطر كجندى . فقد اصابت رصاصة العدو قوس سرجه ، واصابت رصاصة اخرى قبعته . ورد القيصر على الامير الحاكم رومودانوفسكى بالشكر والامتنان : — اننى لا استحق ذلك ، وقد منحتمونى اياه من جميل

عطفكم على ، وابتهل الى الخالق كي يمنحني القدرة على العمل لاستحق تقديركم هذا في المستقبل .

وبعد قليل سافر بطرس الى كييف واستمع الى خطبة فيوفان بروكوبوفيتش رئيس اكاديمية كييف ، وهو رجل متعلم للغاية (درس في كييف ولفوف وكراكوف وروما) وخطيب مصقع وكاتب اجتماعي معروف . وكانت مكرسة للنصر في بولتافا ولبطرس القائد العسكري الذي حقق هذا النصر :

— لم تكف بارسال الافواج الى سوح الوغى بل واجهت العدو بنفسك وتوجهت بنفسك صوب السيوف والرماح الاولى . واستمع بطرس الى الخطيب بارتياح ، وربما خطرت على باله مشاهد المعارك الماضية ، وخصوصا المعركة المجيدة الاخيرة التي سطرت صفحة جليلة في تاريخ الوطن .

من بولتافا الى هانكو

لقد غير الانتصار في معركة بولتافا سير الحرب جذريا ووضع حدا فاصلا بين ما كان قبلها وما جاء بعدها من احداث على مسرح العمليات الحربية . وقد ادرك بطرس ذلك تماما ، شأن سائر الروس . وكما هي العادة اثناء انتصارات السلاح الروسى جرى الاحتفال بالنصر الباهر الجديد باكبر قدر من الفخفة والابتهاج وبكل ما يقوى عليه القيصر الماهر والحاذق من ابداعات واختراعات . وبناء على خطته جابت القوات المظفرة شوارع موسكو وساحاتها واقتيد أكثر من ٢٢ الف اسير سويدي (من اسرى معركتى ليسنايا وبولتافا) وحملت كميات من الغنائم لا تعد ولا تحصى . وكان فى مسيرة الاسرى الكونت بيير الوزير الاول للملك السويدي ، ومن الغنائم النقالة التى حملوا عليها الملك كارل ابان المعركة . وفى عيد رأس السنة (١٧١٠) شاهد اهالى موسكو مهرجانا جديدا لا يقل عن ذلك فخفة . فبعد صلاة العيد فى كاتدرائية العذراء فى الكرملين اشعلت العاب نارية هائلة بمناسبة النصر فى بولتافا .

وفى اوربا بعد معركة بولتافا اختفى ازدراء روسيا وحلت محله هزة واحترام مختلط بالخوف من قدرتها . اما البلاطات الاوربية التى كانت فيما سبق تسخر من الدبلوماسيين الروس

فقد اخذت تبدي اهتماما بالغاً بهم . لكنهم ، على غرار قيصريهم ، صاروا يتصرفون برزانة وهدوء وبشعور من الكرامة الشخصية والاعتزاز بوطنهم روسيا . ولم تكن الاحتفالات والمدائح والتمجيد قد اسكرت بطرس ، فلم يستعجل في القتال ليقصم ظهر السويد نهائيا . والاكثر من ذلك انه كان كالسابق يسعى الى انتهاء الحرب وتوقيع معاهدة الصلح . ففى اعقاب معركة بولتافا طرح اقتراحات فيها كثير من الاعتدال لمراعاة المصالح الشرعية لروسيا . وتناولت الاقتراحات حصول روسيا على الاراضى المتاخمة للخليج الفنلندى التى تؤمن لها منفذا الى البلطيق . وسلمها الى الجانب السويدى الجنرال ميرفيلد وسكرتير الملك السويدى تسيديرهيلم اللذان وقعا اسيرين بايدى الروس . الا ان كارل الثانى عشر رفض المقترحات السلمية من جديد . ومن الغريب ان الملك السويدى يتصرف وكأن شيئا لم يحدث . فهذا الحاكم الذى دمر بلده واهلك جيشه وصار بمثابة المتطفل على بلد آخر انما يتصرف بثقة فى النفس تكاد تبلغ ثقة المتصرف فى نفسه . وراح يبعث الى السويد ايعازات متوالية بشأن تجنيد المقاتلين ومواصلة الحرب مع ان شعبه البالغ عدده مليوناً ونصف المليون يئن ويتضور من الهزال والاستنزاف . لكن الملك اصم لا يسمع شيئا ولا يعير انتباهها للتوسلات والتقارير القادمة من استوكهولم والتى لا تسر اذنيه ، وقد امر بالا يرسلوها اليه بعد الان . اما سلطات استوكهولم فهى تطبق اوامره بصورة عمياء وتحمد ربها لانقاذ الملك ، وتنشر بخصوص ما حدث فى بولتافا اشاعة سخيفة تقول ان عشرين الف سويدى هناك انهزموا امام ٢٠٠ الف روسى .

صحيح ان السويد كانت لا تزال تحتفظ ببعض الامال .

فلديها اسطول شديد البأس فى البلطيق ، ولم تلحق الحرب ضررا باراضيتها ، وتوجد قوات سويدية فى البلطيق وفنلندة وبوميرانيا والنرويج بالاضافة الى ما يوجد منها فى السويد نفسها . زد على ذلك انه كان هناك ما يبرر انتظار مساعدة عسكرية من دول اوربا الغربية ، مثل بريطانيا وهولندة والنمسا من جهة ، وفرنسا من جهة اخرى . فان حكام هذه الدول ، انطلاقا من مصالحهم ، كانوا يأملون فى استمالة السويد الى جانبهم . لكن هذه المخططات انهارت وتقوضت للأسف الشديد . واضطرت البلاطات الاوربية المصعوقة الى اعادة تنظيم مخططاتها فى السياسة الخارجية على جناح السرعة . ويقول المؤرخ الاميركى روبرت ماسى ان بولتافا غدت «تحذيرا خطيرا» للعالم كله . وصار «الساسا الاوربيون الذين كانوا فيما سبق يبدون اهتماما بالقيصر لا يزيد كثيرا عن اهتمامهم بشاه بلاد فارس او مهراجا الهند يتعودون من الان فصاعدا على مراعاة المصالح الروسية بدقة . فان ميزان القوى الجديد الذى اقامه فى ذلك الصباح مشاة شيريميتيف وخيالة مينشيكوف ومدفعية بروس والجبار العملاق الذى قادهم جميعا كان سيبقى ويتطور فى القرون الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين» .

ولكن روسيا رغم «ميزان القوى الجديد» اضطرت على مواصلة الحرب ، ولامد طويل جدا . فقد اضطر بطرس وقادته العسكريون ودبلوماسيوه الذين صاروا اكثر خبرة بكثير من السابق الى قيادة القوات مرارا وتكرارا والى شد وحل عقد مهمات السياسة الخارجية المتشابكة . وادت حصيلة معركة بولتافا الى تسهيل امور كثيرة . فقد التقطت سكسونيا والدانمرك انفاسها ، وصار بالامكان ، اعتمادا على بطرس وعلى قوة روسيا ، فسخ معاهدتى ترافيندال

والترانشتادت المهيئين بالنسبة لهما . وزج اغسطس الثانى بقواته السكسونية فى بولونيا التى فر منها ستانيسلاف ليشينسكى ، وانسحب كراساو مع جيشه السويدى الى بوميرانيا . واعلن حاكم سكسونيا من جديد عن حقوقه فى عرش بولونيا بعد ان تخلى عنها قبل ثلاث سنوات . أما توقيع المعاهدة مع كارل فى الترانشتادت ، كما يقول حاكم سكسونيا ، فالذنب فيه يعود الى مستشاريه الرديئين . كل ذلك قاله اغسطس الثانى الى بطرس اثناء لقائهما فى مدينة تورون البولونية فى تشرين الاول (اكتوبر) ١٧٠٩ . وتظاهر القيصر بانه يثق به ، فهو مضطر الى التحالف معه من جديد . لكنه اراد ان يلعب على اعصابه قليلا . فقد جاء للقاءه ومعه سيف اثار حيرة واضطراب «صديقه وحليفه» الذى استعاده مجددا . وظل اغسطس يحدق فى السيف ولا يدرى كيف يتخلص من الخجل الذى اعتراه . فهذا السيف كان بطرس قد اهداه اياه فى حينه ، لكن اغسطس اهداه الى الملك السويدى فى الترانشتادت . وقد عاد السيف الى القيصر مع الغنائم الاخرى من ساحة القتال فى بولتافا . وابدى بطرس هنا ايضا سماعة وطيبة قلب ، فقد سلم السيف ثانية الى اغسطس

وقع العاهلان فى تورون معاهدة استئناف التحالف . وكان اغسطس قد فسخ معاهدة الترانشتادت فى بداية آب . وراح يتزلف الى بطرس حتى افرد فى التزلف والخنوع مع انه ظل كما كان فى السابق حليفا رديئا . ووفق المعاهدة الاولى حصل على مساعدات مالية وعلى ليفلانديا ، لكنه وافق على ضم ايسلانديا وعاصمتها ريفيل ، فضلا عن اينغريا الى روسيا . وفى عام ١٧١٠ اعترفت بولونيا ، من خلال مجلس السيم

في وارشو ، بمعاهدة نارفا لعام ١٧٠٤ و«بالصلح الابدى» لعام ١٦٨٦ . ووقعت روسيا مع الدانمرك ايضا معاهدة جديدة للتحالف والحرب ضد السويد ، وبطل مفعول معاهدة ترافيندال . وبذلك استؤنف الحلف الشمالى . الا ان روسيا وحليفاتها الدانمرك وسكسونيا قدمت ، نزولا عند طلب بريطانيا وهولندا ، ضمانات تؤكد ان القوات الدانمركية والسكسونية ستحارب كالسابق الى جانب الحلف الكبير ضد فرنسا . وتمكن بطرس كذلك من تحييد بروسيا وهانوفر .

كان الموقف لا بأس به حسب الظاهر . لكن بطرس سرعان ما تأكد من جديد ان روسيا يجب ان تعتمد على نفسها فقط فى الحرب ضد السويد . فان اغسطس الذى هزم مرارا فى سوح القتال مع السويديين يحاول ان يتملص من العمليات الحربية الجديدة . صحيح ان الدانمرك انخرطت فى القتال بهمة لكى تأثر من السويديين . وظهرت قواتها فى جنوب اسكنديناڤيا ، وضربت العدو فى البداية ، لكنها سرعان ما تكبدت هزيمة ماحقة على يد الجنرال ستينبوك فى شباط (فبراير) ١٧١٠ .

اما الجيوش الروسية فقد ظلت تحرز النصر تلو النصر . وغدا عام ١٧١٠ من هذه الناحية وفير «المحصول» . كان جيش شيريميتيف يقاتل فى البلطيق ، اما الفيلدمارشال الجديد ، مينشيكوف ، فهو يقاتل فى بولونيا . فى البداية اقتحم الجنود الروس قلعة ايلسينغ ، ثم جاء دور ريغا . بدأ حصارها فى تشرين الاول (اكتوبر) ١٧٠٩ ، وفى تشرين الثانى (نوفمبر) وصل بطرس واطلق القذائف الثلاث الاولى من المدفع . لكن النصر لم يتحقق هنا فى فصل الشتاء . زد على ذلك ان الطاعون

الذى تفشى فى هذه البقاع حصد المحاربين الروس اكثر مما حصدهم رصاص العدو . وفى الربيع استؤنف الحصار . وكان تاما— من جهة البر والبحر . ونفذ شيريميتيف ايعاز بطرس الصارم :

— لا تحاول الاستيلاء على هذه المدينة بهجوم رسمى ما عدا الحصار الخائق ، لان الوقت متأخر اولا ، وثانيا لان حاميتها كبيرة والقلعة ذات دفاع متين جدا ، وثالثا— ليس هناك خطر من جانب السويديين ولا مجال لانتظار النصر . استسلمت ريغا فى ٤ حزيران (يونيو) بعد ان قصفها الروس بالمدفعية . وفى اذار (مارس) من العام ذاته بدأ حصار فيبورغ . وقد وضع بطرس خطة هذا الحصار . وترأس هو ايضا فى ايار (مايو) حملة ٢٥٠ سفينة نقل محملة بالجنود والمدفعية والذخيرة . وكانت ظروف الحملة عصبية للغاية . فالبحر لم يتخلص بعد من الجليد ، والقلعة المنيعه ذات حامية قوية وفيها مدفعية . وبغية تضليل المحاصرين اوعز القيصر الى البحارة بان يرتدوا البزات السويدية ، كما رفعت الاعلام السويدية على السفن . وتفحص بطرس القلعة بكل اهتمام من البحر والبر ورسم خطة العمليات . واوز الى ابراكسين قائلا :

— حالما تكون الثغرات وغيرها جاهزة حسب خطتى يجب اطلاق النار منها طوال ما لا يقل عن اسبوع ثم يبدأ الهجوم . واستسلمت فيبورغ على غرار ريغا . وتم ذلك فى ١٣ حزيران (يونيو) . وفى اليوم التالى دخل بطرس القلعة على رأس فيلق بريوبراجينسكى . تفحص استحکامات القلعة طوال ثلاثة ايام . واحتفل بالنصر هنا فى البداية ، ثم فى بطرسبورغ ، حيث حمل القيصر-المقدم وافراد افواج الحرس الغنائم من

الرايات السويدية فى شوارع المدينة .
وفى نفس تلك الحملة وضعت السلاح امام القوات الروسية
حاميات ديناميوندى ويرنوف (بيارنو) وريفيل (تالين). وكيكسهولم
(كوريل). وكانت لدى بطرس كل المبررات ليعبر عن فرحته
وارتياحه بخصوص حملة ١٧١٠ الموفقة :

— هكذا طهرنا ليفلانديا وايستلانديا من العدو تماما ،
وباختصار فان العدو لم يعد يمتلك على الساحل الايسر لهذا
البحر الشرقى (البلطيق — ملاحظة المؤلف) لا مدنا ولا اراضى .
وهكذا طهرت القوات الروسية منطقة البلطيق من السويديين .
وبهذه المناسبة اطلقت صليبات المدافع فى بطرسبورغ . ودقت
النواقيس ثلاثة ايام . وزينت السفن الراسية فى نيفا بالانوار .
ولم ينقد السويد شىء بعد ان استنزفت قواها وهزمت مرارا .
لم تنقذها الجهود الحربية المحمومة ولا مساعدات بريطانيا
وهولنده والنمسا على الصعيد الدبلوماسى . وبجهود هذه الدول
اعلنت «لائحة الحياد» التى يراد لها ان تحول دون دحر السويد
نهائيا على يد روسيا وتمنع هذه الاخيرة من الظهور على مسرح
اوربا الغربية . وفى ٢٢ حزيران (يونيو) ١٧١٠ اعترف بطرس
بهذه اللائحة للابقاء على حلف الشمال وعلى العلاقات الطيبة
مع عدد من ابرز بلدان اوربا ، وللحصول على فترة هيبو . ومنع
تلاحم الدول الاوربية على اساس العداء للروس . ويقول شافيروف :
«مع ان هذا شىء يتعارض مع المصالح العليا لجلالة القيصر
وحلفائه فقد تفضل ، من اجل تبيان اعتداله امام العالم كله .
بالاتفاق مع حلفائه واقناعهم بقبول هذا الاقتراح رغم عدم
جلواه» . واستحسنست الحكومة السويدية فى استوكهولم «لائحة
الحياد» برغبة وفرح . لكن الملك ركب رأسه هذه المرة ايضا ،

فلم يصادق عليها ، فضاعت جهود البلاط البريطاني وغيره .
وتلقى السفير البريطاني فى استوكهولم توجيهها من لندن تضمن
عدم رضاها عن البلد الذى يمثل بريطانيا فيه :
— الوزراء السويديون يلحون فى ان ننفذهم ، ويحرمونا فى
الوقت ذاته من فرصة العمل عندما يرفضون لائحة الحياد التى
هى الوسيلة الوحيدة المتوفرة لدينا كى نسدى لهم هذه الخدمة .
وباصرار من الملك راحت السويد تستعد لمواصلة الحرب .
وخططت روسيا وحلفاؤها ، بعد الحصول على ذريعة ملائمة ،
لحملة على بوميرانيا التى ترابط فيها قوات العدو . وفى هذا
الموقف بذل الساسة الانجليز جهودا جديدة لانقاذ السويد ،
والهدف الرئيسى من تلك الجهود هو الحيلولة دون تعزيز روسيا .
وتلقى ويتورث ، السفير البريطانى فى موسكو توجيهها «ببذل
قصارى الجهود» لجعل روسيا تطرح من جديد مسألة توسط
بريطانيا فى توقيع الصلح مع السويد . لكن الاوضاع تبدلت .
فلئن كان الدبلوماسيون الروس فى البلاطات الاوربية قد سعوا سابقا
الى الالتقاء بزعماء تلك البلدان وطلب بطرس الوساطة
منهم ، فان روسيا الان صارت تتصرف على نحو آخر . فقد
طال انتظار مثل هذا الطلب ، وايدى ويتورث نفسه مبادرة بهذا
الخصوص . فثناء الاحتفال فى موسكو بالنصر فى معركة
بولتافا ، حيث اقتادوا فى شوارع العاصمة عشرات الالاف من
الاسرى السويديين ، تكلم السفير مع القيصر ومع معاونيه
الدبلوماسيين عن توقيع الصلح «بشروط معتدلة» وبوساطة بريطانيا .
ولم يتلق السفير جوابا . وفى اواسط كانون الثانى (يناير) فقط
اعلن شافيروف نيابة عن بطرس ان روسيا مستعدة للصلح اذا
روعت «مصالح دولته» . ويمكن القبول بوساطة بريطانيا اذا

تقدمت باقتراح حول الموضوع بشكل مقبول ، اى عملا
بالمعروف . وفى سياق المفاوضات اللاحقة لا تطلب روسيا
الانضمام الى الحلف الكبير بل تقدم بريطانيا اقتراحا بهذا
الخصوص . واخيرا تقدم بطرس باقتراح حول توسط روسيا
لاجل توقيع الصلح بين بلدان الحلف الكبير وفرنسا . بهذه
الصورة الجذرية تغير الموقف ، وصارت روسيا تؤدى دور الدولة
الكبرى . كل ذلك يطفو على سطح الاحداث ، اما وراء
الكواليس فان بلدان الحلف الكبير استمرت فى دسائسها ضد
روسيا . وهى دسائس لا بد وان تعتبر اعمالا معادية فى الواقع .
ومنها محاولات تفكيك الحلف الشمالى (مثل استمالة الدانمرك
الى صلح انفرادى مع السويد) ، والمفاوضات مع السويد التى
وعدها ، فى حالة مواصلة حربها ضد روسيا ، باعادة كل ما
تفقدته وذلك عن طريق «صلح عام» .

وفى شباط (فبراير) ١٧١٠ بعثت ملكة بريطانيا آن رسالة
شخصية الى بطرس نعتته فيها «بالامبراطور» . وفى السنوات
اللاحقة ظلت العلاقات بين روسيا وبريطانيا جيدة حسب الظاهر ،
مع انها متوترة بسبب عدااء مجلس الوزراء البريطانى (شأن
البلاطات الاوربية الاخرى) لروسيا . الا ان دبلوماسية بطرس
واعوانه الحكيمة الصبور وتعزز قدرة روسيا قد فعلا فعلهما ، حيث
امكن الحيلولة دون تقديم دعم عسكرى سافر الى السويد من
جانب بريطانيا وغيرها من البلدان .

ولكن ليس بالامكان توقع كل الاحتمالات . فقد جاء
العام التالى ، ١٧١١ ، بمفاجأة مؤذية جدا . فالخطر الذى
بدا مهلكا فى زمن ما قد اتى من الجنوب ، من العثمانيين ،
حيث تلقت الاستانة نبأ انتصار روسيا فى بولتافا بخوف وبسورة

من الغضب . واخبر تولستوى ، السفير الروسى فى الاستانة من عدة سنين ، رئيسه مدير العلاقات الخارجية قائلا :

— لا تدهش لاني كنت ابغك برغبة الباب العالي فى السلام عندما كان الملك السويدى بكامل قواه ، واقول لك الان ، بعد دحر السويديين ، اننى اشك وارتاب . وسبب شكى وارتابى ان العثمانيين يرون ان جلالة القيصر انتصر على الشعب السويدى القوى وسرعان ما يريد ان يرتب الامور فى بولونيا على هواه ، وبعد ذلك ، حيث لا يوجد امامه اى عائق ، يمكن ان يبدأ الحرب ضدهم ، ضد العثمانيين . هكذا يفكرون ، ولا يصدقون ابدا بان جلالتهم لن يبدأ حربا ضدهم اذا فرغ من الحروب الاخرى .

لم تكن الاستانة خائفة من تزايد قوة روسيا فقط . فهى تريد استعادة آزوف والهجوم مجددا ، كالسابق (مع عساكر القرم) على المناطق الجنوبية فى روسيا واوكرانيا وبولونيا . صحيح ان السلطان احمد الثالث أكد فى كانون الثانى (يناير) ١٧١٠ على شروط معاهدة الاستانة التى وقعها اوكرائيتسيف قبل عشر سنوات . اما بخصوص كارل الثانى عشر الذى وجد نفسه فى الممتلكات العثمانية فقد وافق العثمانيون على عودته الى الوطن من خلال بولونيا بمرافقة فصيلة روسية . وكان ذلك نجاحا ارتاح له بطرس حتى منح تولستوى ترقية فى الخدمة . وقد تصرف السفير كالعادة ، حيث سلم الى الصدر الاعظم ٢٠٠٠ كيس من النقود السويدية من غنائم بولتافا . وحظى تولستوى بمقابلة السلطان الذى اعلن بانه مستعد لتأكيد الصلح .

الا ان الملك السويدى كان هو الآخر بعين ساهرة . فقد استخدم الذهب الذى نهبه الخائن مازيبا الذى مات مجللا

بالعار خارج الوطن . واقترض الملك مبلغا آخر من اصحاب البنوك الانجليز والهولشتينيين ، ثم ان ملك بريطانيا وحاكم هولشتين خصصا له مالا كثيرا . وبذل كارل قصارى جهده لتأليب السلطان على روسيا وراح يقنعه قائلا :

— تلفت انتباه جلالتكم الامبراطورية الى انه اذا تركنا للقيصر وقتا كى يستفيد من المنافع التى حصل عليها من مصيبتنا فسيهجم فجأة على احدى ولاياتكم مثلما هجم على السويد مع حليفه الغادر ، هجم عليها فى عهد السلم دون ان يعلن الحرب اطلاقا . وان القلاع التى بناها على الدون وعلى سواحل بحر آزوف واسطوله تفضح نواياه الواضحة من حيث اضرارها ضد امبراطوريتكم . وفى مثل هذا الوضع تعتبر الوسيلة الانجع لدرء الخطر الذى يتهدد الباب العالى هى التحالف بين امبراطوريتكم والسويد . ساعد الى بولونيا برفقة خيالتكم الفرسان واعزز قواتى المتبقية هناك واغرز السلاح من جديد فى قلب الدولة الموسكوية لاضع حدا لخطرة القيصر وتسلمته .

ومارس مختلف الدسائس ضد روسيا فى بلاط السلطان العثمانى مخبرو الملك السويدى — الجنرال ستانيسلاف بونياتوفسكى ممثل ليشينسكى فى بلاط كارل ومارتن نيبهاور سكرتير الملك ، والمغامر الالمانى المربى الفاشل للامير الكسى بن بطرس الذى طرد من الخدمة فى روسيا بسبب عدم اهليته ووقاحته . والاهم ان فى حوزة الملك فى تلك اللحظة اموالا اكثر مما عند السفير الروسى . وتبدل الصدر الاعظم من جديد . وكان احد الوزراء العثمانيين ، وهو محمد باشا بنطجى ، يكره روسيا على المكشوف . ولم يردوا على رسائل بطرس الى السلطان حيث انطلق القيصر الروسى من مواقف معتدلة جدا لاستمالة العثمانيين الى الصلح . ووصلت دولت جبرى

خان القرم الى الاستانة ، وهو يحلم من زمان بشن حملة على روسيا . وعقد السلطان جلسة للديوان الكبير اتخذت قرارا بشن الحرب على روسيا . واعلن عن الحرب رسميا في ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٧١٠ . ومن جديد ، وكما حدث مرارا قبل ذلك ، اقتادوا السفير الروسى على ظهر فرس عجوز عبر المدينة كلها الى سجن الابراج السبعة فى اطراف العاصمة على ساحل بحر مرمرة . ومن جديد زج بالسفير تولستوى فى السجن ونهب الاهالى داره .

كانت خاتمة الاحداث هذه بقدر كبير ايضا نتيجة للدسائس الدبلوماسية بين الاوربيين فى الاستانة . وتنفيذا لتوجيهات حكوماتهم اجبوا الخلاف بين الاستانة وروسيا ليجروهما الى النزاع ، والى الحرب فى آخر المطاف . وقال وزير الخارجية البريطانى سان جون : «من مصلحتنا دون شك ان نغذى الحريق فى هذه الارجاء حتى ننهى قضيتنا الكبرى مع فرنسا» . وكان اكثر الجميع تديرا للدسائس السفير الفرنسى ديزالير الذى نعتوه بحق بـ«نائب السلطان» . كانت بداية النزاع مع الاستانة الذى استثاره ملك السويد والدبلوماسيون الاوربيون تعنى بالنسبة لروسيا حربا على جبهتين . ولم يكن مرغوبا فيها طبعا . الا ان بطرس فى عهد النشوة المعروفة بعد الانتصار فى معركة بولتافا كان ينظر الى الامور بمنظار الامل على الاقل ، ان لم نقل بمنظار مشرق وضاء . حقا ، فالجيش الروسى صار بعد معركة بولتافا يعتبر من افضل الجيوش فى العالم . زد على ذلك ان الموقف غدا ملائما حسب الظاهر: فان قسطنطين برينكوفيانو حاكم فالاخيا ودميتري كانتيمير حاكم مولدافيا وقعا اتفاقيتين مع بطرس ووعدا بالتزام جانبه وتخصيص

قوات واغذية مقابل تحرير اراضيها من النير العثماني والانتقال الى حماية روسيا . كما وعد بتقديم القوات والاغذية ممثلو الصرب والجبل الاسود اللذين كان شعباهما ، شأن سائر الشعوب السلافية (الصقالبة) في البلقان ، ينويان اعلان الانتفاضة على مضطهديهما العثمانيين .

وحاول بطرس عدة مرات اخرى ان يستميل السلطان الى الصلح . وطلب من بريطانيا وهولندة التوسط في توقيع الصلح مع السويد ، واعرب عن استعدادة لترك ليفلانديا مع ريفيا لصالح بولونيا ودفع تعويضات الى السويد مقابل جزء من فنلندة ، ولا ينتقل الى روسيا سوى اينغريا وكاريليا ونارفا . لكنه لم يوفق في هذا وذاك . فاضطر الى القتال على جبهتين . . .

وبدأ القيصر نشاطه على طريقته الخاصة بهمة واصرار . فالصعوبات ، كما هي العادة ، تدفعه وتستحثه . وبعث الى ابراكسين ، متصرف مدينة آزوف ، ايعازات باعداد الاسطول للمعارك واعداد الزوارق والقوارب لاجل قوزاق الدون ودعوة القلميق وتتركوبان لمقاتلة عساكر القرم . وراح القيصر يستعجل شيريميتيف حيث يتعين عليه ان يزحف من البلطيق الى الجنوب ، الى مسرح العمليات الحربية الجديد . فهذا الفيلدمارشال يتميز بالتباطؤ عادة . ولذا استحثه القيصر واستعجله واعربت رسائله اليه عن نفاد صبره .

— استعجل .

— ارسل الافواج فورا الى الاماكن المقررة .

— يجب التحرك من كل بد ، لان المشاة اذا تخلفوا

وهجم العدو على الخيالة وحدهم قد يعم خوف عظيم .

وراقب القيصر بكل اهتمام تحرك قواته وتزويدها بالمؤن

والدخيرة" وتدريب المجندين الجدد وامدادات الجيش . وفي ٢٥ شباط (فبراير) ١٧١١ تلى فى كاتدرائية اوسبينسكى فى كريملين موسكو بيانه الذى اعلن فيه الحرب على العثمانيين . وفى ٦ آذار (مارس) ارتحل الى الجيش المقاتل . وقبل ذلك بايام ، فى الثانى من اذار اصدر مرسوما بتشكيل السينات (مجلس الشيوخ) من الهيئة العليا للدولة . وعلى حد تعبير مؤسسه بطرس :
... لقد قررنا تشكيل السينات الحكومى لاجل الادارة فى غيابنا .
... تأسست هذه الهيئة مؤقتا ، لكنها استمرت اكثر من قرنين .
وترك القيصر توجيهات صارمة بخصوص واجبات الهيئة الجديدة وحدود سلطاتها ، وهى مكونة من ٩ اعضاء وضع القيصر نفسه قائمة باسمائهم :

— فليتمسك كل شخص باوامرهم كما يتمسك باوامرى ، ويعاقب المخالف بعقاب شديد او بالموت حسب ذنبه .
... وكلف بطرس مجلس السينات بالرقابة العليا على الدعاوى القضائية . وصرف الاموال ومضاعفتها لان «النقود شريان الحرب» على حد تعبيره .

— آنذاك يا فى يوم الرحيل ، اعلن بطرس عن زواجه الشرعى من يكاترينا ، وهى مارتا سكا فرونسكايا خادمة احد القساوسة سابقا التى نشأت بينه وبينها علاقات طيبة خلافا لزوجه الاولى ورزق منها بابنتيه آنا ويليزافيتا . وقد جرى عقد القران فى الكنيسة قبل ذلك ، فى شباط (فبراير) . وكان مصير زوجته وبنتيه يقلقه ، فهو لا يستبعد النتيجة السيئة غير المتوقعة بالنسبة له شخصيا فى تلك الاحداث المفاجئة (وبالمناسبة فقد انتابته مشاعر مماثلة فى عام ١٧٠٨ عندما امر ، تحوطا لاحتمال مقتله ، بتسليم ٣ آلاف روبل الى «يكاترينا فاسيليفسكايا

وبتئها» . واعترف بطرس الى مينشيكوف بصدد اسباب عقد
القران رسميا :

— انا مضطر للقيام بذلك لان خاتمة هذا الطريق غير
معروفة ، فاذا قضيت سيتمكن من العيش ، والحال هذه ،
بشكل افضل .

وفي الطريق بلغه نبأ موت ولي العهد الجورجي (الاييريتي)
في الاسر السويدي ، فتشكى الى صديقه الحميم مينشيكوف
قائلا :

— يؤلمني جدا موت هذا الامير الرائع ، ولكن ما فات لا
يعاد ولا نفع في الذكريات . الكل فان الا الله .
ويبدو ان القيصر قلق جدا من الحرب القادمة ضد
العثمانيين . وسرعان ما تأكدت مخاوفه . وصلت القوات الروسية
الى مولدافيا في ٣٠ حزيران (يونيو) ، وكان القبط شديدا والجنود
عطشى لدرجة جعلت الكثيرين منهم لا يتحملون الالام فجتوا
وانتحروا . ولم تصل المساعدة الموعودة ولا المؤونة . واقدم
برينكوفيانو على الخيانة وافشى للعثمانيين خطة الحرب . وظل
حاكم مولدافيا كاتمير على العهد ، لكن مساعدته لم تكن
بالحجم المتوقع . كما ان صقالبة البلقان المضطهدين من قبل
الباب العالي لم يتمكنوا من تقديم مساعدة تذكر .

لكن الحملة استمرت ، وعبر الجيش الروسي نهر الدنيستر
ووصل الى بروت . وفي الطريق الى الجيش ابدى بطرس اهتماما
بامداد حاميات مدن البلطيق بالمجندين الجدد بعد ان اصابها
الضعف نتيجة لتوجه قسم كبير من القوات الى الجنوب . وراح
يستعجل القطعات المتجهة الى مولدافيا :

— نفذوا كل الواجبات دون ان تضيعوا الوقت ، فاذا

تباطأنا سنفقد كل شيء .
— تؤكد عليكم ان تعملوا بسرعة وتستعجلوا فى اىصال فرق
المشاة الى المكان المطلوب ، فالحاجة ماسة اليها .
— اسرعوا ، عجلوا .
بطرس مقفم بالآمال ، ويخيل اليه ان النصر على العثمانيين
قريب :

— الصرب والبلغار وسائر ابناء الشعوب المسيحية سيهبون بوجه
الأتراك سينضمون الى قواتنا ، والبعض سيتنفضون داخل الدولة
التركية ، واذا رأى الصدر الاعظم التركى ذلك لن يتجرأ على عبور
الدانوب ، وسيفر قسم كبير من قواته ، وربما سيعلنون العصيان .
الا ان الصدر الاعظم والجيش العثمانى تجرأ على عبور الدانوب
الذى لم يتسع الوقت لشيريميتيف حتى يصل اليه ، بل ووصلا
الى بروت . وفى ٩ تموز (يوليو) طوقت العساكر العثمانية بالكامل
الجيش الروسى البالغ تعدادده ٣٨ الف مقاتل . وكان بقيادة
الصدر الاعظم ١٣٥ الف رجل (١٨٠ الفا مع التتار) . وبدأ
الانكشارية بشن الهجوم . وقد وصف هجومهم المريع بونيا توفسكى
الذى كان مستشارا عسكريا للصدر الاعظم العثمانى :

— استمر الانكشارية بالهجوم دون ان ينتظروا الاوامر .

كانوا يصيحون باعلى اصواتهم «الله اكبر ، الله اكبر» وهجموا
على العدو شاهرين السيوف ، وكان بوسعهم ان يخترقوا الجبهة
طبعاً فى هذا الهجوم القوى الاول لولا المراجيم التى اعترضهم
بها العدو . وفى الوقت ذاته تعرضوا لنيران شديدة بتصويب مباشر
تقريباً ، فخفت حماسهم وارتبكوا واضطروا الى الانسحاب
على عجل . راح معاون الصدر الاعظم وأمر الانكشارية يطعنان
الهاربين بسيفيهما لايقافهم واحلال النظام . وراح أكثرهم شجاعة

يتصايحون من جديد ويهاجمون للمرة الثانية ولم يكن الهجوم الثاني شديدا كالأول ، فاضطر العثمانيون الى الانسحاب من جديد .

واستمرت المعركة ثلاث ساعات . وتمكن جيش بطرس الصامد غير الهياب من صد هجمات الاعداء . ودمرت بنادق الجنود وكذلك المدفعية بخاصة صفوف العثمانيين الذين فقدوا سبعة آلاف قتيل . وكانت خسائر الروس اقل بكثير . زد على ذلك ان بطرس كان يستطيع فى لحظة انسحاب العدو ان يحقق «نصرا تاما» ، على حد تعبير مؤلفى «تاريخ حرب الشمال» ، لو تمكن من تنظيم الملاحقة كما يجب . الا انه وجزالاته كانت تساورهم مخاوف ليست دون اساس . فلم يتسن بعد احاطة قوافل العربات الروسية بخندق حماية ، وكان الجنود مرهقين مستنزفين بالعطش والحر والجوع . وبدا الموقف ميثوسا منه ولا مخرج فيه .

ولم تكن حال العثمانيين افضل ، مع ان بطرس والروس لم يكونوا يعرفون بذلك . فان قابليات الروس القتالية صعبت العدو . فعندما امر الصدر الاعظم فى اليوم التالى ، العاشر من تموز (يوليو) باستئناف الهجوم رفض الانكشارية كذلك التقدم للقتال . وبهذا الخصوص بعث السفير البريطانى ساتون تقريراً الى رؤسائه جاء فيه :

— قال شهود العيان على هذه المعركة ممن يتحلون بالعقل السليم انه لو كان الروس يعلمون بالرعب والحيرة اللذين انتابا العثمانيين ويستطيعون ان يستفيدوا من تفوقهم ويواصلوا التقصف المدفعى ويقوموا بهجوم لا يمكنهم بالطبع ان يدحروا العثمانيين . حقا ، فالجيش العثمانى الذى يعادل اربعة امثال الجيش

الروسي قد شل . لكن بطرس لم يتصور ذلك . ولم يكن يعرف كذلك ان الجنرال رينيه نفذ امره واحتل برايلوف ودخل مؤخرة العثمانيين وصار يهددهم بالتطويق . وقد بعث تقريراً بهذا الخصوص الى القيصر لكنه وقع في يد الصدر الاعظم . فقد اسر العثمانيون الرسول الروسي .

وفي نفس ذلك اليوم ، العاشر من تموز (يوليو) ، بعث بطرس رسالة الى مجلس السينات :

— السادة اعضاء المجلس . ابلغكم بانى مع قواتى مطوقون بقوة تركية تفوقنا سبع مرات ، ولا ذنب او جريرة لنا سوى الانباء الكاذبة ، حتى ان كل الطرق قطعت امام المؤونة ، واني ، بدون عون كبير من العلى القدير ، لا ارى امامى سوى الهزيمة او انى اقع اسيراً بايدي الاتراك . واذا حصل هذا الاخير فلا تعتبرنى قيصرًا وحاكماً لكم ولا تنفذوا شيئاً مما اطلبه منكم وان كان صادراً عنى وبأمر منى ، حتى احضر بنفسى وبشخصى امامكم . ولكن اذا قتلت وبلغتكم انباء موثوقة عن وفاتى فاختراروا فيما بينكم اجدر واليق شخص يرثنى .

يمكن ان نفهم الافكار اليائسة التى انتابت القيصر فى تلك الايام والساعات . فقد خيل اليه ان الهزيمة الماحقة والاسر او القتل شئ حتمى لا مفر منه . صحيح ان النص الاصلى لهذه الرسالة-الوصية ضائع . وقد نشرها لأول مرة ياكوف شتيلين باللغة الالمانية فى عام ١٧٨٥ ، واعتبرها الكثيرون مزورة . مع ان آخرين يعتبرونها صحيحة . وعلى اية حال فالموقف فى تلك الايام المنحوسة من تموز (يوليو) ١٧١١ يجعل كتابة مثل هذه الوثيقة من قبل بطرس امراً ممكناً تماماً ، بل وضرورياً . وفى نفس ذلك اليوم ، العاشر من تموز ، عقد بطرس

اجتماعا عسكريا اتخذ قرارا بتقديم اقتراح الى العثمانيين للبدء بالمفاوضات ، واذا رفضوا تقرر حرق العربات ومهاجمة العدو .
ووصل الى الصدر الاعظم رسول يحمل رسالة مــــن شيريميتيف :

— تعوفون معاليكم ان الحرب الحالية اندلعت ليس برغبة من جلالة القيصر ونأمل انها ليست برغبة من جلالة السلطان ، بل بنتيجة تحريض من الآخرين . ونقترح وقف هذه الحرب باستئناف الهدوء السابق الذى يمكن ان يعود بالنفع على كلا البلدين .
واذا كنتم لا تميلون الى ذلك فنحن مستعدون لغيره ، والله يجازى المذنب فى اراقة الدماء ، ونأمل منه عز وجل ان يأخذ بيد الذين لا يرغبون فى اراقة الدماء . ونتنظر جوابكم على ذلك وعدة الرسول باسرع ما يمكن .

ولم يصل جواب . كانوا فى خيمة الصدر الاعظم يناقشون رسالة الفيلدمارشال الروسى ويتجادلون بحمية ولامد طويل . كان خان القرم وبونياتوفسكى ، صنيعة الملك السويدى ، مصرين على مهاجمة معسكر بطرس فى الحال ، بينما كان القيصر وكل الجنرالات والجنود الروس ينتظرون الجواب ، وهم يكادون يتهاوون على الارض لانعدام الطعام والماء (حتى الخيول ظلت بدون علف لان الجراد اباد الاعشاب) . ولم يصل الجواب . فبعثوا رسولا آخر . وبلغ التوتر اقصى حدوده . ووصف السفير الدانمركى ، نقلا عن شاهد عيان ، ما حصل فى المعسكر الروسى :

— بلغ القيصر المطوق من قبل الجيش العثمانى حدا من اليأس والقنوط حتى صار يجوب المعسكر راكضا جيئة وذهابا كالمجنون ، وكان يضرب صدره بيديه وقد عجز عن النطق .

وظنت اغلبية المحيطين به انه مصعوق . وكانت زوجات الضباط
الكثيرات ينتحبن ويولولن بلا انقطاع .
اما من جهة العثمانيين فلا خبر جاء ولا وحى نزل . واعرز
بطرس الى الافواج بان تتقدم للقتال . وتحركت الافواج . لكن
مبعوثا عثمانيا وصل فى تلك الاثناء ونزولا عند طلبه بوقف
الهجوم ، لان اقتراح الصلح مقبول ، توقف تحرك الجيش .
وبدأت المفاوضات ، فانساق بطرس وراء التطرف من
الجهة الثانية : فلتن كان فى السابق قد استصغر قوى العدو
وبالغ فى تقدير قواه ، فهو الآن على العكس يبالغ فى قوة
العثمانيين ويستعد للقبول باقصى التنازلات لانتزاع الصلح مهما
كلف الثمن .

كان الصدر الاعظم ، وهو غير خبير فى الشؤون الحربية ، يميل
الى الصلح لاسباب عديدة . فالعثمانيون ارتعبوا بالدرجة الاولى من
الجنود الروس ، فان جيش بطرس النظامى بدا افضل بما لا
يقاس من المجموع الغفيرة التى تمثل الجيش العثمانى . ولم
تكن ترابط عند بروت كل القوات الروسية ، وهذا امر يعرفه
العدو جيدا . فقد تركت عمليات رينه قرب برايلوف اثرا عميقا
فى نفسه . ثم انه لم يكن يعتبر هجماته المتعثرة عند بروت
نصرا مينا . والاكثر من ذلك ان العثمانيين كانوا يخشون من
مكيدة حرية بعدها لهم الروس . فلم يصدقوا بانهم جادين فى
الصلح الذى حصل الصدر الاعظم ، بالمناسبة ، على موافقة السلطان
على عقده . الصدر الاعظم والسلطان يعرفان باستعدادات النمسا التى
تريد الاستفادة من الفرصة السانحة لتقوم بعملية للاستيلاء على
منطقة ما فى البلقان . ثم ان الاتراك يخشون الشعوب التى
استعبدوها فى هذه البقعة من الارض .

وتوجه معاون المستشار شافيروف الى المعسكر العثماني .
اقتادوه الى خيمة الصدر الاعظم فأشار عليه هذه الاخير بالجلوس .
وكانت تلك دالة حسنة (والا لتصرف بكبرياء وأنفة كالعادة) .
وبدأت مفاوضات الصلح . كان شافيروف قد وصل
مستندا الى توجيهات القيصر بشأن توقيع الصلح مهما كلف
الثمن ، حتى بتسليم كل ما كسبته روسيا فى الجنوب (آزوف
وغيره) وفى الشمال ، ما عدا اينفريا وبطرسبورغ . حتى بسكوف
والاراضى الشمالية الاخرى كان الجانب الروسى مستعدا لتسليمها .
زد على ذلك ان بطرس وافق ، فى الحالة القصوى ، على
التضحية بكل شىء فى الشمال ايضا حتى يمكن التخلص من
الأسر الشائن والعبودية المهينة .

لكن الامر لم يبلغ حد الشروط القصوى . فالصدر الاعظم
والسلطان ، كما اتضح ، لا يميلان الى التطول على مصالح السويد .
ثم انهما ابديا اعتدالا بخصوص مطالبهما انطلاقا من الوضع
القائم (فقد اخذا قدرة روسيا بعين الاعتبار اكثر من تقدير بطرس
نفسه لها) . وبالإضافة الى ذلك لعبت دورا معينة ، كما يقال ،
مجوهرات الامبراطورة يكاترينا التى رافقت زوجها كالعادة فى
حملته هذه . فيقال ان تلك المجوهرات اهديت الى الصدر
الاعظم . كان شافيروف البدين الرابط الجأش يساوم بفطنة وحذر
دون ان يكشف عن ورقته الرابعة . ففى جيبه توجيه من بطرس :
— اذا تطرقوا الى الصلح بجد قامر بكل ما يريدونه ما
عدا العبودية .

لكن الصدر الاعظم لا يعرف بما فى جيب شافيروف ؟ واستمرت
المفاوضات ، بينما جرت الاستعدادات فى المعسكر الروسى
بشكل محموم لفك الحصار . وجمع بطرس المقربين اليه

والجنرالات فى اجتماع عسكرى للمشاورة . ولا احد يفكر فى الاستسلام . وفى ١٠ تموز (يوليو) اتخذوا القرار التالى :
— حرق واتلاف العربات وتشكيل استحكام من بعضها يستقر فيه فصيل من الفولوخ (الرومانيين) والقوزاق وتعزيزه بعدة آلاف من المشاة ، ومهاجمة العدو بالجيش النظامى .
وفى ١١ تموز قرر الاجتماع ما يلى :

— تؤخذ خيول المدفعية الجيدة ، اما باقى الخيول فتنحر ويطبخ لحمها او يشوى .

— بسبب شحة الرصاص ، يقطع الحديد ويصنع منه الخردق . ونصت الخطة التفصيلية لفك الحصار على كل التفاصيل حتى اصغرها . فيجب التخلص من كل ما يمكن ان يعيق الهجوم على العدو وتوزيع المؤونة على الجميع بالتساوى . فالروس وعلى رأسهم القيصر-القائد لا ينوون الاستسلام ، بل يريدون مقارعة العدو ويفضلون الموت على الاسر العثمانى .

وفى تلك الاثناء كانت الامور فى المعسكر العثمانى تسير صوب السلام . فالعثمانيون لا يريدون ان يجربوا حظهم أكثر . كانت المفاوضات سائرة بسرعة ونجاح . واجاب أحد الباشوات بحكمة ودون تردد عندما سأله عن سبب هذا الاستعجال فقال : الروس «خصوم فظيعون» و«صلابتهم» تجعل الافضل ان يغادروا هذه الاماكن ، والا فالمعركة الجديدة ستكلف العثمانيين غاليا—«ستكلفهم خسائر كبيرة بالارواح» . وطالب الانكشارية الذين جربوا هذه الصلابة فى ٩ تموز (يوليو) بان يوقع الصدر الاعظم الصلح باسرع ما يمكن «فهم لا يريدون الهجوم ولن يصمدوا امام النيران الموسكوية» .

وفى ١٢ تموز (يوليو) وقع معاهدة الصلح عن الجانب

الروسي شافيروف وم . شيريميتيف (ابن الفيلدمارشال شيريميتيف ، وهو جنرال) ، وعن الجانب العثماني الصدر الاعظم محمد باشا بلطجي . ونصت شروط المعاهدة على ان تستعيد الاستانة آزوف ، وبالإضافة الى ذلك وعدت روسيا بتفكيك قلعة تاغانروغ على بحر آزوف وحصن كامني زاتون على الدنيبر ، ولا تحتفظ بقوات لها في بولونيا ولا تتدخل في شؤونها ولا تكون لها ممثلية دبلوماسية دائمة في الاستانة ، «وتسحب يدها» من القوزاق واهالي زابوروجيه ، اى لا تدعمهم ولا تتصل بهم (وفهم بطرس ودبلوماسيوه ذلك على النحو التالي : عدم مطاردة القوزاق انصار مازيا واهالي زابوروجيه الذين كان قسم منهم يقيم في الممتلكات العثمانية) . ووافق الطرفان على الا تعيق روسيا كارل الثانى عشر عن العودة الى السويد وان توقع الصلح معه ان امكن . وقدم شافيروف وشيريميتيف بشخصيهما ضمانات الالتزام بشروط معاهدة بروت ، وبهذه الصورة (كانا رهيبتين في الواقع) توجهها الى الاستانة .

لم تكن شروط الصلح مرهقة او مهينة بالنسبة لروسيا وبطرس ، مع انها ضيعة ما كسباه في حينه باغلى الاثمان . لكنهما حافظا على الجيش والمدفعية (فلم تسلم الى العثمانيين الا المدافع الموجودة في كامني زاتون) ، كما حافظا على المكاسب في البلطيق (فلم يتناولها احد اثناء المفاوضات) . وظلت معلقة مطالب دولت جبرى بشأن استئناف دفع الجزية الى القرم من جانب موسكو .

كان الطرفان راضيين على توقيع الصلح . ولم يرض عنه كارل الثانى عشر الذى كان يأمل في الانتقام من روسيا بمساعدة الاستانة . ففي مساء ١٢ تموز (يوليو) جاءه رسول من يونياتوفسكى

الى بينديرى التى اتخذها مقرا له بعد فراره من ساحة المعركة فى بولتافا . وابلغوا الملك بوجود شافىروف فى خيمة الصدر الاعظم . فامتطى كارل ظهر حصانه مهتاجا منفعلا . وبعد ١٧ ساعة من عدو متواصل وصل الى الصدر الاعظم . وعندما بلغ المعسكر العثماني رأى من هناك الطواير الروسية على اهبة الاستعداد وهى تغادر معسكرها مع المدفعية وسط قرع الطبول . اشتاط الملك غضبا واكتأب اشد الاكتئاب ودخل على الصدر الاعظم صائحا :

— لماذا وقعت الصلح مع القيصر بدونى ؟ لماذا تركت الروس ينصرفون ؟

— بايعاز من أمير المؤمنين .

وطلب الملك ان يخصصوا له ٢٠ — ٣٠ الفا من خيرة القوات وعند ذاك يقتاد القيصر الروسى اسيرا . ورد محمد باشا على الملك المتهور وذكره بتجربته اليايسة فى محاربة الروس : — لقد جربتهم انت ، ونحن ايضا رأيناهم . هاجمهم اذا كنت تريد ، اما انا فلن اخرق الصلح معهم .

وانتهت بالفشل الدريع كذلك محاولة الملك السويدى للتأثير على خان القرم . كان ذاك بوده لو هجم على الروس ، لكن موقف الصدر الاعظم الواقعى منعه من العمليات الاعباطية . وفيما بعد قال محمد باشا نفسه وهو يكلم شافىروف عن سلوك الملك : — قال باشا سوروات الزعل والتهديد بالا اوقع الصلح مع جلالة القيصر حتى يتم التصالح معه ، هو الملك ، وتعاد اليه كل المدن التى اخذت منه (فى البلطيق — ملاحظة المؤلف) . وقال الصدر الاعظم انه رد على الملك بالشكل التالى : — شؤونك لا تعينى ، وقد اقدمت على الصلح بايعاز من

سلطاني . ويجب علىّ ان ارافقك بالسلامة كضيف واقنع ذاك بان يترك لك طريق السفر مفتوحا .
— سأشكوك الى السلطان .

وقدم شكواه فعلا الى الاستانة عن طريق مخبريه فيها ،
واساء كثيرا الى الصدر الاعظم الذي غدا من ألد الاعداء بالنسبة له .
واذاع كارل ويونياتوفسكى اشاعات تقول ان الصدر الاعظم استلم رشوى
كبيرة من الروس . لكن الواقع غير ذلك . فبعد خروج الروس من
الحصار جرى الى الصدر الاعظم ومستشاريه بيراميل فيها نقود فضية —
٣٠٠ الف روبل كان قد وعد بها شافиров . الا ان محمد
باشا اعادها الى الروس خشية ان ينقل دولت جبرى او يونياتوفسكى
خبرها الى السلطان .

كان الرضا من معاهدة بروت باديا ليس فقط على بطرس
والساسة الروس الآخرين . فقد ابتهجت الاستانة لانها تمكنت
بقليل من الضحايا من استعادة مدينة آزوف والاماكن الاخرى
فى اسفل الدون والدينير وعزلت روسيا عن بحر آزوف والبحر الاسود .
واستمرت الافراح بهذه المناسبة ستة ايام فى الاستانة ، وصار
السلطان احمد الثالث يلقب بالغازى . اما بطرس فقد استعرض
حصيلة الحملة المؤسفة ، ومع ذلك كتب فرحا فى رسالة الى
مجلس السينات :

— هذه القضية ، رغم الحزن على ضياع الاماكن التى كلفتنا
كثيرا من العمل والخسائر ، آمل ان تكون للناحية الاخرى
تعزير عظيم وهى بالنسبة لنا مكسب يفوق التقدير .
ويقصد بطرس «بالناحية الاخرى» الامور فى البلطيق ،
وهى تسير فعلا على ما يرام . الا ان الشعور بالمرارة الشديدة لم
يزاله بعد ذلك امدا طويلا . وعندما وصل الى وارشو هناؤه بحسن

العاقبة والخلاص في بروت ، فاجاب معترفا بصراحة ، (ويجب ان نقدر فيه تشدده ازاء نفسه) :

— من حسن حظي اننى تلقيت خمسين ضربة بالعصا فقط ، وكان يجب ان اتلقى مائة ضربة .

لقد اخذ بطرس درسا عمليا لا ينسى في معركة بروت . فان نسيان الحذر والحيلة والحساب الدقيق كاد يودى به وبالبلد الى الكارثة . ولم تأت آلام بطرس الشديدة بسبب اخفاقه عبثا ، فقد سهر الليالى وهو يفكر فى الحملة الفاشلة ويتذكر وصاياه الشخصية ، الحكيمة جدا ، لجنرالاته :

— النصر الدائم اهلك الكثير من الرجال .

— الركض وراء المعركة الشاملة خطر جدا ، لان الامور يمكن ان تنقلب فى ليلة وضحاها .

وأسف بطرس لانه وزع قواته أثناء الحملة ، حين ارسل الجنرال رينيه لاداء مهمة جزئية (وقد اداها ذاك على احسن ما يرام) . وتشكى بطرس فى حديث مع السفير الدانمركى :

— لو لم ارسل رينيه مع ٩٠٠٠ فارس فى حملة الى مونتكانى او مولدافيا لما دخلت فى مفاوضات مع العدو مطلقا . ولكننى كنت مع حوالى ٣٠٠٠٠ رجل بدون خيالة تقريبا ولذا لم اقدم على الدخول فى معركة ضد الاتراك وكان عددهم ١٠٠٠٠٠ واغلبهم خيالة .

ذلك صحيح ، ويسهل الجدل بعد فوات الاوان . والقيصر يفهم هذه الحقيقة تماما . فالوضع اثناء الحصار فى بروت كان اكثر تعقيدا . وعندما مرت الامور بسلام تنفس الصعداء . وليس من قبيل الصدفة ان تطلق بامر منه فى المعسكر الروسى فى اعقاب الانسحاب من بروت ، بعد عبور الدنيستر ، مدافع

التحية وتقام صلاة الشكر . وليس من قبيل الصدفة ان ذكريات تلك الحملة بعد سنين عديدة تثير فيه مشاعر الالم . فقد كان القيصر عادلا ومتشددا ازاء نفسه فضلا عن الآخرين .

لم تفت محنة بروت في عضد بطرس ، وكعادته دوما ، لم يستسلم لليأس والقنوط ، بل انشغل في الاعمال ، وهي متجددة بلا نهاية ولا حدود ، وعاجلة لا تقبل التأجيل . فهو ، كما كتب الى عقيلته في آب (اغسطس) ١٧١٢ ، يمسك السيف والقلم في وقت معا ، يشرف على تعزيز الجيش وبناء الاسطول وعلى العمليات الحربية وعلى وضع القوانين الجديدة فيما يخص الحياة المدنية . وكالسابق نجد ايامه مليئة بالاشغال والاعمال الكثيرة . ومنها الاستمرار في التحويلات الادارية : تدقيق وظائف السينات واستحداث الاولوية (المتصرفيات) وتشديد المانوفاتورات وطباعة الكتب وتبسيط الابجدية واعمار «الفردوس» وبناء السفن وتدريب البحارة والخ .

اصدر كاتب مجهول كان يراقب بطرس في عاصمته الشمالية كراسا صغيرا في لايبزيغ (١٧١٣) بعنوان «وصف سان بطرسبورغ وكرونشتادت في ١٧١٠ و١٧١١» ، ولم يخف المؤلف دهشته واعجابه ببطرس :

— يقضي نهاره في عمل لا يكل متعاشيا البطر تماما . يستيقظ جلالته في ساعة مبكرة جدا من الصباح ، وقد صادفته اكثر من مرة في الصباح الباكر يسير على الكورنيش متوجها الى الامير مينشيكوف او الى الاميرالات او الى مديرية الملاحة او الى معمل الحبال . ويتناول طعام الغداء قبيل الظهر حيثما اتفق ، عند هذا او ذاك ، لكنه يفضل الغداء عند الوزراء والجنرالات والسفراء . . . بعد الغداء يأخذ قسطا من الراحة

زهاء ساعة ، حسب العادة الروسية ، ويباشر العمل من جديد ، ولا يرقد الا فى ساعة متأخرة من الليل . ولا يعبأ بلعب الورق والصيد وغيرهما ، والتسلية الوحيدة المحببة اليه والتي تميزه عن جميع الملوك هى الملاحة ويبدو ان الماء مرتعه الحقيقى ، ولا يندر ان يقضى النهار كله فى قارب شراعى او زورق وبلغ به هذا الوله حدا جعله يتجول فى النهر مهما كان الطقس مطيرا او ثلجيا او شديد الريح . ذات مرة ، عندما تجمد نهر نيفا ولم تبق الا بقعة لا يتجاوز محيطها مائة خطوة امام القصر راح يمزحها فى قويرب جيئة وذهابا .

وحتى فى الشتاء استمر بطرس فى مناوئته على القوارب بعد ان ركبها على الزلاقات والزحافات ، وكان يقول :
— نعيم على الجليد كيلا ننسى تمارين الملاحة البحرية فى الشتاء .

لكن هناك وقتا للتمارين (وهى بالمناسبة نافعة ايضا) ووقتا للاعمال الجارية التى تتطلب حولا وقرارات وتوجيها . وكان بطرس مشغول البال بالامور المتعلقة بالباب العالى وبولونيا والحلف الكبير وحلفاء روسيا . ففى بلاط السلطان العثمانى استمرت دسائس كارل ومخبريه وديزالبير الذين حاولوا اقناع السلطان بان القبض على القيصر وجيشه اسيرين فى بروت كان امرا سهلا . وقد مل الجميع من كارل ، حتى ان الصدر الاعظم رد على استجابات شافىروف قائلا بخصوص كارل :

— اريد له ان يروح فى داهية ، لاني ارى الآن انه ملك بالاسم فقط ، وليس لديه ذرة من عقل ، فهو كالدابة . سابل جهى كى يرسلوه الى مكان ما .
الا ان العلاقات بلغت حد الخلاف الشديد ، فالعثمانيون

طلبوا إعادة آزوف وفقا لمعاهدة بروت وتفكيك استحكامات
تاغانروغ وكامنى زاتون . اما بطرس الذى التزم بالحدود والحيطة من
جديد بعد ان فقدتهما فى مولداڤيا فقد طالب بطرد كارل .
وفى آب (اغسطس) ١٧١١ ، فى اعقاب معركة بروت اوعز
الى ابراكسين :

— لا تسلموا آزوف ولا تدمروا تاغانروغ حتى اكتب لكم ،
فالأتراك يريدون ان يثير الملك السويدى القلاقل فى بولونيا ويبقى
فى حرب معنا حتى يكونوا هم فى اطمئنان وامان . اما نحن
فنفكر على النحو التالى : لن نسحب قواتنا من بولونيا وفق
المعاهدة ما لم يصل الملك السويدى الى دياره بالفعل .
وهكذا نرى بطرس مهتما كل الاهتمام بمصالح روسيا ،
لان احدا لا يستطيع ان يتكهن بتصرفات كارل الذى يمكن
ان يؤيده الكثيرون فى اوروبا ، وتلك التصرفات قد تكلف روسيا
غاليا . واسفرت الخلافات مع الاستانة عن تدهور العلاقات
من جديد . ففى ٩ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٧١١ فسخ العثمانيون
معاهدة بروت واعلنوا الحرب على روسيا . وطرحوا مطالب جديدة
اكثر قسوة ، فلم يكتفوا باستعادة آزوف والقلاع التى تم تفكيكها ،
بل اكدوا على عدم الادعاءات فيما يخص الملك السويدى ،
والاهم انهم طالبوا بتسليم اوكرانيا الى الامبراطورية العثمانية .
ولوحظت فى ذلك كله دسائس واموال ديزالير وريثيه «الملك
الشمس» لويس الرابع عشر . ومع ذلك كان السلطان وحاشيته
يفهمون بان بلادهم عاجزة عن محاربة روسيا . وقد اطلعوا
شافيروف صراحة على ذلك وجاؤوا اقناعه بان يقدم على تنازل
ما مهما كان ضئيلا «على هذه الضفة او تلك من الدنيبر حتى
يفرح السلطان» . وانتهت المفاوضات الطويلة (فى ٥ نيسان —

ابريل ١٧١٢) بتوقيع معاهدة صلح جديدة . وساعد في توقيعها سفيران هما الانجليزى ساتون والهولندى كولير . وقد فعلا ذلك لمقاومة دسائس «نائب السلطان» ديزالير وساعدا شافيروف باخلاص ، وقد اشاد هذا الاخير بمساعدتهما فى تقاريره الى بطرس :

— لولا السفيران الانجليزى والهولندى لما استطعنا ان نكتب شيئا الى اى شخص والى جلالتكُم ، لانهم لم يسمحوا بمجيء احد اليّنا ولا بخروج احد من عندنا ، وكان من المحتمل ان تبدأ الحرب ويزجوا بنا فى اقصى سجن باقى عقاب . السفير الانجليزى رجل ذكى ماهر ، وقد بذل جهده ليل نهار ، بالرسائل والمكالمات لاقتناع العثمانيين بحفظ السلام ، وقد كلمهم بحدة فزعلوا عليه وصاحوا به . وما كان عبد جلالتكُم المطيع يقادر على ان يفعل اكثر مما فعل . فبعد انتهاء القضية كتبت بيدى مسودة المعاهدة باللغة الايطالية وبذلت جهدى لتأتى صياغتها غير متعارضة مع مصالح جلالتكُم . وتردد السفير الهولندى على الصدر الاعظم سرا عدة مرات ، وحاول اقناعه على انفراد وجعله يميل الى ما فيه خيرنا ، لانه نفسه يتكلم التركية . ومع اننا سلمناه المكافأة التى وعدناها بها ، فمن الضرورى ارسال فرسان يجلبون ماسا ثميناً وكذلك فراء السمور الجيدة .

السفيران اللذان حاولا فى الباب العالى اضعاف مواقع فرنسا — خصم بريطانيا وهولندا لم يظلا طبعاً بدون «مكافأة» . فقد ارتاح بطرس كثيراً عندما ورده نبأ معاهدة الصلح الجديدة مع انها تضمنت مطالب اقصى بخصوص سحب القوات الروسية من بولونيا فى غضون ثلاثة شهور ، ولا يجوز ان تدخل تلك القوات بولونيا من جديد الا اذا قام كارل الثانى عشر بأعمال

عدائية . وفي ٢٠ ايار (مايو) بعثوا اشعارا من بطرس بابرام
المعاهدة الى الصدر الاعظم يوسف باشا الذى حل محل محمد
باشا بعد ان نحي من منصبه واودع السجن . وبمناسبة توقيع
الصلح اطلق العثمانيون اخيرا السفير الروسى تولستوى من غياهب
سجن الابراج السبعة الرهيب . وقد امضى فى السجن ١٧ شهرا
كان فى سبعة منها مريضا جدا ، ولم يسمح الا تراك حتى
بعيادة الطبيب له ، وكان السفير المريض يشتري الادوية «سرا» .
حيث تصله بصورة غير مباشرة من يد ليد» . وقد تشكى فى
رسالة الى غولوفكين قائلا :

— انقضت آخر ما املك . . . زد على ذلك انهم يهددوننى
كل يوم بالآلام والتعذيب .

وفى بداية حزيران (يونيو) ١٧١٢ غادرت القوات الروسية
بولونيا بايعاز من بطرس . وظلت قلعة ايلبينغ فقط فى يد روسيا
لتأمين المواصلات مع القوات الروسية المرابطة فى بوميرانيا .
وكانت تراود السلطان احلام مستحيلة فى ان تغدو بولونيا فى
آخر المطاف ، كما وعد الملك السويدى فى حينه ، ولاية
للالبراطورية العثمانية تقدم لها سنويا جزية ضخمة .
لكن السلطان الغازى ، ظل الله على الارض ، تأكد مرارا
وتكرارا من عدم جدوى الضيف الكبير وسخفه ومخططاته الخيالية
ووعوده الفارغة . وبسبب خيبة امل السلطان فى الملك السويدى
امر بتقليص المبالغ المخصصة للانفاق عليه . ففرق هذا الاخير
فى مزيد من الديون . ووقع اتفاقية مع فرنسا : فالطرفان الساميان
المتعاقدان يخططان للعمليات الحربية بين الامبراطورية العثمانية
وروسيا ويتقاسمان الاراضى البولونية والروسية . وقد بلغ
نبا هذه الخطوات الدبلوماسية بهو السلطان العثمانى ، وعلم بها

شافيروف ايضا . وراح يوسف باشا يهدئ من روع الدبلوماسى الروسى :

— لا تخش ان يقوم الملك السويدى الآن بشيء ما هنا ، رغم كل جهوده ومداخلاته ، فهو بسبب ضجره ، كشخص اجلس على خازوق ، تارة يقدم على هذه الفعلة وتارة على تلك .

وكيلا يثير بطرس قلق الاستانة اعز بسحب كل الوحدات التى كانت لا تزال ترابط فى بولونيا ، بما فيها الوحدات الموجودة فى ايلينغ . ولكن الحرب على روسيا اعلنت من جديد فى ٣١ تشرين الاول (اكتوبر) ١٧١٢ ، واعتقل الدبلوماسيون الروس . وطالب الصدر الاعظم الجديد سليمان باشا ثانية ، بايحاء من ديزالير نفسه ، بان تتخلى روسيا عن اوكرانيا وكذلك عن كل مكاسبها فى البلطيق وبان يعاد ستانيسلاف ليشينسكى الى العرش البولونى . ولم يدعن بطرس لهذا التهديد السافر ، فامر جيش شيريميتيف المرابط فى ضواحي كييف بان يكون على اهبة الاستعداد ويجهز ذخيرة ومؤونة لسبعة اشهر (وليس لاسبوع واحد كما كان الحال اثناء حملة بروت) . وظلت مطالب السلطان دون جواب ، فصب جام غضبه على كارل الثانى عشر ومستشاريه بونياتوفسكى وديزالير وسواهما ، فهم الذين زعموا بان روسيا سترتعب وتراجع دون حرب . ثم ان السفير خوميتوفسكى وصل من بولونيا الى الاستانة وحاول استمالة السلطان الى التصالح مع روسيا . فان اغسطس الثانى وبولونيا لا يريدان ان تتحول الاراضى البولونية والسكسونية الى مسرح للمعارك والتدمير . وبعد اثارة الصخب والتهديد (صدور مراسيم التجنيد ووصول السلطان الى ادرنة حيث تتحشد القوات عادة قبيل الغزوات) هدا العثمانيون

بسرعة ، فكتب شافيروف الى بطرس فى مطلع عام ١٧١٣ يهدئ من روعه :

— العثمانيون مغتمون ويشعرون بالخجل لانهم اعلنوا الحرب ويعربون فى الاحاديث عن دهشتهم لعدم ارسال جلالكم احدا اليهم لاستئناف مفاوضات السلام .

ولم يكن بطرس يفكر فى ارسال مندوبين جددا ، ففى الاستانة يوجد شافيروف وتولستوى وشيريميتيف الابن (وان كانوا فى السجن) . والعثمانيون متحيرون لا يعرفون كيف يتخلصون من ملك السويد الذى يثقل على الجميع وقد غدا قذى فى العين . وحتى خان القرم دولت جبرى نصيره المتحمس له حتى الفترة الاخيرة صار يكرهه اشد الكره . وبأمر من السلطان قرروا طرد كارل بالقوة . وفى مطلع عام ١٧١٣ شهدت بنديرى «القلاباغ» الشهير حيث حوصرت القلعة واقتحمتها القوات العثمانية فى معركة حقيقية شارك فيها عدد كبير (١٢ الف شخص !) وقادها الخان والباشا ، ووصف شافيروف ببلاغة احداث «القلاباغ» — المفاوضات بين العثمانيين والملك الذى طالبوا برحيله من بلادهم ، وتعنت الضيف الكبير ومقاومته مع مائة جندى وبضعة مدافع ضد جيش كامل . ولما كان السلطان قد اوعز بعدم اصابة الملك شخصا باضرار فان هذا «الجندي الباسل والاول فى العالم» ، على حد تعبير شافيروف ، قد قاتل حتى اللحظة الاخيرة ، وفقد العثمانيون خسائر كبيرة بالارواح (حوالى ٦٠٠ قتيل) بالاضافة الى الجرحى ، ومع ذلك وقع الملك اسيرا فى ايدى الانكشارية ، وقد فقد اربعة اصابع وشحمة الاذن واربعة الانف وانكسرت ساقه . وسرعان ما غادر خفية البلد الذى آواه واستضافه لكنه جازاه بنكران المعروف بدل الامتنان . وعاد من خلال المعجر

والنمسا والمانيا الى بلده المدمر البائس المنكود . فقد تضررت السويد من الملك أكثر من اى كان . غاب عن بلده خمسة عشر عاما وعاد اليه برفقة شخص واحد . اما الجيش المكون من ٦٠ الفا فقد ظل جثثا فى سوح القتال فى روسيا والبلدان الاخرى .

وفى تلك الاثناء اجرى شافيروف والدبلوماسيون الروس الآخرون الذين اطلق سراحهم المفاوضات من جديد ودافعوا عن مصالح روسيا ورفضوا مطالب الجانب العثماني الجديدة (دفع الجزية للقرم وتسليم اراض جديدة لاقامة انصار مازيا فيها) . وفى ١٣ حزيران (يونيو) ١٧١٣ وقعت اخيرا معاهدة جديدة كررت شروط المعاهدتين السابقتين مع بعض التنازلات الجديدة وامكن الحفاظ على السلام والاستقرار فى الجنوب ، واتجه بطرس بانظاره الى الشمال من جديد .

ودعت الحاجة هنا باستمرار الى تسوية النزاعات بين تكتلات الاقطاعيين المتنافسة ودرء سوء تصرف الجنود والضباط الروس وخصوصا القوزاق الذين يتشكى الاهالى منهم . واستمر اذى دسائس وخيانات اغسطس الثانى . وكانت القوات الروسية المرابطة فى بولونيا تدافع عنها فى الواقع دون دسائس جيرانها الشرسين ، فى حين يطالب ساستها بسحب القوات الروسية تارة وباستعادة كييف وسائر الاراضى الروسية تارة اخرى ، وبتسليم ليفلانديا مع ريغا تارة ثالثة . اما بطرس فقد ابدى حكمة وصبرا ووضح لهم ان وجود القوات الروسية يحمى بولونيا من السويديين والعثمانيين ، وان ليفلانديا اذا سلمت الى بولونيا تقع حالا فى ايدى السويديين . علما بانه لا يذكرهم بان اراضى الدولة الروسية الكيفية السابقة — مناطق اوكرانيا الواقعة على الضفة

اليمنى من الدينير وييلوروسيا— لا تزال تزرع تحت الاحتلال البولونى وان اهاليها الارثوذكس يعانون الامرين من جانب الكاثوليك .

واتخذ بطرس اجراءات فيها كثير من القسوة لتعزيز الانضباط فى القوات الروسية المراقبة فى بولونيا . وتضاءلت شكاوى البولونيين . زد على ذلك انهم صاروا من زمان قلقين اكثر بسبب وقاحة جنود اغسطس الثانى السكسونيين . فهم ، شأن جميع المقاتلين المنحوسين الاوربيين الغربيين يتصرفون بمتهى الخشونة والفظاظة ويعاملون بقسوة وصلف اهالى الاماكن التى يرابطون فيها ، وينهبون السكان المحليين بلا حياء ويسلطون عليهم مختلف انواع العنف . وابلغ الجنرال الروسى دولغوروكى من بولونيا بطرس الاول فى عام ١٧١٤ قائلا :

— فى بولونيا ، يا صاحب الجلالة ، اضطراب كبير . ويقال ان عدد السكسونيين المرابطين فى بولونيا وليتوانيا حوالى ٣٠٠٠٠ رجل ، وهم يعاملون البولونيين بمتهى الكبرياء وهذا لا يعجب البولونيين لانفتهم واعتزازهم بالنفس . . . البولونيون غاضبون جدا ، واعتقد ، على قدر معرفتى بهم ، ان الفتنة ستنشأ بينهم . ونرى الآن ان المعيشة البولونية لا تطاق ولن يتحملوها ، فقد غدوا بؤساء لحد لا يصدق .

بالفعل ، بدأت فى البلاد فتنة حقيقية . فقد طالب البولونيون بان يغادر السكسونيون البلد وطلبوا من الروس مساعدة فى تخليصهم من اللصوص . الا ان اغسطس لم ينصت الى توصية المقيم الروسى داشكوف ورفض سحب جنوده الى سكسونيا . زد على ذلك انه طلب ان يسمح له القيصر بنقلهم الى ليفلانديا التى يحتلها الروس . كان الملك وفيلدمارشاله

فليمينغ يشجعان في الواقع رجالهما السكسونيين على ابتزاز البولونيين بالتنكيل والغرامات ولذا يقارنهم البولونيون مع الروس فيفضلون هؤلاء الاخيرين بالطبع . وابلغ السفير الروسى الجديد دولغوروكى القيصر بطرس بما يلى :

— لم تكن قواتكم تحظى فى بولونيا بثقة كالتى تحظى بها الآن ، فلم اسمع من احد شكوى ، كل ما اسمعه هو الامتنان لان الجنود يقتاتون فى الطريق دون اى ازعاج للاهالى . وفى كافة ارجاء بولونيا وليتوانيا اندلعت انتفاضات ضد السكسونيين . وتعرضت فصائلهم لهجمات متكررة . وطلب البولونيون من بطرس ان يتوسط بينهم وبين اغسطس . فى البداية مانع الملك ، لكنه سرعان ما وافق . فقد فهم انه يمكن ان يحرم من العرش البولونى . وفى آذار (مارس) ١٧١٦ عقد بطرس فى غدانسك اجتماعا لوزرائه والوزراء السكسونيين ، وحضر الاجتماع اغسطس وممثلو «التكتلات» البولونية . وسلموا الى الملك «مذكرة الاجحاف» ، وهى قائمة بكل التجاوزات والتصرفات الخيانية والاهانات . ولم يخف بطرس غضبته . فبالاضافة الى التجاوزات فى بولونيا اتضح ان اغسطس ينوى الاستفادة من توسط فرنسا لتوقيع صلح انفرادى مع السويد . فالملك المرائى ظل كما كان عليه . والاكثر من ذلك انه وعد بموجب معاهدة مع فرنسا (١٧١٤) بان يعيد الى كارل الثانى عشر كل الاراضى التى احتلتها روسيا . صحيح ان كارل الذى بعث اليه اغسطس مندوبين للمفاوضات منذ ان كان فى بنديرى (مولداڤيا) لم يقبل اقتراحاته مع ان اغسطس كان مستعدا لخيانة جديدة . وقد حاول ان يؤثر على السلطان العثمانى ليدفع الباب العالى الى محاربة روسيا التى يريد حاكمها ، على حد

مزاعم اغسطس الدنيئة ، ان يستولى على الاستانة . واخيرا طرح فكرة التحالف الهجومي بين بولونيا والامبراطورية العثمانية والسويد ضد روسيا .

كان انصار كتلة ساندومير البولونيون المناهضون لاغسطس بشدة مستعدين للتخلص منه ، وقد رشحوا آخرين لاعتلاء عرش بولونيا . الا ان القيصر الحذر البعيد النظر لم يلتفت كالسابق الى تصرفات الملك العدائية . وذلك حفاظا على الحلف الشمالى من الانهيار ورغبة فى انتهاء الحرب مع السويد وعدم تأزيم الموقف فى اوربا على صعيد السياسة الخارجية ، ولذا اصر على ابقاء الوضع فى بولونيا كما هو (اى بقاء اغسطس ملكا لبولونيا) وتوقيع اتفاقية بين البولونيين وملكهم الالمانى . وبفضل جهود دولغوروكى وقعت الاتفاقية فى ١٧١٦ . ونصت الاتفاقية على عودة السكسونيين الى وطنهم وتقليل الجيش البولونى الى ١٨ الف جندى والجيش اللتوانى الى ٦ آلاف . وبالنسبة لزيادة تأثير بطرس على الشؤون البولونية . وامكن شل تدخل الدول الاوروبية الاخرى . ومن مناقب القيصر الروسى انه تمكن ان يتجاوز الاهانات والطموحات الشخصية والحكومية ويبدى فى جو الفتن والنزاعات والفوضى المخيم على بولونيا قابليات دبلوماسية مذهشة وهدوءا ورباطه جأش وصبرا وبعد نظر .

وكانت روسيا حتى ذلك الحين قد حققت انتصارات جديدة كبيرة فى البلطيق . ولم تجر العمليات الحربية فى قسمه الشرقى ، لان العدو كان قد طرد من هناك بالكامل ، بل جرت فى قسمه الجنوبى ، فى بوميرانيا . وقاتلت ضد القوات السويدية هنا جيوش الحلفاء — الروسى والدانمركى والسكسونى . وفى مطلع عام ١٧١٢ ، بعد مرور ستة اشهر على اخفاق الحملة فى بروت ،

حاصر الحلفاء مدينتى شترالزوند وفيسمار ودحروا السويديين وأسروا
الفين من جنودهم .
وكتب بطرس عن هذا النصر مسرورا الى اعضاء مجلس
الشيوخ (السينات) :
— يسعدنى ان اكتب اليكم هذا العام اول رسالة من
هذا النوع .

الا ان الحلفاء اساءوا التصرف فيما بعد ، فجاءت عملياتهم
غير منسقة . وتألم بطرس لان ملك الدانمرك لم يرسل بعد
المدفعية التى وعد بها لقصف القلعتين المحاصرتين ، وبدون
تلك المدفعية لا يمكن احتلالهما ، وضغط بطرس لسحب
قواته من بوميرانيا لحماية بلده من هجوم السويديين المحتمل
من خلال الخليج الذى تجمدت مياهه . وهدد اغسطس
باستدعاء قواته والحال هذه . وتمكن بطرس ومساعدوه من ايجاد
حل وسط ، فبقى فى بوميرانيا الفيلق الدانمركى المكون من ٦
آلاف مقاتل . الا ان كلا الملكين اجريا خفية عن القيصر
مفاوضات الصلح الانفرادى . وفى حزيران (يونيو) وصل القيصر
الى بوميرانيا والتقى مع اغسطس ، وتكرر ما كان قد حدث
مرارا : بطرس يتظاهر بانه لا يعرف حيل الملك الجديدة ،
بينما يتملص ذاك ويكذب . وناقشان خطط العمليات المشتركة .
وعندما وصل بطرس الى ضواحي شتيتين لم يخف خيبة امله .
فالاخلافات بين الحلفاء وعدم توفر المدافع (لم تصل من الدانمرك
نهائيا) لا تهيب الامكانية للاستيلاء على المدينة . ولم تسفر
مباحثاته مع الفريق البحرى الدانمركى ولا الرسالة التى بعثها
الى الملك عن نتيجة . اكتب القيصر ، فهو غير راض عن
اللقاء مع الفريق البحرى :

— انا متأسف جدا ، جدا ، لان الوقت يمضى فى هذه المجادلات .

وتضمنت رسالته الى الملك ملامة وعتابا :

— جئت الى هنا بنفسى غير عابئ بصحتى من اجل مصالحنا المشتركة . لكن قواتى تقف مكتوفة الايدى لعدم وصول المدفعية الموعودة .

— اذا لم تنفذوا طلبى هذا فسأكون فى حل امامكم وامام العالم كله لان هذه الحملة اخفقت ليس بسببى .
واعلن بطرس غاضبا بانه سيسحب قواته من بوميرانيا .
ثم خف اوار غضبه . فالحرب ضد السويد يجب ان تستمر حتى النهاية على اية حال . فما العمل اذا كان حلفاؤه من هذا النوع ؟ ومن جديد بعث بطرس رسالة الى كوينهاغن عرض فيها على الملك خطة العمليات الحربية واكد له قائلا :
— ليست لى مصلحة خاصة لا فى هذا المكان ولا ذاك .
لكن ما افعله هنا انما افعله لجلالتكم .

ومع ذلك لم تصل المدافع من الدانمرك ، وظلت القوات تراوح فى مكانها عبثا . وادرك بطرس ان روسيا يجب ان تعتمد على نفسها هذه المرة ايضا . وانه سيقوم قريبا بكل ما يلزم لذلك . اما الآن فقد توجه الى كارلسباد للعلاج بالمياه المعدنية . ولم يكشف بطرس عن انفعاله وتذمره من الحلفاء . فهو بحاجة اليهم على اية حال مهما كانوا . وحدثه مينشيكوف فى ضواحي شتيتين ، ولا بد ، عن الدانمركيين واسهب فى ذمهم ، لكن بطرس هدأه قائلا :

— ينبغى معاملة البلاط الدانمركى باكبر قدر ممكن من الرقة . فقد يغضبون هناك اذا قلت لهم الحقيقة كاملة .

— الحقيقة ان تصرفاتهم سيئة جدا ، ولكن ما العمل ؟
لا داعى لاثارتهم ، لانهم يواجهون السويد فى البحر . ولو
كانت لدينا قوات كبيرة فى البحر لاختلف الامر ، وطالما لا
توجد لدينا مثل تلك القوات فيجب ان نتزلف اليهم ، مع ان
ذلك ممقوت ، كيلا نبعدهم عنا .

وعندما قدم القيصر الى مينشيكوف دروسا فى ضبط النفس
والتقاليد الدبلوماسية كان على ما يبدو يأمل فى الاسطول
الدانمركى ، مع انه لا ينسى بناء اسطوله لاجل العمليات المرتقبة
فى البلطيق .

وامضى بطرس بعض الوقت يتعالج فى كارلسباد ، ويتجول
فى المدينة ويهتم بكل ما يراه . ذات مرة كان يسير جنب
منزل فى طور البناء وسمع العمال يتحدثون فيما بينهم : القيصر
الروسى (والكل يعرفونه هنا) يتباهى بانه يفعل كل شىء بنفسه ،
ولكننا نعتقد انه لا يجيد بناء منزل . فارتقى القيصر دون تردد
سلالم الاخشاب واخذ المسبعة وظل يعمل طول النهار بعرق
الجبين فى طلاء الجدران . واثنى عمال البناء على عمله .
«كان بطرس الاكبر حجارا مع الحجارين» — نقشت هذه الكلمات
بعد قرنين من الزمان على لوح مرمرى مثبت على جدار المنزل
الذى اشترك القيصر الروسى فى تشييده .

وعاد بطرس من كارلسباد الى بوميرانيا . وبلغه مينشيكوف
ان القوات السويدية بقيادة الجنرال ستينبوك غادرت شترالزوند ويتنظر
ان تنشب معركة بينها وبين الدانمركيين والسكسوفيين . واقترح
القيصر على حلفائه فى الدانمرك وسكسونيا الا يشنوا العمليات
الحرية حتى تصل المساعدات الروسية . لكنهم لم يسمعوا
نصيحته فدخلوا المعركة وتكبدها هزيمة ماحقة . جرى ذلك

في العاشر من كانون الاول (ديسمبر) . وفي كانون الثاني (يناير) من العام التالي ، ١٧١٣ ، وصل الجيش الروسى لنجدتهم ودحر قوات ستينبوك بالكامل في معركة فريدريكشتادت . فمع ان ستينبوك طوق معسكره بحاجز مائى (اوعز الى رجاله بتعطيم بوابات القناطر وانشاء استحكامات على السدود) قام الجنود الروس بقيادة بطرس بهجوم حسب خطة مرسومة (رفض الحلفاء الاشتراك في الهجوم متصورين انه محكوم عليه بالفشل ولا نفع فيه) . وفر السويديون دون ان يقاتلوا ، وفقدوا ٣٠٠ أسير . ولم يتخلص الفيلق السويدي في قلعة توينغين الا بفضل المياه التي فاضت والاحوال الكثيرة بسبب حلول الدفء . الا ان حصيلة العمليات الحربية في عام ١٧١٢ لم ترض بطرس :
— راحت الحملة عبثا .

ولذا اخذ يعد لحملة العام التالي بمزيد من الهمة والنشاط ، وكتب عن ذلك في ١٦ آذار (مارس) :

— نحن اليوم مسافرون الى بطرسبورغ ، ولن نقضى الوقت هناك في بطر .

لقد قرر بطرس ان يشن العمليات الحربية في فنلندا العائدة آنذاك الى السويد . كان على ابراكسين ان ينظم الحملة الى هناك بأمر من القيصر في عام ١٧١٢ . الا ان الوقت لم يتسع لشنها ، فترك الجيش الروسى من الزوارق المجذافية على الساحل الفنلندى ولم ينفذ سوى عملية استطلاعية . وعلق بطرس على الحملة المرتقبة اهمية كبيرة . فالسويديون يستلمون الكثير جدا من فنلندا ، الى حد الاغذية والحطب . ولذا يرى القيصر ان الاستيلاء عليها هام جدا لعدة اسباب ، وفي مقدمتها ارغام السويد على القبول بالصلح :

— اول شيء هو توفر ما يمكن التنازل عنه اثناء الصلح الذى بدأ السويديون بالكلام عنه ، والثانى هو ان هذه المقاطعة كالام المرضع بالنسبة للسويديين ، فهم يحصلون منها على الماشية وسواها ، بل وحتى الحطب . واذا استولينا عليها تغدو رقبة السويد رخوة سهلة الانهصار .

— علمت بحق من اناس مخلصين اننا اذا وصلنا الى آبو سيضطر السويديون الى الموافقة على الصلح . لان كل اغذيتهم من فنلندة .

وفى نيسان (ابريل) ١٧١٣ انزل اسطول الزوارق المجذافية على الساحل الفنلندى فيلقا من ١٦ الف شخص . وكان بطرس يقود طليعة الانزال . وسلم السويديون هيلسينغفورست وبورغو دون ان يدخلوا فى معركة . وفى ١٦ آيار (مايو) كتب بطرس الى زوجته عن ذلك بصيغة مزاح :

— ابلغك بان السادة السويديين يدخلون منا كثيرا ، لانهم لا يريدون ان نرى وجوههم فى اى مكان .

وفى ٧ حزيران (يونيو) ترك بطرس القيادة الى ابراكسين وعاد الى كرونشتادت . وبلغه هنا نبأ مفرح من مينشيكوف . فان ستينبوك واكثر من ١١ الف سويدي استسلموا للحلفاء فى معركة توينينغين . كان بطرس يعتقد ان له علاقة مباشرة بهذا النصر الذى مهد له الانتصار فى فريدريكشتادت قبل عام ولذا طلب من الامير الحاكم ان يمنحه ترقية :

— لما كان مرسومكم (الموقع من قبل رومودانوفسكى فى ٧ آذار—مارس ١٧١٢—ملاحظة المؤلف) الصادر الى الفيلدمارشال جنرال شيريميتيف حول تبديل رتبتي قد ظل دون ان اعلن عنه بسبب الهزيمة امام العثمانيين (فى حملة بروت—

ملاحظة المؤلف) ، فيمكن ان تكون لى علاقة بهذا النصر ، لان القوات الروسية التى كنت اقودها (وهذا امر يعرفه معاليكم من زمان) هى بالذات التى ارغمت العدو على العودة الى تونينغين بعد ان دحر القوات الدانمركية .

وفى النصف الثانى من العام المذكور استولت القوات الروسية فى فنلندة على مدينة آبو ، كما استولت على شتيتين فى بوميرانيا . وتم طرد السويديين من الجزء القارى الى ما وراء البحر . وغدا قسم كبير من اراضى فنلندة فى يدى بطرس . كانت السويد تحتضر ، لكنها لم تخرج من الحرب بسبب تعنت ملكها . صحيح انها كانت لا تزال تمتلك اسطولاً قويا ، وهو ، على حد تعبير بطرس ، «آخر امل» للسويد . وكان يتعين حرمانها من هذه المزية الاخيرة .

فى حوض بناء السفن التابع لمديرية الملاحة كانت السفن الجديدة تدشن من عام لآخر من عهد تأسيس بطرسبورغ . ونما الاسطول الروسى فى البلطيق ، لكن الاسطول السويدى ظل سنين طويلة افضل منه . ولذا لم يكن بطرس يكلفه بعمليات نشيطة ، واكتفى بمهامه الدفاعية الى حين من الزمان . الا ان بناء البوارج المزودة بعشرات المدافع كان فى ازدياد مستمر بامر من القيصر . وفى ١٥ تموز (يوليو) ١٧١٣ كتب القيصر الى شافىروف فى الاستانة .

— اسطولنا يزداد والحمد لله . ولدينا الآن ١٣ بارجة الواحدة منها مزودة بخمسين مدفعا واكثر ، وننتظر عددا اكبر . النجاحات فى هذا المجال واضحة للعيان ، لكن القيصر يريد المزيد :

— لسنا اقوياء من حيث السفن الكبيرة .

واوفد بطرس رجاله الى الخارج لشراء السفن . وكان يقضى في كرونشتادت اسابيع كاملة يدرب البحارة والضباط على قيادة السفن . واسفرت كل تلك الجهود عن الثمار المنشودة . فالاسطول الذى بنى فى البلطيق لعب دورا كبيرا اثناء الانزال فى فنلندة (١٧١٢—١٧١٣) وفى تزويد القوات المرابطة هناك بكل ما تحتاج اليه . وفى ٢٧ تموز (يوليو) ١٧١٤ دحر الاسطول الروسى عمارة سويدية كبيرة عند رأس هانكو . وكانت العمارة تتكون من ١٦ بارجة و٨ زوارق شراعية وخمس سفن اخرى . فى البداية شنت الطليعة الروسية بقيادة بطرس ميخائيلوف (القيصر) هجوما على الفرقاطة «ايليفانت» ونسح سفن اصغر منها . ورغم تفوق السويديين من حيث عدد المدافع (١١٦ مدفعا مقابل ٢٣ مدفعا روسيا) تقدمت السفن الروسية فى هجوم جريء ادى الى اشتباك بالاسلح الابيض . وفيما بعد اعرب بطرس عن اعجابه ببسالة بحارته :

— يعجز المرء فى الحقيقة عن وصف بسالة رجالنا ، من ضباط وبحارة .

ووقعت فصيلة كاملة بقيادة الفريق البحرى ايرينشيلد فى الاسر بايدى الروس . وبسبب الهدوء التام فى البحر لم تتمكن السفن الشراعية الاخرى فى العمارة من نجدة الفصيلة . كان هذا النصر ، البحرى هذه المرة ، لاسيما وانه تحقق فى البلطيق ، قد ادهش اوربا كالرعد فى وضوح النهار . واجتاح الذعر استوكهولم ، فغادرت حاشية الملك العاصمة على عجل . وشاهد اهالى بطرسبورغ فى ٩ ايلول (سبتمبر) السفن الروسية والسويدية التى وقعت فى الاسر وهى تدخل نهر نيفا . وجاب شوارع المدينة المنتصرون السعداء مع الغنائم والاسرى ، وبينهم

آمرهم ايرينشيلد . واستقبل اعضاء مجلس الشيوخ القيصر بطرس
وبعد بضعة اسئلة رجب به الامير رومودانوفسكى قائلا :

— مرحبا ايها الفريق البحرى .

على هذه الصورة منح بطرس رتبة جديدة وزيادة فى الراتب
الذى كان يستلمه بانتظام ويوقع فى قوائم الرواتب . وكان الفريق
البحرى الجديد محقا تماما عندما قارن النصر فى معركة هانكو
بالنصر فى معركة بولتافا . حقا ، فان امجاد السلاح الروسى
عمت البحر فضلا عن البر ، وحدث ذلك فى بحر البلطيق
الذى كان بطرس وكثير من الروس يحلمون به من زمان.
وبعد هذه الانتصارات التى افرحت الفريق البحرى الجديد
تعرض لضربة شديدة .

كان بطرس الذى اغدقت عليه الطبيعة مواهب جمّة قد
حقق الكثير فى حياته وانجز الكثير لاجل روسيا ، فقد كسب
الانتصارات فى سوح الوغى وبلغ النجاح فى بناء الدولة . لكنه
واجه امورا اخرى ايضا كالهزات اثناء الانتفاضات الشعبية
والهزائم فى الفتوحات . ولعل من اشد ضربات المصير التى
تعرض لها تلك الضربة المرتبطة بحياته العائلية ومصيبته كأب .
فالطلاق من زوجته الاولى يفدوكيا لوبوخينا بحياته مع زوجته الثانية
يكاترينا فى البداية بدون عقد زواج ، ومن عام ١٧١١ بزواج
شرعى ، وعلاقاته الغرامية الكثيرة مع اخريات ، واطفاله من
زوجتيه الاولى والثانية — كل ذلك دليل على ان بطرس بطبيعته
شخص مدلل متسلط لا يعرف الهدوء والسكون . كان قد كره
زوجته الاولى ، وشعر بالحب والحنان لزوجته الثانية التى هى
غسالة من منطقة البلطيق ، وظل غرامه بها باقيا بمر السنين ،
بل كان يزداد اكثر فاكثرا . وانجبت له ابنتين لكنه ظل امدا

طويلا بدون صبي يرث عرشه . وكانت زوجته الاولى التي ينفر منها قد وضعت طفلا ذكرا في ١٨ شباط (فبراير) ١٦٩٠ . وعندما ترعرع الصبي الكسى علق بطرس كل آماله عليه . عندما ولد الكسى كان بطرس نفسه شابا لم يبلغ الثامنة عشرة ، منهمكا باللهو والمرح والاهتمامات الاخرى المفهومة في مثل سنه . كان مشغولا على الدوام . وكان يفر من حجراته كلما سنحت الفرصة . فلم يكن ميالا الى زوجته يفدوكيا . وقد ترعرع الصبي في رعايتها ، وكان لا بد وان يتأثر بجو النفوس من اشغال والده وتصرفاته ، ذلك الجو الذى نشأ فى حاشية الام بما تتميز به من تمسك بالعادات القديمة والمعيشة الراكدة وكثرة المتزلفين والرهبان والاقزام وقارئات الفأل . وعندما كبر صار ، شأن امه ، يشجب ويستنكر تردد والده على حى العجم وصادقته مع الاجانب واخلاله بالعادات الرصينة والطقوس القيصرية القديمة . وترك اثرا شعور الغيظ عند الابن والام اللذين اهينا من اجل الغريمة ومحاسيب القيصر من روس واجانب . وتعلم الكسى دون ان يبذل جهدا يذكر ، وجاء تعليمه بعيدا عن المطلوب .

ترعرع ولى العهد فى بربوراجينسكويه بضواحي موسكو دون رعاية تذكر ودون اشراف تربوي . وقد تعلم بعض الاشياء بالطبع ، ولكنها قليلة . فقد اتقن الالمانية ، مثلا ، وألم بالفرنسية على نحو اسوأ . لكنه لم يفهم عمليات الحساب الاربع الا فى الثامنة عشرة من العمر . وأتذاك شرع يدرس مبادئ علم الاستحكامات . وباختصار ، لم يكن مرهقا بالدراسات والمعرفة ، وكان يتميز بالكسل والبطر والتسلط والكبرياء وضعف الارادة والشطارة والثأر التافه والغدر . وليس بوسع الاب ان يتباهى

بمثل هذا الابن ، ولذا كان احيانا يعجز عن ضبط نفسه فيعرب
عن خيبة امله وحزنه .

وغرس جو الركود الذى عاش فيه ولى العهد عيوباً كثيرة
فى نفسه ، واولها الرياء والادمان على الشراب . ومن بين
المقربين اليه ممن يسميهم ولى العهد «بالشلة» ، على طريقة
ابيه ، ابناء عمومته واخواله من آل ناريشكين وآل لوبوخين والقس
الذى يأتمنه على اسراره وآخرون . وكلهم ، خلافاً «لشلة» بطرس
المكونة من رجال جادين يخدمون القيصر وروسيا ، كانوا يكونون
حقداً غير مستور تماماً على افكار اولئك الرجال ومقاصدهم
واعمالهم . وكانوا يأججون كبرياء ولى العهد الشاب ويهمسون
فى اذنه بانه حالما يتوفى ابوه او يقتل فى مكان ما برصاصه
طائشة او بضربة سيف ، ومن حسن الحظ ان القيصر لا يلزم
مكاناً واحداً ويتعرض للخطر دائماً ، فان
ولى العهد سيبدل كل شىء على هواه ، فيلغى المستحدثات
التي لا حاجة لاحد بها ، كما زعموا ، ويعود الى العادات
والتقاليد القديمة ويحكم كما حكم اجداده فى هدوء واطمئنان
وفى عظمة وروعة .

وكان بطرس يتابع باهتمام ابنه الناشئ ويكلفه بمهمات
معينة ويلومه على سوء التنفيذ .

ولم يكن الكسى بن بطرس يبدى اهتماماً بالاعمال ،
فهو مهمل أكثر ما يهمله السكر مع الاصدقاء والاحاديث التي
تعرض بالسخرية والشجب لكل ما يقوم به الاب . وكان
القيصر يرى ذلك ويشتاط غضباً بسببه .

وبعد ان تزوج الكسى من اميرة المانية امضى فى الخارج
الفترة من ١٧١٠ حتى ١٧١٣ . وبعد مراسيم الزفاف ادى مهمات

كلفه بها ابوه ، وكان اهماله باديا هذه المرة ايضا .
وكان الكسى قد كذب عندما ابدى استكائة ووافق ،
بالحاح من ابيه ، على التنازل عن حقوق ولاية العهد . فكان
يعول على امر آخر هو وفاة ابيه او اندلاع انتفاضة او قيام
انقلاب ضده . وكان يؤجج نواياه وآماله الانصار الذين تحلقوا
حوله .

وفي اواخر ايلول (سبتمبر) ١٧١٦ غادر العاصمة . وبدلا
من كوبنهاغن التى اوصاه بطرس بالرجيل اليها وصل الى فينا
فى ١٠ تشرين الثانى (نوفمبر) . وكان فى نية الساسة فى فينا
الاستفادة من ادعاءات الكسى بالعرش الروسى لاضعاف مواقع
بطرس وبلاده عشية انتهاء حرب الشمال بوضع شروط الصلح .
ووعدوا الكسى باحلى الوعود المغرية . الا ان الامبراطور النمساوى
ومستشاريه لم يكونوا فى الوقت ذاته راغبين فى استقبال الامير
الروسى فى بلاطهم علنا . ولذا خباؤه فى تيرول ثم نقلوه الى
نابولى .

الا ان الكابتن أ . روميانتسيف والدبلوماسى المحنك ب .
تولستوى كانا يتعقبان الامير الكسى فى حله وترحاله ، ويسلمان
رسائل القيصر الى الامبراطور . ويتعقد الموقف بالنسبة للعاصمة
النمساوية . اذ ان القيصر يهدد النمسا بهجوم مسلح .
واللتقى الكسى مع تولستوى وعرف من رسالة القيصر ان اباه
يرى فى تصرفاته خيانة . وزعم تولستوى ان القيصر قادم الى
نابولى لمقابلة ابنه وقال انه سيحرك القوات المتحشدة فى بولونيا
ضد النمسا . وحطمت هذه الحجة عناده الذى استمر طويلا .
وفى ٣ تشرين الاول (اكتوبر) وصل الكسى الى موسكو .
وكان ينتظره فى القصر ابوه واعضاء السينات والجنرالات وكبار

القساوسة . وركع الكسى امام ابيه وتوسل اليه طالبا المغفرة
ومستعطفا الابقاء على حياته . ورد عليه بطرس قائلا :
— سامحك ما طلبته ، لكنك فقدت كل امل فى وراثة
عرشنا ويجب ان تتنازل عنه بوثيقة رسمية تدبيلها بتوقيعك .
ووافق الكسى ووقع وثيقة التنازل عن العرش . ونصت الوثيقة
على عدم الادعاء بالارث وعدم قبوله باية ذريعة كانت .
وتلى البيان الخاص بحرمان الكسى من حقوق الوراثة .
وسرعان ما بدأ التحقيق مع الاشخاص الذين ذكر بانهم
مستشاروه . واشرف بطرس بنفسه على الاستجواب ، كما فى
عهد «التحقيق مع افراد القوات الخاصة» . فوضع اسئلة
لاستجواب الكسى وبعث رسلا يحملون توجيهات باعتقال
الاشخاص المذكورين . وفى موسكو اعدم كيكين وآخرون . وفى
بطرسبورغ التى انتقل اليها بطرس وحاشيته استمر التحقيق
والتعذيب ، وشملا الكسى ايضا . وبعد المحاكمة احال القيصر
تقرير مصير ابنه الى كبار رجال الدولة — سدة الكنيسة
واعضاء السينات والجنترالات وغيرهم .

وثناء التحقيق تكشف بالكامل آراء الكسى ونواياه . ذات
مرة اعترف ، بحضور ابيه وكبار رجال الكنيسة والمدنيين ،
بانه كان ينوى اعلان الانتفاضة فى كافة ارجاء البلاد ، ولو
حاول ابوه التنيكيل بانصاره لما تورع عن اباداة كل سكان البلاد .
وكان يتصور بان الشعب سيؤيده طالما هو يريد العودة الى
المعتقدات والعادات والاعراف القديمة ، لان الشعب يحبه
ويعطف عليه . كان الكسى يجد فى نفسه احيانا القوة الكافية
للتفوه بهذه الاقوال التى تكشف عن احلامه وخطرسه ونواياه
السخيفة الهوجاء المتناقضة مثل تأكيده على حب الشعب له من

جهة واستعداده لآبادة هذا الشعب من جهة ثانية . وفى
أحيان أخرى يبلغ به اليأس والقنوط والانسحاق أبعد الحدود .
فى تلك الفترة كان الكسى يعانى من خلل عصبى ،
كما قال معاصروه . وكان يتصرف بشكل لا يليق ، حيث
يتحايل ويفترى على المقرين إليه ويكذب ويجهد نفسه ليقول
من ذنبه كخائن لقضية أبيه ولمصالح روسيا . وكان واضحاً أنه
جن بسبب خوفه من الموت .

وفى ١٤ حزيران (يونيو) زج به فى سجن قلعة بتروبافلوفسكايا .
وبدأ التعذيب فى السجن . وصدر الحكم . صحيح أن رجال
الدين تملصوا وابتعدوا عن الوضوح الكامل فى قرار الحكم :
فالمقتطفات التى أوردوها من الكتاب المقدس تقول من جهة
بالموت للأبن الذى عصى أباه ، ومن جهة أخرى تتحدث
عن قبول المسيح توبة الابن الضال . وتركوا القرار لبطرس كى
ينظر فيه . أما الموظفون المدنيون فقد أعربوا عن رأيهم بوضوح لا
لبس فيه : الإعدام .

وفى ٢٤ حزيران ١٧١٨ أعلن عن حكم الإعدام . لكنه
لم ينفذ . فبعد يومين قضى الكسى نحبه فى قلعة بتروبافلوفسكايا ،
ربما بسبب الهزات والمعاناة . وفى ٣٠ حزيران دفن ، وحضر
بطرس مراسيم دفنه .

وكانت تلك النهاية الفاجعة خاتمة للمجابهة الطويلة الأمد
بين الابن والاب (وقد غدت من بداية القرن الثامن عشر
مجابهة سافرة) . وكان لا بد لهذه النهاية أن تترك أثراً إضافياً فى
طبيعة بطرس وحالته النفسية بعد أن فقد ابنه ووريث عرشه .
صحيح أن لديه ابناً آخر من زوجته يكاترينا فى الثالثة من العمر .
وأعلن أنه هو ولى العهد . لكن بطرس فقدته فى السنة التالية ،

توفى ، ولم يبق امل فى ميلاد ذكر آخر . وصعق القيصر لهذه الضربة الجديدة ، واختلى الى نفسه فى مضجعه ثلاثة ايام كاملة ، ورفض مقابلة احد او تناول طعام . وارهقته نوبات التشنج .

لكن الحياة تسير ، وسيطر القيصر حسب الظاهر على ألم الخسارة وانهيار آمال الابوة ، وشرع يمارس اعماله التى تكاثرت وما كانت تقبل التأجيل . وغاص بطرس من جديد فى دوامة الاحداث ، وكان فى ذلك ملاذ له من الآلام شأن سائر عباد الله .

نهاية حرب الشمال

ترك الانتصار البحري الذى حققه الروس فى معركة هانكو انطبعا مدهشا لا يقل عن الانتصار البرى فى معركة بولتافا .
ففى البلطيق ، فى اعقاب احتلال قسم كبير من فنلندا ، استولت قوات بطرس على جزر ألاند عند سواحل السويد ، وبعد ذلك ، فى ايلول (سبتمبر) من عام ١٧١٤ نفسه شنت فصيلة روسية حملة على ساحل المملكة السويدية ذاتها .

كانت الهزائم الجديدة التى لحقت بالملك كارل الثانى عشر والعمليات الحربية التى شنت فى اراضى دولته ذات دلالة واضحة على ما يبدو ، حيث حددت مصير السويد وضرورة توقيع الصلح مع روسيا . وكان بطرس يأمل فى ذلك . الا ان حرب الشمال استمرت ، وكانت بمثابة «مدرسة بثلاث مراحل» على حد تعبير بطرس نفسه فيما بعد . وفى تلك الآونة انتهت مرحلتاها الاولى والثانية (وكل منهما بسبع سنين) ، وبقيت المرحلة الثالثة . وبعد كل الانتصارات التى حققتها روسيا اضطرت الى خوض العمليات الحربية وممارسة لعبة دبلوماسية معقدة طوال سبع سنوات اخرى . والسبب فى ذلك لا يقتصر على تعنت كارل الثانى عشر الذى جعل السويد على شفا الكارثة الوطنية ، بل يكمن ايضا فى الموقف فى اوربا على صعيد السياسة الخارجية .

ففى نيسان (ابريل) ١٧١٣ وقعت الدول المتحاربة فى اوربا الغربية صلح اوترىخت . ووضعت الحرب من اجل التركة الاسبانية اوزارها . وارتسمت سيطرة بريطانيا فى الشؤون الاوربية والعالمية . فان انتقال جبل طارق وجزيرة مينوركا اليها وتدمير دونكرك الفرنسية وكسب المستعمرات (وحق تجارة الرقيق) فى اميركا الشمالية والجنوبية (بفضل المعاهدة مع البرتغال) — كل ذلك ادى الى هيمنة الاسطول البريطانى والتجارة البريطانية ليس فقط فى البحر الابيض المتوسط وبحر الشمال ، بل وفى المناطق الحساسة من محيطات العالم . وكان الطموح الى الهيمنة والتوسع البحرى والتجارى العالمى لا بد وان يدفع بريطانيا الى الصدام مع الدول الاخرى . وفى البلطيق كانت روسيا هى احدى تلك الدول . فان جيرونها العسكرية ، بما فيه البحرى ، ينمو بسرعة . واثار ظهور قوات بطرس فى بوميرانيا السويدية واسطوله المظفر فى بحر البلطيق قلقا شديدا لدى الدول البحرية الاوربية . لكنه حملها فى الوقت ذاته على اقامة اعتبار له . وازداد نفوذ روسيا فى اوربا على مرأى من الآخرين . وحاولت الدول الاوربية اعاقه ذلك بمختلف السبل . ففى بداية عام ١٧١٣ ، مثلا ، خطط البلاط البريطانى لارسال عمارة من ١٥ سفينة الى سواحل بوميرانيا . ودعا هولندا للمشاركة فى الحملة من اجل الضغط على بطرس الاكبر . الا ان هولندا رفضت ، فتأجلت الحملة بالضرورة . واستخدمت المناورات الدبلوماسية . فقد الح الوسطاء الانجليز وغيرهم فى عرض خدماتهم وطالبوا القيصير بان يوقع الصلح مع السويد ويسلمها كل الاراضى المكتسبة ما عدا بطرسبورغ . ورفض بطرس ادعاءاتهم هذه بالطبع ، ووافق فقط على «الوساطة الطيبة» ، اى على اضطلاع الوسطاء بمهمة التوصيل

فى المفاوضات مع السويد . زد على ذلك ان هولندة لم تبد
هذه المرة ايضا ميلا الى العمليات الموجهة ضد روسيا . وعاد
كارل الثانى عشر الى وطنه فى الاخير ، وظل «يساعد» بطرس
بتعته الاهوج . بديهى ان السبب الاول فى فشل كل هذه
المحاولات هو قوة روسيا المتعاضمة وانتصاراتها الحربية برا وبحرا .
واستمرت الحرب . واقدام ملك السويد على اجراءات متطرفة
لكى يطيل فى امد النهاية الحتمية . فقد اصدر «ميثاق القرصنة
البحرية» الذى اعلن صراحة عن حق القرصنة فى البحار ودعم
نشاط القراصنة . وفى عام ١٧١٤ نفسه استولى السويديون على
كل السفن التجارية ، بما فيها ٢٤ سفينة انجليزية ، وفى ربيع
العام التالى استولوا على ٣٠ سفينة تحمل العلم البريطانى .
واندلع النزاع بين بريطانيا والسويد . وبالعكس ، حدث تقارب
بين مصالح بريطانيا وروسيا . وانخرطت فى هذه العملية هانوفر
التي غدا حاكمها جورج الاول ملكا لبريطانيا بعد وفاة الملكة
آنا فى آب (اغسطس) ١٧١٤ . وفى ١٧ تشرين الاول (اكتوبر)
١٧١٥ وقع بطرس معه معاهدة فى غريفسوالد التزم القيصير
بموجبها بان يساعد الملك فى الحصول على بريمين وفيردون
من الممتلكات السويدية فى المانيا ، والتزمت هانوفر بألا تعترض
على ضم اراض فى شرقى البلطيق الى روسيا وتعلن الحرب ضد
السويد وترسل فيلقا من ستة آلاف رجل الى بوميرانيا . وهكذا
توسع الحلف الشمالى . وسارت الامور نحو قيام تحالف بين
بريطانيا وروسيا بصدد العمليات الحربية المشتركة ضد السويد .
واجرى المفاوضات فى لندن بهذا الشأن كوراكين ، وهو احد
افضل دبلوماسيسى بطرس الاكبر .

وفى عام ١٧١٦ تقابل بطرس مع ملوك بولونيا وبروسيا

والدانمرك ودوق ميكلينبورغ . وفي ايار (مايو) اثناء اللقاء مع الملك الدانمركى فى هامبورغ تمكن بطرس من الاتفاق معه بصدد القيام بانزال مشترك فى سكونه جنوبى السويد .

الا ان العلاقات مع بريطانيا تأزمت بشكل لم يكن بطرس يتوقعه . فقد وعد الوزير البريطانى تاونساند بتقديم طلب خطى حول التحالف العسكرى ، لكنه اقترح فى آذار (مارس) توقيع اتفاقية تجارية فقط . ورفض كوراكين توقيع الاتفاقية بدون ايعاز من بطرس . وكان سبب هذا التحول هو ما يسمى بقضية ميكلينبورغ . والقضية ان دوق ميكلينبورغ طلق زوجته الاولى وتزوج ثانية من يكاترينا ايفانوفنا ابنة اخى بطرس ، ايفان الخامس الراحل الذى شاركه فى الحكم فى حينه . وبموجب عقد الزواج (٢٢ كانون الثانى — يناير ١٧١٦) وعد بطرس الدوق بتسليمه مدينتى ويسمار ووارنيموندى من نفس الممتلكات السويدية فى المانيا . وفى ٨ نيسان (ابريل) ، فى يوم الزفاف ، تم توقيع معاهدة التحالف بين روسيا وميكلينبورغ . ووعد بطرس صهره بمساعدة عسكرية وتأييد ضد المعارضة الداخلية . وقد غدت ميكلينبورغ فى الواقع بمثابة المحمية بالنسبة لبطرس وروسيا . وفى تلك السنوات دبر القيصر ، لاغراض سياسية دون شك ، زيجات اخرى لاقربائه — فقد زوّج ابنه ألكسى من شارلوتا اميرة ولفينوتيل (١٧١١) ، وزوّج آنّا (ابنة اخيه ايفان الخامس) من دوق كورليانديا (١٧١٠) وولد من الزواج الاول ابن سموه بطرس ، وقد غدا فيما بعد امبراطورا لروسيا (بطرس الثانى) لامد غير طويل ، اما آنّا ايفانوفنا فقد غدت امبراطورة لروسيا لامد طويل نسبيا .

ومن بين كل عقود الزواج تلقى بطرس اكثر الازعاجات من

زواج دوق ميكلينبورغ . فقد اشار جورج حاكم هانوفر وملك بريطانيا وزيره في هانوفر بيرنسدورف صراحة الى موقفهما السلبي من زواج الدوق ويكاترينا واحتمال تسليمهما ويسمار . فالملك ووزيره يريدان ان تبقى ميكلينبورغ دولة محايدة . وبالإضافة الى ذلك لم يأخذ بطرس بعين الاعتبار ان بيرنسدورف من مواليد ميكلينبورغ ولديه ممتلكات فيها . ومن مواليد ميكلينبورغ ايضا هولشتين وديفيتس مستشارا الملك الدانمركي فريدريك الرابع المقربان اليه . وكان للثلاثة تأثير كبير على ملكي بريطانيا والدانمرك ، وقد واجهوا على أسنة الحراب معاهدة التحالف الروسية الميكلينبورغية وراحوا يقنعون ملكيهم واوروبا كلها بان بطرس يعد مخططات عدوانية توسعية في اوروبا الغربية . واخذت دسائسهم تعود بشمارها المحزنة .

صحيح ان البعض حذروا بطرس من العواقب المحتملة غير المرغوب فيها من قضية ميكلينبورغ التي اعتبرها كلوتشفيسكي ، على ما يبدو ، واحدة من «التفاهات» التي اولع بها بطرس في المانيا في تلك السنوات . وكتب له كوراكين في شباط (فبراير) ١٧١٦ : — البلاط الانجليزي غير راض عن زواج دوق ميكلينبورغ وتسليمه ويسمار . ومن واجبي ان ابلغ بضرورة عدم الاستعجال في هذا الزواج مطلقا . . . فبسببه يمكن ان تضيع الصداقة الحالية (مع بريطانيا — ملاحظة المؤلف) ، وهي صداقة ضرورية جدا في الظروف الراهنة . وانا لا ادري هل تتمكن من الحصول من دوق ميكلينبورغ على نفع بقدر نفع اولئك الذين يمكن ان تضيع صداقتهم بسببه .

الا ان هذه الرسائل ، وكذلك المعلومات عن سير المحادثات في لندن ، وصلت متأخرة ، واضطر بطرس على مواجهة عواقب

اخطائه منذ نيسان (ابريل) حيث اقيمت احتفالات الزفاف وتوقيع المعاهدة مع ميكلينبورغ . واول تلك العواقب المؤذية هي استسلام مدينة ويسمار المحاصرة من قبل قوات الدانمرك وهانوفر وبروسيا . وبأمر من القيصر وصل الجنرال ريئين لحضور مراسيم التسليم ، الا ان الحلفاء لم يسمحوا له مع القوات الروسية حتى بدخول القلعة . وقال بطرس بزعل :

— قدمت لكل حلفائي في هذه الحرب خدمة جلى ، وكنت حليفا مخلصا صادقا لدرجة لا تترك لاحد سببا لعدم الثقة بى وللتصرف معى ومع قواتى بهذه الصورة .

اما الانزال فى شبه جزيرة سكونه فكان يسير هو ايضا الى الفشل الذريع . وكان الهدف الوحيد للحملة بالنسبة لبطرس هو ارغام السويد على قبول الصلح . ولم يكن يريد الحصول على اية اراض لا فى المانيا ولا فى السويد . وقد وافق بطرس على تسليم كل الاراضى التى امكن كسبها من السويد على الساحل الجنوبى للبلطيق من قبل القوات الروسية او بمشاركتها الى الحلفاء — الدانمرك وهانوفر وسكسونيا وبروسيا . ووعده بتسليم بعض الاراضى الى ميكلينبورغ .

وحشد بطرس فى شمال المانيا ، وخصوصا فى ميكلينبورغ ، جيشا روسيا من خمسين الفا لاجل العملية المرتقبة فى جنوب السويد . وظهر فى مرفأ كوينهاغن اسطول روسى مكون من ٢٢ سفينة ، بينها ١٤ بارجة كبيرة . وكانت ترابط هناك افواج الدانمرك وبريطانيا وهولندة . وصار بطرس — القيصر والاميرال — قائدا للعمارة الموحدة الكبيرة — ٨١ سفينة . وفى ٥ آب (اغسطس) خرج الاسطول الى عرض البحر يرافقه ٤٠٠ سفينة تجارية . ووصل الى جزيرة بورنهولم وسرعان ما عاد منها ، لان

السفن السويدية اختبأت في مرافئها . بديهي ان هذا الاستعراض البحري الحربى الذى استغرق عشرة ايام واشرف عليه القيصر الروسى قائد الاسطول قد ترك انطباعا كبيرا بالطبع ، لكنه لم يؤثر بأية حال على نهاية حرب الشمال . ولم يتم الانزال ، لان القوات الروسية ظلت كالسابق مكتوفة الايدى فى مواقعها فى ميكلينبورغ والاماكن الاخرى . وفى نهاية آب (اغسطس) بدأ نقلها الى كوبنهاغن ، ولكن ببطء شديد وتأخيرات متعددة من جانب الدانمركيين . وحل الخريف بيرده وعواصفه البحرية ، وفى ١٧ ايلول (سبتمبر) اعلن بطرس للملك الدانمركى بانه أجل الانزال الى العام التالى لانه لا يريد ان يجازف بخيرة افواجه . وردا على ذلك انهالت الاتهامات «بالخيانة» ونوايا الاستيلاء على كوبنهاغن وتوقيع الصلح مع كارل الثانى عشر وهلمجرا . ورد القيصر على ذلك بالبدء بسحب قواته من الدانمرك الى روستوك واجرى مفاوضات بشأن الانزال فى سكونه فى العام التالى واعلن عن استعداده لسحب افواجه من ميكلينبورغ . باختصار ، ابدى بطرس اكبر قدر من ضبط النفس والاخلاص . كانت اتهامات بريطانيا وحلفائها فيما يخص ميكلينبورغ وغيرها ، وكذلك الضجة والتوتر العصبى اللذان رافقاها ، مجرد ذريعة بالطبع . فالسبب الحقيقى لتصريحاتهم وتصرفاتهم هو القلق من تزايد جبروت ونفوذ روسيا فى البلطيق وفى الشؤون الاوروبية والخوف من تحويل بحر البلطيق الى «بحيرة روسية» . والاكثر من ذلك ان بريطانيا سعت ، بالاعتماد على هانوفر ودول اخرى ، الى الهيمنة فى البلطيق لتكون لديها هنا مراكز اسناد كما فى البحر الابيض المتوسط (جبل طارق مثلا) . وذلك هو مبعث تحامل جورج الاول وفريدريك الرابع ووزرائهما ومستشاريهما المتنفذين

على بطرس ومحاولات اضعاف نفوذ روسيا في شمال اوربا وتقويض الحلف الشمالى .

ولكن بغض النظر عن بعض الاخفاقات والهفوات فى الشؤون الدبلوماسية كان بطرس راضيا عن سير الامور . فهو لا يدعى ، بأية حال ، بالمدن والاراضى الالمانية ، وقد وافق على ضمها الى ممتلكات هانوفر والدول الحليفة الاخرى ، ولذا كان يتعين على هذه الاخيرة ان تهتم بالحفاظ على ممتلكاتها الجديدة التى كسبتها بمساعدة حاسمة من القيصر الروسى ، كما يتعين عليها ان تدعم مكاسبه فى شرق البلطيق . واثارت قضية الانزال ومماطلة الحلفاء الواضحة انفعال بطرس فكتب الى الجنرال أبراكسين فى آب (اغسطس) يقول :

— الله وحده يعلم بمدى المتاعب معهم . فهم يضيعون الوقت الثمين وكأنما يمارسون عملا لا يعينهم .
هذا من جهة ، ومن جهة اخرى اعرب بطرس عن ارتياحه قائلا :

— من المستبعد ان احدا على وجه البسيطة تشرف بقيادة اساطيل شعوب اخرى مع اسطوله . وانا اذكرك بارتياح ثقة تلك الدول .

صحيح ان الاسطول الموحد لم يقيم عند سواحل السويد بشيء يذكر ، ولم يطلق ولا اطلاقا واحدة على السفن السويدية التى اختبأت مسبقا كالفتران فى جحورها . لكن المفرح هو بالذات الاستعراض المشترك الذى احتفلت العمارة الروسية خلاله ، فى الثامن والعشرين من ايلول (سبتمبر) احتفالا مهيبا بالنصر فى معركة ليسنايا ، واطلقت العمارة البريطانية معها قذائف المدافع «مهنثة بذكرى هذا النصر» (كما جاء فى مجلة الرحلات

الروسية فى وصف احداث ذلك اليوم) .
واستنكر بطرس المماثلة المتكررة التى اثارت انفعاله ، فنقد صبره ، وكان هياجه يؤدى احيانا الى ظهور مواقف غير عادية . ذات مرة ، وهو فى الدانمرك ، نهض كعادته فى الصباح الباكر . وفى الساعة الثامنة جاء رسول القيصر الى بلاط الملك يحمل طلبا باللقاء . واخبره رجال البلاط ان الملك لا يزال نائما . وبعد ساعتين كرر الطلب فردوا عليه بان فريدريك نهض من النوم ، لكن احدا لم يتجرا على دخول غرفة نومه . وبعد ساعة من ذلك كان الملك يرتدى ثيابه . نفذ صبر بطرس نهائيا . واخيرا جاءه الملك بنفسه فبادره بطرس قائلا :

— الامور ، يا اخى ، لا يمكن ان تكون بشكل طيب اذا سارت على هذه الصورة . ففى كل يوم لدينا اشياء هامة كثيرة يجب ان نخبر بها بعضنا البعض ، فى حين ليس بالامكان الدخول على جلالتك دوما . وانا ايضا عندى اشغال . فلتتفق نهائيا على ساعة معينة ويوم معين نلتقى فيهما عندما يكون لدينا ما نقوله لبعضنا البعض .

ووافق الملك خجلا على حجج القيصر الروسى لكنه طلب مع ذلك ألا تجرى اللقاءات فى الصباح . ولم تساعد اللقاءات والاحاديث على تقدم القضية كثيرا ، فقد تأجل غزو السويد . وارتحل بطرس من الدانمرك الى هولندة ، فلهذه يتمكن هنا من الحصول على دعم الولايات الهولندية لانتهاء الحرب اخيرا . وقد وصل الى هنا سرا هذه المرة ايضا . لكنهم سرعان ما اكتشفوا سره من جديد . وكما كان فى المرة الاولى تفقد القيصر احواض بناء السفن والمانوفاتورات والسفن والورشات . واقتنى لوحات الرسامين الهولنديين . وزار المنزل الذى اقام فيه فترة اثناء «البعثة

الكبرى» . واستقبلته نفس صاحبة البيت المضيفة :

— اهلا وسهلا بالاسطة بطرس .

— من اين تعرفيننى ؟

— انا زوجة الاسطة بول ، وكنت تتغدى فى منزلنا .

فرح القيصر وعائق المرأة ، ارملة اسطة السفن الذى علمه فى حينه وسلمه شهادة تقول ان بطرس بلغ مستوى رفيعا فى فن بناء السفن . الا ان رحلة بطرس الى هولندا لم تقترن دوما بمثل هذه اللقاءات والاحاديث المفرحة . فان صاحب الفندق ، وهو ليس من احسن الفنادق ، طلب مقابل المبيت والعشاء المتواضع جدا مبلغا ضخما ٣٠٠ روبل ذهبا فاعترض القيصر الذى يتميز بالبخل فى نفقاته الشخصية وقال مستاء :

— لقاء اى شىء تطلب هذا المبلغ الضخم ؟

— تعتبر الثلاثمائة روبل مبلغا ضخما ؟ لو كنت انا قيصر روسيا لدفعت ثلاثة آلاف .

ودفع بطرس المبلغ . وتقابل القيصر مع البحارة والنجارين ، وكان تصرفه فى منتهى البساطة كالسابق ، وقد اهتم بمختلف الحرف وقام بجولات بحرية . واستغرب له الكثيرون ، فقد ظل على سابق عهده من حيث حب المعرفة والتواضع ، لكنه نما من كل النواحي ، وليس فقط من حيث العمر . فقد مر عشرون عاما على رحلته الاولى الى اوربا ، ورأى فيه الهولنديون الآن ليس ذلك القيصر الشاب الخجول غير المجرب ، بل حاكما ناضجا واثقا من نفسه بالاضافة الى كونه قائدا عسكريا وريانا للاستطول واسطة فى بناء السفن وانسانا متضلعا فى العديد من الاختصاصات الاخرى . «فلتكلم بلغة النجارين» — هذا ما قاله للاستولات الهولنديين الذين تحيروا فى العثور على الكلمات

المناسبة اثناء الحديث مع الرجل الذى غدا من زمان نارا على
عَلَم من جميع النواحي .

وزار بطرس فرنسا ايضا . ففى ٢٧ نيسان (ابريل) ١٧١٧
وصل بالسفينة الى دونكيرك واطلع على الميناء والهويس
والاستحكامات والمتاجر . ولم يهتم بالمآدب والالعب النارية
والحفلات والزينات ، ولم يعبأ بالاطعمة الوفيرة ، مما جعل
'جهود الوجهاء بهذا الخصوص تهدر عبثا فى بعض الاحيان .
وعندما يخبرونه بمثل هذه المآدب يجيب قائلا :
— انا جندى اقتنع بالخيز والماء .

فى باريس خصصت للقيصر غرفة وثيرة فى اللوفر واعدوا
مائدة فاخرة من ٨٠٠ طبق . اما بطرس فقد ذاق قليلا من
النبيذ واقتطع كسرة من البسكويت وطلب غرفة اكثر تواضعا لاجل
المبيت . وفى فندق ليدغير الذى خصص له طلب ان يفرشوا
له فراش السفر الذى يحمله فى عربته ، وامر ان يفرشوه ليس
فى غرفة النوم ، بل فى غرفة الثياب . وكان ينتظر هنا زيارة
رسمية . وكتب الى زوجته يكاترينا عن ضجره قائلا :

— انا مضطر للبقاء فى الفندق يومين او ثلاثة من اجل الزيارة
وغيرها من الرسميات ، ولذا لم ار هنا شيئا بعد ، وسأبدأ
بالتجول غدا او بعد غد . اما فى الطريق فما أكثر ما رأيتاه من
بؤس عامة الناس .

وقد رافق بطرس فى رحلته احد رجال الحاشية ، وكتب
بصف مظهره الخارجى :

— القيصر فارغ القامة جدا ، ومحدودب الظهر بعض الشيء ،
وقد اعتاد ان يطأطي رأسه قليلا ، وهو اسمر ، فى ملامح وجهه
امارات القسوة .

ويقول هذا الرجل ان القيصر الروسى ينهض فى الصباح الباكر ويتناول طعام الغداء فى حوالى العاشرة ، ويتعشى فى حوالى السابعة ، ويأوى الى الفراش قبل التاسعة . ويحتسى قبل الغداء الفودكا او الجعة او النبيذ ويحب الخبز الاسمر (حيث يخبزه خصيصا له) ، كما يحب اللوبيا ، ومن الفواكه يعجبه البرتقال والتفاح والكمثرى . ويتجول فى العاصمة الفرنسية فى بدلة جوخ بسيطة ومتواضعة للغاية ، ومن الحزام العريض يتدلى سيف ، ويرتدى الشعر المستعار دون مساحيق ، وقميصه بدون اكمام . وسرعان ما بدأت الزيارات وحفلات الاستقبال . وجرت المفاوضات الدبلوماسية فى منتهى السرية . واجراها كوراكين وشافىروف عن الجانب الروسى . وتقابل بطرس عدة مرات ، بصورة سرية ايضا ، مع دوق اورليان الوصى على الملك لويس الخامس عشر البالغ من العمر سبع سنوات . وقام الملك الصغير بزيارة الى القيصر ، الا ان هذا الاخير لم يلتزم بالمراسيم التى وضعها المجلس الملكى فاستقبل الصبى عند باب العربة واحتضنه ورفعته وقبله و اضاف قائلا «هذه ليست قبلة يهودا» . وكتب الى زوجته يقول :

— اخبرك بان الملك زارنى يوم الاثنين الماضى ، وهو صغير لا يزيد طوله سوى اصبعين على صاحبنا لوقا (القزم الذى رافق بطرس — ملاحظة المؤلف) ، وهو صبى رائع الوجه والقوام ، وفطين جدا بالنسبة لعمره ، فهو فى السابعة فقط .

وفى حزيران (يونيو) تقابل بطرس مع الجغرافى الشهير ديليل والعلماء المعروفين الآخرين . واهتم بدراساتهم وبأمور التدريس . وزار كلية الامم الاربع وحضر جلسة أكاديمية العلوم . واطلع على الكثير وحفظ الكثير . شاهد عملية جراحية للعين اعادت البصر

الى شخص فى الخامسة والستين كان يعانى من انسداد عدسة العين ، وشاهد مضخة لرفع المياه ، واطلع على خرائط جغرافية ورسوم فى تاريخ الفنون وامور كثيرة اخرى . وادهش محدثيه بمعارفه ومواهبه . واستفسر ديليل من القيصر عن بحر الخزر وبحر آزوف . وفيما بعد استفاد بطرس كثيرا من هذه الاحاديث فى تنظيم البعثات الخاصة برسم الخرائط وغيرها . واهتم بدار سك النقود وصناعة الجويلين وبالقصور والمنتزهات الملوكية والترسانات والصيدليات والبرك والاحواض والنافورات . وكان يحتفظ بالتفاصيل ليقوم فيما بعد ، فى روسيا ، بكل ما هو ضرورى وما تفتقر اليه . وكانت مفكراته تمتلئ بالملاحظات والمعلومات واستدعى الاختصاصيين للعمل فى روسيا ، حيث تعاقد مع ٥٠ شخصا (وليس ١٠٠٠ ونيف كما فى نهاية العقد السابق) وهم من العلماء والمعماريين والرسامين والنحاتين والصاغة وغيرهم (وليس الضباط ، فلديه الآن ضباط روس كثيرون) .

ودهش الفرنسيون ، لا سيما رجال البلاط ، بخاصة من ان العاهل الروسى لا يميل الى اللهو والتسلية والصيد والمسارح والمجون (فلم يكن فى الواقع يلتفت الى الاستقراطات الحسنات اللواتى حاولن ان يحظين باهتمامه) ، وهو غالبا ما يستهين بالرسميات ويتحدث مع عامة الناس برغبة . فقد زار دار العجزة وتحدث مع الجنود المسرّحين ونعتهم «باصحابى» وتناول الطعام والشراب معهم على مائدة واحدة . وكانت آراء الناس فيه متعارضة . فالاب دويوا الذى تجادل مع دبلوماسيى بطرس حول طاولة المفاوضات فى باريس لم يخف موقفه السلبي منه :

— القيصر متهور ولا يصلح الا لمهنة رئيس نوتية فى سفينة

هولندية .

واعرب لوفيل عن رأى مغاير :

— ليس عندنا فى فرنسا شخص يشبهه من حيث مهارته فى الشؤون البحرية والحرية والاستحكامات . . . وتكشف الاسئلة التى طرحها على العلماء والرسامين عن اطلاعه ، وهو يشير الاعجاب من حيث سعة مداركه وبعد نظره .

وفى مدينة رايمس التى زارها القيصر عرض عليه كهنة الكائدرائية كتابا دينيا قديما ووضحوا له انه مكتوب بابجدية قديمة لا يعرفها احد . فاخذه القيصر وادهش الحاضرين عندما شرع يقرأ الكتاب بطلاقة . فالمخطوطة هى انجيل باللغة الروسية القديمة كانت قد جلبته فى القرن الحادى عشر آنا ، ابنة ياروسلاف الحكيم ، التى صارت ملكة لفرنسا بعد ان تزوجت من الملك ، وهو امى شأن اغلبية معاصريه آنذاك . وكانت فرنسا ، فى تلك الحقبة ، بلدا متخلفا بالمقارنة مع دولة كييف الروسية .

فى سان سير زار القيصر الروسى السيدة ميتينون محبوبة لويس الرابع عشر الشهيرة . وفى غرفتها المسدلة الستائر ازاح بطرس تلك الستائر ليراها جيدا . وسألها :

— ما مرضك ؟

— الشيخوخة .

— كلنا معرضون لهذا المرض لو طال بنا العمر .

ولم يترك استعراض الحرس والافواج الميدانية التى اصطفت تكريما له انطبعا فى نفسه :

— رأيت دمي مزوقة وليس جنودا . وهم يتلاعبون بالسلاح ويرقصون فى السير ولا شىء آخر .

ويتميز الاستنتاج العام من ملاحظاته فى باريس بالازدواجية :

— انا آسف لان ملاهسات الوطن ترغمنى على ترك هذا المكان الذى تزدهر فيه العلوم والفنون ، كما انى آسف لان هذه المدينة ستصاب آجلا ام عاجلا باضرار كبيرة بسبب الابهة والاستهتار وستختنق بالدخان .

وغادر بطرس العاصمة الفرنسية الى سبا حيث المياه . وفى تلك الاثناء واصل الدبلوماسيون مباحثاتهم . وفى ٤ آب (اغسطس) تم فى امستردام توقيع معاهدة التزمت فرنسا بموجبها بالتوسط فى المفاوضات بين روسيا والسويد ووعدت بعدم تسديد المعونة المالية وعدم تقديم اية مساعدات اخرى الى السويد والاعتراف مستقبلا بحق روسيا فى الاراضى التى كسبتها فى شرقى البلطيق . وفى تشرين الاول (اكتوبر) ١٧١٧ عاد القيصر الى روسيا بعد ان امضى فى الخارج سنة ونصفا .

وترك بطرس فى فرنسا آثارا طيبة . فخلال مكوثه فيها ولدت فكرة زواج لويس الخامس عشر من ابنته الصغرى يليزافيتا . وبالمناسبة فان تلك الفكرة لم تتحقق . وعبر المفكر المعروف سان سيمون ، وهو رجل رفيف ومتشائم للغاية ، عن اعترافه بقيمة الضيف الروسى الشهير حيث قال :

— كل شىء فيه يشير الى سعة معارفه ومنطقيته الثابتة . فقد جمع بشكل مدهش للغاية بين منتهى العظمة المتميزة بالانفة والرقّة والثبات والتى لا تضايقه بعد ان رسخها فى نفسه بوثوق وبين التأدب الذى تتجلى فيه تلك العظمة مع الجميع على الدوام . فهو سيد فى كل مكان ، لكن سيادته ذات درجات تبعا للناس . تلك هى الشهرة التى خلفها فى فرنسا حيث كان الفرنسيون ينظرون اليه نظرتهم الى المعجزة ولا يزالون معجبين به حتى الآن .

كانت الحرب مستمرة ، ولم يكن بالامكان اطلاقا اعتبار الموقف فى شمال اوربا سهلا يسيرا . دبلوماسيو بريطانيا وهانوفر يحكون الدسائس ضد بطرس ويولبون الدانمرك وبروسيا عليه . واقترح جورج الاول ان يوحد الملوك الثلاثة جيوشهم ويطردوا الروس من ميكلينبورغ . الا ان الملك فريدريك والملك فريدريك-ولهلم رفضا بصورة باتة ، فهما لا يريدان مجابهة الملك السويدى وجها لوجه بدون مساعدة بطرس . وبالعكس طلب ملك بروسيا من القيصر ان يضاعف افواجه المراقبة فى ميكلينبورغ . فهو خائف من فقدان شتيتين وضواحيها التى حصل عليها مؤخرا . وعند ذاك اقترح دبلوماسيو جورج الاول على كارل الثانى عشر التحالف معه . الا ان هذا الاخير كان يعد لمغامرة جديدة انسياقا وراء هيرتس ، وهو مغامر من هولشتين (على غرار باتكول) . فقد خطط كارل الثانى عشر لانزال فيلق سويدى من عشرة آلاف شخص فى اسكتلندة فى ربيع ١٧١٧ لاسقاط الملك البروتستانتى جورج الاول بمساعدة البعاقبة وتنصيب يعقوب ستيوارت الثالث على العرش . وكان يأمل فى ان يساعده الملك الجديد فى محاربة بطرس حتى يستعيد قوة السويد وعظمتها . ومن جديد انتفع بطرس من تهور كارل . ولم يخفِ القيصر فرحته بهذه المناسبة .

ورغم الموقف السلبي الذى التزمه البلاط الانجليزى ازاء بطرس فقد استفاد هذا الاخير من الخلافات وقام بعدة خطوات دبلوماسية . ورغم شلل حلف الشمال بفعل دسائس بريطانيا الساعية الى الهيمنة على البلطيق لم يقف بطرس مكتوف الايدى . فقد تصرف مع الحلفاء بصدق وحذر . واثناء اللقاء بين بطرس وملك بروسيا فى هيفيلبيرغ أكد الطرفان اتفاقية

التحالف نفسها واتفقا على الضمانات المتبادلة في الاراضى
المتزعة من السويد وعلى تبادل المساعدة . وبالإضافة الى
ذلك وعد العاهل البروسى بتجديد معاهدة الصداقة مع ميكلينبورغ .
وفى نفس تلك الفترة ، اعتبارا من عام ١٧١٦ ، بدأت
الاتصالات بين روسيا والسويد فيما يخص توقيع الصلح .
وتقابل مع ممثلى كارل عدة مرات كوراكين نفسه الذى غالبا
ما كان بطرس يكلفه باعقد المهمات الدبلوماسية المسؤولة .
واستمرت المقابلات فى العام التالى . وفى اواخر تشرين الثانى
(نوفمبر) ارسل القيصر ، بناء على اقتراح من الملك السويدى ،
مبعوثين الى آبو لاجراء المفاوضات . وهما بروس واوستيرمان .
وفى توجيهه الى بروس أكد القيصر على عدم اغاظة الحلفاء مع
ان تصرفاتهم ادت الى تقويض حلف الشمال . وكان على
بروس ان يخبرهم بمهمة الدبلوماسيين الروس المساهمين فى
مفاوضات آبو . وجاء فى التوجيه :

— انت مكلف بالاستماع فقط الى المقترحات السويدية
دون الدخول فى اية معاهدات . وسوف نخبر الحلفاء بتلك
المقترحات ولن نوقع اية معاهدات مباشرة بدون موافقتهم .
وبخصوص المفاوضات التى بدأت فى عام ١٧١٦ كتب
شافىروف بموافقة وتكليف من بطرس «رأيا» بصدد اسباب
واهداف حرب روسيا ضد السويد . وترجم هذا المؤلف وصدر
فى الخارج . وعرفت اوروبا منه ان القيصر يريد لروسيا ان
تمتلك الى الابد اينغريا وليفلانديا وايستلانديا مع ريفيل
(تالين) وكاريليا مع فيبورغ . اما فتلندة فيريد اعادتها الى
السويد . ويجب ان تراعى مصالح الحلفاء — بولونيا وبروسيا
والدانمرك وهانوفر .

واوصى بطرس ممثليه بابداء المرونة والصبر ازاء السويديين ، بحيث يمكن ان يحصل هؤلاء الاخيريون ، مقابل فقدان الاراضى فى شرقى البلطيق ، على تعويض «فى الجانب الآخر» . واقترح بطرس «توقيع الصلح باسرع ما يمكن» لكنه اكد فى الوقت ذاته قائلا :

— نحن نريد الصلح معهم ، الا اننا لا نخشى الحرب .
ومهما اقترحوا عليكم فلا تفسدوا المؤتمر باى حال .
وفى ١٢ أيار (مايو) ١٧١٨ افتتح مؤتمر ألاند . ففى جزيرة سندشير الصخرية ، احدى جزر ارجيل ألاند ، تبادل الدبلوماسيون الروس والسويديون العبارات الاولى :
— صاحب الجلالة القيصر يرغب فى الاحتفاظ بكل ما كسبه .

— الملك يرغب فى استعادة كل ما فقده .
وبعد التصريحين انتقلوا الى النظر فى الشروط تفصيلا .
وكان العاهلان يقران كل خطوة يخطوها الدبلوماسيون ، فهما يتابعان باهتمام بالغ سير المفاوضات ويوجهانها . وجرى لقاءات سرية خاصة بين المغامر هيرتس رئيس الوفد السويدى وبين اوستيرمان المنطقى الشاطر الداهية . وفى اللقاءات المفتوحة طرح هيرتس والدبلوماسى السويدى الثانى هيلينبورغ مسألة «البديل» ، اى التعويضات الاقليمية . وحاول بروس واوستيرمان ان يفهما ما يقصده الجانب الآخر على وجه التحديد . وسرعان ما جاءت التوضيحات : تريد السويد استعادة كل الممتلكات السويدية التى انتقلت الى الدانمرك وهانوفر وبروسيا . علما بانها تريد استعادة تلك الاراضى بمساعدة عسكرية من روسيا ، اى ان هذه الاخيرة يجب ان تحارب حلفاءها .

زد على ذلك انها يجب ان تعيد الى الملك السويدى فيبورغ
وكيكسهولم (كوريل) ويريفيل (تالين) .

وقد انقطعت جلسات المؤتمر عدة مرات ، فقد كان
هيرتس يراجع الملك فى استوكهولم لتلقى التوجيهات . والتجأ
الروس الى الوسائل المعتادة — فقدموا الهدايا الثمينة الى هيرتس
والدبلوماسيين الآخرين . واطلقوا من الاسر سراح شقيق هيلينبورغ
وبادلوا الفيلدمارشال رينشيلد الذى وقع فى الاسر فى معركة
بولتافا بجنرالين روسيين وقعا فى الاسر السويدى فى معركة
نارفا قبل ذلك . الا ان الامور كانت بين بين . فالداهية
اوستيرمان المقرب الى شافىروف ، وهو مثله من حيث الانانية
والوصولية ، قد نحى عن المفاوضات بروس الذى هو أكثر
منه نزاهة وارفع خلقا ، زد على ذلك انه أكبر سنا وارفع رتبة .
كان اوستيرمان يتراسل سرا مع شافىروف باللغة الالمانية وقد
اخفى الشفرة عن بروس .

الا ان مصيبة اوستيرمان هى ان هيرتس ، ذلك المغامر
الاکثر حزما ولامبدئية ، يلعب لعبة أكثر وقاحة ومجازفة .
ففى مسودة المواد الاضافية التى قدمها الى الدبلوماسيين
الروسيين طالب بتنازل اغسطس الثانى عن العرش البولونى
وعودة ستانيسلاف ليشينسكى ملكا لبولونيا لا أكثر ولا اقل .
وما يأتى ادهى وامر : فيجب ان تزج روسيا والسويد بقواتهما
فى بولونيا ويستعيد الملك كارل اراضى بوميرانيا (بما فيها
شتيتين) التى انتقلت الى بروسيا ، وتعطى تعويضات الى
الملك البروسى (بعض الاراضى البولونية) . وتساعد روسيا
السويد فى استعادة الاراضى النرويجية العائدة الى الدانمرك
والممتلكات الدانمركية فى المانيا (وهى ممتلكات سويدية

سابقا) وانتزاع فيردون وبريمين ، وكذلك دوقية نسيل (وهذه
الاحيرة تعويضا عن الخسائر) من هانوفر . ووفقا لهذه الخطة
الحمقاء ينبغي ان تنتقل ميكلينبورغ ايضا (بمساعدة روسيا
طبعاً) الى السويد ، ويحصل مالكوها على تعويض بشكل
اراض اخرى . وهكذا يتعين على روسيا ان تتحالف مع السويد
وتخصص لها مساعدة بـ ١٥٠ الف جندي وتستولى لصالح
الملك على الاراضى التى ضيعها بسبب سياسته المغامرة الهوجاء ،
وبالتالى تدخل فى مجابهة مع اوربا كلها تقريبا — بولونيا
والدانمرك وهانوفر وبريطانيا وحليفاتها الامبراطورية الالمانية
(النمسا-المجر) وهولندة . كل ذلك مقابل اراضى البلطيق
التى كسبتها روسيا من زمان . يا لها من شهية ، مقابل التحالف
مع بلد مستنزف خائر لم يبق من سكانه الا ١٣٠٠ الف
نسمة سوى ٧٠٠ الف ، وليس لديه لا مال ولا طعام ،
وقد تقلص الانتاج فيه وهبط الى مستوى رهيب . ان مركب
العظمة ظل يقود تصرفات الملك ونوابه رغم موافقته على
المفاوضات . لقد تغاضى عن الاملاق المدقع للشعب المدمر ،
تغاضى عن المجاعة والابوثة . وظل الاسكندر المقدونى الجديد
يعلل نفسه بالآمال ويتصور بانه سيجمع جيشا ويستعيد امجاد
السويد وعظمتها ويدحر اعداءه — يدحر بريطانيا بمساعدة
روسيا او روسيا بمساعدة بريطانيا ، وكأن معركة بولتافا لم
تكن ، ولا معركة هانكو ، وكأن السويد لم تنكبد هزيمة
ماحقة شاملة فى الحرب .

مشروع هيرتس جنونى بقدر ما هو خيالى ، وذلك بالدرجة
الاولى من حيث مصالح روسيا . ولكنه ، ويا للغرابة ، حظى
بتأييد ورضا اوستيرمان . فان «صفقته» مع كبير محولى الملك

يمكن ان تسفر عن عواقب وخيمة للغاية . وكان شافيروف يعمل بنصائحه في الاقدام على تنازلات للسويد . اما غولوفكين رئيس مديرية العلاقات الخارجية فلم يكن يفهم بالكامل تقارير اوستيرمان المعقدة الغامضة . فهذا الاخير ، على حد تعبير كلوتشففسكى « اخذ يتكلم بلغة الاحاجى والالغاز حتى لم يعد نفسه يفهم ما يقول » . وكان القيصر بطرس المعجب بالالمان من خريجي الجامعات (اوستيرمان بالاصل من ويستفاليا وقد درس في جامعة ايين) لا يعرف عن المفاوضات الا من التقارير المقتضبة ، ولم يكن يعلم اطلاقا بالمراسلات السرية بين دبلوماسيه الاثنين . الا ان القول الفصل والكلمة الاخيرة بيده . ولم يكن بطرس ينوى ابدا توقيع الصلح بدون موافقة الحلفاء ، وهذا ما اعلنه قبل بدء المفاوضات . اما مشروع معاهدة الصلح مع كارل فيجب ، في رأيه ، ان يؤثر على الحلفاء في الاتجاه الصحيح : إما التعاون مع روسيا لارغام السويد على القبول بشروط الصلح النافعة لاعضاء الحلف الشمالي وإما دخول الحرب ضدها من اجل الممتلكات السويدية في شمال المانيا ، ولكن دون ان تشارك روسيا في تلك الحرب . ولم يكن القيصر في الواقع يعلق اية اهمية على مشروع هيرتس . فهو بحاجة اليه من اجل المناورة الدبلوماسية . الا ان كارل لم يساعد بطرس هذه المرة ، بل اعاقه . فمع ان المفاوضات وصلت حسب الظاهر الى نهاية طيبة حتى كتب بطرس في ايلول (سبتمبر) ١٧١٨ يقول :

— نحن نعمل بعين ساهرة ، ولدينا امل .

الا ان ملابسات غير متوقعة حدثت ، وهي مرتبطة بالملك هذه المرة ايضا . فقد قتل في النزوح اثناء حصار

فريدريكسغال . وتبدلت كل الامور . فقد استدعت الملكة اولريكا-ايلينورا ، شقيقة الملك الراحل ، مندوبه هيرتس وزجت به في السجن ، وفي آذار (مارس) ١٧١٩ قطعت رقبته . ولم يحضر المندوب الجديد ليلينشتيدت المفاوضات الا في ايار (مايو) ، واخذ يماطل لكسب الوقت . اما الملكة فقد رفضت التنازلات الاقليمية لروسيا وطالبت باعادة فنلندا وايسلانديا وليفلانديا . وكانت ، مع مستشاريها ، تأمل في عزل روسيا بمساعدة بريطانيا واستعادة ما فقدته السويد . في خريف وشتاء العام السابق كان بطرس قد اوصى مبعوثيه بروس واوستيرمان برفض ادعاءات هيرتس ، وسعى مع ذلك الى عدم قطع المفاوضات مع السويد . اما الآن فهو مضطر من جديد الى مواصلة العمليات الحربية الكبرى التي كانت متوقفة في الواقع عدة سنين . وبايعاز من بطرس توجه اوستيرمان الى استوكهولم وبلغ الملكة تحذيرات القيصر : ستسعى روسيا الى الصلح بقوة السلاح طالما عجز الدبلوماسيون عن تحقيقه في ألاند .

لم يترك السويديون مؤتمر ألاند ، لكنهم لا يريدون الاتفاق على الصلح . فالبلاط السويدي الميال الى بريطانيا يريد تحقيق مبتغاه بمواصلة القتال ضد روسيا . اما بطرس فقد وضع الآن خطة جريئة وترأس الاسطول متوجها الى شواطئ السويد وقام بانزال عليها . ولم يجدوا اثرا للسويديين . فان تفوق روسيا برا وبحرا لا جدال فيه من زمان . وانسحبت القضايل السويدية الى اعماق البلاد على عجل ، بينما تبش القوات الروسية العمليات في المناطق الساحلية وتدمر المصانع قبل غيرها . وشن القوزاق غارات خاطفة على ضواحي العاصمة

السويدية . وفي آب (اغسطس) امر بطرس بوقف العمليات الحربية نزولا عند طلب الجانب المقابل ليتمكن الدبلوماسيون من مواصلة اللقاءات فى ألاند . لكن تلك اللقاءات لم تسفر عن نتيجة ، فتوقفت اعمال المؤتمر فى ايلول (سبتمبر) . وفى الشهر ذاته ذاع نبأ توقيع معاهدة التحالف بين بريطانيا والسويد . وظهرت فى بحر البلطيق عمارة انجليزية بقيادة الاميرال نوريس . الا ان الضغوط والتهديد والوعيد لم تسفر عن النتائج التى يتوخاها الحليفان الجديدان . فلم يكن بطرس يريد الصدام السافر مع بريطانيا ، ولذا خبأ اسطوله فى مرافئ محروسة بالمدافع . ولم يكن ينوى التنازل امام الضغوط : — لن نعبأ بأية تهديدات ولن نوافق على الصلح غير

النافع ، لكننا سنواصل الحرب . ولم ترتبك روسيا امام الموقف العدائى الذى اتخذته اقوى دولة بحرية فى العالم آنذاك . فقد نمت قدرة روسيا الاقتصادية والحرية لدرجة كبيرة . وفى الخريف عادت الى بريطانيا عمارة نوريس التى كانت تريد تدمير الاسطول الروسى . وفى ربيع عام ١٧٢٠ ظهرت تلك العمارة فى البلطيق ثانية . وكانت معززة بسفن اضافية . ومع ذلك قام الروس بانزال جديد فى السويد وادوا عملهم فى ساحلها الشرقى . واخبر بطرس سفيره كوراكين بذلك قائلا :

— صحيح اننا لم نلحق بالعدو اضرارا بالغة ، لكن ما قمنا به والحمد لله جرى امام انظار معاونيهم (الانجليز من عمارة نوريس — ملاحظة المؤلف) الذين لم يتمكنوا من معاونتهم بشئ .

وفى اواخر تموز (يوليو) من العام نفسه دمرت العمارة

الروسية تدميرا تاما القوات البحرية السويدية الاكثر عددا في معركة غرينهام . واثناء القتال هاجمت السفن الروسية المجذافية فرقاطات العدو الاقوى بكثير من حيث التسليح ، واستولى الروس على اربع فرقاطات ، علما بانه «تم الاستيلاء على اثنتين منها في اشتباك بالسلح الابيض اثناء السير السريع» على حد تعبير بطرس . ولم يتمكن نوريس من اعاقه الروس ومساعدة السويديين بشيء . صحيح ان نوريس احرق منزلا وحماما للشغيلة في جزيرة نارغين قرب ريفيل حيث كانت ترابط سفنه والسفن السويدية . وكتب بطرس بهذا الخصوص مازحا الى كوراكين ينصحه بان ينشر في صحف اوربا الغربية نبأ هذا الانتصار العظيم . اما القيصر نفسه فقد استلم بهذا الخصوص رسالة من مينشيكوف «يواسيه» فيها مازحا :

— ارجو ألا تحزنوا بخصوص حرق المنزل والحمام .
الافضل ان تتنازلوا لهم عن هذه الغنيمة كي يقتسموها :
الحمام للاسطول السويدي والمنزل للاسطول الانجليزي .
ولم تتكلم دسائس مجلس الوزراء البريطانى فى البلطيق بالنجاح . واخفق «نظام ستينهوب» رئيس الحكومة التى كانت تأمل فى فرض السيطرة البريطانية على البحر الابيض المتوسط والبلطيق . صحيح ان فرنسا والنمسا وهولندة دخلت معها الحلف الرباعى الموجه ضد اسبانيا ، وضد روسيا بعد التحالف الانكلوسويدي . واتخذت النمسا موقفا نشيطا جدا فى معاداة روسيا فى هذا الحلف الرباعى . ولم تكن فرنسا تميل الى تأييد بريطانيا فى كل شيء فى البلطيق . اما هولندة فقد التزمت الحياد بحكم مصالحها التجارية . وعمل ضد روسيا

بالتواطؤ مع النمسا وهانوفر اغسطس الثانى ، بوصفه حاكما
لسكسونيا ، فهو لا يريد ان يغفر لبطرس ابعاد قواته السكسونية
من بولونيا فى عام ١٧١٧ .

وفى ٥ كانون الثانى (يناير) ١٧١٩ ظهرت فى فينا معاهدة
المساعدة المتبادلة والتحالف بين النمسا وهانوفر وسكسونيا
(حلف فينا) . واتفقت هذه البلدان على بذل جهود مشتركة
لإعاقة محاولات بطرس الرامية الى احتلال بولونيا (وكان لديه
مثل هذه المخططات) وتمرير قواته عبر الاراضى البولونية الى
المانيا . وكان جورج الاول الذى وقع المعاهدة بوصفه حاكما
لهانوفر قد وعد ، بوصفه هذه المرة ملكا لبريطانيا ، بان
يقدم اسطوله فى البلطيق المساعدة الى الحلفاء ضد روسيا .
واخيرا وضعت تلك البلدان بنفسها شروطا للصلح بين السويد
وروسيا : تترك للقبصر بطرسبورغ وجزيرة كوتلين ونارفا ، وتتخذ
منه ايستلانديا وليفلانديا ، وتسلم كييف وسمولينسك الى
بولونيا .

ولم تكن لمعاهدة فينا اهمية فعلية . فان انتصارات
السلح الروسى كان لا بد وان تؤثر على جميع الموقعين على
المعاهدة رغم الابتزاز الذى مارسوه . فتللك الانتصارات كانت
تتجدد من عام لآخر فى بحر البلطيق وفى شمال المانيا وفى
الاراضى السويدية نفسها وحتى فى اطراف استوكهولم . اما
العمليات الحربية فى الاراضى الروسية فلم يعد لها وجود
من عهد معركة ليسانيا وبولتافا .

وقد حال جبروت روسيا دون ائتلاف قوى مثل الحلف
الرباعى لاقوى الدول الاوربية ودون زعزعة المواقع الروسية .
فان جيش بطرس المؤلف من مائة الف رجل يربط عند

الحدود البولونية . واسطوله يحرز الانتصارات في البلطيق .
الا ان الانتصارات لا تسكر القيصر ولا تدوخ رأسه . وكشف
عن ذلك مرة اخرى تكرار قضية ميكلينبورغ السيئة الصيت .
ففى شباط (فبراير) ١٧١٩ احتلت قوات هانوفر وامارة ولفينبوتيل
دوقية ميكلينبورغ بقرار من امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة
الذى اخذ بنصيحة جورج الاول . وبحجة تسوية النزاع بين
كارل-ليوبولد ، دوق ميكلينبورغ ، وبين نبلائه فرض الحظر
على ادارة الدولة . ووصلت عقيلة الدوق يكاترينا ايفانوفنا ،
ابنة اخى بطرس ، الى بطرسبورغ باكية وطلبت المعونة من
عمها . الا ان القيصر امتنع عن التدخل متصورا بحق ان
التدخل يدفعه الى الصدام مع ابرز دول اوربا .

ولم يكن تنازل بطرس فى قضية ميكلينبورغ يعنى انه
سيترجع فى المفاوضات مع السويد . ففى الحالة الاولى
كانت تلك مسألة من الدرجة الثالثة بالنسبة لمصالح روسيا
مع انها تمسه عائليا ، اما الحالة الثانية فهى تتعلق بمصالح
الدولة الحيوية الهامة . ولذا أكد القيصر ثانية فى توجيه جديد
الى بروس واوستيرمان (بتاريخ ١٥ آذار-مارس ١٧١٩) على
ضرورة بقاء مكتسبات روسيا فى شرق البلطيق . وكان بطرس
مستعدا للتنازل بدفع مليون روبل الى السويد مقابل ليفلانديا .
كان البلاط السويدى يعلل النفس بآمال وهمية فى نجاح
الخطة البريطانية «للتهدئة فى الشمال» ، وكان دبلوماسيوه
يماطلون فى المفاوضات مع الجانب الروسى ليكسبوا الوقت .
وكان الحلف الرباعى وحلف فينا يأملان فى ان يتراجع بطرس
امام هذه الجبهة القوية . ونصح ملك بروسيا فريدريك-
ولهلم القيصر بعدم المجازفة فالتنازلات فى ألاند افضل .

لكن القيصر غير متعود على التراجع عندما يشعر بانه قوى
والحق الى جانبه . وبدلا من ذلك قرر ان ينتقل الى الهجوم .
ورد على العاهل الروسى قائلا :
... لا ارى طريقا يمكننا من الوصول الى الصلح المعقول
مع السويد ما عدا الصلابة .

كان يجب ان تتكلم المدافع بدلا من الدبلوماسيين ،
لان السويديين لن يفهموا شيئا «اذا لم تستخدم المدافع»
على حد تعبير القيصر الذى لم يقتنع بما قاله فريدريك-
ولهلم عن مثال اسبانيا المؤسف ، حيث تمنى بالهزيمة فى
القتال ضد بلدان الحلف الرباعى . فان قوة روسيا اكثر بكثير
من قوة اسبانيا . وان دخول فرنسا والنمسا فى قتال ضد روسيا
احتمال ضعيف ، والاسطول الروسى لا يخشى الاسطول
الانجليزى . ولكل تلك البلدان مشاكل تشغل بالها . وقد
تأكدت ثقة بطرس باسطوله على اروع شكل فى معركة غرينهام
البحرية . آنذاك قامت الفصائل الروسية بانزال شمالي وجنوبى
استوكهولم ودمرت ثمانى مدن ، بما فيها نورنشوينغ ثانى
مدينة بعد العاصمة ، و٢١ مصنعا و١٣٦٣ قرية وغير ذلك .
وتنفذا لامر بطرس لم يتعرض الجنود للاهالى ولم يدمروا
الكنائس . وقال الاميرال أبراكسين قائد الانزال الذى كشفت
عملياته عن عجز السويد وانعدام الحماية فيها ان احتلال
استوكهولم لا يتطلب جهدا كبيرا . وكان السويديون فى الواقع
يدفعون ثمن الفساد الذى ارتكبه جنود كارل الثانى عشر فى
الاراضى الروسية ، لكن الجنود الروس لم يعاملوا السكان بنفس
قساوة السويديين .

كان الاسطول البريطانى بقيادة نوريس الذى عولت عليه

السلطات السويدية يمحرم مياه بحر البلطيق ، ولم يصل الى استوكهولم الا بعد ان غادرت سفن الانزال الروسية المياه الساحلية . صحيح ان دبلوماسيى جورج الاول كانوا يعملون فى كافة ارجاء اوربا ضد مصالح روسيا . وقد اجتذب دبلوماسيو بريطانيا وهانوفر كل انصار روسيا الى جانبهم . ووقعت السويد معاهدات مع بريطانيا وهانوفر وبروسيا والدانمرك . ومع ان اغسطس الثانى لم يوقع اتفاقية فقد اجرى مباحثات مع السويد بشأن التحالف ضد روسيا (ولم يتم التحالف لان بولونيا لم ترغب فى محاربة روسيا وما كان يوسعها ان تحاربها) . وفى ١٧١٩ — ١٧٢٠ وجدت روسيا نفسها فى عزلة دبلوماسية . والاكثر من ذلك ان بطرس تلقى من مختلف البلدان تقارير ممثليه بشأن التحضير لهجوم مسلح على شرق البلطيق ، بل وعلى روسيا . وكان ينتظر ان تشترك فى هذه العملية الهائلة اساطيل بريطانيا والسويد وبلدان اخرى وجيوش السويد والنمسا وبروسيا والامارات الالمانية . وتمولها فرنسا وبريطانيا . وفى الوقت ذاته تشن الاستانة العمليات الحربية فى جنوب روسيا . وتلبدت الغيوم الرهيبة فى سماء روسيا على ما يبدو . . .

ورغم الضجة التى اثارها خصوم روسيا فقد كان يعوزهم الاجماع . كانت هناك تناقضات بين فرنسا وبريطانيا ، وكذلك بين البلدان الاوربية الاخرى . كلها لا تميل الى شن عمليات حربية نشيطة ضد القيصر الروسى ، بل تفضل دفع المال (حيث تسدده بشكل قروض او مقابل المدن والاراضى السويدية التى انتقلت الى تلك الدول فى شمال المانيا) . اما الاسطول الانجليزى القوى فان استعراضاته فى

البحر اثناء عمليات السفن الروسية والانزال قرب استوكهولم كشفت عن زيف وعود البلاط البريطاني . وكانت لابرز بلدان اوروبا مصلحة في التجارة مع روسيا . والاكثر من ذلك ان مطالب وادعاءات الحلفاء الجدد للسويد التي فقدت بتوقيع الاتفاقيات الجديدة اكثر مما كسبت كانت تستهدف خلق انطباع مناسب عند الملكة ووزرائها . ولم تترك تلك المطالب انطباعا عند بطرس وروسيا . فقد ظل القيصر ووزرائه ودبلوماسيوه يواصلون سياسة حكيمة حذرة وموزونة . وقدم كوراكين في تقاريره الى بطرس تحليلا دقيقا للموقف في اوروبا وتقدم بنصائح حكيمة فيما يخص نهج روسيا في التعامل مع بريطانيا وهولندا وبولونيا والبلدان الاخرى . وهو يعتقد ان الوقت في صالح روسيا . فالحلف الرباعي سيتقوض من كل بد حالما ينتهي النزاع بين الدول المنضمة اليه وبين اسبانيا ، ولا تريد البلدان الاوربية حربا سافرة ضد روسيا ، ويجب المتاجرة مع تلك البلدان والاحتفاظ بعلاقات ودية معها .

وقد اخفقت خطة الحملة المشتركة الكبرى على روسيا حالما وصل مبعوثو ملكة السويد الى بلاطات اوروبا لوضع توصيات عملية . واتضح ان خطة «التهدئة في الشمال» مجرد وهم بالنسبة للسويد . لقد ضيعت اراضيها في شمال المانيا نهائيا عندما وافقت على ادراجها ضمن اراضي حلفائها الجدد . لكن هؤلاء الحلفاء لم يستطيعوا ان يحولوا دون هجوم الانزال الروسى على اراضي السويد نفسها ، بل لم يكونوا ، على ما يبدو ، يريدون الدخول في نزاع مع روسيا معتبرين هذه القضية صعبة وليس فيها نفع كبير . ولم يكن بطرس هو الآخر يريد المخاطرة . فبأمر منه تفادى الاسطول

الروسي الصدام مع عمارة نوريس . اما القلاع والمرافئ في ساحل البلطيق والتي غدت روسية من زمان وكذلك العمارتان قرب ريفيل وكرونشتادت فقد كانت على اهبة الاستعداد التام للقتال . وبعث الاميرال أبراكسين رسالة الى الاميرال نوريس نصحه فيها بابعاد سفنه عن السواحل الروسية «مسافة مناسبة» ، واعتبر الاميرال الانجليزى هذه النصيحة معقولة ، وعلى اية حال فلم يبدِ اثرا للشراسة والرغبة في الحرب .

وفي عام ١٧٢٠ نفسه تقوض الحلف الرباعي على مرأى من اوربا ، فقد وضعت الحرب ضد اسبانيا اوزارها ، وبدأت المفاوضات معها . وراحت النمسا وفرنسا تجسان النبط لاجل التحالف مع روسيا ، ولمح البلاط في فرساي الى عدم اعتراضه على تسليم جبل طارق الى اسبانيا ، وليست هناك رغبة اطلاقا في الانضمام الى عملية حرية مشتركة ضد روسيا . فقد اقترحت فرنسا على بطرس ان تتوسط في المفاوضات مع السويد . وفي هذه المرة تبقى بريطانيا في عزلة حسب الظاهر . وذهبت سدى كل نشاطات دبلوماسيتها واستعراضات عمارة نوريس التي كلفت الدولة ٦٠٠ الف جنيه استرليني .

صحيح ان العلاقات بين روسيا والباب العالي تأزمت في اواخر عام ١٧١٩ ، حتى بلغ الامر حد طرد داشكوف السفير الروسي فوق العادة من الاستانة . وكان لدسائس السفير الانجليزى ضلع في ذلك . فقد كتب داشكوف الى القيصر يقول : — لم اكن اتصور مطلقا عدوا لجلالتكم ألد من الملك البريطاني ، فان وزيره يحاول كل يوم ان يسبب لي اذى ما . الا ان الخلاف الدبلوماسي سُوي بمساعدة السفير الفرنسي دييوناك ، حتى ان روسيا والامبراطورية العثمانية وقعتا في ٥

تشرين الثاني (نوفمبر) ١٧٢٠ معاهدة السلام الدائم . وياقت بالفشل نوابا بريطانيا فى تأليب الاستانة ضد روسيا . وحصل الشىء ذاته مع بولونيا . فان حكامها الذين استلموا اموالا طائلة من الانجليز والسويديين والسكسونيين رفضوا القتال ضد جيوش بطرس . فان تأييد بطرس ، وهم يفهمون ذلك جيدا ، يؤمن سلامة ووحدة بولونيا التى تطمع فى اراضيها الدول الجرمانية المجاورة . وهم اغسطس الثانى الذى اخفقت مخططاته هذه المرة ايضا بان يهدد بطرس بأذى يمكن ان يسببه له ، هو الملك ، واقترح العودة الى جادة الصداقة . وردا على ذلك تلقى الحليف الخائن جوابا فائرا متزنا لائقا من القيصر الروسى :

— عندما تقترح استئناف الصداقة لا يلىق بك ان تستأنف اعمالا تثير الاشارة اليها نفور جلالة القيصر لا غير . . . فان جلالة القيصر لم يتعود على السماح لاحد ، اى كان ، بان يخيفه بالتهديد والوعيد .

ومنىت بالفشل خطة «التهدة فى الشمال» . وراح واضع هذه الخطة التى هشت طوال خمسة اعوام كاملة ، وكذلك وزراء حكومته ينصحون السويد بان تتفق بنفسها مع بطرس حول توقيع الصلح . فالبلد الذى دمر واستنزف من زمان لكنه ظل ، بالاعتماد على نصائح الساسة الانجليز وغيرهم ، يواصل عبثا طوال عشر سنين حربا ميثوسا منها ضد روسيا قد عاد يخفى حنين . وراح زعماءه يتكلمون من جديد عن الصلح مع بلد اقترح الصلح واراده من زمان . واتخذ مجلس الدولة فى السويد قرارا ببدء جولة جديدة من المفاوضات . وراح حلفاؤها والمتكرمون عليها من بريطانيا والامبراطورية الرومانية

المقدسة وغيرهما يتنافسون في عرض خدماتهم للتوسط بينها وبين روسيا . ووزع المبعوثون الدبلوماسيون الروس في بريطانيا مذكرات تحدثت عن الدور المشين الذي لعبته هانوفر وحاكمها ، وهو الآن ملك بريطانيا ، فيما يخص الممتلكات السويدية في ألمانيا وخرق الالتزامات التي أخذها على عاتقه . واستاء جورج الاول اشد الاستياء . وطُرد الدبلوماسيون الروس من لندن الواحد اثر الآخر ، وفي بداية شتاء ١٧٢٠ حصل في الواقع انقطاع في العلاقات بين البلدين . الا ان بطرس سمح للانجليز بدخول روسيا والمتاجرة معها كالسابق . وقد تصرف كسياسي قوى واثق من نفسه . ويمكن ان يتعلم على يده الآن اساطين السياسة الخارجية الذين درس الروس ، وفي مقدمتهم بطرس نفسه ، فن الدبلوماسية على ايديهم في وقت غير بعيد نسيا .

وبعث الملك السويدي فريدريك الاول طلبا الى بطرس باجراء مفاوضات الصلح بدون وسطاء . واستلم القيصر رسالته في تشرين الاول (اكتوبر) ، وفي الوقت ذاته اقترح بلاط فرساي الوساطة . فقبل بطرس هذا الاقتراح ، لان الساسة الفرنسيين كانوا من ذلك الحين يخططون لتحالف مع روسيا . وكان من الحكمة ارضاء رغباتهم . ووصل كامبريدون السفير الفرنسي في استوكهولم الى بطرسبورغ ومعه مبالغ ضخمة لرشوة الدبلوماسيين الروس . لكن هؤلاء لم يأخذوا المال ، وليس ذلك بسبب نزاهتهم ، بل لخوفهم من غضبة بطرس الذي لا يطيق مثل هذه الامور فيراقب معاونيه بعين ساهرة . وبدأ كامبريدون مباحثات الوساطة : تحتفظ روسيا ، حسب اقتراحه ، ببطرسبورغ ونارفا واينغريا ، لكنها تعيد الى السويد ايستلانديا

وليفلانديا وفييورغ والخ . . وعندما سمع الدبلوماسيون الروس هذا الكلام «قهقهوا بأعلى اصواتهم» على حد تعبير السفير الذى كتب عن ذلك الى بلاطه مغتاظا . وفى اللقاء مع بطرس الذى جاء من حوض بناء السفن فى قمصلة البحارة وتفوح منه رائحة الاصماغ (فقد شارك فى التحضير لانزال سفينة الى الماء) كرر كامبريدون الشئ ذاته وقال ان القيصر سيشتهر بطيبة قلبه ازاء عدو مقهور . لكنه منى بالخيبة والفشل هنا ايضا . فقد اوضح القيصر صراحة انه غير مهتم بالشهرة الشخصية ، بل بشئ آخر ، فهو لا يستطيع ان يسلم ما كلف روسيا وشعبها ذلك القدر الكبير من الجهود والدماء والاموال . ولم يحقق السفير الفرنسى شيئا ، لكنه رأى بأمر العين امرا هاما ، رأى القيصر-النجار والبوارج الروسية الكبيرة تنزل الى الماء الواحدة تلو الاخرى من قواعدها فى حوض الادميرالية . عاد كامبريدون الى استوكهولم وعلم منه الزعماء السويديون وكذلك كارتريت السفير البريطانى فى السويد ما كان المفروض ان يفهموه من زمان . فان بطرس لن يقدم على التنازلات ، وان السويد ينبغي ان توقع الصلح تفاديا لما هو اسوأ . فان روسيا يمكن ان تطالب بتنازلات اكبر وتحقق ما تريد ، فلديها قوات كافية . وخرج السفير الفرنسى من زيارة العاصمة الروسية باستنتاج صحيح :

— لو عاش هذا القيصر عشر سنوات اخرى ، فى حالة حرب او سلم لا فرق ، فان جبروته يغدو خطرا حتى على ابعد الدول . ومع اننى امضيت هنا وقتا قليلا لكننى استطعت ان اقول مؤكدا انه يتصرف مع الاجانب بحذر ليحقق مصالحه فقط ويبلغ هدفه . ومهما كان استقباله لهم ، سواء فى

علاقات ودية او لاغراض تجارية ، فانهم لن يحصلوا منه على اية منافع الا اذا كان القيصر واثقا من انها ضرورية له . وهكذا نرى الدبلوماسيين الفرنسيين والانجليز الذين كانوا لامد غير بعيد يستهينون بزملائهم الروس فى المهنة وبالقيصر الروسى صاروا الآن يقدرون مواهبهم وحذقهم ومهارتهم حق قدرها ويعترفون بان لديهم سندا متينا هو قوة البلد الجبار ، قوة الشعب ، ولذا يجب ان يحسب لهم حساب (شئنا ام ايننا) . وفى مدينة نيشناتد الفنلندية التقى بروس واوستيرمان من جديد مع الدبلوماسيين السويديين فى ٢٨ نيسان (ابريل) ١٧٢١ . وكان البلاط الملكى البريطانى ، فضلا عن السويدى ، فى عجلة من الامر بخصوص الصلح . وكان تونسند ، خليفة ستينهوب الذى توفى فى كانون الثانى (يناير) من العام ذاته ، قد اثبت من زمان فى مجلس الوزراء البريطانى ان من غير الجائز فى العلاقات مع روسيا الاقدام على المخاطرة ، لا سيما المغامرة ، فهو يؤدى الى الحرب معها . ومع ذلك سارت المفاوضات بشق الانفس . فان استمرارية التعت والغطرسة الموروثة عن كارل الثانى عشر لا تزال تفعل فعلها . وكان بطرس يتوقع ذلك ، فجعل الجيش والاسطول على اهبة الاستعداد . وقام الروس بانزال جديد (٥ آلاف جندى وقوزاقى) وهدوا المصانع والمستودعات والسفن السويدية . ولم تتمكن القوات السويدية من ابداء مقاومة جدية . ولم يحرك نوريس وعمارته ساكنا . ولم يخطط القيصر لعمليات كبيرة ، لان ما تحقق فيه الكفاية برأيه . وفى حزيران (يونيو) استقبل فى بطرسبورغ بحفاوة وترحاب كارل-فريدريك دوق هولشتين . فهو ابن اخ كارل الثانى عشر وله حق فى عرش

السويد ، لا سيما وانه طلب يد آنا ابنة بطرس الكبرى . واستولى على فريدريك الاول واولريكا-ايلينورا قلق شديد .
وراح بطرس يوجه في نيشتادت مخوليه ويبعث اليهم شروط الصلح وشروحا لها بالاضافة الى الرسائل والمذكرات .
وبعث اليهم من ريفيل وريغا وروغرويك وهيلسينغفورس توجيهات وايعازات جديدة ، ودرس تقاريرهم . ورغم تعنت ممثلي السويد الذين اعلنوا بانهم «لن يوقعوا المعاهدة حتى لو قطعت ايديهم» (وفقا للشروط الروسية) فقد وقعوها في آخر المطاف .
وكانوا في بادئ الامر قد طالبوا روسيا باعادة كثير من الاراضي والمدن ، حتى بطرسبورغ ، اما في النهاية فقد وافقوا على التنازل عن ليفلانديا الى الابد مع ان بطرس وافق في مؤتمر ألاند على امتلاكها مؤقتا (لمدة ٤٠ او ٢٠ عاما) . الا ان روسيا اعادت فنلندة الى السويديين ووافقت على تسديد مليوني روبل تعويضا عن ليفلانديا وعدم ادراج بند في نص المعاهدة حول ادعاءات حاكم هولشتين والسماح للسويديين بشراء القمح من روسيا بدون رسوم جمركية . وقال بطرس بحق :
— اقترحت على اخي كارل الصلح من جانبنا مرتين ، مرة اضطرارا ومرة بطيبة خاطر . لكنه رفض في كلتا الحالتين .
اما الآن فليوقع السويديون معي مكرهين صلحا شائنا بالنسبة لهم .
وفي سياق المفاوضات طالب السويديون «ببديل» عن فيبورغ . واوعز بطرس الى دبلوماسيه بان يجيبوا كالاتي :
— ليست عندنا اراض فائضة عن الحاجة .
ورد القيصر بسرعة وحزم على مسألة التنازل عن بطرسبورغ :
— فيما يخص مشروع الدبلوماسيين السويديين حول

تنازلاتهم لنا وقولهم بانهم يتنازلون لنا عن بطرسبورغ يجب ان تعلنوا لهم اثناء التوقيع بانه لا موجب لذكر بطرسبورغ لانها لم تكن من ممتلكاتهم .

ورفض طلب السويديين بترك جزيرة ايزيل لهم . واشاد القيصر (فى رسالة الى أبراكسين) بتأثير الانزال الروسى الجديد فى السويد :

— الدبلوماسيون السويديون غدوا أكثر تساهلا مما كانوا قبله .

ولهذا السبب الغى الحملة الجديدة التى كان مقررا شنها فى نفس الاتجاه .

واخبره بروس عن قرب توقيع المعاهدة فقال بطرس مستخدما التعابير البحرية :

— ريح مؤاتية تهب علينا من نيشتادت .

وحذر القيصر بروس واوستيرمان قائلا :

— لى الحق ان أكون اول من يحمل هذا النبأ الى بطرسبورغ ، لاننى أكثر من جد واجتهد فى هذه الحرب ، ولذا لا تسمح لاحد ان يأتى بهذا النبأ سواي . ولا يبعث احد من رجالنا رسائل رسمية من المؤتمر حول هذا الموضوع . كانت لدى القيصر الشغل المحارب كل المبررات للتمتع بميزة المبادرة الى تبليغ العاصمة والدولة بالخبر المفرح ، خبر انتهاء الحرب المرهقة الطويلة الامد (٢١ عاما) التى وضعت اوزارها اخيرا بنصر كبير رائع لروسيا . فالمعاهدة التى وقعت فى نيشتادت فى ٣٠ آب (اغسطس) ١٧٢١ اذاعت نبأ حلول السلام الابدى بين السويد وروسيا وحصول هذه الاخيرة بالكامل والى الابد على اينغريا على الساحل الجنوبى

للخليج الفنلندي وقسم من كاريليا وكامل اراضي ابستلانديا
وليفلانديا ، بما فيها مدن ريغا وريفيل وديريت ونارفا وفيبورغ
وكوريلا (كيكسهولم) وجزيرتا ايزيل وداغو . وكان ذلك نصرا
مبيناً لسياسة بطرس الخارجية ودبلوماسيته ، وحصيلة طال
انتظارها لحرب نعتها القيصر «بالمدرسة ذات المراحل الثلاث» .
كان بطرس محققاً عندما قال ان «امتنا روسيا لم تحظ
ابداً بمثل هذا الصلح النافع» . حقاً ، فائتاء النصر في معركة
بولتافا كان يتحدث عن ضرورة احتفاظ روسيا بقلعة نارفا
وبطرسبورغ مع قليل من الاراضي المستنقعة حولها . اما الآن
فقد حصلت روسيا على ما لم يكن يوسعها ان تحلم به في
تلك الحقبة . لقد ساعد اقتران البسالة والمواظبة مع رباطة
الجأش والحذر على حل المشكلة الوطنية التي وضعها التاريخ
امام الدولة الروسية . وكان صلح نيشنات انتصاراً ليس فقط
على السويد بل وعلى كل بلاطات اوروبا بما فيها من دسائس
وتفنن في العداء .

وفي ٣ ايلول (سبتمبر) عندما كان بطرس في طريقه الى
فيبورغ بلغه نبأ توقيع الصلح . واستلم مطروف نص المعاهدة
الذي جلبه رسول من نيشنات . ولم يتسن الوقت حتى لترجمته .
فقد كان بروس واوستيرمان في عجلة من امرهما . وكتبنا الى
القيصر يقولان :

— لم يسعفتنا الوقت للترجمة . فقد كنا نخشى ان يذيع
نبأ توقيع الصلح .

أوى بطرس الى فراشه صامتا دون ان يتفوه بكلمة الى
مرافقيه ، مع ان الرغبة تتحرقه في ابلاغهم . لكن النعاس لم
يجد اليه سبيلاً . ففى ذهنه وامام ناظريه مرت تباعاً سنوات

حرب الشمال . . .

وفى صباح اليوم التالى توجه فى سفينة شراعية الى بطرسبورغ .
وعندما ولجت السفينة المدينة من خلال نهر نيفا امر باطلاق
نيران المدفعية ، وبين اطلاقات المدفعية كان يصبح فرحا
امام الناس الذين اجتمعوا على ضفتى النهر ان الصلح قد
تم . وطوال النهار جاب شوارع المدينة فرسان يحملون الرايات
البيضاء ونافخو الابواق وقارعو الطبول ، وبين اصوات الابواق
وقرع الطبول كانوا يذيعون على السكان نبأ توقيع الصلح .
وازدحمت العاصمة من جديد بحشود الالهالى المستبشرين .
واطلقت قذائف التحية وقيمت الالعاب النارية والحفلات
الراقصة ومهرجانات الاقنعة احتفالا بفرحة انتهاء الحرب .
وكان القيصر فى بدلة البحارة الهولندية يقرع الطبل بحماس
ويرقص على المنصات وينشد الاغانى مع الجميع ويفرح
ما شاء له الفرح . ولم يكن يخفى مدى سعادته فى ذلك
اليوم ، ويقول ان هذه الفرحة بالنسبة له اعظم فرحة على
وجه البسيطة .

وفى ٢٢ تشرين الاول (اكتوبر) جرت مراسيم جديدة
مفرحة ايضا بالنسبة للقيصر . ففى جلسة مهية للسينات طلب
غولوفكين باسم اعضاء المجلس من القيصر ان يتقبل لقب
«ابو الوطن وامبراطور روسيا بطرس الاكبر» . ووقع النداء المقدم
اليه بهذا الخصوص كل اعضاء السينات التسعة . وبذلك
غدت روسيا رسميا امبراطورية ، وغدا قيصرها امبراطورا لدولة
هائلة جبارة صارت فى عهد بطرس فى عداد الدول العالمية
الكبرى .

لقد حلت قضية الشمال ، قضية البلطيق . اما قضية

الجنوب ، منطقة البحر الاسود ، فقد تشرت . وتم حل مشكلة البحر الاسود فى عهد خلفاء بطرس ، فى عهد يكاترينا الثانية وبوتومكين ، لكن ذلك لا يعنى مطلقا ان بطرس لم يكن مهتما بالاتجاه الجنوبى والشرقى فى سياسة روسيا الخارجية . فالحياة نفسها ما كانت لتسمح بعدم الاهتمام بهذا الاتجاه . فتارة كانت الحاجة تدعو الى درء خطر الحرب مع الامبراطورية العثمانية ، وتارة الى صد غزوات عساكر القرم والنوغاى وتتركويان المدمرة للمدن والقرى الروسية الجنوبية والاوكرانية ، وتارة الى ترميم مصانع جنوب الاورال التى دمرها البدو الرحل . وقد تطلبت مصالح المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية فى روسيا ، بل ومصالح الدولة كلها ، اقامة علاقات دبلوماسية مع البلدان المجاورة وتطوير التجارة معها . فان روسيا ليست مجرد بلد اوروبى ، انها ايضا بلد آسيوى تنبسط اراضيه حتى المحيط الهادى والمحيط المتجمد الشمالى ، وحتى آسيا الوسطى وامبراطورية الصين . وكان التجار الانجليز والهولنديون والبرتغاليون يمارسون قبل ذلك ، ولامد طويل نسبيا ، تجارة الترانزيت مع البلدان الآسيوية عبر اراضى روسيا . اما الآن فقد حان الوقت لضبطها . وهيات موانئ البلطيق التى حصلت عليها روسيا بنتيجة حرب الشمال الفرصة للقيام بذلك .

ولم تكن لروسيا علاقات دبلوماسية دائمة مع جيرانها الجنوبيين الشرقيين . فالعلاقات مع الصين وجوى وبخارى كانت ذات طابع وقتى . فى عام ١٦٨٩ وقعت مع امبراطورية الصين معاهدة فى نيرتشينسك الواقعة وراء البايكال . واضطرت روسيا الى التنازل عن بعض الاراضى التى استثمرها الرواد الروس حتى

ذلك الحين . وكانت لروسيا علاقات تجارية ايضا . وجرى تجهيز بعثات فى الاتجاه الجنوبى . ففى عام ١٧١٤ توجه العقيد بوخهولتس مع رفاقه الى جنوب نهر ارطيش واسس هناك مدن اومسك وسيمييلاتينسك واوست-كامينوغورسك وغيرها . وبعد عامين توجهت فصيلة من ثلاثة آلاف شخص برعاية الامير الكاباردينى بيكوفيتش بايعاز من بطرس الاكبر الى آسيا الوسطى من جهة استراخان على نهر الفولغا هذه المرة . وأسس قلعة عند خليج كراسنوفودسك على الساحل الشرقى لبحر الخزر . ثم توجه بيكوفيتش الى حيوى مبعوثا رسميا عن بطرس الاكبر لاقامة علاقات دبلوماسية معها ، ومن هناك توجه الى بخارى للاستفسار عن الطرق التجارية المؤدية الى الهند . وقد قوبل بعداء ، حيث هاجمته فصيلة من عساكر حيوى مكونة من ٢٠ الفا عند البحيرة ، لكنها منيت بهزيمة . ومع ذلك حقق الخان شيرغازى مبتغاه . فقد دعا بيكوفيتش الى خيوى ، وجرى تقسيم فصيلته الى خمسة اقسام انزلت فى عدة مدن . وسرعان ما قتل الامير نفسه ورفاقه بسيوف حيوى . اما بعثة بينيفينى التى ارسلها بطرس الى بخارى فقد اقامت هناك بسلام عدة سنوات وجمعت معلومات هامة عن البلاد . الا ان هذه البعثة وغيرها (مثل المهمة التى اوكلها الامبراطور ، قبل وفاته بقليل ، الى بيرينغ للاطلاع على الاراضى والبحار التى تتجاوز فيها قارتا آسيا واميركا وتقتربان احدهما من الاخرى) كانت قد رسمت مهمات السياسة الخارجية الروسية للمستقبل وليس للحاضر . واتسمت بأهمية عملية أكثر من ذلك حملة بطرس على بحر الخزر . وكان الغرض منها السيطرة على الاراضى الساحلية

القديمة لبحر الخزر واضعاف التوسع العثماني في المنطقة وكذلك توسع اتباع العثمانيين من حكام القرم وتتر كوبان وغيرهم واقامة العلاقات التجارية مع البلدان المجاورة . وكانت عمليات الباب العالي في منطقة بحر الخزر والبحر الاسود تعود بقدر كبير الى دساتر الدول الاوربية الغربية ضد روسيا . ووضع بطرس بصورة تفصيلية برنامجا جريئا لحل مشكلة الجنوب وبدأ بتنفيذه . واستدعى تنفيذ هذه الخطة موقع الدولة جغرافيا وحاجات تطورها ، ولم تكن انعكاسا لسياسة استعمارية تنتهجها روسيا وبترس كما كتب البعض في الغرب ويكتبون خطأ في بعض الاحيان .

في عام ١٧١٧ وصل فولينسكى مبعوث القيصر الى اصفهان . ولم تسفر عن نتيجة مباحثاته مع الشاه حسين ووزيره والاقتراح بشأن اقامة علاقات الصداقة . وفي عام ١٧٢٠ عين القيصر فولينسكى نفسه متصرفا في استراخان . وكلفه ببناء السفن البحرية والتأكد من طرق ابصارها المحتمل على امتداد السواحل الغربية لبحر الخزر . وتوجه الكابتن باسكاكوف الى بلاد فارس ودرس الموقف في القوقاس . كان بطرس يعرف من زمان ان الارمن والجورجيين والكاباردنيين ينتظرون المساعدة من روسيا ، بعضهم يريد دعما في مقاتلة الامبراطورية العثمانية وبلاد فارس وبعضهم الآخر يريد الانضمام الى روسيا .

وقد تأزم الموقف في بلاد فارس . فقد منى الشاه حسين بهزيمة على ايدي الافغان ، وحل محله ابنه طهماز ميرزا فطلب مساعدة من بطرس الاكبر . وفي ١٨ تموز (يوليو) ١٧٢٢ ، بعد عام تقريبا من انتهاء حرب الشمال ابحر الامبراطور الروسى على رأس قوات من ٢٢ الفا من مدينة

استراخان . وتحركت برا تسعة آلاف فارس و٥٠ ألف قوزاقي
وتتري . وفي اعقاب احتلال دربند عاد بطرس الى استراخان ،
وقاد القوات الجنرال ماتيوشكين . وفي كانون الاول (ديسمبر)
احتلت هذه القوات ريشت ، وفي تموز (يوليو) ١٧٢٣ دخلت
باكو .

واثارت انباء عمليات بطرس وقواته في غرب بحر الخزر
استياء شديدا في الاستانة . وبذل السفير البريطاني قصارى
جهده لتأجيل ذلك الاستياء . وهدد العثمانيون بشن الحرب
على روسيا واعلنوا ان شعوب القوقاس المسلمة من اتباع الامبراطورية
العثمانية وان بلاد فارس تطلب المساعدة من الباب العالي .
ولم يرتعب بطرس لتهديدات الباب العالي ، لكنه يريد تسوية
النزاع بالطرق الدبلوماسية .

وعلق القيصر آمالا جديدة على نيلوف سفيره في الاستانة .
فهذا الرجل الفطين الواسع الاطلاع المتحدر من عائلة نبيلة
تعرضت للفقر قد حظى باهتمام القيصر لتفوقه في الدراسة
بالاكاديمية البحرية في بطرسبورغ وفي البندقية واسبانيا ، وادى
الامتحان جيدا في شؤون بناء السفن ، وقد امتحنه القيصر
نفسه ، وامتدحه و اضاف قائلا :

— انظر ، يا اخي ، الى يديّ الجاستين مع اني قيصر ،
والسبب هو اني اريد ان اعرض عليكم مثالا تقتدون به لاري
قبيل الشيخوخة على الاقل معاونين لاتقن وخدما للوطن .
ذات مرة اثناء العشاء في احد ايام ١٧٢١ ذكر بطرس
لرجالہ انه بحاجة الى شخص ملم باللغات الاجنبية لارساله
سفيرا الى الاستانة . فاجاب غولوفكين بانه لا يعرف شخصا
لائقا بهذا المنصب . لكن الاميرال أبراكسين وجد مخرجا فقال :

— انا اعرف شخصا لائقا جدا ، لكن المصيبة انه فقير للغاية .

— الفقر ليس مصيبة ، — اعترض القيصر ، — فيمكن مساعدته بسرعة . ولكن من هو ؟

— ها هو واقف خلفك .

— الواقفون خلفي كثيرون .

— ذاك الذى امتدحته فى بناء السفن .

— صحيح ما تقول ، — التفت بطرس ورأى الرجل الذى يعنيه الاميرال ، — لكننى اردت له ان يبقى عندى .

لكن بطرس ، رغم ولعه ببناء السفن الذى يتقنه نييلوف جيدا ، ارسله بعد حين الى الاسنانة . وعبر نييلوف عن امتنانه الخالص للقيصر على هذه الثقة وركع امامه . فجعله بطرس ينهض وكان راضيا عنه وقال مودعا :

— لا تركع ، يا اخى ، حكى من عند الله ، وواجبى ان اراقب الاحوال كيلا يمنح شيء لمن لا يستحقه وكيلا يؤخذ شيء من مستحقه . واذا كنت ستفعل خيرا فللوطن وليس لى ، واذا اسأت فسأطالبك لان الله سيطلبنى بدلا عنكم جميعا بألا يتمكن الشرير والغيبى من الاساءة . فاخدم باخلاص . وتعين على نييلوف الآن ان يخدم الوطن فعلا ويحول دون تطور الاحداث بشكل غير مرغوب فيه فى العلاقات مع الباب العالي الذى بعث حكاهم عساكرهم الى القوقاس . لكن بطرس امر بعدم تقليص عمليات جيشه فى بحر الخزر ، بل اوعز الى جيش آخر بالاستعداد لصد هجوم العثمانيين تحوطا للطوارئ .

وابلغ نييلوف السلطان العثمانى بتصريح الامبراطور الروسى :

— نحن نوفر الحماية للشعوب التي لا علاقة لها بالباب العالي مطلقا وتبعد عنه كثيرا وتتواجد على بحر الخزر الذي لا يجوز ان نسمح لاية دولة اخرى بالوصول اليه .

كان ذلك تحذيرا خطيرا اعتمد عليه نيلوف في اجراء المفاوضات . وساعده السفير الفرنسى . وردا على حجج العثمانيين القائلة بان الشعوب المسلمة في القوقاس يجب ان تكون تحت حماية الاستانة ذكرهم السفير ، مصيبا ، بالشعوب المسيحية الواقعة تحت سيطرتهم في البلقان .

وفي تلك الاثناء وقع سفير بلاد فارس فى بطرسبورغ فى الثانى عشر من ايلول (سبتمبر) ١٧٢٣ معاهدة نصت على ادراج الساحل الغربى والساحل الجنوبى لبحر الخزر ، وبضمنهما مدينتا دربند وباكو وغيرهما ، ضمن الاراضى الروسية . واتفقت روسيا وبلاد فارس على تشكيل حلف دفاعى ضد الامبراطورية العثمانية . وفى اعقاب ذلك اخذ السلطان ومستشاروه يفرقون بالسلاح ويهددون نيلوف باعلان الحرب على بلاده . لكن نيلوف لم يتراجع فطرده من الاستانة ، ولم يودعوه سجن الابراج السبعة كما فعلوا بالسفير تولستوى فى حينه . وقبل ان يتمكن من جمع حاجياته استدعاه الصدر الاعظم واعلن له ان ما حدث هو «سوء تفاهم» ، وان المفاوضات ينبغي ان تستمر . وفى ١٢ حزيران (يونيو) ١٧٢٤ وقع الطرفان فى الاستانة معاهدة اعترف الباب العالي بموجبها بضم الاراضى المتاخمة لبحر الخزر الى روسيا التى اضطرت الى القيام بالشيء ذاته فيما يخص الاراضى القوقاسية التى انتزعها العثمانيون من بلاد فارس والحقوها بممتلكاتهم . وتخلى السلطان العثمانى عن اطماعه فى بلاد فارس .

وبذلك حصلت الحدود الجنوبية الشرقية لروسيا على امان
أكثر ، زد على ذلك انه امكن زحزحتها الى الجنوب . وتعززت
مواقع روسيا فى القوقاس ، وهى ذلك فرصا جيدة لشعوب
المنطقة فيما يخص تأمين مستقبلها .
كانت الاعمال فى ميدان السياسة الخارجية والعمليات
الحرية فى الجنوب والشرق دليلا آخر على تزايد دور روسيا
فى السياسة العالمية ابان حرب الشمال وفى اعقابها ، لكنها ،
دون شك ، ذات اهمية محدودة لذلك الزمان بالمقارنة معها .
الا انها رسمت مهمات المستقبل . وفى السنوات الاخيرة
من حكمه غدا بطرس الاكبر ليس شخصا مستجدا منتهيا
فى السياسة والشؤون الحرية ، بل رجلا حاذقا محنكا فى
عمله وحاكما قويا رزينا وحكيما بعيد النظر لامبراطورية هائلة .
ومما له دلالة ان ملك بروسيا فريدريك-ولهم وملك بولونيا
وسكسونيا اغسطس الثانى اللذين حرضهما رجلا المال المحتالان
ليمان ومائير قد طرحا على بطرس مسألة تقسيم بولونيا واقترحا
ان تنضم الى روسيا اراضى بيلوروسيا ، وهى ارض روسية
اصيلة عريقة ، وليتوانيا ، فرفض الامبراطور رفضا قاطعا .
وادت سياسته الخارجية الحذرة كذلك الى تشكيل حلف
دفاعى بين السويد وروسيا فى ٢٢ شباط (فبراير) ١٧٢٤ .
واعلنت روسيا قبل ذلك بقليل على لسان بطرس وممثله فى
استوكهولم عن ضرورة الابقاء على «الشكل الراهن للحكم»
فى المملكة (سلطة الملك المحدودة والبرلمان ، وليس بعث
الحكم المطلق كما اراد فريدريك الاول والوريثا-البونورا) ،
وحظى ذلك بترحيب حار من نواب البرلمان .
وجرت مفاوضات بشأن التحالف مع فرنسا واسبانيا والتصالح

مع بريطانيا . واخذ الاب دوڤوا يمتدح بطرس الاكبر بعد ان تكلم عنه باستخفاف قبل خمس سنوات .
وفي عام ١٧٢٢ قال دوڤوا للامير كوراكين ، الدبلوماسي المحنك القديم والمشرف غير العلني على الدبلوماسيين الروس في اوربا ، ان فرنسا تنشء الصداقة والتحالف مع روسيا :
— عندما تدخل فرنسا وروسيا في تحالف وثيق يمكنهما ان تسيطرا على ميزان المصالح الاوروبية وتتحركما بالآخرين وتظلا في صداقة دائمة .

وكان هذا السياسي الفرنسي يسير بالامور الى التحالف بين فرنسا وروسيا وبريطانيا . وتفسير ذلك بسيط : الصراع يقترب من اجل التركة النمساوية ، فان الامبراطور من آل هامبورغ ليس لديه وريث . زد على ذلك ان اغسطس الثاني اصيب بمرض ، وطرحت مسألة العرش البولوني ايضا . ومن جديد ليس بالامكان الاستغناء عن بطرس الاكبر وروسيا . ولهذا الغرض ارادوا تزويج يلزافيتا ، كريمة بطرس ، من دوق شارتر ليصبحا بعد حين ملكا وملكة لبولونيا . الا ان دوڤوا والوصى على العرش توفيا في اواخر عام ١٧٢٣ . وواصل زعيما فرنسا الجديدان دوق بوربون ووزير الخارجية مورفيل المفاوضات مع روسيا بشأن عقد معاهدة التحالف . وكان بطرس يميل الى ذلك والى انضمام بريطانيا الى التحالف رغم الاعمال العدائية التي قام بها جورج الاول في السنوات الاخيرة من حرب الشمال .

وغدت روسيا في وضع دولي جعل بعض الدول ينشد صداقتها والتحالف معها وجعل بعضها الآخر يكبح نواياه التوسعية العدوانية ضدها وضد من تؤيده وتدعمه . كتب

سولوفيف يقول : «لقد جرى اعظم حادث فى التاريخ
الاوربى والعالمى ، حيث دخل النصف الشرقى من اوربا
فى حياة مشتركة مع نصفها الغربى . فمهما فكروا الآن
فى الغرب تتطلع انظارهم عفويا الى الشرق . وصار ادنى
تحرك للسفن الروسية والقوات الروسية يثير اضطرابا كبيرا لدى
مجالس الوزراء التى تتساءل بقلق ما هى وجهة هذا التحرك ؟» .

آخر الاعمال . وفاة بطرس الاكبر

بلغ بطرس ذروة العظمة فى آخر ايامه . فهذا القيصر والدبلوماسى والقائد العسكرى وقائد الاسطول والمصلح والمشرع الذى ذاع صيته واشتهرت امجاده فى بلاده وخارجها ونعته معاصروه من روس واجانب عن حق وحقيق ببطرس الاكبر كان يستحق بالتمام والكمال اللقب الذى منحه اياه مجلس السينات بعد انتهاء حرب الشمال بنصر مؤزر . فان نتائجها وما اعقبها من نجاحات فى ميدان السياسة الخارجية وعلى الصعيد الدبلوماسى ، مثل التحالف مع عدد من البلدان ، بما فيها خصمه السابق — السويد التى اعرب نواب برلمانها عن امتنانهم له واعجابهم به (بموقفه فيما يخص الابقاء على نظام الدولة والبرلمان فى السويد) ، والمنزلة الرفيعة التى احتلها الامبراطور روسيا التى قادها على المسرح الدولى والآفاق المستقبلية الجريئة البعيدة النظر التى رسمها فى السياسة الخارجية — كل ذلك وقائع لا تحتاج الى برهان .

ومع ذلك لم يكن بطرس راضيا عن كل شئ . فالكثير مما حدث فى الماضى (حملة بروت ، والقطيعة الفاجعة مع ابنه وذكريات «عصيان» «الرعاى الوضعاء» ومؤامرات ودسائس صوفيا البغيظة وآل ميلوسلافسكى وامور كثيرة اخرى) تقض

مضجعه فلا يعرف الهدوء . وحتى فى الوقت الحاضر ، فى هذه السنوات الاخيرة بعد صلح نيشادات وحتى الممات ، لم تهدأ نفسه المثعبة المعذبة ، فهى مفعمة بهوم ومشاكل لا نهاية لها وبافكار وقلق بخصوص التصرفات الشائنة وخيانة الانصار ، بل وحتى اقرب المقربين . . .

. . . كل شىء فى الطبيعة ، وبين الناس يبدو حتميا حكيما رغم فوضى المصادفات . وكما يتبدل الليل والنهار ويأتى الموت بعد الحياة ، وتأتى الحياة بعده من جديد ، كذلك تتعاقب الافراح والاتراح ، والضحك والبكاء ، والنجاح والاضيق والسعادة والتعاسة . وتلاحق بطرس دوما تأملاته فى الدوامه التى يقع الانسان فيها منذ الميلاد حتى النفس الاخير ، ويتعذب لتلك التأملات التى تدفعه احيانا الى اليأس والقنوط . كانت هذه الدوامه تتقاذف بطرس السعيد التعيس فتلقى به من الفرحة الى الحزن والاكتئاب على مدى حياته التى لم تكن طويلة من حيث الزمن . لكنها من حيث امتلاؤها بالافعال والاحداث الموقفة والفاشلة تعادل عدة حيوات بشرية ليست عادية .

ولا يسع المرء الا ان يفكر ويحزر بحالة بطرس النفسانية فى تلك السنوات حيث ارهقه المرض العضال وعذبه اشد عذاب (كان مصابا باليوريمية — التسمم الدموى البولى) ، وانهال عليه المصير بضربات لا ترحم فتت بسرعة قواه التى استهلكها بسخاء فى السنوات السابقة من الصراع والانفعال والتوتر الذى يفوق تحمل البشر . بديهى انه استمر فى قيادة الامبراطورية الشاسعة بهمة ونشاط . وتجلى ذلك من جديد فى الريشة والسيف ، اى فى وضع المراسيم والتشريعات

وتنظيم الحملة الجديدة (بحر الخزر) والمشاركة فيها . كما تجلى في المباحثات الدبلوماسية وتوقيع المعاهدات وفي ادارة السينات والسينودس المقدس والهيئات والمتصرفيات ، وفي الاهتمام العملى النشط ، الموجه دوما بشؤون الصناعة والتجارة والاكاديمية والمدارس وبناء القصور والمستودعات وامور كثيرة اخرى . وتجلى ذلك ، اخيرا فى التعامل والتخاطب مع اناس من مختلف الفئات الاجتماعية ابتداء من الفيلدمارشالات وحتى الاسطوات والجنود ، حيث يتوجهون باشرافه وبارادته القوية لتنفيذ الخطط والمهمات المكروسة لاعلاء مجد روسيا وعزتها وكرامتها .

وكانت عنده اعمال محببة الى نفسه فى المنزل وخارجه ، فى العاصمة ، فى روسيا ، لخير الوطن كما يفهمه الامبراطور . وعندما اقتربت نهاية حرب الشمال صار بطرس ، حتى آخر ايامه ، يقضى مزيدا من الوقت فى العاصمة ، فى «فردوسه» ووليدته المحببة بطرسبورغ التى بدأت آنذاك ، بفضل جهوده وعنايته بالاساس ، تتحول الى المدينة التى نعت فيما بعد بـ«تدمر الشمال» . كان بطرس كعادته يستيقظ فى الصباح الباكر ، فى حوالى الخامسة ، ويستمع الى تقرير سكرتيه الاول ماكاروف ، ويتناول الفطور . وفى السادسة صباحا يرى اهالى العاصمة عربته ذات العجلتين فى حوض بناء السفن او قرب بناية فى طور الانشاء او عند مدخل السينات او قرب باب منزل احد كبار الموظفين . بهذه الصورة يصرف الوقت حتى الظهر . وفى الواحدة بعد الظهر يتناول طعام الغداء الروسى البسيط (الحساء والعصيدة واللحم والمتبلات) . ومن بين الثمار غير الروسية يحب الليمون . ولم يكن يتناول الاسماك والحلويات .

وبعد الغداء ، حسب العادة الروسية ، استجمام يستغرق ساعتين تقريبا . ويمضى الوقت بعد الظهر فى مراجعة تقارير الادارين والسفراء والقادة العسكريين ووضع وتحرير المراسيم والاياعازات والتوجيهات والتقييدات وغيرها بعدد كبير .

وفى المساء ، حسب المناسبات او المزاج ، تجرى لقاءات مع الضيوف والمحاسب ، وفيها من كل بد ولائم ولهو ومرح . واحيانا ينزوى القيصر فى قصره الصيفى ليختلئ بعائلته ، وهو يهوى ذلك كثيرا . واخيرا يقضى بعض الوقت فى ورشة الخراطة المحببة اليه ، حيث توجد مجموعة كبيرة من المخارط والازاميل والمواد فى جو هادئ يمكن بطرس من الاستجمام والانفراد . ويقول الخراط الممتاز نازتوف الذى تقابل مع القيصر مرارا ان احدا لا يدخل عليه الورشة بدون استدعاء «لكى يبقى هذا المكان على الاقل هادئا لصاحبه» . واعجب شخص آخر من معاصرى بطرس ، من الدبلوماسيين ، بمهارة القيصر الخراط فقال :

— انه لا يقل مهارة عن الخراط الممتاز ، حتى صار يجيد خراطة الصور النصفية والمنحوتات .

وكان بطرس يعمل على المخرطة «بجد واجتهاد وكأنه يعمل ليكسب النقود كى يعيش عليها» . ولا تزال محفوظة فى متحف الارميتاج حتى الآن مصنوعات الخراطة من عمل بطرس مثل علب السعوط والانواط وغيرها من الحلى . وقد شارك فى صنع ثريا من العاج من ثلاثة طوابق بـ ٢٦ نتوءا . وكتب عليها بالروسية واللاتينية :

— من صنع يدى بطرس الاكبر امبراطور وقيصر عموم روسيا . ١٧٢٣ .

ودهش معاصرو بطرس ، ومنهم الاجانب ، لقدرته الهائلة على العمل وكثرة الاشغال المتنوعة التي مارسها . وعندما كانوا يسألونه عنها يقول مازحا انها توفر المزيد من الصحة وطول العمر . وكان يضع جداول اسبوعية للاشغال . وقد ضم احد تلك الجداول (لعام ١٧٢١) ما يلي : وضع توجيهات بناء السفن (الاثنين — الخميس) ، جلسة السينات (الجمعة) ، تحرير «تاريخ الحرب السويدية» (السبت ، صباحا) ، الشؤون الدبلوماسية (الاحد ، صباحا) . وفي جدول آخر (كانون الثاني — يناير ١٧٢٤) نجده يخصص للسينات مساء الاثنين وصباح الثلاثاء ، ولدعوى المحاكم الاربعاء والخميس ، ولبناء السفن صباح الجمعة . وفي جدول ثالث (تشرين الثاني — نوفمبر ١٧٢٤) ، قبل وفاته باقل من ثلاثة اشهر) ركز جل اهتمامه على السينات وعلى النظر في مختلف القضايا الملحة وغير الملحة .

وقد اهتم كثيرا ببناء بطرسبورغ وتزيينها وتزويدها بكل ما هو نافع وضروري وممتع . وبالحاح منه ظهرت في العاصمة بنايات حجرية ليس للعبادة فقط ، بل ومنازل وقصور مزينة بالرسوم والمنحوتات مثل قصره الصيفي وقصر مينشيكوف ومباني الهيئات العامة وغيرها . وانشئت في عهده المتنزهات الجميلة والجادات العريضة والساحات واقامت المصاييح على اعمدة في الشوارع . وارغم اهالي العاصمة على ارتداء ثياب جديدة قصيرة واحذية بدلا من الثياب القديمة الطويلة الاذيال والاخفاف . ولم يبق من البناء الخشبي الاول للمدينة سوى منزل بطرس نفسه على الضفة اليمنى لنهر نيفا . وبدلا من المنازل الخشبية بنيت دور طينية ، ثم مساكن حجرية . وفي ١٧١١

انجز بناء القصر الصيفى للقيصر وعائلته . وفى تلك الفترة بلغ عدد سكان المدينة ٨ آلاف شخص يقيمون فى ٧٥٠ — ٨٠٠ منزل . ومع تواصل الانتصارات فى القتال ضد السويد ، وبعد انتقال شرق البلطيق الى روسيا ، ابدى بطرس اهتماما متزايدا ببناء واعمار المدينة . وفى عام ١٧١٦ تعاقد مع المعمارى الفرنسى المعروف ليبلون الذى وضع مشروع المخطط العام للمدينة . واستند المشروع الى فكرة ما يسمى بالمدينة المنتظمة ، اى الشوارع والقنوات المستقيمة والساحات الفسيحة والمباني الحكومية والكنائس وقصور الوجهاء ومنازل العامة والفلكات والاسواق ، بحيث تبنى على جانبى الشوارع بارتفاع متساو . وكانت مواصفات المخطط ، مثلا ، تستوجب تغيير كل الموجودات فى جزيرة فاسيليفسكى . وكان بطرس فى باريس آنذاك . ودرس هناك الرسوم التخطيطية ومخططات المباني المماثلة التى ارسلها ليبلون من بطرسبورغ . وعندما عاد القيصر الى العاصمة التقى بالمعمارى وسأله :

— ماذا ستفعل ؟

— نهدم المنازل الحالية ونبنى منازل جديدة ، و نظمر القنوات ونحفر غيرها .

— فكرت فى ذلك ، لكنه يتطلب امولا كثيرة .

ولم يصادق القيصر على المخطط . وظلت المدينة تبنى كالسابق ، كما تمليه الطبيعة والمناخ وخيال صاحب البناء والمعمارى . لكن بطرس كان يتابع تشييد المدينة على الدوام ليكون منتظما وليس عشوائيا . وعلى اية حال تم فى آخر ايامه تعبيد شوارع العاصمة بالحجر ، حيث جرى تبليط

كلا جانبي الشارع الملاصقين للمباني السكنية بشكل خط عرضه متر ونصف او متران (وظلت قارعة الطريق غير مبلطة) . وفي عام ١٧٢١ اعد ونصب حوالى ٦٠٠ فانوس فى الشوارع فتائلها تشتعل بزيت القنب .

وكانت هذه المستحدثات وغيرها نتيجة للجهود الحثيثة التى بذلها بطرس والاشخاص الذين عينهم لهذا الغرض . ومنهم انطون ديفير البرتغالى الاصل الذى كان فى حينه بحارا فى سفينة احد التجار . وقد التقاه بطرس فى هولندا عام ١٦٩٧ . فاعجبه بمهارته وحذقه فعينه القيصر فى خدمة مينشيكوف فى البداية ثم مراسلا فى خدمة القيصر نفسه . وتجدر الاشارة الى ان الكثيرين عملوا مراسلين عند بطرس الاكبر ، وبرز بينهم فيما بعد رجال مشهورون ائتمنهم وقربهم اليه (مثل مينشيكوف) . وحدث شىء من هذا القبيل لانطون ديفير . فهذا البحار الشاطر استطاع ان يحظى باعجاب شقيقة مينشيكوف ، وهى عانس دميمة ، ولم يبق امام هذا الاخيه غير الموافقة على زواج شقيقته من مراسل القيصر . وكان لذلك سببان ، فالشقيقة تنتظر مولودا ، والقيصر بارك زواج محسوبه . واهيئت حفلة الزفاف . وارتقى المراسل سلم المراتب . وفى ٢٧ ايار (مايو) ١٧١٨ تلى على اعضاء السينات مرسوم جديد من بطرس الاكبر :

— ايها السادة اعضاء السينات ! بغية احلال نظام افضل فى هذه المدينة قررنا اناطة وظيفة مدير الشرطة العام بمرافقنا الاول ديفير ورسمنا البنود التى ينفذ بموجبها المهمة الموكلة اليه .

وصار المرافق الاول ومدير الشرطة العام البرتغالى الاصل يدبر

بناء بطرسبورغ وفقا لتوجيهات تفصيلية من القيصر . وبالإضافة الى تشييد المباني راعى واضع التوجيهات الملتزم بالدقة البالغة امورا كثيرة مثل تقوية شواطئ النهر ومجاربه ونظافة الشوارع وترتيب الاسواق وجودة واسعار الاطعمة المعروضة للبيع وتدابير اطفاء الحريق ومكافحة القمار ومعاقبة لصوص الليل والماجنين . (كان الخفراء يجوبون الشوارع فى الليل وهم يقطعون بالخشخيشات ، ومن الحادية عشرة مساء حتى الصباح تغلق العوارض على مداخل المدينة ، ولا يسمح بالسير فى الشوارع الا للعسكريين والوجهاء والاطباء والمولدات والقساوسة والموظفين الداهيين لاغراض الخدمة على ان يحملوا معهم فوانيس) .

وبجهود مديرية الشرطة وعمل العمال تم اعمار بطرسبورغ ففدت جميلة وازدادت بهاء . وكانت جادة نيفسكى الممتدة من حوض الاميرالية حتى دير الاسكندر نيفسكى تحظى باعجاب المشاهدين من عهد بطرس ، لاسيما الاجانب . فقد كانوا يمتعون الانظار بهذا الشارع المعبد الطويل والاشجار المنتصبة بثلاث او اربع صفوف على جانبيه . ويقول بيرخغولتس ان هذه الجادة الجميلة النظيفة «ذات منظر رائع لم ار مثله فى اى مكان» . وحول الحديقة الصيفية فى جانب الاميرالية شقت القنوات وجرى تعديل مجارى الجداول حتى غسدت مستقيمة وانشئت كورنيشات خشبية وشيدت جسور . وكان القيصر يعاقب المذنبين بشدة على كل تقصير . وذات مرة تلقى ديفير حصنه من ضربات هراوة القيصر التربوية (بسبب عطل الجسر على نهر مويكام) ، وقال له القيصر :

— سيجعلك هذا تتذكر بشكل افضل ضرورة رعاية الشوارع والجسور لتكون بالكيفية اللائقة . . .

كان بطرس غالبا ما يتردد على مبنى الاميرالية (مركز صناعة السفن فى بطرسبورغ) . وهو مبنى ضخم مستطيل غير كامل من جانبه الرابع المكشوف على نهر نيفا وفيه حوض بناء السفن المطوق من جهة النهر بسد محصن باستحكامات ومدافع . وفى منشآت الاميرالية وحواليها كل ما هو ضرورى لبناء السفن . وفى عشرينات القرن الثامن عشر بنيت هنا زهاء مائة من مختلف السفن . وغدت الاميرالية مؤسسة كبيرة معقدة وصارت بمثابة القلعة على نهر نيفا . وعمل فيها حوالى عشرة آلاف شخص .

وفى مكان قصر الشتاء الحالى كان ينتصب منزل الاميرال ابراكسين المكون من ثلاثة طوابق ، وبعده يأتى منزل المدعى العام ياغوجينسكى ، والفريق البحرى كرويس وقصر بطرس الشتوى . وابعده منه يأتى قصره الصيفى الذى لا يختلف بشئ عن المنازل الاخرى للناس المتوسطى الحال . وفيه الحديقة الصيفية التى كان بطرس يحبها كثيرا ويهتم بها ويزينها على غرار متنزه فرساي .

وفى الحديقة المذكورة مماش ذات تخطيط جيد واشجار مكورة ومكعبة وهرمية الشكل ، وبرك ونافورات وتمائيل بالحجم الكامل ومزهريات وتمائيل نصفية واعمدة وغير ذلك من الروائع . كان القيصر يحب الاستجمام هنا لوحده او يتمشى مع الضيوف . والكثير هنا يثير اعجاب اولئك الضيوف وخصوصا تماثيل افروديت العائد الى القرن الثانى الميلادى والذي جلب من ايطاليا ، وكذلك المغارة الملبسة بالصدف من روسيا وايطاليا وهولندا ، وكرة عائدة لسلالة غوتوربى صنعت فى عام ١٦٦٤ وجلبت من هولشتين . والحديقة مزينة كذلك بتماثيل حول موضوعات

من حكايات ايسوب نحتت بايعاز من بطرس لموعظة الزوار .
وبعد ذلك ، على امتداد نهر نيفا ، تأتي وراء الحديقة
الصفية قاعات كيكين التي صودرت بعد اعدام هذا الاخير
لارتباطه بقضية الامير الكسى . وقد خصصت لمتحف الغرائب
ولاول مكتبة عامة فى روسيا . وقد جمعت واقتنيت تحف
المتحف داخل البلاد وخارجها ، والقيصر مطلع عليها جيدا ،
فقد اعتاد ان يتحدث عنها ويعرضها على المقربين اليه او
على الاجانب فيؤدى دور الدليل . وقد اعز بجمع كل ما
هو «قديم جدا وغير عادى» وارسالة الى بطرسبورغ . وقد
اشترى فى الخارج ، مثلا ، المجموعة التشريحية التى جمعها
العالم ريوش فى امستردام طوال خمسين عاما . واهدى له
الاجانب تحفا كثيرة لمعرفة بحبه للمعرفة وثقتهم بان تلك
التحف النادرة ستبقى محفوظة من اجل العلم والاحفاد .
وكانت تتوارد من جميع الانحاء النوادر والعجائب والغرائب
والكائنات الشاذة والحاجيات القديمة والمدافع وغيرها . ولم
يخل القيصر بالمال على هذه المشتريات رغم ما تعود عليه
من تقتير .

وفى منتصف عشرينات القرن الثامن عشر غدا متحف
الغرائب اغنى متحف من هذا النوع فى اوربا .
وجمعوا فى المكتبة العامة كتباً من مختلف الانحاء ،
وجلبت اليها محتويات مكتبة الصيدلة من موسكو ومكتبة
دوق كورليانديا ومكتبة الامير الكسى والبارون شافيروف بعد
مصادرتها ، والخ . وفى عام ١٧٢٥ بلغت موجودات المكتبة
العامة ١١ الف مجلد .

وقال القيصر عن هدف جمع الغرائب والكتب بوضوح

لا لبس فيه :

— ارید للناس ان يروا ويتعلموا .

وابتداء من عام ١٧١٩ افتتحت ابواب متحف الغرائب والمكتبة العامة للجميع . زد على ذلك ان دخول المتحف كان بدون تذاكر ، وقد رفض القيصر رفضا باتا اقتراح المدعى العام ياغوجينسكى ببيع تذاكر الدخول . والاكثر من ذلك ان القيصر يامر بتقديم القهوة وغيرها لزوار المتحف وخصص لهذا الغرض ٤٠٠ روبل فى العام .

وتقع جنب قاعات كيكين المؤسسة التى عمل فيها بطرس مرارا ، ونعنى دار السباكة ، وفيها ورشات الخراطة والبرادة والنجارة وعربات المدافع وغيرها . وهنا صب بطرس شخصا مدافع المورتر والهورتر . وقبالة دار السباكة ، على الضفة الثانية من نهر نيفا ، تقع قلعة بتروبافلوفسكايا وفيها كاثدرائية بطرس وبولص التى يعلوها برج رفيع . وفى جزيرة فاسيليفسكى شيدت بنايات حجرية للهيئة الثانية عشرة والسوق التجارى ومتحف الغرائب من ثلاثة طوابق .

وعلى الضفة اليمنى لنهر نيفا يقع الميناء الذى كان مكتظا بسفن كبيرة وصغيرة لا تحصى تحمل اعلام مختلف البلدان . وفى الاعياد تأتى الى هنا ، الى داخل المدينة ، سفن اسطول البلطيق ، مفخرة بطرس الاكبر . وفى مطلع عام ١٧٢٤ كان هذا الاسطول يضم ٣٢ بارجة كبيرة واكثر من ١٠٠ سفينة اخرى اصغر حجما . ولعبت ارادة بطرس الحديدية دورا هائلا فى ذلك ، كما فى كثير غيره . وغدا الاسطول الروسى هو الاقوى بين اساطيل البلطيق .

وصارت بطرسبورغ الميناء الرئيسى فى البلاد بدلا من

ارخانجلسك . وقبل عام من وفاة بطرس الاكبر وصلت الى هذا الميناء ١٨٠ سفينة اجنية ، بينما وصلت الى ارخانجلسك ٥٠ سفينة فقط . وغدت بطرسبورغ مركزا كبيرا لنقل البضائع من اوربا الى روسيا وبالعكس . فالى اوربا تنقل الجلود والسمن والكتان وتيل القنب والحبوب والجريش وحديد الاورال وفراء سييريا والانسجة القطنية وقماش القنب ، والى روسيا تنقل من اوربا الانسجة الصوفية والحريية والزجاج والاصباغ والمشروبات والبن . وكان لروسيا ، بفضل جهود بطرس لدرجة كبيرة ، ميزان تجارى ايجابى ، حيث كانت تصدر اكثر مما تستورد . وصارت المانوفاتورات والحرفيون فى نهاية الربع الاول من القرن الثامن عشر ينتجون الكثير مما كان فى السابق يستورد من البلدان الاخرى (مثل المعادن والمصنوعات المعدنية والورق وكثير غيرها) .

وكان ذلك كله مدعاة للفخر والاعتزاز وكان بطرس دون شك يفتخر به . وحدث الشيء ذاته فى اعداد الاختصاصيين فى جميع الميادين ابتداء من ادارة الدولة وقيادة الجيش والاسطول وانتهاء بالاسطوانات فى احواض بناء السفن وفى مصانع الاورال . فقد اعد بطرس مئات وآلآفا من هؤلاء الاختصاصيين الموهوبين الذين يحتاجهم البلد . ونشأت حوله كوكبة من الرجال الاماجد ممن تربوا على يده . وقد حققوا الكثير لروسيا ، لكنهم لم ينسوا انفسهم بالطبع . فقد اجزل لهم القيصر العطاء بالمناصب والمكافآت والضياع والاقنان . صحيح ان القيصر كان يطالبهم بخدمة جيدة ، وكان يغضب احيانا ويطرد المقصرين ويلجأ الى الهراوة فينهال بها فى ضرب مبرح . وكانوا «يوفرون» له مبررات كثيرة للتذمر ، وخصوصا

اول المقربين اليه مينشيكوف الذى كان يفرحه ويحزنه فى الوقت ذاته ، وخصوصا فى السنوات الاخيرة . مينشيكوف رجل مخلص وشجاع للغاية ، وهو يتحدث من عامة الناس ، لكنه غدا الشخصية الثانية تقريبا فى الدولة ، وصار فيلدمارشالا واميرا ساميا ومتصرفا لبطرسبورغ ورئيسا للهيئة العسكرية ومالكا لاموال طائلة من ضياع واقتان وما الى ذلك . واخذ مينشيكوف يستخدم حسن معاملة القيصر له فى اغراضه الشخصية ليرضى اطماعه وجشعه الفظيع . وبمر الزمن ازداد جشعه فعرف به بطرس (ليس بكل شىء طبعاً) . فى البداية اخذ بطرس يلومه ثم صار يقرعه ويكتب اليه رسائل غاضبة شديدة اللجة . ، واحيانا يهتاج فيضربه بالعصا . لكن شفاعته يكاترينا وتوبة مينشيكوف ومثابرته جعلت غضب القيصر يخف فحلت الرحمة محله ، لا سيما وان الامير مينشيكوف يجيد الخدمة ويبدى آيات البسالة ويتزلف الى القيصر . وقد استفاد بطرس مرارا من حزم وبسالة معاونه فى صالاح القضية العامة ، وخصوصا فى المواقف الحرجة عندما يتطلب العمل مجازفة وسرعة وجراً . وحصل مثل ذلك مرارا ، فى معركة بولتافا ومعركة بيريفولوتشنايا ، وفى بولونيا وبوميرانيا . واسهم مينشيكوف بقسط كبير فى بناء وحماية «فردوس» بطرس ، حيث بذل طاقات كبيرة وابدى حسن تدبير . الا ان ابرز معاون لبطرس ، مينشيكوف هذا ، كان اول مختلس لاموال الدولة الروسية . وفى السنوات الاخيرة فترت علاقة بطرس به ، ولم يعد يثق به مثلما فى سالف الزمان .

وكان اشباع بطرس الآخرون يسببون له اذى ومتاعب

ايضا . والمثال على ذلك قضية شافиров الذى رفض ، كعضو فى السينات (فى عام ١٧٢٢) ، ان يتغاضى عن تصرفات مينشيكوف ، حيث طلب منه ذلك المدعى العام الاقدم فى السينات سكورنياكوف-يسارييف ، الذى قام مقام المدعى العام ياغوجينسكى لغيابه عن العاصمة . كما لم يكن الامبراطور فى العاصمة آنذاك . فقد كان على رأس حملة بحر الخزر . لكن شافиров نفسه تورط فى قضية تعتبر اسبابها تافهة فى معايير ذاك الزمان . فقد تشفع لمنح اخيه راتبا اكبر من المقرر حسب الملاك . وكان الكثيرون يرتكبون مثل هذه الخطايا «التافهة» ، لكن سكورنياكوف-يسارييف الذى شعر بالاهانة وحرضه آخرون ، ومن بينهم ، على ما يبدو ، مينشيكوف نفسه ، تدرج بهذه الحجة . واثارت فى السينات فضيحة رافقها صخب وصياح .

وفى الحادى والثلاثين من تشرين الاول (اكتوبر) من العام نفسه نوقشت فى السينات مسألة عمل مصلحة البريد التى يديرها شافиров . ووفقا للاحكام المتبعة لا يجوز له ان يحضر الجلسة لانه هو موضوع المناقشة ، ولذا طلب منه يسارييف ان يغادر القاعة . الا ان شافиров السريع الانفعال اعتبر هذه الكلمات اهانة من شيخص يضمر له العدااء من زمان . ورفض مغادرة القاعة .

فاورد يسارييف مقتظفا من مرسوم القيصر بهذا الخصوص ، لكن شافиров اصر على موقفه .

واحتدم الجدل بينهما فاتهم شافиров يسارييف بالسرقة . والتزم مينشيكوف وغولوفكين جانب المدعى العام الاقدم ، لكن شافиров لم يصنع الى اقوالهما واكد انهم جميعا اعداء

له ولذا لا يحق لهم الكلام فى هذا الموضوع .
واحتجاجا على ذلك غادر مينشيكوف وغولوفكين وروس
القاعة . والتحق بهم يسارييف قائلا لاعضاء السينات الذين
كانوا على استعداد لمناقشة المسألة بغياب اولئك الثلاثة :
— انا ذاهب ايضا ، فقد اتهمنى شافىروف بالسرقة .
وانقضت الجلسة . وبعد يوم من ذلك اقترح مينشيكوف
الغاء عضوية شافىروف فى السينات . وطالما القيصر هو الذى
يعين اعضاء السينات فقد ظلوا ينتظرون عودته .
لكن الاعمال يجب ان تسير رغم الخلافات . وبعد
اسبوعين افتتح المدعى العام الاقدم جلسة السينات قائلا :
— لا بد من الاستماع الى تفاصيل القضية .
فرد عليه شافىروف منفعلا :

— ارحمنا يا رب . كيف استمع اليه ؟
وعندما تكلم مينشيكوف قاطعه شافىروف وفضح تصرفاته
واشار الى غضب القيصر عليه بسببها .
وبعث الخصمان يسارييف وشافىروف تقريرين الى الامبراطور
اتهم فيها بعضهما البعض . وعندما عاد بطرس امر بتشكيل
محكمة عليا . وبنتيجة التحقيق اتضح ان شافىروف مذنب .
فاعترف بذنبه صراحة امام القيصر ، فلا يجوز تعيين راتب
لاخيه لا يستحقه ، وكان يجب عليه ان يغادر السينات عندما
نظر فى قضية الدائرة التى يشرف عليها . وصدر الحكم باعدام
شافىروف . وفى ١٥ آذار (مارس) ١٧٢٣ جاءوا بالمحكوم
فى زحافة الى منصة الاعدام فى كريملين موسكو . وتلى
الحكم بحضور جمهور كبير . وقال احد شهود العيان ان المحكوم
«يمم وجهه شطر الكنيسة حسب العادات الروسية ورسم شارة

الصليب عدة مرات ثم ركب ووضع رأسه على النطع ، لكن معاوني الجلاد سحبوا قدميه من الخلف فاضطر الى الانبطاح على بطنه المترهل» . ورفع الجلاد القأس وهبط بها على النطع دون ان تمس رقبة شافيروف . وبلغ مسامحه ، بعد ان ودع الدنيا ، مرسوم القيصر الذى يقضى باستبدال الاعدام بالنفى الى سيبيريا .

وبدلا من سيبيريا سرعان ما عينوا له مدينة نوفغورود حيث اقام شافيروف مع عائلته حتى وفاة بطرس . واصدر الامبراطور المستاء من تصرفه مرسوما فى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٧٢٣ قضى باعتقال اى عضو فى السينات يبدى تعنتا مثل شافيروف . ونظرا «لوقاحة» سكورنياكوف-بيسارييف صادر بطرس فى البداية ضياعه وخفض رتبته الى موظف عادى . ثم عينه مفتشا اكبر لقناة المياه من بحيرة لادوغا . وبسبب سوء خدمته فى القناة لم يوافق الامبراطور على اعادة رتبته .

وهكذا اضطر القيصر الى مفارقة رجال قديرين ، بل وموهوبين ، وكانت الاسباب متعددة ، مثل التجاوزات فى السلطة واختلاس اموال الدولة والارتشاء والاستهانة بالخدمة وسوء السلوك وهلمجرا . والبعض لم يعد من المقربين الى القيصر ، مثل مينشيكوف . والبعض الآخر فارق الحياة بميتة طبيعية (غولوفين ورومودانوفسكى وشيريميتيف وغيرهم) او على منصة الاعدام مثل الامير غاغارين الذى اختلس اموالا طائلة فى سيبيريا او المفتش الاقدم نيسنيروف .

وفى السنوات الاخيرة كان من المقربين الى بطرس سكرتيره مكاروف الذى مارس صياغة المراسيم والرسائل والتقارير والبلاغات والعرائض وغيرها من الوثائق . وكان تأثيره على القيصر يزداد ،

واستمرت خدمته من عام ١٧٠٧ حتى وفاة القيصر ، واستفاد من مساعدته الكثيرون حتى أكبر الموظفين والقادة العسكريين . كان رجلا جادا هادئا حافظ على كرامته ونزاهته امدا طويلا ، لكنه لم يصمد للغواية ، فصار يتقبل الهدايا ، ففترت علاقة القيصر لدرجة ما بمعاونه المخلص .

واشتهرت على نطاق واسع معاملة القيصر الطيبة لمراسليه الذين كان يختارهم من كل المراتب الاجتماعية . فهم دوما جنب القيصر ، وهو يعاملهم ببساطة وبدون تكلف ، ويكلفهم بمختلف الاعمال ، بما فيها اعمال هامة للغاية ، ويعينهم في مناصب رفيعة جدا في بعض الاحيان ويضعهم في منزلة اعلى من الآخرين استنادا الى مواهبهم وفطنتهم وحماسهم وغير ذلك من الخصال الحميدة .

وكان الاجانب يستغربون من تصرف القيصر مع عامة الناس حيث يقربهم ويصطحبهم في روسيا وفي رحلاته الى الخارج . ففي البيت مثلا يلعب الشطرنج مع القس بيتكا . وسافر معه هذا القس الى الخارج في ١٧١٦-١٧١٧ . واثناء وضع ميثاق «مجمع المرح والسكر والعريضة» السالف الذكر استفاد بطرس من معارف القس بيتكا في الانشاد والمراتب الكنسية . ثم ان مدير جوقة البلاط القيصري بيلبايف شماس من المنشدين وهو ، مثل بيتكا غالبا ، ما يتردد على بيت القيصر ويتجول معه في اوربا . اما الامير يورى شاخوفسكوى الذى نعتة اعضاء «مجمع المرح والسكر والعريضة» بالارشمندريت غيديون فهو من اعز الناس على القيصر . فهو مهرج ذكى واسع الاطلاع وشجاع لاذع الكلمة ، يثير غضب الوجهاء الذين يفضح تصرفاتهم ويسخر منها ، وخصوصا الرشوة

والاختلاس . وكان بطرس يقدره رفيع التقدير ويصطحبه في حله وترحاله ، وغالبا ما يدعو الى بيته . وكان موقف الامير كوراكين منه مزدوجا حيث يعتبره ذكيا واسع الاطلاع لكنه سكير عرييد يسبى الى الجميع .

كان شاخوفسكوى بمثابة المدعى العام الشخصى للقيصر . يراقب كل شىء ويتحدث عن كل الامور بصراحة وفطنة وحدة . واعجب القيصر بذلك ، فصارت ملاحظاته الشخصية ومراقبته للناس ولطبيعتهم وعيوبهم ونقاط ضعفهم تحظى بتأكيدات فى اقوال وتصرفات الامير المهرج الحادة الخشنة . وقد احتفظ بطرس حتى النهاية بموقف طيب من الاميرال ابراكسين . وقبل وفاته بقليل حاول بطرس اقناعه وهو المريض بالامتناع عن السفر الى موسكو :

— لا ترحل ، والا ستهلك . . . خذ قسطا من الراحة ، وعندما يرى الطبيب انه لا خطر عليك يمكنك ان ترحل .

كان لدى بطرس كل ما تتطلبه الحياة الهائلة : اسرة تفهمه ، وزوجة تحرص عليه واطفال يحبونه وبيت فيه الراحة والدفء والحنان والاستقرار . لكنه فى هذا المجال ايضا تلقى ضربة هى الاخيرة ، وكانت قاسية جدا دون ريب : كانت زوجته و«رفيقة حياته» يكاترينا امله الاخير من حيث الثوام الروحى ومن حيث مخططات المستقبل . وكما هو شأن مينشيكوف ، غدت هذه الغسالة التى انتشلها من الحضيض انسانا هو بأمس الحاجة اليه . واثار الاشخاص الذين راقبوهما من عام لآخر الى ان مارتا سكا فرونسكايا ، يكاترينا ، صارت بسهولة وبشكل طبيعى تماما صديقة ورفيقة وزوجة لانسان فذ عظيم . وكانت تجيد التصرف كامبراطورة ، كعقيلة لامبراطور

روسيا ، وكانت تفعل ذلك ايضا بشكل طبيعى لا اثر فيه للتظاهر والتكلف والجمود . ولم تكن تنسى ماضيها ، حيث ذكرت مرارا انها كانت غسالة ثياب ولا تستحى من ذلك مثل بعض العصاميين الآخرين الذين يصعرون خلودهم للناس حالما يرتقون من الاحوال الى الجبال . لم تكن عقيلة القيصر من هذا النوع من البشر ، فهي تتصرف ببساطة وبلا تكلف . ولا تنقصها الطيبة والارحية ، فتعتمد الى انقاذ هذا او ذاك من غضبة القيصر . كانت هى الوحيدة التى تستطيع ان تهدئ بطرس وتخفف من غضبه وهياجه اللذين لا يندر ان يستوليا عليه بشدة . فهي تنفوه بكلمة طيبة وتمسده شعره وتضغط رأسه بصمت الى صدرها حتى يخف غضب القيصر ، ويتنفس الجميع الصعداء .

وبعد وفاة ولديه اصدر بطرس مرسوما حول ولاية العهد (١٧٢٢) . وبدلا من «العادة السيئة» لانتقال العرش عفويا الى الابن الاكبر استحدث نظام جديد يعين بموجبه «القيصر الحاكم» نفسه وفقا لارادته اى شخص يريده ليكون وليا للعهد . وفيما بعد يمكنه ان يغير رأيه ويعين وليا جديدا . وبعد الاستماع الى المرسوم اقسام كبار موظفى الامبراطورية الروسية بايعاز من القيصر على تنفيذ ارادته المطلقة .

فمن الذى يعينه وليا للعهد يا ترى ؟ هل يعين ابنائه ؟ لم يبق منهم سوى بنتين ، الكبرى ، آنا ، مخطوبة لدوق هولشتين ، والصغرى غير متزوجة ، ولم تبلغ الخامسة عشرة . ولذا تردد بطرس فى تسليم دفعة الدولة اليهما . اما حفيده ، ابن الكسى ، الامير الخائن والمعادى لاعمال ومطامح بطرس ، فهو يخشى ان يسير على سنة ابيه . ولم يبق هناك سوى زوجته

الحبيبة العزيزة على قلبه ، ونصيرته التي رافقته في حله وترحاله . صحيح انها ، بعد حياة مشتركة مع بطرس استمرت عشرين عاما ، لم تكتسب قدرة على تصريف شؤون الدولة . ومع ذلك فهي دوما جنبه وجنب اشياعه ، ويمكنها بعده ان تتأمر الدولة وتواصل نهجه بمساعدتهم (فمهما كانت خصالهم فهم يجيدون تصريف الامور) . ولعل الامبراطور قد فكر على هذه الصورة مرارا وتكرارا وهو يتوقع قرب نهايته . وهذا هو ما جعله يصدر في عام ١٧٢٣ بيانه الذى برر فيه لقبها كإمبراطورة وامتدحها كنصيرة له تحملت مثله مرارا متاعب الرحلات والحملات . وهذا هو ايضا سبب تنويعها فى موسكو فى احتفال رائع مهيب فى مطلع ربيع العام التالى . وحضر الاحتفال كل الوجهاء فى حلة السهرة ، حتى الامبراطور ارتدى تلك الحلة وهو نادرا ما يرتديها . فقد حضر فى قفطان ازرق مطرز بالفضة وجوارب حريرية حمراء وقبعة بيضاء . ووضع التاج على رأس يكاترينا ، وفى اليوم التالى هناها بوصفه احد الجنرالات . وتكرمت الامبراطورة يكاترينا على بيوتر تولستوى بلقب الكونت ، فقد خدم القيصر وروسيا سنين طويلة بولاء واخلاص .

وفى ذلك العام اشتد عليه المرض بسرعة . لكنه تمالك نفسه ولم يستسلم ، وظل يعمل كالسابق ، ويتعالج احيانا . وفى شباط (فبراير) سافر الى مصيف العلاج الطبيعى فى كاريليا . ورافقه يكاترينا . وبعد احتفالات التتويج فى موسكو سافر من جديد للعلاج بالمياه المعدنية التى اكتشفت قرب مصانع اوغودسكيه . وفى ٧ حزيران (يونيو) قال القيصر لزوجته الامبراطورة :

— هذه المياه والحمد لله تفعل مفعولها ، وتزيد الادرار
لا اقل من مياه اولونيتس ، لكن شهيتى ليست جيدة .
ولم يطق صبرا فجاء الى الورشة التى تصنع فيها الصفائح
الحديدية وعمل بنفسه فى صنع كمية منها . ودمغ المصنوعات
باسمه واستفسر عن اجرة العمل وحسب ما يستحقه وطالب
بان يسددوا له ما كسب . واشترى بتلك النقود جزمة وتباهى
كثيرا بها لانها من عرق الجبين .

وعاد الى العاصمة . ولم يزيله المرض . وقلل من اعماله ،
لكن طباعه دفعته الى المشاركة فى انزال فرقطة الى الماء
فى اواخر آب (اغسطس) ، ثم تجاهل نصيحة الاطباء
وتوجه الى شليسيلبورغ للمشاركة فى الاحتفالات السنوية بذكرى
تحريرها . وزار مصانع اولونيتس ، والتقط المطرقة من جديد
ومارس الحدادة . كما زار ستارايا روسا حيث يعد الاهالى
ملح الطعام ، وتفقد قناة لادوغا التى يعمل فى شقها زهاء
٢٠ الفا من الفلاحين واهالى المدن .

وعاد مريضا الى بطرسبورغ فى اواخر تشرين الاول (اكتوبر) .
وانذاك اندلع حريق جزيرة فاسيليفسكى ، فاسرع بطرس
راكبا الى هناك ، فهو يحب اطفاء الحرائق منذ الطفولة .
وفى ٥ تشرين الثانى (نوفمبر) حضر حفلة زفاف احد الخبازين
الالمان . وسرعان ما تلقى تلك الضربة المفاجئة القضيعة
التي عجلت فى مماته دون شك . والقضية مرتبطة «برقيقة
حياته» يكاثرينا . ولا احد يعرف ما حدث على وجه التحديد .
فحسب الظاهر كانت الزوجة محتشمة . وعندما عاد القيصر
الى البيت لم يجدها . فقد ارتحلت . وكتب اليها يقول :
«حالما ادخل القصر اشعر برغبة فى الفرار منه . فهو موحش

بغيايك» . وبعد ذلك تبدلت الامور بسرعة . ففي ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) اعتقل فجأة وليم مونس البالغ الثلاثين من العمر ، وهو شقيق محبوبه القيصر السابقة آنّا مونس . كان مؤتمن يكاترينا المهندم الشاب هذا يدير مكتب ضياعها . وقال بيرخهولتس الآنف الذكر مندهشا ، شأنه شأن الكثيرين ممن استغربوا لتطور الاحداث بهذه الصورة :

— لقد ادهش هذا الاعتقال الجميع بمباغتته ، لا سيما وانه كان في المساء السابق لذلك اليوم يتناول طعام العشاء في البلاط وقد تشرف بالتحدث مع الامبراطور طويلا دون ان يشعر بما يشير الى غضبته .

الا ان حجب الاسرار تتبدد . فقد سرت اشاعات واقلويل عن سلوك الامبراطورة المستهجن وعلاقاتها الغرامية مع الشاب المعتقل . ولم يستمر التحقيق مع الرجل المنحوس اسبوعا ، فقطع الجلاد عنقه بحكم المحكمة لاستلامه الرشاوى من المحتاجين الذين يراجعون الامبراطورة ، وسوء استخدام ثقتها واختلاس اموال الدولة . بهذه الصورة جاءت الصيغة الرسمية التى لم يقتنع بها كثيرون .

ولم يرد اسم يكاترينا طبعا بالارتباط بالاعتقال والتحقيق والاعدام . فان زوجة القيصر—منزومة عن الشبهات ١ وظلت محافظة على هدوئها ورباطة جأشها ، لكنها حاولت فى الحقيقة ، مثلما فعلت كثيرا فى السابق ، ان تقنع بطرس بالرفقة بالسجين . الا ان الامبراطور كان فى سورة من الغضب الاعمى فحطم مرآة جميلة وثمينة جدا وقال عبارة كبيرة الدلالة : — هذه حلية رائعة تزين قصرى ، وقد حطمتها بارادتى . فاجابت يكاترينا بتحفظ كعادتها فى مثل هذه الاحوال :

— وهل غدا قصرك بذلك افضل ؟
لكنها فهمت التلميح الشفاف الواضح ، وهي تعرف
طباع زوجها وقسوته . ولذا اذعنت ورافقته عندما امرها بالذهاب
للتفريج على رأس محسوبها المقطوع .
وانتهى الحادث عند هذا الحد . لكن العلاقات الودية
الطيبة التي كانت تعم القصر انتهت ولم يعد لها وجود .
وما كان بوسع ذلك ألا يؤثر على الامبراطور . فقد لازم الفراش
اكثر الوقت ، والمرض يعذبه . وعندما يتلاشى الالم او يخف
ينهض ويمضى لقضاء بعض الشؤون . وفي تشرين الثاني
(نوفمبر) حضر حفل قران وزفاف ابنته آنا من دوق هولشتين .
وفي ١٨ كانون الاول (ديسمبر) احتفل بعيد ميلاد ابنته الصغرى
يليزافيتا . وبعد يومين حضر مراسيم انتخاب «القيصر-الاب الروحي»
الجديد بعد وفاة بوتورلين . واهتم بامور اخرى اهم ، حيث
وضع وحرر مراسيم وتوجيهات ، بما فيها توجيه الى فيتوس
بيرينغ مدير البعثة التي توجهت الى كامتشاتكا بعد وفاة الامبراطور .
واسرع كثيرا في انجاز هذا التوجيه الذي ترتبط به خطط
جريئة تحدث عنها الى أبراكسين :

— تدهور صحتي جعلنى الازم المنزل . وقد تذكرت
قبل ايام ما كنت افكر فيه من زمان واعاقتنى عنه اشغال
اخرى ، واعنى الطريق عبر البحر المتجمد الى الصين والهند .
وفي السنوات الاخيرة اهتم بطرس الاكبر كثيرا بالعمل
مع سكرتير مكتبه ماكاروف فى وضع «تاريخ حرب الشمال» .
كان يقرأ النص ويصححه ويغير صياغاته طول الوقت . وظل
يمارس هذا العمل حتى وفاته .

وقد قضى نحبه فى آلام مبرحة فظيعة فى الثامن والعشرين

من كانون الثاني (يناير) ١٧٢٥ . وقبل ان تعاجله المنية ظل عدة ايام يصرخ من شدة الالم ، ثم خارت قواه فأخذ يئن . وظل جثمانه اربعين يوما دون ان يوارى التراب ، وكانت زوجته المفجوعة يكاترينا تبكيه وتندب عليه . ولم يتسن الوقت لبطرس الاكبر ان يعينها رسميا وريثة له (وربما لم يعد راغبا في ذلك) . وقبل الوفاة تمكن ان يخط على الورق بيد واهنة : «سلموا كل شيء . . .» — لمن ؟ لا احد يعلم
. . . يا ويلنا ! ما هذا ؟ الى اين انحدرنا ، يا ابناء روسيا ؟ ماذا نفعل ؟ اننا ندفن بطرس العظيم — هتف اثناء دفن الامبراطور احد المقربين اليه .

* * *

دفن بطرس الاكبر في ٣ آذار (مارس) ١٧٢٥ في كاتدرائية بطرس وبولص ، في بطرسبورغ ، واكتنفه تراب ارض البلطيق التي كان يحلم بها منذ الفتوة وكرس حياته كلها للنضال في سبيلها .

كلمة اخيرة

عندما يفارق الحياة رجل فذ عظيم يشعر المحيطون به بفراغ كبير جدا في بعض الاحيان ، اذ يختفى مركز الجذب الذى يتخلق حوله الجميع ويحرك الجميع . وفي آخر المطاف يتوقف تقييم الاسلاف له على عظمة شخصيته وسعة الانجازات المرتبطة بها . كانت شخصية بطرس عظيمة لدرجة جعلت غيابه يؤثر ليس فقط فى الذين التقوه بهذه المناسبة او تلك وارتبطوا به على نحو او آخر . بدهى ان الحياة تسير فى مجراها . وعلى اثر وفاة بطرس الاكبر اعلن عن تنصيب يكاترينا امبراطورة لروسيا ، فقد كان من اللازم سد فراغ السلطة بأسرع ما يمكن . واستمرت ، كما هى العادة من قديم الزمان ، المخططات والحسابات والهفوات السياسية القديمة والجديدة فى البلاط . ولاحت بوادر انقلابات القصر وتبدل الحكام وتعسف الالمان الذين تقاطروا على روسيا (فى عهد آنا ايفانوفنا وبيرن) كالزبل من كيس مثقوب ، على حد تعبير المؤرخ كلوتشفسكى . وقد خلف بطرس الاكبر حكام نعتهم بوشكين بدقة وصواب بالورثة التافهين لعملاق الشمال .

شخصية بطرس شخصية عملاقة حقا . فان انصاره

واشياعه الميتمين واقرب احفاده الذين واصلوا قضيته بنحو
او بآخر ، والساسة والمؤرخين والفلاسفة والشعراء والكتاب والصحفيين
البعيدون عن عصره يعودون دوما الى شخصية واعمال امبراطور
روسيا الاول ، وغالبا ما تقتصر فلسفة تاريخنا بالكامل على
تقييم اصلاحات بطرس» كما يقول كلوتشيفسكى .

ان عصر بطرس والتحويلات التى اجراها وقسطه الشخصى
فى بناء الدولة وتعزيز مواقعها وزيادة امجاد روسيا لا بد وان
تحظى باهتمام متواصل . فرغم كل النواقص والاختطاء
والتشويشات ، الخطيرة جدا فى بعض الاحيان ، تقدمت
روسيا فى عهد بطرس بشكل ملحوظ على طريق التطور وتقلص
تخلفها عن البلدان المتقدمة فى اوربا الغربية . وحقت روسيا
انجازات كبيرة جدا فى الصناعة — ٢٠٠ مانوفاورة جديدة
فى مختلف فروع الانتاج . وتحقق تقدم مماثل فى ما يسمى
بالتراكم الاولى الذى تسارع فيما بعد وهباً المقدمات لاسلوب
الانتاج الرأسمالى . صحيح ان تراكم الرساميل الذى جرى
فى روسيا فى ظل القنانة (التي اختفت من بريطانيا وفرنسا ،
مثلا ، قبل قرن من ذلك) كان بطيئا . ومع ذلك فان الاموال
تراكمت فى جيوب الافراد (من الصفقات التجارية والاعمال
الصناعية وهلمجرا) وفى الخزينة (من الضرائب التى ازدادت
ثلاثة امثال من عام ١٦٨٠ حتى عام ١٧٢٤ ومن سلك
النقود واحتكار الملح والخمور والتبغ وغيرها) . وجرى توظيف
تلك الاموال فى المؤسسات الانتاجية وغيرها من الاعمال .
واعتمدت الدولة مبالغ كبيرة للبناء الصناعى وقدمت القروض
لارباب العمل واصحاب المعامل . وفى الوقت ذاته انفصل
عدد متزايد من الناس عن الارض .، وعن البيئة المعتادة ،

فاصبحوا شغيلة فى المانوفاتورات . ونشأت نواة ما قبل البروليتاريا فى روسيا .

وقد شجع بطرس الاكبر التنمية الاقتصادية فى البلاد بقدر كبير ، وكان يدرك تماما ان التخلف ينطوى على عواقب وخيمة كالتبعية للبلدان المتطورة والمتقدمة ، وضياح الاستقلال الوطنى فى آخر المطاف . كانت الدولة التى رعاها وعززها دولة بيروقراطية ذات حكم مطلق لطبقة النبلاء المسيطرة والبرجوازية الوليدة . وكانت على حد تعبير لينين امبراطورية الموظفين والنبلاء ذات الجيش والاسطول القويين وجهاز الدولة والهيئات البوليسية التأديبية مما اسسه بطرس نفسه . وكانت تلك الهيئات فى رأى بطرس والنبلاء تؤدي مهماتها فى الدفاع عن الوطن وقمع احتجاجات الناس بصورة مقبولة تماما . وبالإضافة الى حل المهمات الطبقية (حماية مصالح النبلاء والتجار وتعزيز مواقعهم واخماد الانتفاضات الشعبية) طرح بطرس وجهازه ونفذا مهمات وطنية عامة . ومن هذه الناحية لا بد من احترام خدمته الشخصية «لمصلحة الدولة» و«الصالح العام» . فالتحويلات التى اجراها ، وبعضها استمرار واكمال لما بدأ قبله ، قد جعلت روسيا بلدا اقوى بكثير وأكثر تطورا وتحضرا ، وادخلتها مجتمع الدول العالمية الكبرى ، مع انها لم تستطع ان تخلصها من التخلف تماما . ولم يكن ذلك ممكنا فى ظل نظام القنائة والاقطاع الذى كان بطرس من مفكريه ومؤيديه المتحمسين . كان بطرس الاكبر ابن عصره ، وقد تلقى تربيته على ايدى كبار الاقطاعيين ، فلم يتمكن من تحقيق شىء أكثر مما حقق . لكن ما حققه خلال حياته غير الطويلة (مع ان فترة حكمه طويلة جدا)

في تطوير الاقتصاد والتشريعات وبناء الجيش والاسطول والسياسة الخارجية والفن العسكري والثقافة والمعيشة تقبلته روسيا وتبنته بامتنان وظلت تتقنه وتواصله على امتداد قرنين من الزمان تقريبا . وقد ادرج بعض من ذلك ، وهو غير قليل ، في تراثنا الوطني الى الابد ، مثل الاراضى المسترجعة وتأمين منافذ البحار والمحيطات وبناء المدن وشق القنوات ومنجزات الحضارة الصناعية والحياة الروحية والمآثر البطولية في العمل وفي سوح القتال ، واخيرا قسطه في الوعي الوطني الأشم الصادق لشعوب روسيا .

بطرس الاكبر شخصية معقدة متناقضة ، كما تؤكد القارئ الكريم ولا بد . وتلك هي سمة العصر الذي ولد فيه . فقد تلقى من ابيه وجده ومن الساسة والعاملين الذين سبقوه سجايا الطبع ونمط الافعال والنظرة الى العالم ومخططات المستقبل . لكنه في الوقت ذاته شخصية فريدة لها طابعها الخاص في كل شيء ، وهذا بالذات ما جعله يحطم التقاليد والعادات والاعراف الجامدة رغم احترامه للاجداد وخبرتهم التي انتفع منها ، وممكنه من اغناء تلك الخبرة القديمة بافكار وانجازات جديدة اصيلة خاصة به ، واقتباس ما هو ضروري ونافع من الشعوب الاخرى .

كان القيصر-الشغل والاسطة ، كما نعتوه احيانا ، في عجلة من امره على الدوام . كل ما قام به طول حياته قام به بسرعة فائقة : العاب مارس والابحار بالقوارب ، وحملنا آزوف و«البعثة الكبرى» ، والسنوات الاولى المتوترة جدا من حرب الشمال (استمرت تلك السنوات العvisية المحمومة حتى النصر في بولتافا) والاصلاحات المتعاقبة والمفاوضات

الدبلوماسية والرحلات الى الخارج وحلق اللحي واللهو الذى هو المجنون بعينه فى غالب الاحيان فى «مجمع المرح والسكر والعريضة» وتعذيب واعدام «العصاة» و«اللصوص» و«الاشرار» (هذه هى النعوت التى اطلقها هو وانصاره على الذين انتفضوا احتجاجا على ظروف العمل التى لا تطاق والضرائب الفاحشة والعنف) . وقد تجلت فى ذلك كله ، وكثير غيره ، نفسية بطرس وطبيعته بالكامل . فهو يؤدى كل الاعمال فى منتهى التوتر وكأنما يخشى ان يتخلف ويفوت شيئا هاما وضروريا . وكان معاصروه يدركون بان احدا لا يستطيع ان يضاهى بطرس من حيث مستوى معارفه وكثرة مهاراته التقنية العملية التى جمعها بفضل حبه الشديد للمعرفة وتوقه الذى لا ينضب الى الاستيعاب والفهم وبفضل الفطنة الفائقة والمواهب العبقريّة التى فطر عليها . ومنذ ان كان الامبراطور على قيد الحياة وبعد مماته كانت الألسن تتناقل والاقلام تسجل «طرائفه» (اطلقت هذه التسمية على روايات الاحداث الشهيرة ذات العبر والدروس التى جرت لبعض الناس) . وفيما بعد صدر كتاب «طرائف من حياة واعمال امبراطور روسيا بطرس الاكبر» بصياغات متعددة .

واكد شهود العيان لابناء الاجيال اللاحقة ان القيصر الروسى يتميز من جهة بالبساطة فى المعاملة والتواضع والقناعة فى الحياة المعيشية . ولم تكن المنازل والقصور التى بنيت له كبيرة الحجم ، وكانت تخلو من الابهة . فهو طبقا للذوق الروسى القديم لا يطبق السقوف العالية ، وقد اوعز ببناء سقوف اخرى اوطأ من تلك حيثما وجدت ، فكانت تبنى من الخشب او تصنع من القماش الخشن . وكان طيب

القلب بالفطرة ، فتراه يلاطف النجار والحداد والبحار ، فضلا عن الوجبة النبيه ، وكان يتقاسم معهم المأوى والمأكل ويحضر حفلات تعميد اطفالهم . ولم يكن يحب البلقوس والماراسيم ، وبذلك اثار دهشة المراقبين الاجانب ، وخصوصا ممثلى الارستقراطية . ولكن التعود على السلطة وتزلف الحاشية من جهة اخرى يوضحان (ولا يبرران طبعاً) بعض خصائص بطرس مثل الغلظة والقساوة والاستهتار والاستهانة بالكرامة البشرية والتعسف فى السياسة والحياة المعيشية . وقد ادرك واكد مرارا انه حاكم مطلق وكل ما يفعله ويقول غير خاضع لحكم البشر ، فهو مسؤول امام الله وحده عن كل شيء ، عن الصالح والطالح . وهو واثق تماما من ان كل ما يصدر عنه انما يصدر لصالح الدولة والشعب . ولكن هل ادرك بطرس ان جهوده تعود بالخير ليس على الجميع (ليس «للسالح العام») ، او ، على الاقل ، ليس على الجميع بالتساوى ؟ وعلى اية حال فان اغلبية الشعب البسيط استلمت القليل او لم تستلم شيئا ، بل فقدت الكثير (فان مئات الآلاف وقعت تحت نير القنائة ، وتعرض عدد اكبر من الناس لزيادة الضرائب والمستقطعات والتجنيد الاجبارى واعمال السخرة وهلمجرأ) . ومن ابرز سمات بطرس الاكبر كحاكم مطلق مساهمته الشخصية الهائلة فى ادارة الدولة وجهوده واعماله السياسية الخارجية والعسكرية واشراك الكثير من الرجال الموهوبين القديرين فيها من الاداريين والقادة العسكريين والدبلوماسيين ومدراء مختلف المؤسسات الانتاجية المتصلعين فى معرفة الامور . كان يبحث عنهم دون كلل ويريههم ويوجههم . بديهى ان حدة طباعه وتسلطه قد تركا اثرا فى علاقاته مع انصاره واشياعه .

ورغم ديمقراطيته وتواضعه الهزلى (عندما يتوسل الى «الامير الحاكم» رومودانوفسكى ويكتب له او للاميرال أبراكسين فى مسألة ما باسم الطبيب الحقير بطرس ميخائيلوف) فهو لا يطبق اعتراضا من احد عندما يتخذ القرار ، ويشتاظ غضبا لاتفه الاسباب . وكان يخشاه حتى انصاره واصدقاؤه ، مع انهم كانوا ، فى حالات اهدأ ، يعترضون عليه ويناقشون المسائل الهامة ويجادلونه . وتجلى ذلك فى تقلب اطواره واستحالة التكهن بتصرفه فى المآدب والولائم وحفلات الرقص . فقد كشف بطرس هنا ايضا عن تسلطه ، باشكال حادة منفلة احيانا ، حيث كان يقدم على نكات وتصرفات خشنة ومهينة . واحتفظ شهود العيان من معاصريه بالكثير من تلك النكات فى مفكراتهم ومذكراتهم .

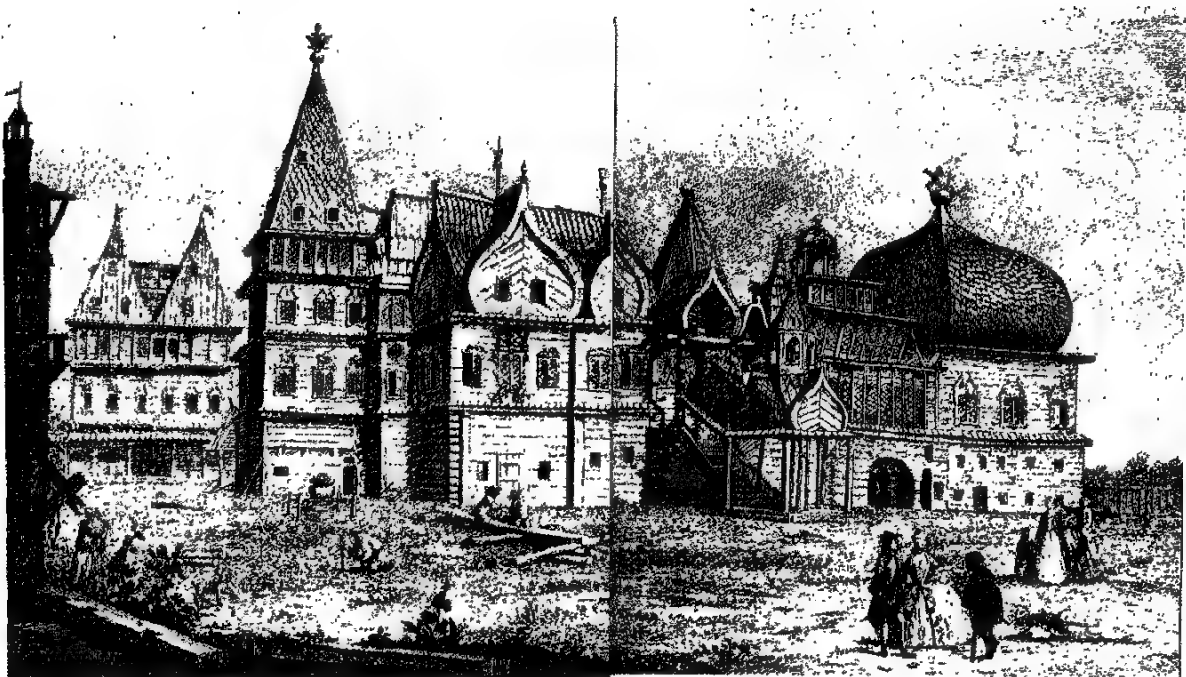
«الجميع يرتجفون امامه ويدعون له بصمت» — بهذه الكلمات تحدث بوشكين عن طبيعة بطرس القيصر والانسان . وكان بطرس واثقا من ان تصرفاته صحيحة تنفع كل الناس والدولة جمعاء . وكان واثقا بنفس القدر من ان «كل الفضائل» تصدر عن القيصر ، عنه شخصيا . ولذا فان نظرتة وارادته يجب ان تصل الى الجميع وتبلغا كل اطراف الدولة وكل قطاعات الادارة وتدركا نفوس وامانى الرعية . فبدون رعايته وتوجيهاته تتدهور كل الامور وتنقلب شر منقلب . وهذا هو السبب فى كثرة المراسيم والاياعات التى كتبها بنفسه (وهى الالهة) او التى راجعها وحررها وعدلها بعد ان كتبها مساعده . فيجب ان يرشد كل رعاياه «كالاطفال» فى كل الامور صغيرها وكبيرها ، من المهد الى اللحد . وكان يرشدهم فى كيفية جنى القمح وبناء المنازل ونصب الافران وعقد القران والزواج

ودفن الموتى وهلمجرا . وقد وضع قائمة تفصيلية لدرجات العقوبة . وكان للاصول والقواعد فى كل ميادين الحياة واشاعة البيروقراطية فى ادارتها فى عهد بطرس ، وبفضل منزلته لدرجة كبيرة ، تأثير بالغ فى واقع الحياة فى روسيا لاحقا .

بديهى ان حياة بطرس الاكبر واعماله ليست ثورة ، وهو نفسه ليس ثوريا متربعا على العرش ، كما تصور سولوفيوف فى حينه . ويجانب الصواب كذلك تلميذه كلوتشيفسكى عندما يقول ان اصلاحات بطرس هى نضال الحاكم المستبد ضد الشعب وتحجره . فقد اراد القيصر ، على حد تعبير هذا المؤرخ ، « ان يجعل العبد يعمل بوعى وحرية ويبقى عبدا مع ذلك . فالفعل المشترك للاستبداد والحرية ، للتنوير والعبودية ، هو اللغز السياسى الذى استمر حله عندنا قرنين كاملين ، من عهد بطرس ، ولم يحل حتى الآن» . لقد انعكست فى هذين الرايين المتطرفين ، فى كل منهما على طريقته الخاصة ، الحصيلة المتناقضة لنشاط بطرس وسمات عصره . فهى رغم تعقدها وتعارضها تكشف بوضوح عن نمو روسيا وتعزيزها . وحظى حاكمها بامتنان الاحفاد ، حتى الذين لا يؤيدونه فى كل شىء ، حظى بامتنانهم لجهوده العسيرة المتواصلة من اجل اعلاء مجد روسيا . وحظى كلوتشيفسكى ذلك المؤرخ القديم الذى يتحلى بالحكمة واللفظة والظرافة وپلوم بطرس احيانا (بحق وبغير حق) يصفّر له ، ياسلوبيه الخاص ، اكليلا من الغار :

— السلطة المطلقة بحد ذاتها مكروهة كمبدأ سياسى ، والشعور الوطنى لا يعترف بها اطلاقا ، لكنه يسكت على شخص

تقترن فيه هذه القوة غير العادية مع التفانى ونكران الذات ،
حيث يتقدم الحاكم المطلق بلا كلل ويتفحم من اجل الصالح
العام ويخاطر بالارتطام بعوائق منيعة ، بل وحتى بالقضية
التي نذر لها نفسه .



واجهة قصر في قرية كولومنسكويه على بعد أكثر من سبعة كيلومترات
عن موسكو . في هذا القصر ولد بطرس الأكبر . نقش للفنان غيلفريدنغ ،
عام ١٧٦٣ .



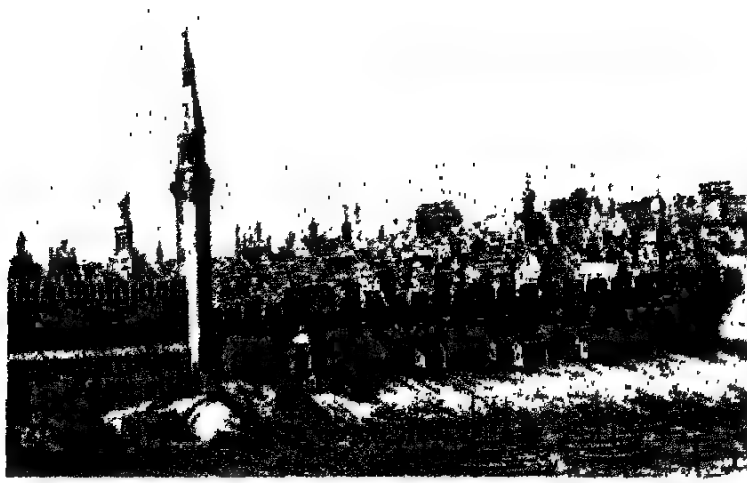
القيصر الكسى ميخائيلوفيتش . نقش اعدده فورتمان عام ١٧٣٩ عن اصل
روسى قديم لاجل الطبعة الثانية من قوانين الكسى ميخائيلوفيتش .



صوفيا الكسيفنا .
 نقش اعده افاناسيف
 عن اصل رسم
 تاراسيفيتش في
 ١٦٨٩ .
 صورتان نصفيتان
 لايوان الكسيفيتش
 واخيه بطرس نقشهما
 لاريسين على لوحة
 خشبية واحدة في
 باريس ١٦٨٥ .



. منظر موسكو
 نقش اعدۀ بیکار فی
 . ۱۷۱۵
 . صورة فينيوس



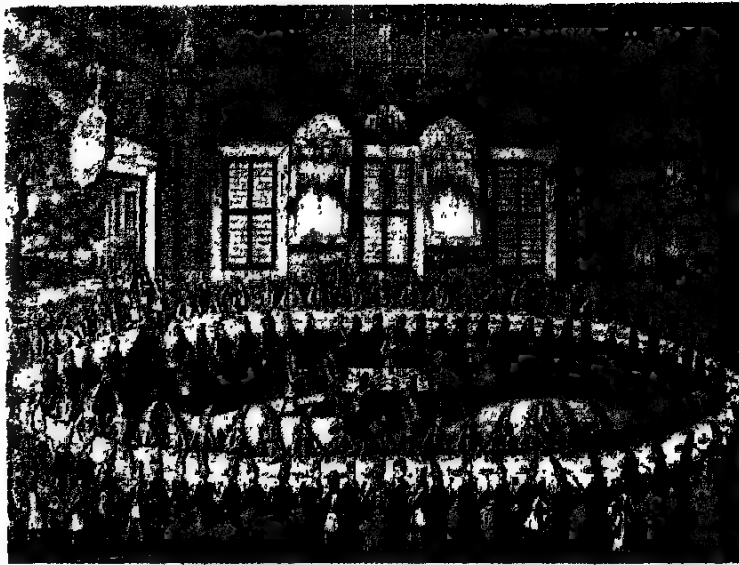
فرانتس ليفورت .
نقش عن صورة
بفرشاة ارغونوف .





*The Grand Czar of Moscovy
Drawn by the life & since his Imperial Majesty
Came into England Anno Dom. 1698. Feb. 28*

بطرس الاكبر . نقش اعده فايثون في ١٦٩٨ .



مأدبة قران بطرس
 الاكبر ويكاترينا في
 ١٧١٤ . نقش في
 نهاية العقد الثاني من
 القرن الثامن عشر .
 الكسي بتروفيتش .
 نقش .



مازیلا . نقش ۱۷۹۶ .

بطرس الأكبر على حصان . طبع هذا النقش في هولندا من قبل آلار وقدم الى بطرس الأكبر في روسيا ففقدوه حتى قدره . استخدم النقش مرتين في سلك نوبلين تكريما للنصر في معركة بولتافا ومعركة كاليش .



بطرس الاكبر في شبابه . مقطع من لوحة ، القرن الثامن عشر .



سيدة وفارس في ثياب
أوربية وفلاحان . مقطع
من لوحة ، القرن الثامن
عشر .

لوحة من القرن
الثامن عشر : «حلاق
يهمّ بحلق لحية أحد
المنشقين» .





Alexander Menschikow
Prince de Moscovie, Prince de la Couronne de Russie

مينشيكوف . نقش اعده سيموف في لندن بعد عام ١٧٠٩ .



بطرس الاكبر . خلافا لصور استعراضية كثيرة رسمت هذه الصورة بطرقة واقعية ، وتعتبر الصورة الاصلق . نقشها افاناسيف نقلا عن اصل رسمه كارافاك في ١٧١٦ .

المراجع

بالروسية

رسائل واوراق الامبراطور بطرس الاكبر . المجلدات ١ — ١٢ ،
طبعة بطرسبورغ ، ١٨٨٧ — ١٩١٢ ، وطبعة موسكو — لينينغراد ،
١٩٤٦ — ١٩٧٧ .
فوسكريسينسكى ن . تشريعات بطرس الاكبر . موسكو — لينينغراد ،
١٩٤٥ .

اوستريالوف ن . تاريخ حكم بطرس الاكبر . المجلدات ١ — ٤ ،
٦ . بطرسبورغ ، ١٨٥٩ — ١٨٦٣ .

فازلى ي . حرب الشمال . موسكو ، ١٩٥٣ .

تاريخ الاتحاد السوفيتى من اقدم العصور حتى الوقت الحاضر .
المجلد الثالث . تحول روسيا الى دولة كبرى . الحركات الشعبية فى
القرنين السابع عشر والثامن عشر . موسكو ، ١٩٦٧ .

بافلينكو ن . بطرس الاكبر . موسكو ، ١٩٧٦ .

بحوث فى تاريخ الاتحاد السوفيتى . مرحلة الاقطاع . روسيا فى
الربع الاول من القرن الثامن عشر . اصلاحات بطرس الاكبر . موسكو ،
١٩٥٤ .

بوديا بولسكايا ى . انتفاضة بولافين . ١٧٠٧ — ١٧٠٩ . موسكو ،
١٩٦٢ .

بوغانوف ف . انتفاضات موسكو فى اواخر القرن السابع عشر .
موسكو ، ١٩٦٩ .

بوغانوف ف . الحروب الفلاحية فى روسيا فى القرنين السابع عشر
والثامن عشر . موسكو ، ١٩٧٦ .

بوغوسلوفسكى م . اصلاحات بطرس الاكبر فى المقاطعات .
موسكو ، ١٩٠٢ .

بوغوسلوفسكى م . بطرس الاكبر . مواد فى سيرة حياته . المجلدات
١ — ٥ ، موسكو ، ١٩٤٠ — ١٩٤٨ .

بيسكروفنى ل . الجيش والاسطول الروسى فى القرن الثامن عشر .
دراسات . موسكو ، ١٩٥٨ .

بيكارسكى ب . العلوم والآداب فى روسيا فى عهد بطرس الاكبر .
المجلدان الاول والثانى . بطرسبورغ ، ١٨٦٢ .

روسيا فى فترة اصلاحات بطرس الاكبر . مجموعة مقالات .
موسكو ، ١٩٧٣ .

زاويزرسكايا ى . المانوفاتورة فى عهد بطرس الاكبر . موسكو —
لينينغراد ، ١٩٤٧ .

سولوفييف س . تاريخ روسيا من اقدم العصور . الكتابان السابع والثامن ، المجلدات ١٤ — ١٨ . موسكو ، ١٩٦٢ — ١٩٦٣ .

سولوفييف س . محاضرات عامة عن بطرس الاكبر . موسكو ، ١٩٨٤ .

غوليكونوف ا . اعمال بطرس الاكبر . المجلدات ١ — ١٤ ، موسكو ، ١٨٣٧ — ١٨٤١ .

غوليكونوف ن . المحاكمات السياسية في عهد بطرس الاكبر . موسكو ، ١٩٥٧ .

كلوتشيفسكي ف . بطرس الاكبر بين معاونه . مجموعة مقالات (المجموعة الثانية) . موسكو ، ١٩١٣ .

كلوتشيفسكي ف . محاضرات في التاريخ الروسى . المؤلفات ، المجلد الرابع . موسكو ، ١٩٥٨ .

مولتشانوف ن . دبلوماسية بطرس الاكبر . موسكو ، ١٩٨٤ .

ميلوكوف ب . الدولة الروسية في الربع الاول من القرن الثامن عشر واصلاحات بطرس الاكبر . موسكو ، ١٨٩٢ .

نيكيفوروف ل . السياسة الخارجية في روسيا في السنوات الاخيرة من حرب الشمال . صلح نيشنادت . موسكو ، ١٩٥٩ .

نيكيفوروف ل . العلاقات الانكلوروسية في عهد بطرس الاكبر . موسكو ، ١٩٥٠ .

بلغات اخرى

- Anderson M.S.** Peter the Great.—London, 1978.
- Bagger H.** Peter den stores reformer. En forskningsoversidt. Jysk Selskab for Historie, 1979.
- Cracraft J.** The Church Reform of Peter the Great.—Stanford univ. press, Stanford, 1971.
- Lentin A.** Russia in the Eighteenth Century. From Peter the Great to Catherine the Great (1696-1796).—London, Heinemann educational Books, 1973.
- Mediger W.** Mecklenburg, Russland und England-Hannover. 1706-1721. Ein Beitrag zur Geschichte des Nordischen Kriege.—Hildeshelm, 1967.
- Oliva L. J.** Russia in the Era of Peter the Great.—Englewood Cliffs, New Jersey, 1969.
- Peter the Great. Reformer or Revolutionary?** Edit. Raeff M.—Boston, 1963.
- Peterson C.** Peter the Great's Administrative and Judicial Reforms. Swedisch Antecedents and Process of Reception.—Stockholm, 1979.
- Pierre le Grand.** Edit. Blanc S.—Paris, 1974.
- Portal R.** Pierre le Grand.—Paris, 1961.
- Putnam P.** Peter, the revolutionary Tsar.—New York, Harper, 1973.
- Raeff M.** Comprendre l'ancien Regime Russe. Etat et Société en Russie Imperiale.—Paris, 1982.
- The Eighteenth Century in Russia.**—Oxford, 1973.

Troayt H. Pierre le Grand.—Paris, Flammarion, 1979.

Wittram R. Peter 1, Czar und Kaiser. Zur Geschichte Peters des Grossen in seiner Zeit. Bd. 1-II.—Göttingen, 1964.

محتويات

٣	توطئة
٧	الطفولة والفتوة
٣٨	«العاب مارس» وحملتا آزوف
٧٣	«البعثة الكبرى»
١١٤	انتفاضة القوات الخاصة . الاصلاحات الاولى
١٥٢	التحضير لحرب الشمال
١٨٩	بدء الحرب . نارفا : من الهزيمة الى النصر
٢٢١	من موقعة نارفا الى النصر فى معركة بولتافا
٢٧٥	من بولتافا الى هانكو
٣٢٦	نهاية حرب الشمال
٣٧٣	آخر الاعمال . وفاة بطرس الاكبر
٣٩٧	كلمة اخيرة
٤٠٦	صور
٤٢٢	المراجع

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم
وابديتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة الكتاب وموضوعه ،
وشكل عرضه ، وطباعته ، واعربتم لها عن رغباتكم .
العنوان : زويوفسكى بولفار ، ١٧
موسكو — الاتحاد السوفيتى

دار التقدّم قيد الطبع

اغنائتكمو . بحثا عن السعادة

يعطى الكتاب تصورا كاملا ، معمما ،
عن مذاهب التركيب الاجتماعى السياسى ،
التقدمية بالنسبة لعصرها ، عند الفارابى ، واخوان
الصفاء ، وابن سينا ، وابن باجه ، وابن طفيل ،
وابن رشد ، وابن خلدون . الكتاب موضوع لدائرة
واسعة من القراء ، وهو مكتوب بلغة سهلة
ومفهومة ، ومزود بحواش اديبة فنية وغنى بالصور.

دار التقدّم قيد البيع

دراسات في تاريخ الثقافة العربية (القرون
٥ - ١٥)

ألفت الكتاب مجموعة من المستعربين
في القسم اللينينغرادى لدى معهد الاستشراق
التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية . وهو سلسلة
من المقالات المكرسة لنواح مختلفة من
تاريخ الثقافة العربية في القرون الوسطى .
وهي تتحدث عن تركيب اللغة العربية ،
والمخطوطات والمكتبات العربية . وخصص
فيها مكان كبير لحياة المدينة العربية القروسطية
وايديولوجيا سكان المدن .

دار التقدّم قيد البيع

عزيز خويديريديف . الاستعمار البريطاني وتقسيم
اليمن

استنادا الى وثائق نادرة محفوظة فى
الارشيف الوطنى الهندى يستعيد المؤرخ السوفيتى
تاريخ تقسيم المستعمرين البريطانيين لليمن .
يحلل الكتاب سياسة السلطات الاستعمارية
البريطانية حيال السلاطين والقبائل والمنظمات
السياسية فى اليمن ، ويتحدث عن آلية انشاء
الادارة الاستعمارية والجيش وجهاز الدولة .
ويحتل مكانا كبيرا فى البحث تحليل اسباب
انبثاق تنظيمات سياسية تقدمية فى اليمن
هبت للنضال فى سبيل التحرر الوطنى .
استخدم الكتاب عدة وثائق تدخل التداول
العلمى لأول مرة فى الاستشراق العالمى .

حياة بطرس الأكبر

البروفيسور فيكتور بوغانوف عالم سوفيتي دكتور في التاريخ له عدد كبير من البحوث العلمية في تاريخ روسيا في عهد الاقطاع وكذلك في المراجع وتحقيق المصادر التاريخية وله أيضا مقالات وكتب كثيرة في التاريخ الروسي وضعها بأسلوب علمي سلس ونشرت في الاتحاد السوفيتي وخارجه (في إيطاليا وفرنسا وبولونيا ورومانيا وألمانيا الديمقراطية والارجنتين والمكسيك وأوروغواي والولايات المتحدة الأمريكية وغيرها)



Bibliotheca Alexandrina



0395522

دار التقدم

To: www.al-mostafa.com